المحتويات



مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وإمام المرسلين، سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فقد تيقن أعداء الدين الإسلامي أن مصدر عزة هذا الدين وأهله، وسِرَّ تجدده في نفوس المسلمين ـ القرآن العظيم؛ فأغلقوا دونه القلوب، وصدُّوا عن سبيله صدًّا، واعترضوه بالألسنة ردًّا، وأبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل، وأثاروا الكثير من الأباطيل والافتراءات ضد القرآن الكريم وعصمته؛ بَيْد أن القرآن الكريم ظلَّ هو المعجزة العظمى، والحجة البالغة أَبَد الدهر لرسول البشرية محمد ﷺ، أحكمه الله تبارك وتعالى فأتقن إحكامه، وفصَّله فأحسن تفصيله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، فلا يتطرق إلى ساحته نقد، ولا إبطال ولا اختلاف، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت).

وعلى الرغم من ذلك فإن المغرضين الذين يقرءون القرآن، أو يستمعونه يتوهمون أن بين بعض آياته اختلافًا وتناقضًا، والحقيقة أنه لا اختلاف ولا تناقض، ولبيان ذلك نقول: الاختلاف على نوعين:

١. اختلاف تناقض، وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر، وهذا ممتنع على القرآن.

٢. واختلاف تلازم: وهو ما يوافق الجانبين، كاختلاف وجوه القراءات، واختلاف مقادير السور والآيات، واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، وهو جائز في القرآن.

وبيانًا لطبيعة هذا الدستور الخالد ـ القرآن الكريم ـ ودفعًا للافتراءات والأباطيل التي تطعن في عصمته، كان هذا الجزء لتفنيد هذه الشبهات التي تتصل بكثير من القضايا والمسائل؛ أهمها:

- اتهام القرآن الكريم بالتناقض بين كثير من آياته وأحكامه.
- دعوى معارضة القرآن الكريم لكثير من الحقائق الشرعية، والتاريخية والكونية، والعلم التجريبي الحديث.
- الزعم أن القرآن يحلّ الانتقام والسَّلب والنَّهب، ويُحرِّض على القتل وسفك الدماء.
- هذا وقد تابعنا ـ في معالجتنا لهذه القضايا ـ الإمام الزركشي في مجموعة من القواعد نُجملها فيما يأتي:
- اليقين التام بأن جميع هذه المطاعن مفتراة، لا أصل لها من الصحة ولا أساس لها من الواقع، بل هي محض أوهام وأضغاث أحلام.
- الجمع بين مدلولات النصوص القرآنية والتوفيق بينها ما أمكن؛ فالخاص يقدم على العام والمطلق يُقيد بالمقيد... فإن تعذر الجمع؛ فالنسخ إن أمكن وعُلم المتقدم والمتأخر.

- اللجوء إلى الترجيح في حالة تعذُّر الجمع والنسخ. ومسلك الترجيح هو: تقديم المكي[1] على المدني[2]، وأن يكون الحكم على غالب أحوال أهل مكة، والآخر على غالب حال أهل المدينة، فيقدم الحكم بالخبر الذي فيه أحوال أهل المدينة، وأن يكون أحد الظاهرين مستقلًّا بحكمه، والآخر مقتضيًا لفظًا يزاد عليه، وترجيح ما يعلم بالخطاب ضرورة على ما يعلم منه ظاهرًا.

وقد خلصت المعالجة إلى مجموعة من الحقائق الكلية نوجزها فيما يأتي:

- أن كفار قريش، وقد جاءهم نبينا ﷺ بالإسلام وتحداهم بالقرآن كانوا حريصين أشد الحرص على الطعن في القرآن، والغمز فيه إبطالًا لرسالة الرسول ﷺ، وتشويهًا لدينه، فلو وجدوا تناقضًا بين آياته واختلافًا لتعلقوا به، وأشاعوه في الناس، قصدًا إلى الظهور عليه ﷺ وإبطال أمره، ولكنهم لم يفعلوا فدَّل ذلك على سلامته من التناقض، وبراءته من الاختلاف في ذاته.

- الجديد في لغة القرآن كما يذكر د. عبد الله دراز ـ أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف الموادّ وأمسها رَحِمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظة إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلَّا وطنه الأمين، وقراره المكين.

- كل رسالة جاءت من عند الله كانت عقيدة وشريعة ومنهاجًا للحياة، فأما العقيدة فهي واحدة في الرسالات جميعًا، لم تتغير ولم تتطور، وأما الشريعة فهي مختلفة تحدث عنها القرآن الكريم، وبيَّن خصائصها دون لبس أو غموض أو تناقض، كما أبان عن شموليتها وأصالتها، فكيف لا وهو دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال.

- احتوى القرآن من النظم والقواعد والمبادئ ما من شأنه أن ينهض بالأمة إلى ذرا الكمال في كل مجال من مجالات الحياة، ويهديها أحسن السُّبُل وأشرفها وأتمها صفاءً وسناء وكمالًا وحقًّا: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (الأنعام).

وبعد؛ فنرجو من الله العليّ القدير أن نكون قد وُفِّقنا إلى تحقيق الغاية من هذا العمل الجليل، والهدف النبيل، وهو وحده القادر والمعين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

1. المكي: هو القرآن الذي نزل بمكة.
2. المدني: هو القرآن الذي نزل بالمدينة.

المحور الأول

شبهات حول عصمة القرآن الكريم من التناقض والتعارض

الشبهة الأولى

توهم تناقض القرآن الكريم بشأن إثبات الخيرية لأمة الإسلام(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المغالطين أنَّ هناك تناقضًا بين قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣)، ويتساءلون: كيف يثبت القرآن الخيرية لأمة محمد ﷺ، ثم يقرر وسطيتها بين الأمم؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في القرآن وأنه ليس من عند الله.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأمة المحمدية خير الأمم عند الله ﷻ، وهذا ما أكده القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

٢) المقصود بـ "وسطية أمة محمد ﷺ" أنها وَسَط بين تفريط اليهود بِبَيْعِهِم الدنيا بالآخرة، وإفراط النصارى في أمور الدين بالرَّهبانيَّة التي ابتدعوها.

التفصيل:

أولا. خيريَّة الأمة المحمدية:

الأمة هي: الطليعة الرائدة، والقائمة بالدعوة بين أمة من الأمم، بمعنى أنها جيل من الأجيال له خصائصه ومميزاته، وأمة محمد ﷺ هي خير الأمم؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، فالله ﷻ يخاطب المسلمين بذلك؛ تثبيتًا لهم، وتعزيزًا لقوة إيمانهم ووحدتهم بهذا الإيمان، ودعوة إلى غيرهم ليقتدوا بهؤلاء المؤمنين.

يقول الطاهر ابن عاشور في تفسير هذه الآية: فإن قوله: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) حال من ضمير ﴿ كُنتُمْ ﴾، فهو مؤذن بتعليل كونهم خير أمة، فيترتب عليه أن ما كان فيه خيريتهم يجدر أن يفرض عليهم، إن لم يكن مفروضًا من قبل، وأن يؤكد عليهم فرضه، إن كان قد فُرِض عليهم من قبل.

وفعل "كان" يدل على وجود ما يسند إليه في زمن مضى، دون دلالة على استمرار ولا على انقطاع، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، أي: ومازال. فمعنى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ جدتم على حال الأَخْيَرية على جميع الأمم، أي حصلت لكم هذه الأخيرية بحصول أسبابها ووسائلها؛ لأنهم اتصفوا بالإيمان والدعوة للإسلام وإقامته على وجهه، والذب عن النقصان والإضاعة لتحقق أنهم لما جُعل ذلك من واجبهم، وقد قام كل بما استطاع، فقد تحقق منهم القيام به، أو قد ظهر منهم العزم على امتثاله كلما سنح سانح يقتضيه، فقد تحقق أنهم خير أمة على الإجمال فأخبر عنهم بذلك.

والمراد بـ "أمة" عموم الأمم كلها، على ما هو المعروف في إضافة أفعل التفضيل إلى النكرة أن تكون للجنس، فتفيد الاستغراق.

وقوله: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الإخراج مجاز في الإيجاد

(*) تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، تحقيق: د. أحمد عبد الرحيم السايح، المستشار توفيق علي وهبة، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

والإظهار، والمعنى: كنتم خير الأمم التي وجدت في عالم الدنيا، وفاعل ﴿أُخْرِجَتْ﴾ علوم، وهو الله تعالى موجد الأمم، والمراد بـ"الناس" جميع البشر من أول الخليقة[1].

ولم يقف أمر تفضيل أمة الإسلام على غيرها من الأمم عند حد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، "فقد تناولت الأمة الإسلامية كل ما كانت عليه الأمم التي اتصلت بها من علم وفلسفة وفنون وصنائع، فَأَحْيَت مواتها، وزادت موادَّها، وجمعت شواردها، وبنت المدارس والجامعات لها، وتنافس الخلفاء والأفراد في اقتناء كتبها، وحشروا إلى قصورهم من أَكْناف[2] الأرض جُلَّ[3] أقطابها، ونشروا خلاصة معارفهم في أقطار العالم، لا فرق بين شرقيِّها وغربيِّها، وقبلوا في معاهد طلبة العلم من جميع الأمم، غير مميزين بين مسلمها ونصرانيِّها[4].

كل هذه الصفات أعطت للأمة الإسلامية الخيرية على غيرها من الأمم السابقة عليها.

هذه الخيرية لأمة الإسلام ليست ثابتة بالقرآن الكريم فحسب، بل إن أحاديث النبي ﷺ تثبت هذه الخيرية أيضًا، ومن ذلك ما قاله ﷺ: "أُعطيت أربعًا لم يُعطهنَّ أحد من أنبياء الله: أُعطيت مفاتيح الأرض، وسُمِّيتُ أحمد، وجُعل التراب لي طهورًا، وجُعلت أُمَّتي خير الأمم"[5]. وقال ﷺ: "إنكم تُتمُّون سبعين أُمَّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله ﷻ"[6][7].

وبعد؛ فإن خيرية أمة الإسلام على غيرها من الأمم خيرية ثابتة بالكتاب والسنة، ولا مجال للتشكيك في صحة ثبوتها في حق هذه الأمة.

ثانيًا. منهج أمة محمد ﷺ وسط بين التفريط والإفراط في الدين:

إن المقصود بكلمة "وسط" في صفة أمة النبي ﷺ هو: أن الإسلام - كما دعت إليه جميع الرسالات السابقة - جاء في رسالة خاتم النبيين كاملًا بالنسبة لما سبقه من الدعوات، ومهيمنًا عليها، بما نزل به من الشريعة التامة والباقية وغير المحرفة في القرآن الكريم.

وفي هذا المعنى العام من هيمنة القرآن الكريم بكمال دعوته وشريعته وبيانه وبرهانه يقول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف: ٩)، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا﴾ (المائدة:٤٨)، وقال تعالى موجهًا الخطاب لأهل

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، مج٣، ج٤، ص٤٨: ٥٠ بتصرف.

٢. الأكناف: جمع كَنَف، وهو جانب الشيء، وظلُّه.

٣. الجُلُّ من أي شيء: معظمه.

٤. من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٩.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب ﷺ (١٣٦١)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الطهارة، باب الدليل على أن الصعيد الطيب هو التراب (٩٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٩٣٩).

٦. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٨)، والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن، باب سورة آل عمران (٣٠٠١).

٧. محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، عمر أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص١٢٧، ١٢٨ بتصرف.

الكتاب: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ (النساء: ١٧١).

ولهذا فقد ارتبط معنى "الوسط" في صفة أمة محمد ﷺ التي حملت هذا النور المبين بالقرآن الكريم في آخر رسالات الله، وهذا الوسط كمالٌ تحقَّق لأمة محمد ﷺ حين جعلها الله ـ بما أنزله إليها ـ "وسطًا" بين طرفين متباعدين من التفريط والإفراط في الدين؛ فقد تطرَّف أهل الكتاب من اليهود والنصارى في اتجاهين متناقضين، بينما جاء الإسلام وسطًا بينهما في دعوة القرآن الحكيم، وفي أسوة النبي الكريم ﷺ، وفي وعي هذه الأمة التي آمنت بالله، وعملت بما نزل إليها على رسوله ﷺ.

أما الغلو والتفريط عند اليهود، وقد تمثل ـ ولا يزال ـ في بيعهم الآخرة من أجل الدنيا، وقد ذكر الله تعالى هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ (البقرة: ٩٦).

وعن إفسادهم في الأرض يقول الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (المائدة).

وأما الإفراط في الدين من جانب النصارى، فقد تمثل ـ عند عددٍ منهم ـ في بيع الدنيا في سبيل الآخرة، وذلك بالرهبانية التي لم ينزل بها دين سماوي، وقد تتحول هذه الرهبانية إلى النقيض الداعي إلى بيع الآخرة بالدنيا ـ كما حدث في أوربا كثيرًا ـ وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٤)، ويقول تعالى أيضًا في مغالاة بعض هؤلاء وهؤلاء إلى ما هو أسوأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة).

في معنى الوسطية والخيرية المنوطة بهذه الأمة المحمدية يقول الأستاذ محمد فريد وجدي: " نأتي اليوم من هذه المُثُل العليا بقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ (البقرة: ١٤٣)، ونحن نفسر هذه الآية: فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى معنى الآية المتقدمة، وهي قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾﴾ (البقرة)، سمَّاهم "سُفهاء"[1]؛ لأنهم حقَّروا عقولهم بالتقليد، وبالإعراض عن النظر والتحقيق، فاعترضوا على المسلمين الأولين في تغيير قبلتهم إلى البيت الحرام بعد أن كانت إلى البيت المقدس، وهم في اعتراضهم هذا قد اتصفوا بالسفاهة؛ لأنهم لم يعقلوا أن توجيه الوجه إنما يكون إلى الله لا إلى المكان، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥)؛ لأنه تعالى لا ينحصر في مكان، فاعتبر الغفلة عن هذه الحقيقة سفاهة؛ فيكون معنى الآية التي نحن بسبيلها: إننا كما هديناكم في أمور دينكم ودنياكم

١. السُّفهاء: جمع سَفيه، هو من يبذِّر ماله فيما لا ينبغي، والسَّفيه: الجاهل.

إلى الصراط المستقيم، جعلناكم أمة وسطًا، أي خيارًا معتدلين، وأصل الوسط اسم للمكان الذي تتساوى جوانبه، استُعِير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، وإنما جعلناكم كذلك لِنُسْدِي[1] إليكم مهمة عالمية جليلة الشأن، هي أن تكونوا شهداء على الناس في تقصيرهم وغلوِّهم، ويكون الرسول عليكم شهيدًا.

ثم إن هذه المهمة العالمية المُخَوَّلة[2] لهذه الأمة تجعلها نَزَّاعة[3] إلى التفوق في كل فضيلة، سَبَّاقة إلى التحلِّي بكل خصلة نبيلة، وهذا يفسر ما اشتُهِر عن هذه الأمة من سعة الصدر في معاملة المخالفين، ورَحْب الذراع في حماية المستضعفين، مما كان له أثره في نشر دينها وإحياء لغتها، مما لا تستطيعه الجيوش الجرارة ولا الدعايات القائمة على أشد الوسائل الإرهابية.

ولقد كان مما أدهش المؤرخين أن تظفر أمة لم ينقضِ على تآلفها من قبائل شتى أكثر من ربع قرن، فتنقلب إلى أمة فاتحة، وتنقضَّ على أمَّتين كان لهما السلطان المطلق على الأرض، فتمحو وجود إحداهما، وتفتُّ في عَضُد الأخرى، وأوجب منه للدهشة والحَيْرة، أن تحفظ ما حصلته من الفتوحات قرونًا طويلة، وأن ترفعها عما كانت عليه من الثقافة والمعرفة درجات كثيرة"[4].

ويثري هذا المعنى أيضًا ويزيده غناءً - مبينًا آثار الوسطية - فضيلة الشيخ محمد الغزالي؛ إذ يقول: قالوا من قديم: إن الفضيلة وسط بين رذيلتين، وسواء اطَّرد هذا القول أم لم يطَّرِد، فإن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط، والناس يعانون كثيرًا من الغلو الشديد والإهمال البارد، وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة، والحب القوي للمال وطلبه من الربا ومن وجوه السُّحت الأخرى، وأن المسيحيين يرون التقوى في الرهبانية والزهد واحتقار المال، حتى قيل في كتبهم: لأن يلج الجمل في سَمِّ الخِيَاط[5] أقرب من أن يدخل الغني ملكوت السماوات!

وجاء الإسلام فرفض المسلكين، وعدَّ المال وسيلة لما بعده، وقال النبي ﷺ: "إن هذا المال خَضِرٌ حُلْو، ونِعْم صاحب المسلم هو لمن أعطي منه المسكين واليتيم وابن السبيل أو كما قال رسول الله ﷺ وإنه من يأخذه بغير حقِّه كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة"[6].

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين في تعاليم اليهود، كأن التقوى عقوبة مُرْصَدة[7] لكل ذَنْب، وكأن مرضاة الله لا تتم إلا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة، فجاء عيسى عليه السلام يتحدث عن القلوب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة إلى عفو الله، وقالوا: إنه ترك امرأة اقتِيْدَت متهمة بالإثم، وقال لليهود: من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليرجمها!

---

١. نُسْدِي: نُقَدِّم.

٢. المُخَوَّلة: المُعْطاة.

٣. نَزَّاعة: مُتطلِّعة.

٤. من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٨١ وما بعدها.

٥. سَمُّ الخِياط: ثُقْب الإبرة.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٣٩٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (٢٤٧٠)، واللفظ له.

٧. المَرْصَد: طريق الرَّصد والمراقبة.

وجاء الإسلام فرفض العبادة المقرونة بالصَّلَف[١] والاستعلاء على الناس، ويسَّر التوبة لكل عاثِر[٢]، وأمر بستره والتجاوز عنه، وأقرَّ العِقاب لمن يتبجَّح بجُرْمه ويؤذي المجتمع بالإصرار عليه، أي أنه رفض الطاعة المستكبرة، ورحم المعصية النادمة، وطلب الإصلاح المتواضع الرقيق، يقول علي بن أبي طالب: ألا أخبركم بالفقيه حق؟! الفقيه الذي لا يُقَنِّط الناس من رحمة الله، ولا يُرخِّص للمرء في معاصي الله[٣].

فالإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم، ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينًا والمنحرفة يسارًا، والوسطية فضيلة تَبْرُز في توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية؛ ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلًا، أَبَى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدة، كما أبى أن يكون موقف الرجل منها موقف السَّجَّان أو الصياد، فالبيت هو المحضن الذي تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين ومبادئه، وليس البيت سجنًا ـ كما تُفهِم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا ـ ولا ملتقى عابرًا للأبوين والأولاد ـ كما تألف ذلك أوربا، حيث الأسر شكل لا موضوع له ـ، وللمجتمع العام حظٌّ من حياة المرأة؛ فهي تتعلَّم وتعلِّم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع، وقد تشارك الجيش في بعض الخدمات الطبية، وقد تقاتل إن اقتضى الأمر الدفاع عن نفسها وأمتها، وينبغي أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية، وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه، في الوقت الذي أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافًا شائنًا في الذوبان خارج البيت، وهذا كله ضد رسالتها الأولى. ولو أننا التزمنا وسطية الإسلام لكان ذلك أرضى لله، وأسعد للأمة، وأزكى للجنسين معًا.

وأما من الناحية الاقتصادية، فقد أقرَّ الإسلام حق الملكية الفردية، بَيْد أنه كَبَحَ[٤] جِماحها بقيود الحلال والحرام، وانتقص أطرافها بحقوق الضِّعاف والمُتعَبين، وبذلك ضمن إنتاجًا غزيرًا؛ لأن الحوافز قائمة، وحفظ الجماعة من التفكك؛ لأن التواصي بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سدَّها، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة. والمفروض أن يتعلم المسلمون من نبيهم هذه الحقائق، ويَعُوها ويطبقوها، فإن الله سائلهم عن الهدايات التي بلغتهم: هل انتفعوا بها ونفعوا الناس[٥]؟

الخلاصة:

- الأمة المحمدية هي خير أمة أخرجت للناس؛ وذلك لأنها هي الأمة التي أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت بالله ﷻ، وهذا ما أكدت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، وهذه الخيرية ليست خيرية مطلقة دون قيد أو شرط، بل هي مرتبطة بشروطها السابقة ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ـ فإن تخلف شرط من هذه الشروط فقدت الأمة خيريَّتها.

---

١. الصَّلَف: قلة الخير.

٢. عَثَرَ: زَلَّ.

٣. أخرجه أبو خيثمة في كتاب العلم (١٤٣)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب من يستحق أن يسمى فقيهًا أو عالمًا (٩٥٨).

٤. كَبَحَ: جذب الدَّابة باللِّجام.

٥. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص٩٤: ٩٧ بتصرف.

• معنى الوسطية الذي وصفت به أمة الإسلام يعني: الاعتدال في كل أمور الدنيا والآخرة، فلا يوجد فيها التفريط في الدين من أجل الدنيا كما فعل اليهود، أو الإفراط فيه على حساب الدنيا كما فعل النصارى، وهذه الوسطية هي التي جعلت من أمة الإسلام رقيبًا ومهيمنًا على غيرها من الأمم، وهذا ما يبدو واضحًا في تشريعات الإسلام وتعاليمه: الاجتماعية ـ كالعلاقة بين الرجل والمرأة ـ والاقتصادية ـ كالملكية الفردية والواجبات الاجتماعية على صاحب المال ـ إلخ. فأي تناقض يتوهمون؟!

الشبهة الثانية

توهم تناقض القرآن بشأن بشارة مريم بعيسى عليهما السلام(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا (١٧) قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا (١٩) قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا (٢١) ﴾ (مريم).

وقوله عز وجل: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) ﴾ (آل عمران). ويتساءلون: كيف يذكر القرآن أقوالًا عديدة متناقضة في وصف موقف واحد؟!

ويستدلون بذلك ـ في توهمهم ـ على أن القرآن ليس من عند الله تبارك وتعالى؛ ما دام فيه هذا التناقض!

وجه إبطال الشبهة:

تعددت الأقوال في بشارة مريم بعيسى عليه السلام؛ لأن الموقف يحوي داخله مواقف متعددة، فلا يمكن أن يعبَّر عنه بجملة واحدة، وهذه المواقف المتعددة المُتضمَّنة:

• خطاب مريم ـ عليها السلام ـ مع جبريل عليه السلام وإخباره إياها بأنه سيهب لها غلامًا زكيًّا بأمر من الله عز وجل.

• الملائكة ـ بلسان جبريل عليه السلام ـ تبشِّر مريم باسم ولدها وصفاته ومعجزاته.

التفصيل:

هذه الأقوال يجمعها موقف واحد، لكنه موقف مطوَّل احتوى موقفين متتاليين:

وقد عرضت سورة مريم الموقف الأول (وفيه ظهور الملك لمريم وارتياعها منه، ثم مجمل البشارة)، ثم

(*) البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مكتبة الأمانة، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com.

عرضت سورة آل عمران الموقف الثاني (وفيه تفصيل البشارة بذكر اسم الولد وصفاته ومعجزاته)، وذلك على ما نفصِّله فيما يلي:

١. خطاب مريم لجبريل عليه السلام، وإخباره لها أن الله سيهب لها غلامًا زكيًّا:

تمثَّل جبريل عليه السلام لمريم وهي في المحراب على صورة بشرية في غاية الجمال، فخافت مريم، وقالت: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ (مريم)، أرادت أن تحتمي بالله تعالى، وسألته: أهو إنسان طيب يعرف الله ويتقيه؟ فجاء جوابه ليطمئنها بأنه يخاف الله تعالى ويتقيه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩)﴾ (مريم)، استغربت مريم العَذْراء[١] ذلك، فلم يمسَسْها بشر من قبل، ولم تتزوج، فكيف تنجب بغير زواج؟! فقالت لرسول ربها: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ (مريم)، قال الروح الأمين: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾ (مريم)، استقبل عقل مريم كلمات الروح الأمين، ألم يقل لها: إن هذا هو أمر الله؟ وكل شيء ينفذ إذا أمر الله عز وجل به، ثم أي غرابة في أن تلد بغير أن يمسَسْها بشر؟ لقد خلق الله تبارك وتعالى آدم من غير أب أو أم؛ إذ لم يكن هناك ذكر وأنثى قبل خلق آدم، وخلقت حواء من آدم، فهي من ذكر بغير أنثى، ويخلق الله عيسى ابن مريم من أنثى من غير أب، والعادة أن يكون للإنسان أب وأم، إذ المعجزة تقع عندما يأذن الله تعالى بوقوعها.

١. العَذْراء: البِكْر، وهو لقب السيدة مريم عليها السلام.

٢. الملائكة - بلسان جبريل عليه السلام - تبشِّر مريم بالمسيح، وما اخْتُصَّ به من معجزات وآيات بصورة مفصلة:

جاء جبريل عليه السلام مريم العذراء، وذكر لها الصفات التي منحها الله عز وجل هذا الغلام بصورة مفصَّلة فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾ (آل عمران)، مما زاد دهشة مريم بهذه البشارة، فكيف قبل أن تحمله في بطنها تعرف اسمه! وتعرف أنه سيكون وجيهًا عند الله وعند الناس! وأنه سيكلم الناس وهو طفل رضيع وكذا وهو شيخ كبير، بَيْد أن السؤال المطروح الآن: إذا كان الحديث في المهد معجزة وآية على براءة مريم عليها السلام، فما شأن الكلام في الكهولة وهل يعد معجزة؟!

نقول إذا كان في المهد معجزة لبراءة مريم عليها السلام، فإن الكلام في الكهولة معجزة وآية على براءة عيسى عليه السلام من الصلب المزعوم عند النصارى إن الصلب - كما يدعون - كان في الشباب، غير أن القرآن بهذا اللفظ "كهلًا" يثبت خطأ هذه العقيدة ويوضح صراحة بأن مرحلة كلام عيسى عليه السلام لم تحدث بعد؛ إذ إن عيسى رفع إلى السماء وسوف ينزل قُبَيْل الساعة حكمًا عدلًا يدعو إلى الإسلام ويحكم بشريعته وأنه سيكون من الصالحين؟! ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾[٢].

٢. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٤١٧: ٤٢٣ بتصرف. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص٤٤٩: ٤٥٢ بتصرف.

إن النظرة الفاحصة لمضمون الآيات في سورة مريم تُبيِّن أن الحديث عن البشارة بعيسى عليه السلام وصفاته التي خصه الله عز وجل بها جاء بصورة مجملة، فلم يأت من هذه الصفات إلا كونه زكيًّا، أي: مطهرًا من كل عيب، وانصبَّ بقية الحديث عن الهيئة التي جاء جبريل عليه السلام مريم فيها، واستعاذة مريم منه، ودهشتها من هذا الأمر الرباني الذي جاء به جبريل.

أما الآيات التي وردت في سورة آل عمران، فكان التركيز فيها على تفصيل الصفات التي خَصَّ بها الله عز وجل هذا الغلام الذي بُشِّرَت به مريم العذراء، فكان من صفاته أنه: كلمة من الله، المسيح، وجيه في الدنيا والآخرة، من المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلًا، ومن الصالحين، فعلى الرغم من أن الموقف واحدٌ، إلا أن المقام مختلفٌ، ولكل مقام مقال كما يقول علماء البلاغة والأدب.

قال ابن عاشور: ووصف عيسى عليه السلام ﴿ بِكَلِمَةٍ ﴾ (آل عمران: ٤٥)، مراد به: كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين، أي بدون الأسباب المعتادة، وقوله: ﴿مِنْهُ﴾ من الابتداء المجازي، أي: بدون واسطة أسباب النسل المعتادة، وقد دل على ذلك قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ (آل عمران: ٤٧)، ومعنى ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: ممسوح بدُهْن المَسْحة[1]، وهو الزيت المُعطَّر الذي أمر الله موسى أن يتخذه لِيَسْكُبَه على رأس أخيه هارون حينما جعله كاهنًا لبني إسرائيل، فصار المسيح عندهم بمعنى: الملك، والوجيه: ذو الوجاهة، وهي: التقدم على الأمثال والكرامة بين القوم، وهي وصف مشتق من الوجه، وهو أفضل أعضائه الظاهرة منه، وأجمعها لوسائل الإدراك وتصريف الأعمال.

وخَصَّ تكليمه بحالين: حال كونه في المَهْد، وحال كونه كهلًا، مع أنه يتكلم فيما بين ذلك؛ لهذين الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إياه، فأما تكليمه الناس في المهد؛ فلأنه خارق عادة، وإرهاصًا لنبوءته، وأما تكليمهم كهلًا؛ فمراد به دعوته الناس إلى الشريعة، فالتكليم مستعمل في صريحه وفي كنايته باعتبار القرينة المعينة للمعنيين، وهي ما تعلق بالفعل من المجرورين.

وعطف عليه ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٦)؛ فالمجرور ظرف مستقر في موضع الحال، والصالحون الذين صفتهم الصلاح لا تفارقهم، والصلاح: استقامة الأعمال وطهارة النفس[2].

وعلى هذا، فلا سند لمن ادَّعى أن بين آيات سورتي مريم وآل عمران تناقضًا.

الخلاصة:

العلاقة بين آيات سورة مريم وسورة آل عمران التي تتحدث عن البشارة بعيسى علاقة مُجْمَل ومُفصَّل:

- **المجمل**: ما جاء في سورة مريم عن صفات هذا الغلام الذي سيهبه الله عز وجل لمريم من دون أب، ولم يذكر من هذه الصفات إلا كونه "غلامًا زكيًّا"، أي: منزَّهًا عن كل عيب، مع الحديث عن الصفة التي جاء عليها جبريلُ عليه السلام مريمَ العذراء، واستعاذة مريم منه.
- **المفصل**: ما جاء في سورة آل عمران عن هذه

١. دُهْن المَسْحَة: هو الزيت المُعَطَّر.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٢٤٥: ٢٤٧ بتصرف.

الصفات التي خص الله ﷻ بها هذا الغلام الذي جعله آية للناس، فهو كلمة من الله، وهو المسيح، ووجيه في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلًا، ومن الصالحين، ونظرًا لاختلاف المقام فقد اختلف المقال، فلكل مقام مقال كما يقول علماء البلاغة.

الشبهة الثالثة

توهُّم تعارض القرآن بشأن أوَّل المسلمين، وأوَّل المؤمنين (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين وجود تعارض بين قوله تعالى لإبراهيم ﵇: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ (الأنعام)، وقوله ﷻ على لسان الكليم موسى ﵇: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ (الأعراف)، وقوله ﷻ على لسان السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾ (الشعراء).

ويتساءلون: كيف يُقرّ القرآن في موضعٍ أن الخليل إبراهيم هو أول من أسلم، ويثبت في موضع آخر أن موسى ﵇ هو أوّل من أسلم، ثم يُخبر في موضع ثالث أن السحرة هم أول من أسلموا؟ ويستدلون بذلك ـ في توهمهم ـ على صحة طعنهم في سلامة القرآن وعصمته من التعارض والتناقض ـ؛ ليثبتوا زعمهم بأن القرآن من صنع البشر.

وجه إبطال الشبهة:

معنى الأولية الذي تقصده الآيات التي استدل بها هؤلاء ليس واحدًا، فنجد أن:

- أولية إسلام إبراهيم كانت بأنه ﵇ هو أول من أسلم من أمته بأن الصلاة والنُّسُك والمحيا والمات لله رب العالمين.
- أولية إيمان موسى كانت بأنه ﵇ أول المصدقين بأن الله لا يمكن لأحد من خلقه أن يراه إلى يوم القيامة.
- أولية إيمان السحرة كانت بأنهم أول من آمن بآيات موسى ﵇ حين رأوها.

التفصيل:

معنى الأولية الذي تقصده الآيات:

من الطبيعي أن كل إنسان يريد أن يدعو إلى فكرة، أو يرشد إلى طريق، لا بد أوّلًا أن يكون هو نفسه مؤمنًا بهذه الفكرة مقتنعًا بها، مما يدفعه للدعوة في سبيل نشرها، والنبي أو الرسول لا بد له قبل أن يدعو إلى الإسلام أن يكون مسلمًا صادق الإسلام، مؤمنًا حق الإيمان بالله الذي يدعو إليه ويعمل على نشر دعوته، قيل: إن فاقد الشيء لا يعطيه، وقيل أيضًا: كل إناء بما فيه ينضح، فإذا كان الإناء فارغًا، فبم ينضح؟!

ومن يقرأ الآيات التي ورد فيها كلمة "أول" التي استدل بها هؤلاء، يجد أن:

١. إبراهيم أوَّل من أسلم من أمته بأن الصلاة والنسك والمحيا والمات لله:

قيل: إن المراد من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ

(*) موقع ابن مريم. www.ebnmaryam.com

﴿ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام): وأنا أول المسلمين في قومي؛ لأنه قد تقدم قوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام)، ومعلوم أنه ﷺ كان أول من أسلم بذلك من أمته باعتبار أنه نبي هذه الأمة[1].

قال ابن عاشور: وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: يعني: قبول الإسلام والثبات عليه والاغتباط به؛ لأن من أحب شيئًا أسرع إليه فجاءه أول الناس، ومن استعمال "أول" في مثل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ (البقرة: ٤١)، وليس المراد معناه الصريح؛ لقلَّة جَدْوَى الخبر بذلك، لأن كل داعٍ إلى شيء فهو أول أصحابه لا محالة[2].

٢. موسى ﷺ أوَّل المصدقين بأن الله لا يراه أحد من خلقه إلى يوم القيامة:

قال ابن عباس في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣): غُشي عليه، إلا أن روحه في جسده، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾ لعِظَم ما رأى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، تنزيهًا من أن يراه، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ رجعت عن الأمر الذي كنت عليه، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ (الأعراف)، أي: المصدقين ـ الآن ـ أنه لا يراك أحد، ومن المعلوم أنه قد كان قبل موسى ﷺ مؤمنون، ولكن موسى هو أول من آمن بأن الله لا يراه أحد من خلقه إلى يوم القيامة؛ وذلك لأنه لمس ذلك بنفسه.

٣. السحرة أول من آمن بآيات موسى ﷺ حين رأوها:

لقد كان السحرة أول من آمن بآيات موسى ﷺ، لا سيما عصاه التي صارت حيَّة بإذن الله وذلك لعلمهم أن ما يصنعون ما هو إلا خيال؛ لقوله ﷻ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ (طه)، وعندما رأوا ما فعله موسى ﷺ علموا أن هذا الذي صنعه ليس سحرًا يستطيعه بشر، وإنما هو معجزة إلهية يهبها الله لمن يشاء من عباده، فآمنوا به وبآياته بمجرد إلقائها: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ (طه).

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين آيات القرآن الكريم بشأن أوَّل المسلمين، وأول المؤمنين؛ إذ إن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته، فلا بد أن يكون النبي مؤمنًا بربه ومسلمًا له حتى يدعو إليه ويُرشِد إلى طريقه، فنجد أن:

- إبراهيم ﷺ أوَّل من أسلم من أمته، وعلم أن الصلاة والنسك والممات والمحيا لله رب العالمين.
- كان قبل موسى مؤمنون، ولكنه أوَّل من آمن من أمته بأن الله لا يراه أحد من خلقه إلى يوم القيامة؛ وذلك لأنه قد لمس ذلك بنفسه.
- السحرة أوَّل من آمن بآيات موسى ﷺ حين رأوها؛ وذلك لعلمهم أن ما يصنعون إنما هو سحر لأعين الناس، بحيث يُخَيَّل إليهم أن العصا تسعى، أما ما وقع من موسى ﷺ فهو معجزة إلاهية يهبها الله

---

١. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص١٦٥.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٥، ص٢٠٤، ٢٠٥ بتصرف.

تعالى لمن يشاء من عباده، فآمنوا به وكانوا أول من آمن بآياته.

الشبهة الرابعة

توهُّم تناقض القرآن؛ لذكره أقوالا مختلفة عن النار التي رآها موسى عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين أن هناك تناقضًا بين قول الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ (النمل)، وقوله ﷻ: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ (طه)، وقوله ﷻ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ (القصص).

ويتساءلون: كيف يذكر القرآن أقوالًا مختلفة على لسان موسى في موقف واحد؟ ويرمون من وراء ذلك إلى القول بأن القرآن ليس من عند الله، وأنه غير معصوم.

وجه إبطال الشبهة:

تعددت الأقوال التي جاءت على لسان موسى عليه السلام بشأن النار التي رآها؛ لأن:

- الموقف بداخله أحداث ومشاهد عديدة فلا يمكن أن يُعبِّر عنه بجملة واحدة.
- تكرار القصة كان تثبيتًا لقلب النبي ﷺ الذي تعرض للعديد من ألوان العذاب من قِبَل قومه.

التفصيل:

الذي ينظر في هذه الآيات - لأول وهلة - قد يلتبس عليه الأمر، ويظن - كما زعم المتوهمون - أن هناك تناقضًا بين هذه الآيات، ولكن من يُعمل فكره يتبين خطأ هذا التوهم للآتي:

الغرض من تعدد الأقوال:

١. لأن الموقف بداخله أحداث ومشاهد عديدة، فلا يمكن أن يوجز بكلمة أو جملة واحدة:

رُوي أن موسى عليه السلام استأذن شعيبًا عليه السلام في الخروج من مدين إلى مصر؛ لزيارة أمه وأخيه، وقد طالت فترة بقائه بِمَدْيَن، ورجا خفاء أمره، فأذن له، وكان عليه السلام رجلًا غيورًا، فخرج بأهله ولم يصحب رفقة لئلا تُرى امرأته، وأخذ عليه السلام على غير الطريق مخافة من ملوك الشام، فلما وافى وادي طُوَى وهو بالجانب الغربي من الطور ولد له ابن في ليلة مظلمة شاتية مُثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته، ولا ماء عنده. فبينما هو في هذا الموقف شديد الصعوبة، إذ رأى نارًا على يسار الطريق من جانب الطور، والنار بالنسبة إليه سلاح ذو حدَّين؛ فبها يعرف حال الطريق، ويأتي لأهله بما به يَصْطَلون، ولذلك قال: آنست[1]، وهي من الأنس؛ ليدل ذلك على مدى أُنسه وسعادته بهذا الأمر.

ومن البديهي أن تتعدد الكلمات والأقوال في هذا الموقف؛ وذلك لاحتوائه على مواقف متعددة،

(*) دليل الحقائق الرافضة .www.dhr٢٢ .com

١. آنست: أبصرت ورأيت.

ففي بداية الأمر عندما أبصر النار لأول وهلة - قال لأهله - كردِّ فعل لما رآها: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ (النمل) قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ على سبيل اليقين، الظاهر من الآية أن سيدنا موسى عليه السلام يخبر أهله، وأنهم لم يروا هذه النار وذلك يدل على أنها نار غير مادية من صنع البشر، فلو كانت كذلك لاستوى الأهل معه في الرؤية، فكأن هذه حالة أو معجزة خاصة به، وقوله هذا قول الراجي الذي قوي رجاؤه.

قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق؛ لأنهم قد ضلُّوه، أو آتيكم بشعلة نار مقبوسة لعلكم تدفئون من شدة البرد، ومن الطبيعي في هذا الموقف الرهيب أنَّ أهله لن يتركوه ليذهب بسهولة، أو كأنهم أرادوا أن يذهبوا معه، فلذلك قال لهم: امكثوا مكانكم؛ لئلا يتبعوه فيما عزم عليه من الذهاب إلى النار.

لكنه راجع نفسه بعد ذلك، وتوقع أنه ربما ذهب إلى النار فوجدها انطفأت، فقال على سبيل الرجاء: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ (طه: ١٠)، ولم يقل كما قال في أول الموقف: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ (النمل: ٧)، أي: نار مقبوسة تكون على رأس عود، وهي أقل اشتعالًا، و﴿هُدٗى﴾: هاديًا يدلني على الطريق.

ثم بعد ذلك نرى أنه قد قلَّ رجاؤه؛ حيث قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ (القصص: ٢٩)، عن حال الطريق، ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ (القصص: ٢٩)، والجَذْوة: هي القطعة الغليظة من الحَطَب، وهنا نلحظ أنه اعتقد أنه سيجد اللهب قد انتهى، فلذلك يأتي بجذوة أو جمرة من النار[1].

٢. فائدة التكرار في قصة موسى عليه السلام مع النار:

بالإضافة إلى ما سبق، فإن لتكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم عامة فائدة عظيمة، وليست مجرد تكرار لأحداث التاريخ كما يدعي هؤلاء، وتظهر هذه الفائدة والعبرة في قوله عز وجل: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠)، فتكرار القصة كان لتثبيت قلب النبي ﷺ على الحق؛ لأنه ﷺ تعرَّض في رحلة الدعوة لكثير من المصاعب والمشاق، فيأتي له ربُّه بلقطة معينة من قصة موسى عليه السلام مع قومه ولا يأتي بها كاملة، وهذا ليس عجزًا - وحاشا لله - عن إيراد القصة كاملة مرة واحدة، فقد أورد الله عز وجل قصة يوسف عليه السلام كاملة في سورة واحدة[2].

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين الآيات التي تتحدث عن موقف موسى عليه السلام من النار، فقد تعددت الكلمات والأقوال؛ لأن الموقف بداخله مشاهد عديدة، لا يمكن أن تُوجز بكلمة أو جملة واحدة، فعندما رأى النار لأول وَهْلة قال لأهله على سبيل اليقين: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ (النمل: ٧)، عن حال الطريق؛ لكونهم تائهين، لا يعرفون أين يذهبون؟ فهذا هو الخبر الذي يسألون عنه، وكان الجو باردًا يستلزم البحث عن شعلة أو جَذْوة من النار يستدفئون بها، فغاية موسى وأهله في

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢٦٥: ٢٦٧ بتصرف.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ج١٧، ص٧٣٨ بتصرف.

تلك اللحظة شيء يهديهم الطريق ويعرفهم أين هم، وشيء يدفئهم من البرد، فجاءهم الله بهذين الأمرين معًا، برؤية هذه النار، ثم بعد ذلك يقلُّ رجاء موسى عليه السلام فيتوقع أن النار ربما ذهب إليها فوجدها انطفأت، فلذلك قال﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ (طه: ١٠)، على سبيل الرجاء، ثم بعد ذلك يقل رجاؤه أكثر فقال: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾ (القصص: ٢٩)، فهو هنا قد توقع أنه سيجد اللهب قد انتهى، فلذلك يأتي بجذوة أو جمرة من النار.

الشبهة الخامسة

توهم تعارض القرآن بشأن تقييد التذكرة وإطلاقها (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغرضين أن هناك تعارضًا بين بعض آيات القرآن الكريم؛ حيث يُفهم من بعضها أن تذكير الناس لا يُطلب إلا عند مَظنَّة نفعه، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾ (الأعلى)، بينما تفيد آيات أخرى وجوب التذكير مطلقًا، سواء نفع أم لم ينفع، مثل قوله ﷻ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ (الغاشية). ويتساءلون: كيف يُقيِّد القرآن التذكير بشرط النفع في موضع، ثم يأتي في موضع آخر بإطلاقه من غير شروط؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

وجه إبطال الشبهة:

للعلماء في التوفيق بين الآيتين أقوال:

- الآية في سورة الغاشية مُطْلَقة، قيَّدتها آية سورة الأعلى، والمطلق[1] يُحمل على المُقيَّد[2].
- وجوب التذكير مطلقًا في حالة النفع وعدمه، وفي آية "الأعلى" حذف، والتقدير: إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع.
- تأويل "إن" بـ "ما" المصدرية الحينية، والمعنى: فذكِّر ما نفعت الذكرى.
- التذكير مراحل، فهو لازم ابتداءً، لكن الاستمرار فيه ـ بعدُ ـ منوط بظنِّ الفائدة والنفع به.
- تأويل "إن" بـ "إذ"، والمعنى: وذكر إذ نفعت الذكرى، على التعليل.
- "إن نفعت" صيغة شرط أريد بها ذم الكفار.

التفصيل:

أقوال العلماء في التوفيق بين الآيتين:

١. التذكير مقيد بِمَظنَّة النفع، كما تقيده آية الأعلى، والآيات الآمرة بالتذكير مطلقًا ـ كآية الغاشية ـ تُحمل على المقيدة، وإلى هذا ذهب ابن كثير الذي قال: ذكِّر حيث تنفع التَّذْكرة، ومن هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يُوضع عند غير أهله، كما قال علي رضي الله عنه: ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم[3].

١. المُطْلَق: هو ما دلَّ على فرد غير مُقيَّد لفظًا بأي قَيْد؛ مثل: مصري.

٢. المُقيَّد: هو ما دلَّ على فرد مُقيَّد لفظًا بأي قيد؛ مثل: مصري مسلم.

٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج٤، ص٥٠٠.

٢. التذكير واجب نفع أو لم ينفع، وفي الكلام حذف، أي: إن نفعت الذكرى، وإن لم تنفع كقوله ﷻ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ (النحل: ٨١)[١]، أي: والبَرْد[٢].

هذا قول الفرَّاء والنَّحَّاس، ووافقهما الواحدي الذي قال: إن نفعت أو لم تنفع[٣]؛ لأن النبي ﷺ بُعث مُبلِّغًا للإعذار والإنذار؛ فعليه التذكير في كل حال نفع أو لم ينفع.

وقال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع؛ فالمعنى: إن نفعت الذكرى أو لم تنفع. وقد قوَّاه الشوكاني وذكر أنه أولى.

٣. "إن" بمعنى "ما"، أي: فذكر ما نفعت الذكرى؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال.

٤. هناك من يرى أن التذكير مرحلتان:

المرحلة الأولى: تكرير التذكير ـ وإن لم ينفع ـ تكريرًا يؤدِّي به المذكِّر واجبه في التذكير، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (الشورى: ٤٨)، وتقوم به حُجَّة[٤] الله على خَلْقه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥).

المرحلة الثانية: استمرار التذكير عند ظن الفائدة منه، ورجاء النفع لمن يُوجَّه إليه التذكير، وهو ما تتحدث عنه الآية الكريمة: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ (الأعلى).

أما إذا عُلم عدم الفائدة من التذكير، فلا داعي للاستمرار فيه؛ لأن الاستمرار فيما لا فائدة فيه عبث.

وهل هناك قرائن يُعلم منها عدم إفادة التذكير[٥]؟

ويعلم عدم إفادة التذكير بأمور منها:

- إعلام الله تعالى بذلك، كما وقع في شأن أبي لهب، قال ﷻ فيه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ (المسد)، فأبو لهب وامرأته لا تنفع فيهما الذكرى؛ لأن القرآن نزل بأنهما من أهل النار، بعد تكرار التذكير لهما تكرارًا تقوم عليهما به الحجة؛ فلا يلزم النبي ﷺ بعد علمه بذلك أن يذكرهما بشيء، كما قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ (الأعلى).
- قَرِينة[٦] الحال، مثل: رَفْض الإيمان والإعراض عن اتباع الرسول عِنادًا ولَجَاجًا[٧] بعد العلم بحقيقة

---

١. السَّرابيل: ما يُلْبَس من ثِياب أو دروع.

٢. فإن قيل: لِمَ ذَكَر الحر ولم يذكر البرد، فالجواب من وجوه:

الأول: المخاطبون بهذا الكلام هم العرب، وبلادهم حارة، فكانت حاجتهم إلى ما يدفع الحر فوق حاجتهم إلى ما يدفع البرد.

الثاني: إنّ ذكر أحد الضِّدَّين تنبيه على الآخر، فإن الإنسان إذا خطر بباله الحر خطر بباله أيضًا البرد.

الثالث: ما وقى من الحر وقى من البرد، فكان ذكر أحدهما مغنيًا عن ذكر الآخر.

وعلى هذا الجواب يكون الجواب على قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ (الأعلى).

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢٠، ص٢٠.

٤. الحُجَّة: البرهان والدليل، وتأتي بمعنى الدعوى.

٥. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٥٠: ٥٣.

٦. القَرِينة: أمر يشير إلى المطلوب؛ كقرينة كذب إخوة يوسف في الدم الذي على قميصه.

٧. اللَّجاج: الخصومة والنِّزاع، ولَجَّ في الأمر: أبى أن ينصرف عنه.

الإسلام وصدق رسوله، فهنا لا يجب تكرير الذكرى لمن يُصِرُّ على الكفر والعناد، بعد أن كُرِّرت له تكرارًا لزمته به الحجة.

٥. "إن" بمعنى "إذ"، هو مذهب الكوفيين وجعلوا منه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾ (المائدة)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ (آل عمران).

٦. جملة: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ (الأعلى) جملة شرط، أُريد بها ذم الكفار واستبعاد تذكيرهم كما قال الشاعر:

لَقَد أَسْمَعْتَ لَو نادَيْتَ حَيًّا

وَلَكِن لَا حَيَاةَ لِمَن تُنَادِي[1]

الخلاصة:

تعددت تأويلات العلماء لمعنى التذكير في قوله ﷻ: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ (الأعلى) وقوله ﷻ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ (الغاشية) فمنهم من قال: إن معنى التذكير عام، نفع أو لم ينفع، ومنهم من قال: إنه مقيد بالنفع... إلخ، ومن المعلوم أن التبليغ إعذار للناس؛ لإقامة الحجة عليهم، والظاهر أنه واجب على كل حال ـ ولو في البداية ـ فإن بدت قرائن يُعلم منها عدم إفادة التذكرة ـ كإخبار القرآن، أو دلالة الحال، أو رفض الإيمان وتكذيب الرسول ﷺ ـ انتفى وجوب التذكير في حقهم، ومن هؤلاء: أبو لهب، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة.

١. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٦٣: ٢٦٦ بتصرف.

الشبهة السادسة

توهم تناقض القرآن بشأن توجيه الأمثال للناس(*) ®

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين وجود تناقض بين قول الله ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ (٤٣) ﴾ (العنكبوت)، وقوله ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ (الحشر)، ويتساءلون: كيف يذكر القرآن الأمثال في الموضع الأول للعلماء من الناس فقط، ثم يشير في الموضع الآخر إلى أنه يضرب الأمثال للناس جميعًا؟! ويهدفون من رواء ذلك إلى القول بوجود تناقض في القرآن؛ ليثبتوا زعمهم أن القرآن من صنع البشر، ما دام فيه مثل هذا التناقض.

وجها إبطال الشبهة:

١) ضَرَبَ الله ﷻ الأمثال للناس كافة، لكن سبق في علمه ﷻ أنه لا يعقل تلك الأمثال إلا فئة بعينها.

٢) الغاية من ضرب ﷻ الأمثال للناس في الآيتين هي:

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.com

® في "الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن بالمخلوقات الهيِّنة" طالع: الشبهة الثالثة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

- إما أن تكون دعوة للتفكير والتدبر.
- وإما أن تكون توبيخًا لهم على عدم خشوعهم.

التفصيل:

أولا. الأصل في ضرب الأمثال أن تكون للناس كافة؛ لكن سبق في علم الله الأزلي أنه لا يعقل تلك الأمثال إلا العلماء الفقهاء دون غيرهم:

الله ﷻ يضرب الأمثال للناس جميعًا في الأصل، ومن المعلوم أن هناك من يعقل تلك الآيات، وهناك من لا يعقلها من مرضى القلوب والعقول، وسابق في علم الله الأزلي أنه لن يعقل تلك الآيات إلا فئة بعينها ألا وهم العالمون، أي: الذين يعلمون الحق من الباطل، الذين يريدون الهداية لا الضلال، الذين يعتبرون بمن قبلهم، أما الجبابرة الطواغيت والحكام المتألهون، فهؤلاء قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، أمثال: فرعون وهامان وأبو جهل... وغيرهم ممن طغى في الأرض وعاث فيها فسادًا، تنزل آيات الله عليهم ويسمعونها، ثم يكذبونها ويتبرأون منها؛ خوفًا على مصالحهم، ومكابرة على رسلهم، فهؤلاء قلوبهم مطموس عليها بظلمهم فلا يعقلون ولا يؤمنون[1].

ثانيًا. الغاية من ضرب الأمثال في الآيتين:

١. الدعوة إلى التفكُّر والتدبُّر:

الله تبارك وتعالى يضرب الأمثال للناس جميعًا؛ لعلهم يسمعونها ويعقلونها، فيؤمنون به تعالى، ويدخلون في حزبه، ومن تلك الأمثال: ما ضربه للذين عبدوا من دونه أولياء، فهم لا ينفعونهم لهوانهم وضعفهم؛ مثل بيت العنكبوت قال ﷻ: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (العنكبوت)، فإنه لا يستر ولا ينفع، ولا يدفع حَرًّا ولا قُرًّا، كذا كل معبود دونه ﷻ، أي أن الكافر عارٍ عن ستر الله يخرج إليه عاريًا، فلا يُكسى، وتبدو قبائحه على رؤوس الأشهاد.

وفي الحكمة من ضرب هذا المثل يقول الأستاذ موسى الإبراهيم: "فهذا مثل عظيم يمثل الله تعالى به حال أولئك الناس الذين اتخذوا من دون الله أولياء يبتغون عندهم العزة والنصرة والقوة والمال والحماية، يصور الله ﷻ حالهم ـ تحقيرًا وتبكيتًا لهم ـ بحال ذلك الحيوان الضعيف العنكبوت التي اتخذت بيتًا، وظنت أنها التجأت إلى حصن حصين وبدأت تتحرك داخله ذهابًا وإيابًا، ولعلها تزهو بسرعة بنائه: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (العنكبوت)، إن هؤلاء الناس لن يجدوا عند أوليائهم من البشر الضعاف المهازيل من الحماية والنصرة إلا بمقدار حماية بيت العنكبوت لذلك الحيوان الضعيف"[2].

٢. توبيخ الناس على عدم إيمانهم:

الله ﷻ يضرب المثل بأشد الأشياء صلابة وقِلَّة في التأثر بما يقرعه، وهو الجبل، فقال: لو كان المخاطب بالقرآن جبلًا، وكان الجبل يفهم الخطاب، لتأثر بخطاب القرآن تأثرًا ناشئًا عن خشية الله تعالى، تثيرها فيه معاني القرآن،

---

١. الدر المنثور، السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ج٤، ص١٢١. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص٤٢٩.

٢. بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، الأردن، ط٢، ١٩٩٦م، ص١٩١.

وضرب الله التصدع مثلًا لشدة الانفعال والتأثر؛ لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدع؛ إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة، فالله تبارك وتعالى يريد من تلك الأمثال أن يتفكر الناس فيها، فإن لم يتفكروا فيها فقد سجل عليهم عنادهم ومكابرتهم، ويكون بذلك قلب المعاند أشد قسوة من الجبل.

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين المواضع التي بين أيدينا وذلك للآتي:

- ضرب الله ﷻ الأمثال للناس كافَّة، ولكن الذين فهموا مقصود الله منها قليلون، وهم العلماء دون غيرهم من عامة الناس.
- الغاية التي قصدها الله ﷻ من ضرب الأمثال في الآيتين هي: دعوة الناس إلى التفكُّر والتدبُّر في ملكوت الله ﷻ، أو توبيخ الناس على عدم خشوعهم لذكر الله تعالى.

الشبهة السابعة

توهم تناقض القرآن بشأن نفي الأمر بالفحشاء والأمر بها (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأعراف)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ (الإسراء: ١٦)، ويتساءلون: كيف ينفي الله عن نفسه الأمر بالفحشاء في الآية الأولى، ثم يصرِّح بذلك في الآية الأخرى؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله تبارك وتعالى لا يأمر بالفاحشة ولا يرضى بها.

٢) نوع الأمر في قوله ﷻ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ إما أن يكون:

- أمرًا شرعيًّا، فيكون المعنى: أن الله أمرهم بالطاعة والخير، ففسقوا.
- أمرًا كونيًّا، فيكون المعنى: أن الله قدَّر عليهم أن يفسقوا لَمَّا علم أنهم سيضِلُّون ويطغَون.

٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى كلمة "الأمر" في قوله ﷻ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾إما:

- أن تكون بمعنى "كثر"، أي: كثَّرنا مترفيها ليطيعوا ففسقوا.
- أو تكون بمعنى "جعلناهم أمراء" على قراءة (أمَّرنا مُترفيها) ـ بتشديد الميم.

التفصيل:

أولا. الله ﷻ لا يأمر بالفاحشة ولا يرضى بها:

قيل في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ

(*) البيان في دفع التعارض بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

﴿... بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف)، إن المشركين في الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عُراة، الرجال منهم والنساء، فإذا قيل لهم: لِمَ تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، حتى جاء الإسلام وردَّ عليهم قولهم، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، قال قتادة في الآية: "والله، ما أُكره الله عبدًا قط على معصيته، ولا رضيها له ولا أمر بها، ولكن رضي لكم بطاعته، ونهاكم عن معصيته"[1].

ثانيًا. نوع الأمر في قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمرًا شرعيًّا أو كونيًّا:

إن الأمر يطلق في الشرع ويُراد به الأمر الشرعي، أو الأمر الكوني، والفرق بينهما، أن الأمر الشرعي لا يكون إلا فيما يحبه سبحانه، لكنه لا يلزم أن يتحقق، فالله تعالى يأمر بتطبيق شرعه، وهو يحب ذلك، لكن الكثير من الدول لم تفعل، والأمر الكوني يكون فيما يحب وما لا يحب، ولكنه لازم الوقوع لحكمة إلهية عليا؛ فالشيطان مخلوق بأمر الله، لكن الله تعالى لا يحبه.

- **فإن كان أمرًا شرعيًّا يكون المعنى**: أن الله تعالى أمرهم بطاعته وتوحيده وتصديق رسله واتباعهم بما جاءوا به، ففسقوا وخرجوا عن طاعة الله وعصوه وكذبوا رسله، فوجب عليهم الوعيد وحق عليهم العقاب، وهذا كأن نقول: أمرت فلانًا فعصاني، ومنه قول القائل:

أَمَـرْتُهُم أَمْـرِي بِمُنْعَـرِجِ اللِّـوَا
فَلَمْ يَسْتَبِيْنُوا الـرأيَ إلا ضـحى الغَـدِ

وهذا القول هو الذي يتناسب وما قبل هذه الآية، وهو قوله ﷻ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء)، وهو الذي يناسب ما بعدها كذلك وهو قوله ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ (الإسراء)، ومن الآيات الدالة على هذا القول قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (سبأ)، فاللفظ هنا عام في جميع المترفين من جميع القرى، أن الرسل أمرتهم بطاعة الله، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (سبأ)، وتبجحوا بأموالهم وأولادهم.

وبالتالي يكون الأمر في الآية ضد النهي، ويكون متعلق الأمر محذوفًا لظهوره وللعلم به، والمعنى: أمرنا مترفيها بالطاعة ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. وقد حكاه ابن جرير عن ابن عباس وقاله سعيد بن جبير أيضًا[2].

- **وإن كان أمرًا كونيًّا يكون المعنى ـ على ما ذهب إليه بعض العلماء ـ**: الأمر في قوله ﷻ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمر قَدَري كوني، والأمر القدري كقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس)، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ (يونس: ٢٤)، كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ (القمر)، وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ (البقرة)،

---

1. الدر المنثور، السيوطي، مرجع سابق، ج٣، ص٤٣٦، ٤٣٧.
2. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ج٣، ص٤٤١.

وعلى ذلك فإن المراد هنا: قدرنا عليهم الفسق، وسخرناهم لفعل الفواحش؛ لأن كُلًّا مُيسَّر لما خُلق له، بمعنى: أنه سبق في علم الله تبارك وتعالى أن هؤلاء المترفين - وإن هداهم الله السبيلين الخير والشر - سوف يميلون بإرادتهم نحو سلوك طريق الفسق[1].

وبهذا البيان اتضح لنا نفي التناقض بين الآيتين؛ حيث إن الأمر في هذا الموضع أمر قدري كوني، والأمر في آية الأعراف أمر شرعي ديني.

ثالثًا. اختلاف المفسرين حول معنى كلمة "الأمر" في قوله ﷻ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾:

اختلفت تفسيرات العلماء لمعنى كلمة "الأمر" في هذه الآية، ومن بين هذه التفسيرات:

١. أمرنا مترفيها أي: كثَّرنا مترفيها؛ ليطيعوا، ففسقوا ولذلك قال بعده ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ (الإسراء: ١٧)، وكل ذلك ترغيب في الطاعة، وترهيب من خلافها[2].

ومما يدل على أن "أَمَرَ" في اللغة تأتي بمعنى: كَثُرَ وظهر، ما جاء عن عبد الله بن مسعود أنه قال: "كنا نقول للحيِّ إذا كثروا في الجاهلية: أَمِر بنو فلان"[3]. ومنه حديث أبي سفيان الطويل مع هِرَقل، وفيه قال أبو سفيان: "لقد أَمِرَ أَمْر ابن أبي كبشة؛ إنه يخافه مَلِك بني الأصفر"[4][5].

٢. أمَّرنا مترفيها - بتشديد الميم وليس بالتخفيف - بمعنى: جعلناهم أُمراء، فضلوا وأضلوا قومهم، قال ابن جرير: يحتمل أن يكون معناه: جعلناهم أمراء. قلت: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ (أمَّرْنا مترفيها)، قال علي بن طلحة: عن ابن عباس قوله: (أمَّرنا مترفيها ففسقوا فيها) يقول: سلَّطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (الأنعام)، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والربيع بن أنس[6].

وبهذا البيان بطل ادعاء تناقض القرآن بشأن الأمر بالفحشاء، والنهي عنها.

الخلاصة:

- إن الله لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى بها، وقد كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: وجدنا عليها آباءنا وأمرنا الله بها، فبيَّن الله لهم أنه لا يحب الفاحشة ولا يأمر بها.

---

١. المرجع السابق، ص٤٤١.

٢. انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مرجع سابق، ص١٠٧، ١٠٨. الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجمع البحوث الإسلامية، دار السعادة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٦٠: ٦٢. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص٢٥٢، ٢٥٣.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الإسراء (٤٤٣٤).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة (٢٧٨٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٥. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١١٨، ١١٩.

٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن المشهور بـ "تفسير الطبري"، محمد بن جرير الطبري، عند تفسير الآية.

- نوع الأمر في قول الله عز وجل: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قد يكون:

  - شرعيًّا: فيكون المعنى: أن الله أمرهم بالطاعة واتباع رسله، فأبوا وعصوا وفسقوا فحق عليهم العذاب، ومتعلق الأمر هنا محذوف للعلم به، فالله عز وجل لا يأمر إلا بطاعة.

  - كونيًّا: فيكون المعنى: أن الله عز وجل لما علم أزلًا أن مترفيها سيضلون، قدَّر عليهم الفسق، ففسقوا فحق عليهم العذاب.

- ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى "الأمر" قد يكون: كثَّرنا مترفيها، فكلمة "أمر" تستخدم بمعنى: كثر وعظم، أو: أمَّرنا ـ بتشديد الراء ـ أي: جعلناهم أمراء فضلوا وأضلوا قومهم ومن ثم فلا تعارض بين الآيتين.

الشبهة الثامنة

توهم تناقض القرآن في إيراده كلام الله عز وجل لموسى عليه السلام عند الشجرة (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أنَّ هناك تناقضًا بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٠)﴾ (القصص)، وقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨) يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩)﴾ (النمل)، وقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣) إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ (١٤)﴾ (طه).

ويتساءلون: كيف يذكر القرآن أقوالا مختلفةً ومتعددةً في موقفٍ واحدٍ؟ ويهدفون من وراء ذلك إلى القول بأن القرآن ليس من عند الله.

وجه إبطال الشبهة:

تعددت الأقوال؛ لأن الموقف بداخله مشاهد عديدة، فلا يمكن أن يُروى أو يُعبَّر عنه في قولٍ واحد وهذه المشاهد كالتالي:

- الله عز وجل يطمئن موسى، ويخبره بأن المتكلم هو الله رب العالمين.
- الله تعالى يُؤَهِّل موسى عليه السلام لتلقِّي خبر عظيم.
- إخبار الله عز وجل لموسى بنبوَّته، وتكليفه بالعبادة والصلاة.

التفصيل:

تعدد السياق في القرآن الكريم يكون لتعدد المقام:

عندما أتى موسى عليه السلام النار تحدث إليه ربه تعالى بعدة سياقات مختلفة؛ ذلك لتعدد المقام الذي تركز عليه كل آية من الآيات التي تحدثت عن هذا الموقف، وذلك كالتالي:

١. الله عز وجل يطمئن موسى عليه السلام بأن المتكلم هو الله:

قال المفسرون: إن موسى عليه السلام لما أتى إلى النار وجد

(*) موقع دليل الحقائق الرافضة. www.dhi٢٢.com

نورًا يتلألأ في شجرة، وهذا النور لا تُؤثر عليه خضرة الشجرة فتبهته، ولا النور يطغى على خضرة الشجرة فيضعفها... فشعر بالخوف وهاله منظر النور الذي رآه، فأراد الله ﷻ أن يطمئنه فناداه باسمه ثمَّ عرَّفه أن محدثه هو الله ﷻ، وحينما سمع موسى عليه السلام لم يتعجب مما رأى من النور والخضرة، ولم يتعجب من سماع الكلام دون أن يرى من يكلمه؛ لأن هذا الشيء من عند الله تعالى؛ فلا يقاس بأحداث البشر، فاطمأن على أنه في حضرة ربه ﷻ، وهذا ما كان في سورة القصص.

٢. الله ﷻ يؤهِّل موسى عليه السلام لتلقِّي خبر عظيم:

في قوله: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ (النمل: ٨)، هنا يبارك الله ﷻ المكان الذي فيه النار، فيبارك مَن فيه، ومن حوله من الملائكة وموسى أيضًا؛ لأنه ممن حولها، وبعد ذلك ينزِّه الله نفسه عن الشريك وعن كل شيء لا يليق به سبحانه رب العالمين، ويُخبر موسى أنه ﷻ هو صاحب العزة جميعًا، وهو أحكم الحاكمين. وبهذا كله يُهيء موسى عليه السلام ويُؤهله روحانيًّا وعقائديًّا لتلقي أمر عظيم وهذا ما كان في سورة النمل.

٣. إخبار الله ﷻ لموسى بنبوَّته وتكليفه له بالعبادة والصلاة:

خاطب الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام بكلمة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ (طه: ١٢)، فهي تفيد الإيناس؛ لأن كلمة "الله" مطلوبها عبادة وتكليف؛ لأن الله مطاع فيما يأمر، لكن "الرب" عطَّاء حتى للكافر، فالله ﷻ خاطب موسى بالربوبية والعطاء، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ (طه)، لم يقل: إنني الرب المطلق - كما سبق -، ولكن قال: أنا ربك أنت؛ وذلك لأن الرسل لهم تربية خاصة، تختلف عن باقي الخلق جميعًا، فهو سبحانه يعطي من التربية ما يناسب مهمة العبد عنده، وأول أمر وجهه الله ﷻ لموسى في هذا الموقف أن يخلع نعليه؛ وعِلَّة ذلك أنه بالواد المقدس الذي يُسمى "طوى"، وبعد ذلك أخبره باصطفائه له للنبوة، وأمره أن يصغي جيدًا إلى ما يوحيه إليه فقال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾ (طه)[1].

الخلاصة:

تعددت أقوال الله ﷻ في هذا الموقف؛ لأن بداخله مشاهد أخرى عديدة يتألف منها:

- المشهد الأول: يطمئن الله موسى ويخبره بأن المتكلم هو الله رب العالمين.
- والمشهد الثاني: يؤهله لتلقي نبأ عظيم بأن يباركه، ويثبت عقيدته بأن الله مُنَزَّهٌ عن كل شيء لا يليق بجلاله، ويخبره أن العزة لله جميعًا، وهو أحكم الحاكمين.
- ثم المشهد الثالث: يأمره بأن يخلع نعليه؛ لأنه بالوادي المقدس الذي سُمي "طوى"؛ ليخبره ﷻ باصطفائه له للنبوة، وتكليفه له بالعبادة، والصلاة التي هي ذكر الله في أرضه، فهذا تجميع لقصة كبيرة عن طريق مشاهد دالَّة عليها، وإشارات يفهمها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

١. قصص الأنبياء، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢٦٧، ٢٦٨ بتصرف.

الشبهة التاسعة

توهم تناقض القرآن بشأن القاسطين والمقسطين(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغرضين أن هناك تناقضًا بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ (المائدة)، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ (الجن)، ويتساءلون: كيف أن الله ﷻ يصرح بحبه للمقسطين في الموضع الأول، ثم يجعلهم حطبًا لجهنم في الموضع الثاني؟! مستدلين بهذا الفهم الخاطئ على وقوع التناقض في القرآن، وأنه من صنع البشر وليس كتابًا إلهيًّا.

وجه إبطال الشبهة:

ليس بين الآيتين أدنى تناقض؛ لأن الكلمتين متضادتان؛ إذ إن:

- المُقسِط في الموضع الأول معناه: العادل.
- القاسط في الموضع الثاني معناه: الجائر والظالم.

التفصيل:

ليس بين الآيتين أدنى تناقض؛ لأن الكلمتين متضادتان:

الذي يفقه اللغة أو يعرف معاني مفرداتها ومشتقاتها يستطيع - بقليل جهد - أن يفند هذا الزعم الباطل، الذي إن دلَّ على شيء فإنما يدل على معرفة قائله السطحية باللغة ومعانيها، ويمكن تفنيد هذا الزعم بالآتي:

١. **المقسط في الموضع الأول معناه: العادل:**

ورد في "المعجم الوسيط" أن المقسط: اسم فاعل من الفعل "أقسط"، أي: عدل، ويُقال: أقسط في حكمه أي: عدل في حكمه، وأقسط بينهم وإليهم: عدل في القسمة والحكم، فهو "مقسط" جمعه مقسطون"، وجاء في التنزيل: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ (الحجرات: ٩).

٢. **القاسط في الموضع الثاني معناه: الجائر الظالم:**

وورد في "المعجم الوسيط" أيضًا أن القاسط: اسم فاعل من الفعل "قسط"، أي: جار وعدل عن الحق، فهو "قاسط"، وهم "قاسطون"[1].

وبهذا البيان اتضح لنا أن الكلمتين بينهما تضاد في المعنى، فالمقسط هو العادل، أما القاسط فهو الجائر الظالم الذي يعدل عن الحق، وبهذا الفهم ينتفي الزعم القائل بالتناقض بين الموضعين.

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين الموضعين، فالموضع الأول يتحدث عن العادلين، فأولئك يحبهم الله تعالى، والآخر يتحدث عن الجائرين الظالمين، وأولئك يجعلهم الله حطبًا لجهنم.

(*) أسئلة عن الإيمان، قناة الحياة الفضائية. البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مرجع سابق. هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

١. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥م، مادة: قسط.

الشبهة العاشرة

توهم تناقض القرآن الكريم حول معنى قليل وثلة (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قول الله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الواقعة)، وقوله ﷻ: ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الواقعة)، ويتساءلون: كيف أن الله يقرر في الموضع الأول أن قليلًا من الآخرين فقط ينعمون بالجنة وما فيها، ثم يقرر في الموضع الثاني أن (ثُلَّةً) أي: كثير منهم ينعمون بما في الجنة؟!

وجه إبطال الشبهة:

لا تعارض بين الآيتين الكريمتين كما يدعي هؤلاء؛ إذ إن:

- قوله ﷻ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ في خصوص السابقين.
- قوله ﷻ: ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ في خصوص أصحاب اليمين.

التفصيل:

الفهم الصحيح لمعنى الآيتين:

١. قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ في خصوص السابقين:

ظاهر القرآن والذي يفهم من سياق الآيات أن المقصود بقوله ﷻ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أن ممن ينعمون بالجنة وما فيها فئةٌ قليلة من الآخرين الذين سبقوا بالإذعان إلى الله وتصديق رسوله ﷺ. وهم السابقون، والسابقون من الأمم الماضية الذين سبقوا إلى تصديق رسلهم وأنبيائهم، أكثر من السابقين من أمة محمد ﷺ، ولا غرابة في هذا؛ لأن الأمم الماضية أمم كثيرة، وفيها أنبياء ورسل كثير، فلا مانع أن يجتمع من سابقيها من لَدُن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ أكثر من سابقي هذه الأمة وحدها[1].

٢. قوله تعالى: ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ في خصوص أصحاب اليمين:

دلَّ ظاهر القرآن الكريم وسياق الآيات أن المقصود بقوله ﷻ: ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أصحاب اليمين وهم أهل الحسنات، أو الذين يأخذون كتابهم بيمينهم يوم القيامة، ويحتمل أن يكونوا من أمة محمد ﷺ أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم؛ لأن الثُّلَّة[2] تتناول العدد الكثير، وقد يكون أحد العددين الكثيرين أكثر من الآخر، مع أن كليهما كثير، وكون قوله ﷻ: ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ في خصوص أصحاب اليمين؛ فلأنه تعالى قال: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الواقعة).

ومما يُستأنس به لهذا القول، حديث النبي ﷺ الذي ذكره أبو هريرة إذ قال: لَمَّا نزلت: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الواقعة) شَقَّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ

(*) رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٢م.

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٧، ص٢٠٠ بتصرف.

٢. الثُّلَّة: الجماعة من الناس.

﴿ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٠﴾ (الواقعة)، فقال النبي ﷺ: "إني لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة، بل ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة ـ أو شطر أهل الجنة ـ وتقاسمونهم النصف الثاني"[1].

وبهذا البيان اتضح لنا أن قوله ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ في خصوص السابقين من أمة محمد ﷺ، وقوله ﷻ: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ في خصوص أصحاب اليمين من أمة محمد ﷺ، وذلك واضح من سياق الآيات، وبذلك يبطل الزعم القائل: إن هناك تناقضًا بين هاتين الآيتين[2].

الخلاصة:

لا تعارض بين الآيتين كما يدعي هؤلاء، وذلك لأن:

- الموضع الأول يخصُّ السابقين من أمة النبي محمد ﷺ، والسابقون من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الأمم الماضية أمم كثيرة، وفيها أنبياء ورسل كثير، فلا مانع أن يجتمع من سابقيها من لَدُن آدم ﵇ إلى محمد ﷺ أكثر من سابقي هذه الأمة وحدها.
- الموضع الثاني في خصوص أصحاب اليمين، وظاهر الآيات الكريمة أن أصحاب اليمين من الأمم السابقة ليسوا أكثر من أصحاب اليمين من هذه الأمة؛ لأنه تبارك وتعالى عبر عن أصحاب اليمين من هذه الأمة بقوله: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾؛ فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم؛ لأن الثُّلَّة تتناول العدد الكثير، وقد يكون أحد العددين الكثيرين أكثر من الآخر.

1. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٩٠٦٩)، وحسنه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.
2. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٧، ص٢٠٠، ٢٠١. وانظر: الدر المنثور، السيوطي، مرجع سابق، ج٨، ص١٩. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ج٧، ص٧٧٠، ٧٧١.

الشبهة الحادية عشرة

توهم تناقض القرآن بشأن إفراد المشرق والمغرب وتثنيتهما وجمعهما (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن هناك تناقضًا بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ (المزمل)، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ (الرحمن)، وقوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ (المعارج).

ويتساءلون: كيف يُعبَّر عن المشرق والمغرب بصيغة الإفراد مرة، وبالتثنية مرة أخرى، وبالجمع مرة ثالثة؟! ويرمون من وراء ذلك إلى القول ببشرية القرآن والطعن في عصمته من الخطأ.

وجه إبطال الشبهة:

القرآن يخاطب الناس جميعًا على كافة مستوياتهم؛ الأمي والمثقف والجاهل والعالم، وبناء على هذا جاءت:

(*) لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١) صيغة الإفراد خطاب للناس كافَّة.

٢) صيغة التثنية خطاب لمن له حظ من الثقافة.

٣) صيغة الجمع خطاب للعالم بقوانين الفلك وشكل الأرض.

التفصيل:

القرآن يخاطب الناس جميعًا على تفاوت حظِّهم من العلم:

يشير د. البوطي إلى أن الصيغ الثلاث عن المشرق والمغرب متكاملة في الوصف العلمي، ولا يوجد بينها أي تناقض عند من له أدنى بصيرة، فالقرآن الكريم يخاطب الناس عامَّة بكل مستوياتهم؛ الأمي منهم والجاهل، والإنسان المثقف والعالم المتخصص، ولكي ينال كل فريق من هؤلاء ما يفيده ويتفق مع مستوى ثقافته وعلمه، كانت الحكمة الربانية قاضية بأن يكون في حديث القرآن ما يتناسب مع فهم الجاهل والأمي، والمثقف والعالم، وهذا هو شأن القرآن في خطابه للناس دائمًا، وعلى عكس ما يتوهمه الجاهلون ـ أو المتجاهلون ـ يكون هذا من أَجْلى الأدلة الناطقة بإعجاز القرآن. وبناء على هذا نجد أن:

١. صيغة الإفراد خطاب للعامة:

يقول الله ﷻ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ (المزمل) هذا خطاب للناس جميعًا على اختلاف درجاتهم العلمية؛ لأن ما يصلح أن يكون خطابًا للعامي الجاهل لا يصلح أن يكون خطابًا لمن فوقه، وهو يتضمن المعلومة البسيطة المرئية للناس جميعًا، وهي أن للشمس مشرقًا تشرق منه كل يوم، ولها أيضًا مغرب تغيب فيه، ولا يختلف في ذلك أدنى مستوى من الثقافة.

٢. صيغة التثنية خطاب للمثقفين:

ويقول الله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ (الرحمن)، فهذا خطاب مباشر لمن كان له زاد من الثقافة يبصره بموضع الشمس من الأرض أو العكس، فهؤلاء يعلمون أن الشمس كلما طلعت تكون مشرقًا لمن هي مقبلة إليهم، ومغربًا لمن هي أدبرت عنهم، وكما ينطبق عليها هذا الوصف إذ تكون بازغة في المشرق، ينطبق عليها الوصف ذاته إذ تكون مُدْبرة في المغرب، إذن فهما مشرقان ومغربان[1]، "أو أن آية التثنية مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربها، أو مشرق الشمس والقمر ومغربها"[2].

٣. صيغة الجمع خطاب للعلماء المختصين:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (المعارج)، فهذا خطاب لمن أُوتي مزيدًا من العلم بقوانين الفلك، وشكل الأرض، فالآية الكريمة تقول لنا: إن الشمس أينما كانت تكون مشرقًا لمن هي مقبلة إليهم، ومغربًا لمن هي مدبرة عنهم.

ونظرًا لدوران الأرض حول الشمس، فإن إشراقها يتجدد للناس والبلدان التي تطلُعُ عليها من جديد، فهي تظل في إشراق ومَغِيْب، ومن ثَمَّ فإن بقاع الأرض تتقاسمها مشارق الأرض ومغاربها دون توقف، إذن فهي مشارق ومغارب.

---

١. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد البوطي، مرجع سابق، ص٣٩، ٤٠.

٢. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦٦.

كما تتضمن الآية الكريمة معنى آخر، وهو أن الأرض تَزَاوَر[1] عن الشمس ما بين صيف وشتاء، بحيث تتدرج الشمس متنقلة في مطالع متعددة من الأرض؛ كي يقصر نهار الشتاء، وتتدرج فيها عكسيًّا؛ كي يطول نهار الصيف، إذن فهي مطالع، أي: مشارق متعددة للشمس ما بين كل صيف وشتاء[2].

الخلاصة:

لا يوجد أدنى تعارض بين قوله ﷻ: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ (المزمل)؛ وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾ (الرحمن)، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ (المعارج)؛ لأن القرآن الكريم لم يختص بأمة بعينها، وإنما جاء للناس كافة، بكل مستوياتهم العلمية، وبناء عليه:

- قوله ﷻ: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ (المزمل)، يناسب الناس جميعًا على اختلاف درجاتهم العلمية؛ فللشمس مشرق تطلع منه، ولها مغرب تغيب فيه.
- قوله ﷻ: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾ (الرحمن)، يخاطب من كان له حظ من الثقافة والعلم يجعل له دراية بموقع الشمس من الأرض، والعكس.
- قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ (المعارج) يخاطب من منَّ الله عليه بمعرفة قوانين الفلك؛ فإشراق الشمس يتجدد لمن تطلع عليهم من جديد، ومغربها يتجدد أيضًا لمن تُدْبر عنهم.

الشبهة الثانية عشرة

توهم تناقض القرآن حول ذكر الجنة مفردة ومثناة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾ (يس)، وقوله ﷻ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ (الرحمن)، ويتساءلون: كيف يُعبَّر بـ"الجنَّة" مفردةً في موضع، وبالمثنَّى "جنتَّان" في موضع آخر؟ ويهدفون من وراء ذلك إلى القول ببشرية القرآن.

وجه إبطال الشبهة:

لا تعارض بين الآيتين؛ لأن:

- الآية الأولى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾ (يس) نزلت بخصوص أهل الجنة عامَّة.
- الآية الثانية: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ (الرحمن) نزلت بخصوص طائفة مميزة من أهل الجنة.

التفصيل:

الفهم الصحيح لمعنى الآيتين:

١. الآية الأولى في خصوص أهل الجنة عامَّة:

إن المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾ (يس)، أهل الجنة عامَّة دون تخصيص

١. تَزَاوَرُ: تميل وتبتعد.

٢. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد البوطي، مرجع سابق، ص٣٩، ٤٠.

(*) أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة.

ولا اصطفاء، فهم في شغل بما هم فيه من اللذات - التي هي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر - عن الاهتمام بأمر الكفار ومصيرهم إلى النار، وإن كانوا من قراباتهم.

وقيل: شغل ذلك اليوم: فضّ العذارى، وقيل: شغلهم السماع، وقيل: زيارة بعضهم بعضًا، وقيل: شغلهم كونهم ذلك اليوم في ضيافة الله عز وجل.

وفي تنكير "شُغل" وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ، وتنبيه على أنه أعلى مما يحيط به الأفهام، ويعرب عن كُنْهه الكلام.

وقد بيّن الله عز وجل الأحوال الطبيعية لأهل الجنة، بعد بيان الأحوال السيئة لأهل النار، فيقال للكافرين في يوم الحساب والجزاء زيادة في حسرتهم: إن أصحاب الجنة اليوم في شُغُل فاكهون[1]، يتلذذون فيه بما يشرح صدورهم، ويُرْضِي نفوسهم، ويُقِرُّ عيونهم، ويجعلهم في أعلى درجات النعيم، وعَبَّر عن حالهم بالجملة الاسمية المؤكدة؛ للإشعار بثبوت هذه الحال ثبوتًا تامًّا بفضل الله جل شأنه.

٢. الآية الثانية في خصوص طائفة بعينها من أهل الجنة:

أما قوله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ (الرحمن)، فهو يُعنى بذكر طائفة مخصوصة مميزة من أهل الجنة، وهم الذين يخافون مقام الله للمساءلة والمحاسبة، ويتركون المعصية خوفًا من الله تعالى وحياءً منه... قال محمد بن على الترمذي: جنة لخوفه من ربه، وجنةٌ لتركه شهوته. وقال ابن عباس: من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض فله جنتان[2].

وفي الحديث الذي ذكره أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن"[3].

وقيل: المقصود بالجنتين: إحداهما منزله ومحلُّ زيارة أصحابه له، والأخرى منزل أزواجه وخَدَمِه كعادة رؤساء الدنيا، وقيل: منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوافر دواعي لذته، وتظهر ثمار كرامته، وأين هذا ممن يطوف بين النار وبين حميمٍ آن؟ وقيل: جنة لعقيدته، وجنة لعمله، أو جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي، أو جنة يُثاب بها، وأخرى يُتَفضَّل بها عليه، أو إحداهما روحانية، والأخرى جسمانية. وقيل: جنة عدن، وجنة نعيم[4].

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (يس)، وقوله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ (الرحمن)، وذلك لأن:

- الآية الأولى في خصوص أهل الجنة عامة دون تخصيص أو تمييز لجماعة أو طائفة على الأخرى، فهم في

---

١. فاكهون: ناعمون بالتَّلذُّذ بالنعيم.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٧، ص١٧٦.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الرحمن (٤٥٩٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (٤٦٦).

٤. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص٤٢٠.

شُغلٍ بما هم فيه من اللذات عن الاهتمام بأمر الكفار ومصيرهم إلى النار، وإن كانوا من قراباتهم.

- الآية الثانية في خصوص طائفة بعينها من أهل الجنة، وهم الذين يخافون مقام الله ﷻ للمساءلة والمحاسبة، الذين يهمون بالمعصية فيذكرون مقام ربهم فينزعون عنها فأولئك لهم جنتان.

الشبهة الثالثة عشرة

توهم تناقض القرآن بشأن النهيِ عن الربا والأمر به(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ (التوبة)؛ لظنهم أن الجزية هي الربا، ويتساءلون: كيف ينهى الله تبارك وتعالى عن الربا في موضع، ثم يأمر به في موضع آخر؟!

وجه إبطال الشبهة:

الربا يختلف معنىً وحكمًا عن الجزية؛ إذ إن:

- الربا كل زيادة مشروطة مقدمًا على رأس المال مقابل الأجل وحده، وحكمها التحريم.
- الجزية هي مال يدفعه أهل الكتاب ومن يلحق بهم إلى المسلمين مقابل حمايتهم.

(*) رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، مرجع سابق.

التفصيل:

الربا يختلف معنىً وحكمًا عن الجزية:

١. **الربا**: هو زيادة مشروطة مقدمًا على رأس المال مقابل الأجل وحده، وهو محرم، ولا يُتَصوَّر أن يحرِّم الله على الناس شيئًا ويتوعدهم بأشد الوعيد على فعله وهم لا يعلمون ما هو؟! فالربا أمر معروف تعامل العرب به في الجاهلية وتعامل به غيرهم، وعُرف به اليهود منذ زمن بعيد، ولو كان هذا الربا غامضًا لسأل الصحابة عنه حتى يعرفوه، فقد كانوا أحرص الناس على معرفة دينهم.

وقد حُرِّم الربا بالقرآن والسنة والإجماع؛ حيث يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ (آل عمران: ١٣٠)، وفي السنة النبوية الشريفة؛ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلًا بمثل، ولا تُشِفُّوا[١] بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائبًا[٢] بناجز"[٣][٤]. وقد أجمع علماء الأمة الإسلامية على تحريم الربا[٥].

---

١. تُشِفُّوا: أي لا تفضلوا، والشِّف: يطلق على النقصان، فهو من الأضداد.

٢. الغائب: أي المؤجَّل.

٣. الناجز: الحاضر.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب بيع الفضة بالفضة (٢٠٦٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الربا (٤١٣٨).

٥. حلول لمشكلة الربا، د. محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٤٠: ٤٧ بتصرف.

وحكمة تحريم الربا هي: تحقيق الاشتراك العادل بين المال والعمل، وتحمل المخاطرة ونتائجها بشجاعة ومسئولية، وهو عدل الإسلام، فلم يتحيَّز إلى العمل ضد رأس المال، ولا إلى رأس المال على العمل®.

٢. **أما الجِزْيَة: فهي** مبلغ بسيط يُؤخذ من أهل الذِّمَّة كل عام مقابل حمايتهم، والمسلمون يدفعون في مقابلها - بل أكثر منها بكثير - زكاة أموالهم، بل ويدفعون دماءهم للدفاع عن البلاد وسكانيها ومنهم أهل الذِّمة[1].

ومن خصائص الجزية:

١. الجزية حق واجب، أوجبه الله على أهل الذِّمة بنصِّ القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٢٩)﴾ (التوبة).

٢. الجزية فيها معنى الصَّغار لأهل الذمة، والصغار هنا بمعنى: الخضوع لسلطان الدولة الإسلامية.

٣. شُرِّعت الجزية مقابل حَقْن دم أهل الذمة.

٤. الجزية تضرب على الذكور البالغين القادرين على دفعها، ولا تضرب على النساء والصبيان والمجانين والفقراء الرهبان.

٥. الجزية تؤخذ من الذِّمي مرة واحدة في العام، وليس لها مقدار محدد، وإنما يرجع في ذلك إلى إمام المسلمين.

وقد أجاز فقهاء المسلمين إسقاط اسم الجزية عن أهل الذمة، وأخذ ما يؤخذ منهم باسم "الزكاة"، أو باسم "الضريبة"، ما داموا يَأْنَفون من كلمة "جزية"، وهذا ما فعله عمر بن الخطاب ﷺ مع بني تغلب عندما رامهم على الجزية، فقالوا له: لا نؤدي ما يؤدي العجم، ولكن خذ مِنَّا كما يأخذ بعضكم من بعض - يعنون الصدقة، فقال عمر: لا، هذا فرض المسلمين، فقالوا: فزد ما شئت بهذا الاسم لا باسم الجزية، ففعل عمر رضي الله عنه.

أما مقدار الجزية: فيمكن أن تكون بمقدار الزكاة التي يدفعها المسلمون، ولكن الواقع التاريخي يشهد أنها كانت أقل بكثير من ذلك، وهي بدل الخدمة العسكرية، إلا إذا دخلوا في الجيش وأدوا الخدمة المقررة كما يؤديها المسلم، فهنا تحذف الجزية عن أهل الذمة®.

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين الآيتين اللتين معنا، فالربا هو كل زيادة مشروطة مقدمًا على رأس المال مقابل الأجل وحده، وهو محرم في الإسلام.

أما الجزية فهي حق واجب على أهل الذمة يؤدونه للدولة الإسلامية نظير حقن دمائهم والدفاع عنهم، وهي واجبة، وتؤخذ من الذمي مرة واحدة في العام.

® في **"مفهوم الربا وأدلة تحريمه"** طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

١. الذِّمَّة: العهد، وأهل الذمة: اليهود والنصارى.

® في **"الحكمة من تشريع الجزية، ومقدارها"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

الشبهة الرابعة عشرة

توهم تناقض القرآن بشأن المفاضلة بين الرجل والمرأة(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين وقوع التناقض في القرآن الكريم بشأن تفضيل الرجل على المرأة والمساواة بينهما، ويستدلون على توهمهم هذا بقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١)، وقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ (النحل: ٧٢)، وقوله ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤).

ويتساءلون: كيف يقرر القرآن في مواضع متعددة مساواة الرجل بالمرأة، وأنهما خُلِقَا من نفس واحدة، ثم يقرر في مواضع أخرى أفضلية الرجل على المرأة، وحَقَّه في ضربها وهجرها؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في القرآن الكريم وأحكامه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) المرأة جزء من الرجل، وقد خلقها الله من نفس الرجل ليسكن إليها.

٢) القرآن سوَّى بين المرأة والرجل في كافة الأمور إلا ما يقتضي اختلاف الطبيعة فيه غير ذلك، وهو قليل.

٣) اشتراك المرأة مع الرجل في الميراث هو عدل وتسوية.

٤) الإسلام جعل القوامة للرجل لأسباب فطرية وكسبية.

٥) اختلاف وظيفة الرجل والمرأة وفقًا لاختلاف طبيعة كل منهما.

التفصيل:

أولا. المرأة جزء من كيان الرجل، وقد خلقها الله ليسكن الرجل إليها:

حواء زوج آدم عليه السلام، وهو أول من سماها بذلك حين خُلقت من ضلعه من غير أن يحس بذلك، ولو أَلِمَ بذلك لم يعطف رجل على امرأة، رُوي أنه لَمَّا انتبه قيل له: من هذه؟ قال: امرأة، قيل: وما اسمها؟ قال: حواء، قيل: ولِمَ سُمِّيت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أُخذت، قيل: ولِمَ سُمِّيت حواء؟ قال: لأنها خُلقت من حي. وقال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: "ولما أُسكن آدم الجنة مشى فيها متوحشًا، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصري من شِقِّه الأيسر؛ ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها، فقال: من أنتِ؟ قالت: امرأة خُلقت من ضلعك لتسكن إلي"[1].

وهو معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١)، الله ﷻ جعل

(*) الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجمع البحوث الإسلامية، مرجع سابق. نظرات شرعية في فكر منحرف، سليمان الخراشي، مكتبة التوحيد، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١، ص٣٠١.

حواء من طبيعة آدم؛ ليكون ذلك أدعى للانسجام والتآلف والتآنس بينهما[1].

ثانيًا. تسوية القرآن بين الرجل والمرأة في معظم الأمور إلا ما اقتضى خلاف ذلك؛ لاختلاف الطبيعة:

لقد سوَّى القرآن الكريم بين الرجل والمرأة في أمور كثيرة، أوجزها د. وهبي سليمان في نقاط منها:

١. **المساواة في الإنسانية**: جاء الإسلام ليقرر المساواة الكاملة في الإنسانية بين الرجل والمرأة، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١)، وقال النبي ﷺ: "إنما النساء شقائق[2] الرجال"[3]. فالرجال كلهم أولاد نساء ورجال، والنساء كلهن بنات رجال ونساء. وكل منهما خُلق على فطرة الخير، وهداه الله تعالى النجدين، وقال النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه"[4].

٢. **المساواة في الخِلْقَة**: جاء الإسلام ليقرر أن نفس الرجل والمرأة سواء، يسمو بها إيمان وخُلُق قويم، ويتَّضِع[5] بها كُفْر وانحراف، قال ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس)، وبعض الفروق الجسمية بين الرجل والمرأة لا تؤثر على النفس الواحدة، وهي الأصل كما قال الشاعر:

أَقْبِلْ على النَّفْسِ واسْتكمِلْ فَضَائِلَها
فَأَنْتَ بالرُّوحِ لا بالجِسْمِ إنْسَانُ

٣. **المساواة في الكرامة الإنسانية**: جاء الإسلام ليقرر المساواة بين الرجل والمرأة في الكرامة الإنسانية، فحرَّم وَأْد البنت خوف العار، وحرَّم قتل الصبي خوف الفقر، قال ابن مسعود ﷺ: سُئِل رسول الله ﷺ: أي الذَّنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله نِدًّا وقد خلقك"، قيل: ثم أي؟ قال: "أن تَقْتُل ولدك خَشْية أن يأكل معك"، قيل: ثم أي؟ قال: "تُزاني حَلِيلة جارك"[6].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكوير)، وقرر الفقهاء أن الرجل يُقتل بقتل المرأة عمدًا دون شبهة كما يُقتل بقتل الرجل على مثل ذلك.

٤. **المساواة في الإيمان بالله تبارك وتعالى والتكاليف الشرعية والجزاء على ذلك**: جاء الإسلام الحنيف ليقرر المساواة بين الرجل والمرأة في الإيمان والعمل والجزاء على ذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ

---

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، عطية صقر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٧.

٢. الشَّقائق: جمع الشقيقة: وهي الأخت من الأب والأم، والشقيق: المثيل.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٢٣٨)، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في الرجل يجد البلة في منامه (٢٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٣٣).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلَّى عليه (١٢٩٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٢٦).

٥. يَتَّضعُ: يَنْحَطُّ.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة (٤٢٠٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٢٦٧).

﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ (الأحزاب)، فالمرأة مخلوق مستقل من حيث المسئولية عن العمل كما أن الرجل كذلك، وكلٌّ مكلَّفٌ استقلالًا بتكاليف الشريعة - إلا ما استثنى من أحدهما - وله أجره على قيامه بما أمر الله تعالى دون مضاعفة الأجر لأحدهما دون الآخر، وعليه وزره على إقدامه على معصية الله تعالى دون تسجيل الذنب لأحدهما دون الآخر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة).

٥. المساواة في العلم الواجب العيني والكفائي منه: جاء الإسلام يحض على تعليم المرأة وتعليم الرجل سواء بسواء، فالمرأة مُكلَّفة بالإيمان بالله تعالى وما جاء من عنده، ومكلفة بطاعة الله تعالى في فعل أمره واجتناب نواهيه، ولا يكون ذلك منها إلا بالعلم. قال رسول الله ﷺ: "... وأيما رجل كانت عنده وليدة فعلَّمها وأحسن تعليمها، وأدَّبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران"[1].

ولقد كانت المرأة تحضر الصلوات مع رسول الله ﷺ متسترِّة غير متبرِّجة بزينة، وتحضر دروسه وعِظاته، تسمع خطبه في الجُمَع والعيدين، ولئن كانت زوجات النبي ﷺ قد تَلَقَّيْنَ عنه الكثير من فهم القرآن وأحكامه، وكثيرًا من حديثه، وقوله وفعله، فلقد كلَّف رسول الله ﷺ أمَّ الشِّفاء أن تُعلِّم بعض نسائه الكتابة، ولقد أقبلت المرأة المسلمة على العلم منذ أكرمها الله تعالى بالإسلام، فكثيرة تلك الأحاديث التي روتها أمهات المؤمنين عنه ﷺ، كثيرة تلك الأقوال المنسوبة إليهن في التفسير والفقه والحديث، وكثيرات هن النساء اللاتي حفظن كتاب الله تعالى أو حفظن أكثره، وحفظن الكثير من حديث رسول الله ﷺ، وكُنَّ يُحدثنَ الرجال من وراء حجاب.

٦. المساواة في التربية والتهذيب: جاء الإسلام الحنيف يؤكد ويحضُّ على تربية البنات وتهذيبهن، كما يحض على تربية البنين وتهذيبهم، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم: ٦)، وقال ﷺ: "ما من مسلم له بنتان فيُحْسِن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما، إلا أدخلتاه الجنة"[2].

٧. المساواة في الأخلاق من طهارة القلب والقصد واللسان والجوارح: جاء الإسلام يحضُّ المرأة على كمال الأخلاق كما يحضُّ الرجل سواء بسواء؛ لأن المجتمع عنصراه: الرجل والمرأة، وحين غارت عائشة - رضي الله عنها - وقالت في صفية بنت حُيَي: "حسبك من صفية أنها كذا"، تعني: قصيرة، قال لها النبي ﷺ:

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها (٤٧٩٥)، وفي مواضع أخرى.

٢. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات (٣٦٧٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض (٢٩٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٧١).

"لقد قلت كلمة لو مُزِجَت بماء البحر لَمَزَجَته"[١].

فالمرأة مسئولة كالرجل عن قلبها من حيث: الإيمان والنفاق، أو الإخلاص والرياء، وعن لسانها من حيث: الصدق والكذب، وحفظ اللسان، أو التهجم على أعراض الناس به، ومن حيث: الطاعة والمعصية، والوقوف عند حدود الله أو مجاوزتها إلى ما نهى الله عنه.

٨. **المساواة في العقوبات المحددة وغير المحددة:** لما كانت المرأة مثل الرجل من حيث التكاليف الشرعية، فقد أصبحت في الإسلام مثل الرجل في تحمُّل مسئولية نفسها في العقيدة والقول والفعل، والإسلام يقوم على كليات خمس هي عموم ما جاء فيه، وما سواها رَوادف[٢] لها ومؤيِّدات، أو حدود لحمايتها وقيود، وقد فرض الله تعالى عقوبات محددة، وتسمى "حدودًا" على من يعتدي على كُليَّة من تلك الكُلِّيَّات، رجلًا كان المعتدي أو امرأة، وجعل عقوبة العدوان على غير حدود تلك الكليات إلى رأي الدولة وحكمها، وهي: كالغش في المعاملات، وشهادة الزور، وهي عقوبات تتبدَّل بتبدل المصلحة في رأي الدولة، وتسمى "تعازير". وتلك الكليات الخمس هي: حفظ الدين والنفس والعقل والعِرْض والمال.

٩. **المساواة في العمل بالإسلام والعيش به بما يتفق مع خِلْقَتها ووظيفتها في الحياة:** ولما كانت المرأة مكلفة بالإيمان بالإسلام، فهي مثل الرجل مكلفة بحفظ الإسلام والعمل به والدعوة إليه، فكان أول من أسلم امرأة، وهي خديجة - رضي الله عنها - التي عملت على حفظ الإسلام حين شدَّت من أَزْر النبي ﷺ لما حدثها بالوحي.

وكان أول من قُتل في الإسلام ياسر وزوجه سُمَيَّة، وهناك أمثلة كثيرة منثورة في كتب السيرة تدل جميعها على أن المرأة المسلمة جاهدت في سبيل حفظ الإسلام في قلبها والعيش به، وتبليغه للناس؛ وذلك لأن الإسلام دين الله تعالى، والرجل والمرأة من عباد الله تعالى.

١٠. **المساواة في الإقرارات والعقود والتصرفات:** جاء الإسلام ليقرر المساواة بين الرجل والمرأة في الإقرارات على التصرفات القولية والمالية مثل: التبرع، والصدقة، والدين، والوقف، والبيع والشراء، والوكالة، والكفالة، والقتل، والسرقة... إلخ، لا فرق في شيء من هذه التصرفات بين الرجل والمرأة، فعن أبي شريح ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "اللهم إني أُحَرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة"[٣]. ومعنى الحرج: أي الإثم لمن ضيَّع حقهما[٤].

وبهذا البيان يتضح لنا أن الإسلام قد قرر مبدأ التسوية بين الرجل والمرأة على أوسع نطاق، مما كان غائبًا - بل مختفيًا - عند الأديان أو الكتب التي حُرِّفت،

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الغيبة (٤٨٧٧)، والترمذي في سننه وكتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٣٤)

٢. الرَّوادف: التَّوابع، جمع رادف.

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٩٦٦٤)، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب حق اليتيم (٣٦٧٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٥).

٤. المرأة المسلمة، وهبي سليمان غاوجي، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٩٩٩م، ص٣٢ وما بعدها.

مما يدعونا إلى الاعتراف بمدى تسوية الإسلام والقرآن بين الرجل والمرأة ومدى تكريمها قياسًا على وضعها المهين لدى الآخرين في غير دين الإسلام®.

ثالثًا. اشتراك المرأة مع الرجل في حق الإرث هو عدل وتسوية:

وضح العلماء حكمة تقسيم التركة وتوزيع الأنْصِباء على الذكور والإناث فقالوا: إن اشتراك المرأة مع الرجل في حق الإرث من المتوفَّ هو عدل وتسوية، بعد أن كانت محرومة تمامًا في الشرائع والقوانين غير الإسلامية، وحكمة تميُّز الرجل عليها: أنه يتحمل تبعات الأسرة بحكم رياسته عليها، حتى لو كانت الزوجة غنية، فإن نفقتها على زوجها، على أنه قد توجد صور تتساوى فيها المرأة مع الرجل في الميراث، بل قد تفوقه: كالبنت مع الأعمام، فلها النصف، ولجميع الأعمام النصف الآخر، ولم يتميَّز الرجل على المرأة إلا في حالة واحدة وهي: أن يكون أخًا لها ويرث معها بالتعصيب.

إن الإسلام حين جعل المرأة على النصف من الرجل في الميراث في مثل هذه الحالة، سلك طريقًا عادلًا، يتبين من الإشارة إلى وضع المرأة في الشرائع الأخرى من هذه الجهة، فقد كان الميراث عند قدماء اليونان والرومان لمن يصلح للقيام بشئون الأسرة ومباشرة الحروب، وللمورث أن يختار في حياته من يقوم مقامه في الحقوق القومية ورياسة الأسرة، سواء أكان من أبنائه، أم من أقاربه، أم من الأجانب، وقبيل ظهور الإسلام أشركوا المرأة مع الرجل في الميراث على التساوي بينهما.

واليهود كانوا يخُصُّون الولد الذَّكَر بالميراث دون البنت، وإن تعدد الأبناء الذكور ورث الابن الأكبر دون الباقين، فقد جاء في سفر التثنية: "إذا كان لرجل امرأتان، إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة، فولدتا له بنين، المحبوبة والمكروهة. فإن كان الابن البِكْر للمكروهة، فيوم يَقْسِم لبنيه ما كان له، لا يحِلُّ له أن يُقدِّم ابن المحبوبة بكرًا على ابن المكروهة البكر، بل يعرف ابن المكروهة بكرًا ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده؛ لأنه هو أول قُدْرَته. له حق البَكوريَّة". (التثنية ٢١: ١٥ ـ ١٧).

والإسلام لم يَحْرِم المرأة من الميراث، سواء أكانت من أصول المتوفى، أم من فروعه، أم من حواشيه، وسواء أكانت ترتبط به برابطة الدم، أم برابطة المصاهرة (الزواج)، ولم ينظر إلى كون الوارث يستطيع القيام بمهام رب الأسرة أو لا يستطيع، ففي ذلك ظلم وحرمان لها من خير من تتصل بهم، غير أنه جعل للذكر مثل حظ الأنثيين في حالة الإخوة الذين يرثون بالتعصيب؛ لأنهم في حالات كثيرة يشاركون في تكوين هذه الثروة، كما أنهم بمجهودهم يحافظون عليها من الضياع، وهم أيضًا مصدر تنميتها وزيادتها، ولأن الرجل هو الذي يعول الأسرة بما فيها المرأة التي لا يمس نصيبها المفروض لها بسوء، فالتسوية بينهما ليست من العدل، فالمرأة في الإسلام دائمًا معالة ونفقتها واجبة على الأب حتى تتزوج وعلى الزوج بعد ذلك، فإن مات زوجها فنفقتها واجبة على أولادها حتى تموت، كما أن

® في **"المساواة بين الرجل والمرأة في علاج النشوز"** طالع: الشبهة السابعة، من الجزء التاسع عشر (أحكام الأسرة في الإسلام). وفي **"مساواة المرأة بالرجل في القصاص"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الخامس عشر (السياسة الجزائية).

حرمانها أصلًا ليس من العدل، فقد تكون المرأة غير ذات زوج لينفق عليها فتكتفي بما ورثته من الميت[1] ®.

رابعًا. الإسلام جعل القوامة للرجل لأسباب فطرية وكسبية:

جعل الله تعالى القوامة في جملة الرجال لا في آحادهم؛ لأن الغالب أنهم أفضل في التدبير والرأي وطلب المعاش من النساء في أحوال كثيرة، وأنهم الذين يتولون الإنفاق، والله تعالى جعلهم بهذا الوصف في مقابلة أنه جعل النساء حافظات للغيب على الرجال مؤتمنات على ما يتصل بتدبير المنزل، فلكل فريق في ذلك من الحظ ما ليس للآخر، والمراد بالقوامة، كما قال الإمام محمد عبده في تفسيره: هو الرياسة التي يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره، وليس معناها أن يكون المرءوس مقهورًا مسلوب الإرادة، لا يعمل عملًا إلا ما يوجهه إليه رئيسه، فإن كون الشخص قيِّمًا على الآخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه في تنفيذ ما يرشده إليه، أي: ملاحظته في أعماله وتربيته، ومنها: حفظ المنزل وعدم مفارقته.

والمراد بتفضيل بعضهم على بعض في قوله ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٤) هو تفضيل الرجال على النساء، والحكمة في هذا التعبير هي عين الحكمة في قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٢)، وهي إفادة أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس، والمرأة بمنزلة البدن، وما به الفضل قسمان: فطري، وكسبي، فالفطري: هو أن مزاج الرجل أقوى وأكمل وأتم، والكسبي: هو أن الرجل أقدر على الكسب والاختراع والتصرف في الأمور، والزوج -كما عبر بعض الكتاب- أشبه بربَّان السفينة يَمْخُر[2] بها عُباب[3] الحياة الزوجية، بأمواج مشكلاتها وأغوار[4] مفاجآتها، ولو قُدر لهذه السفينة السير في مياه ساكنة وأمواج هادئة، كسب الربان هذه الفرصة كثيرًا، وتقدمت سفينته إلى الأمام في أمان يجعله يقطع من المسافات في طريق السعادة الزوجية ما لا يستطيعه لو هاج البحر وتلاطمت أمواجه وثار غضبه، تلك الحالة التي تقلق الربَّان وتشوش عليه فكره، وتتطلب منه حزمًا ويقظة؛ ليحتفظ بتوازن السفينة، وينجو من خطر محقق على الأقل، فوق ما ضاع منه من تقدم إلى الأمام[5].

وبهذا العرض اتضح لنا أن الضرورة تقتضي أن يكون هناك قيِّم تُوكل إليه الإدارة العامة لهذه الشركة القائمة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عنها من نسل، وقد اهتدى الناس في كل تنظيماتهم إلى أنه لا بد من رئيس مسئول، وإلا ضربت الفوضى أطنابها[6]، والرجل بما

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٢، ص٤٩١: ٤٩٣.

® في "**ميراث المرأة في الإسلام**" طالع: الشبهة الخامسة، من الجزء الثامن عشر (قضايا المرأة).

٢. يَمْخُر: مَخَرَت السفينة: جرت تشق الماء.

٣. عُباب الشيء: أوله أو معظمه.

٤. أغوار: أسرار.

٥. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٣، ص٢٤ بتصرف.

٦. الأطناب: جمع الطُّنُب، وهو الطَّرف أو الناحية.

يحتوي كيانه من قدرة على الصراع، واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته، فهو أصلح من المرأة في أمر القوامة على البيت، بل المرأة ذاتها لا تحترم الرجل الذي تسيره فيخضع لرغباتها، بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أي اعتبار®.

خامسًا. اختلاف وظيفة الرجل والمرأة وفقًا لاختلاف الطبيعة البيولوجية لكل منهما:

تختلف وظيفة الرجل عن وظيفة المرأة وفقًا لطبيعة كل منهما، ومن ثمَّ ظن بعض الزاعمين أن هذا ضد المساواة، ولكن الأمر على عكس ما ذهبوا إليه، ويُجلِّي محمد قطب هذه الحقيقة فيقول: إن المساواة في الإنسانية أمر طبيعي ومطلب معقول، فالرجل والمرأة هما شِقَّا الإنسانية وشِقَّا النفس الواحدة، أما وظائف الحياة وطرائقها فكيف يمكن تنفيذها؟! هل في وسع أحد أن يبدل طبائع الأشياء فيجعل الرجل يشارك المرأة في الحمل والولادة والإرضاع؟

واختصاص أحد الجنسين بالحمل والرضاعة يستتبعه أن تكون مشاعر الجنس وعواطفه وأفكاره مهيأة بطريقة خاصة لاستقبال هذا الحادث الضخم، والتَّمشِّي مع مطالبه الدائمة، إن الأمومة بكل ما تحتويه من مشاعر نبيلة أو أعمال رقيقة، وصبر على الجهد المتواصل، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء، هي التكييف النفسي والعصبي والفكري، الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والإرضاع، فكلاهما متمم للآخر متناسق معه، بحيث يكون عجيبًا أن يوجد أحد في غيبة الآخر، وهذه الرقة في العاطفة والانفعال السريع في الوجدان، والثورة القوية في المشاعر التي تجعل الجانب العاطفي - لا الفكري - هو المنبع المستعد أبدًا بالفيض، المستجاش دائمًا بأول لمسة، فكل ذلك من مستلزمات الأمومة؛ لأن مطالب الأمومة لا تحتاج إلى التفكير الذي يسرع أو يبطئ، وقد يستجيب أو لا يستجيب، فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حين تؤدي وظيفتها الأصلية، وهدفها المرسوم.

والرجل من جانب آخر مكلَّف بصراع الحياة في الخارج، سواء كان هذا الصراع مجابهة الوحوش في الغابة، أو قُوَى الطبيعة في السماء والأرض، أو نظام الحكومة وقوانين الاقتصاد، وكل ذلك لاستخلاص القوت، ولحماية ذاته وزوجه وأولاده من العدوان. هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المُسْتَجاش[1]، بل ذلك يضرُّها ولا ينفعها، فالعاطفة تنقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض.

لكن هذا ليس معناه الفصل الحاسم القاطع بين الجنسين، ولا معناه أن كلًّا منهما لا يصلح أي صلاحية لعمل الآخر، فإذا وجدت امرأة تصلح للحكم أو القضاء، أو حمل الأثقال، أو الحرب أو القتال، وإذا وُجِد رجل يصلح للطهي وإدارة المنزل، أو الإشراف الدقيق على الأطفال، أو الحنان الأنثوي، أو كان سريع التقلُّب بعواطفه ينتقل في لحظة من النقيض إلى النقيض، فكل ذلك أمر طبيعي ونتيجة صحيحة لاختلاط الجنسين في كيان بعضهما، ولكنه خُلْو من الدلالة المزيفة التي أراد أن يلصقها

® في "قوامة الرجل على المرأة" طالع: الشبهة الرابعة، من الجزء التاسع عشر (أحكام الأسرة في الإسلام).

١. المُسْتَجاش: المتدفِّق.

بـه شُـذَّاذ الآفـاق في الغـرب المُنْحَـلِّ أو المـشرق المتفكك[1].

الخلاصة:

- ليس هناك أي وجه للتناقض بين آيـات القـرآن الكريم بشأن تفضيل الرجل على المرأة والمساواة بينهما، إذ إن الله ﷻ قرر أن المرأة جزء من كيان الرجل، خُلقت من ضلعه، وخلقها الله ﷻ ليسكن الرجل إليها ويأنس بها.
- سوَّى القرآن الكريم والإسلام العظيم بين الرجل والمرأة في أمور كثيرة منهـا: الحقـوق الإنـسانية، الخِلْقـة، الإيمان والتكـاليف الـشرعية، التربيـة والتهـذيب، العلـم العينـي والكفـائي منـه، الأخـلاق مـن: طهـارة القلـب والقصد واللسان والجوارح، العقوبات المحددة فيها وغير المحددة من أجل: حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ المال، وحفظ العرض، وحفظ الأمن، العمل بالإسلام والعـيش به بما يتفق مع خلقتها ووظيفتها في الحيـاة، حـق المـيراث، الإقرارات والعقود والتصرفات... إلخ.
- مجرد اشتراك المرأة مع الرجـل في حـق الإرث هـو عدل وتسوية، فهو وسط بين من حرمها تمامًا من الشرائع والقوانين غير الإسلامية، وبين من أعطاها أكثر من حقها، وهذا من الظلم أيـضًا. وحكمـة تميُّـز الرجـل عليهـا أنـه يتحمل تبعات الأسرة بحكم رياسته.
- الإسلام جعل القوامة للرجل لأسـباب فطريـة وكسبية، فالفطرية: هي أن مزاج الرجل أقوى وأكمـل وأتم، والكـسبي: هـو أن الرجـل أقـدر عـلى الكـسب والاختراع والتصرف في الأمور.
- تختلف وظيفة الرجـل والمـرأة وفقًـا لاخـتلاف طبيعتهما، فاختصاص أحد الجنسين بالحمل والإرضـاع يستتبعه أن تكون مشاعر هذا الجنس وعواطفه وأفكاره مهيَّـأة بطريقـة خاصَّـة لاسـتقبال هـذا الحـدث، وهذه الرِّقة في العاطفة، والانفعال السريع في الوجدان، والثورة القوية في المشاعر التي تجعل الجانـب العـاطفي - لا الفكري - هـو المستعدُّ أبـدًا بـالفيض المستجاش أبدًا بأول لمسة، كـل ذلـك مـن مـستلزمات الأمومـة. والرجل من جانب آخر مكلَّف بصراع الحياة في الخارج لاسـتخلاص القـوت، ولحمايـة ذاتـه وزوجـه وأولاده مـن العـدوان، وهـذه الوظيفـة تحتـاج الفكـر الغالـب على العاطفة والمتأني في اتخاذ قراراتـه، الـذي لا ينفعـل سريعًا وينقلب من النقيض إلى النقيض.

الشبهة الخامسة عشرة

توهم تناقض القرآن في تقدير مُدَّة الحمل والرضاع (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك اضطرابًا بـين قـول الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ (لقمان: ١٤)، وقولـه ﷻ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ

1. شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، القـاهرة، ط٢٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١١٦ وما بعدها.

(*) البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عـاطف المليجي، مرجع سابق. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيـات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سـابق. هـل القـرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com

حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ (الأحقاف: ١٥). ويتساءلون: كيف تكون مُدَّة الحمل والرضاع حولين كاملين في الموضعين الأولين، وثلاثين شهرًا في الموضع الثالث؟! ألا يخالف هذه معطيات العلم الحديث؟

ويهدفون من وراء ذلك إلى القول ببشرية القرآن الكريم مادام فيه هذا الاضطراب والتناقض.

وجه إبطال الشبهة:

القرآن يفسر بعضه بعضًا، ويتفق مع نتائج العلم الحديث، فمدَّة الرضاع وحده عامان، لكن مدَّته مع الحمل ثلاثون شهرًا؛ إذ أقلُّ الحمل ستةُ أشهر.

التفصيل:

اتفاق مدلول الآيات القرآنية الخاصة بتحديد مدة الحمل والرضاع مع نتائج العلم:

إن الذي لديه أدنى دِراية بالقرآن الكريم، يعلم حق العلم أنه لا يوجد أي تعارض بين آياته الكريمة؛ فبالجمع بين آيتي سورة لقمان وسورة البقرة، وبين آية سورة الأحقاف، يدرك أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر، فقوله ﷻ: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ (الأحقاف: ١٥) لا يُعرف منه ـ بانفراده ـ أقل مدة للحمل، ولكنه بضم بعض الآيات الأخرى إلى هذه الآية، تُعلم أقل مدة للحمل؛ لأن هذه الآية الكريمة صرَّحت بأن أَمَد الحَمْل والفِصال[1] معًا ثلاثون شهرًا، وقوله ﷻ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ﴾ (لقمان: ١٤)، وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، يبين أن أمد الفصال عامان، وهما أربعة وعشرون شهرًا، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت ستة أشهر، فتعيَّن كونها أمدًا للحمل، وهي أقله، ولا خلاف في ذلك بين أهل العلم[2].

١. الفِصَال: الفِطام.

الخلاصة:

لا يوجد أدنى تعارض بين قوله ﷻ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ﴾ (لقمان: ١٤)، وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)؛ وبين قوله ﷻ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ (الأحقاف: ١٥)؛ لأن العامين أربعة وعشرون شهرًا، فعندما تُطرح من الثلاثين يتبقى ستة أشهر، فتصبح هي أقل مدة للحمل، ويتفق هذا مع ما استقر عليه رأي الأطباء.

الشبهة السادسة عشرة

توهم تناقض القرآن بشأن إيمان بعض الكافرين وعدم إيمانهم(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين وجود شيء من التناقض بين قوله ﷻ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ﴾ (الكافرون)، وقوله ﷻ: ﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ (العنكبوت: ٤٧).

٢. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ج٧، ص٣٨٦.

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

ويتساءلون: كيف يقرِّر الله في الآية الأولى على لسان نبيه ﷺ أن الكافرين لا يعبدون الله، ولن يعبدوه على سبيل التأبيد، في حين تفيد الآية الثانية أن من الكافرين من يؤمن بالله بعد كفره؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في القرآن الكريم.

وجها إبطال الشبهة:

١) الخطاب في الآية الأولى لجنس الكفار وليس لأشخاص معينين.

٢) وصفت الآية الكافرين بالجملة الاسمية التي تدل على الثبات، وقيل: إن كلمة "تعبدون" مع ما قبلها مصدرية تقديرها "عبادتكم".

التفصيل:

أولا. الخطاب في الآية الأولى لجنس الكفار، وليس لأشخاص بعينهم:

فقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ (الكافرون)، يدل ظاهره على أن الكفار المخاطبين بها لا يعبدون الله أبدًا، مع أن المتأمل في الآية الكريمة يجد أنه خطاب لجنس الكفار، وإن أسلموا فيما بعد فهو خطاب لهم ما داموا كفارًا، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك؛ لأنهم - حينئذ - مؤمنون وليسوا كافرين، وإن كانوا منافقين، فهم كافرون في الباطن، فيتناولهم الخطاب.

ويرى بعض العلماء أن الآية من العام المخصوص، فالخطاب في خصوص الأشقياء، الذين سبق في علم الله تبارك وتعالى أنهم يموتون على الكفر، وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦﴾ (يونس)[1]، فليس الحكم منسحبًا على المخاطبين جميعًا، بل على فئة بعينها من الكفار.

فهؤلاء الذين لا يعبدون الله في المستقبل هم الذين حق عليهم قضاء الله وقدره، فإنهم يستمرون على الكفر ويموتون عليه، لا يقع منهم الإيمان بأي حال من الأحوال، فقد سبق عنهم في علم الله ذلك. أما غيرهم من الكفار، فاحتمال إيمانه وارد.

ثانيًا. وصفت الآية الكافرين بالجملة الاسمية التي تدل على ثبات صفاتهم:

عبر القرآن على لسان النبي ﷺ في الجملة الأولى بقوله ﷻ: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ (الكافرون) بالفعل المضارع - في كل من الفعلين - الدال على الحال، أي: لا أعبد ما تعبدون بالفعل، ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ (الكافرون)، فعبر عنهم بالجملة الاسمية، وعنه هو بالفعلية، أي: ولا أنتم متصفون بعبادة ما أعبد، و بعد ذلك قال: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ (الكافرون)، فعبر عنه بأنه ليس مُتَّصِفًا بعبادة ما يعبدون، ولا هم عابدون ما يعبده، فكان وصفه هو ﷺ في الجملتين بوصفين مختلفين؛ بالجملة الفعلية تارة، وبالجملة الاسمية تارة أخرى، فكانت إحداهما لنفي الوصف الثابت، والأخرى لنفي حدوثه فيما بعد.

أما هم فلم يوصفوا في الآية إلا بالجملة الاسمية

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٦٩ بتصرف. البيان في درء التعارض بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مرجع سابق، ص٩٤.

التي تدل بطبيعتها على الثبات والاستقرار، أي: ثبات حال الكافرين، ولم يكن فيما وصُفوا به جملة فعلية من خصائصها التجدد والحدوث، فلم يكن فيها ما يتعرض للمستقبل[1].

وبهذا البيان اتضح لنا أن الذي تتناوله الآية هو الكافر الثابت على كفره إلى يوم الدين، لا الكافرون عمومًا.

وقيل: إن "تعبدون" مع ما قبلها مصدرية، أي أن "ما" مصدرية بمعنى: لا أعبد عبادتكم الباطلة، ولا تعبدون عبادتي الصحيحة، ودليل ذلك من السورة قوله ﷻ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (الكافرون)، فأحالهم على عبادتهم، ولم يُحِلْهم على معبودهم. ومما تبين يتضح لنا أن المقصود بقوله: "تعبدون" إنما هو عبادتكم الباطلة، وليس بمعنى الفعل المضارع الذي من خصائصه التجدد والاستمرار.

الخلاصة:

- ليس هناك تناقض بين آيات القرآن الكريم، ففي الموضع الأول يتناول الخطاب جنس الكفار بصفة عامَّة، وليس أشخاصًا بعينهم، وقد يكون هذا الموضع من العام المخصوص، فالخطاب في خصوص الأشقياء، أولئك الذين سبق في علم الله تبارك وتعالى أنهم يموتون على الكفر، أما غيرهم فإيمانه وارد في المستقبل.
- ولم يكن فيما وُصف به الكفار جملة فعليه من خصائصها التجدد والحدوث بل خوطبوا بالجملة الاسمية التي تصف الحال ولا تتناول المستقبل، وقيل أيضًا: إن لفظة "تعبدون" مع ما قبلها مصدرية، أي: "عبادتكم".

[1]. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ج٩، ص٥٨٢، ٥٨٣.

الشبهة السابعة عشرة

توهم تناقض القرآن بشأن مصير من اتخذ غير الإسلام دينًا (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قول الله تعالى: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (آل عمران: ٥٥)، وقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران: ٨٥). ويتساءلون: كيف يمدح الله الذين اتبعوا عيسى - وهم النصارى - في موضعٍ، مقرِّرًا أنه سيجعلهم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم يثبت في موضع آخر أن من يتخذ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى ادعاء أن القرآن الكريم من صنع البشر.

وجها إبطال الشبهة:

١) الإسلام توحيد الله، وعقيدته عقيدة كل الأنبياء، وشريعته خُتِمَت بها الشرائع السماوية، فوجب على كل أتباع الرسالات السابقة اتباعُها.

٢) من آمن بعيسى عليه السلام واتبعه فهو مسلم، فإذا بُعث محمد ﷺ لا يسعه إلا اتباعه.

(*) موقع المتنصرين. هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي. موقع إسلاميات.

التفصيل:

أولا. الإسلام هو دين التوحيد، وعقيدة كل الأنبياء، وشريعة ختمت بها الشرائع السماوية، فوجب على كل أتباع الرسل السابقين اتباعها:

الإسلام هو إخلاص الدين لله بالتوحيد، وهو إسلام الوجه لله تعالى، فلن يقبل الله من أحد دينًا غير الإسلام، وهو في الآخرة من الذين وقعوا في الخسران مطلقًا قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ (آل عمران)، فقد رفض الله ﷻ دين من أراد دينًا سوى دين الله، ذلك الدين الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادته وحده لا شريك له، والذي استسلم له من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا، فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهًا، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالف ولا يُمانع[1].

فالإسلام بوصفه عقيدة هو دين جميع الأنبياء والمرسلين قال ﷻ: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال عن إبراهيم: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال ﷻ: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾ (البقرة).

أما الإسلام كشريعة - قواعد وأحكام وآداب -، فقد حوى بعض مضامين شرائع الرسالات السابقة وخالفها في بعض آخر، وهو - بهذا المفهوم - الرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ، ووجب على الخلق أجمعين من يوم أن تصلهم دعوته أن يؤمنوا به ويطرحوا ما هم عليه من شرائع ومذاهب، وبالتالي فلن يقبل منهم بعد بعثة محمد ﷺ سوى الإيمان برسالته - الإسلام - عقيدة وشريعة، ومن ابتغى غيره باء بالخسران المبين.

فكل من آمن بنبيه وأطاعه فله الجنة، وأما بعد بعثة النبي ﷺ، فقد نسخت شريعته الشرائع ونسخ دينه الأديان، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فهذا معنى الآية الأخرى.

ويؤيد ذلك ما جاء عن سلمان أنه قال: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرتُ من صلاتهم وعبادتهم فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ (البقرة)[2]، وقال السدي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ (البقرة) نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، بينما هو يحدث النبي إذ ذكر

---

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٣٧٨.

٢. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٦٥)، تفسير سورة البقرة، رقم (٦٣٣).

أصحابه فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستُبعث نبيًّا. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله: "يا سَلْمان، هم من أهل النار"، فاشتد ذلك على سَلْمان، فأنزل الله هذه الآية[1].

فكان إيمان اليهود: أنه من تمسَّك بالتوراة وسُنَّة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى كان من تَمَسَّك بالتوراة وأخذ بِسُنَّة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكًا، وإيمان النصارى: أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنًا مقبولًا منه حتى جاء محمد، فمن لم يتبع محمدًا منهم ويدع ما كان عليه من سُنَّة عيسى والإنجيل كان هالكًا.

وهذا لا ينافي ما جاء عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (البقرة)، فأنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران)، فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يُقبل من أحد طريقةً ولا عملًا، إلا ما كان موافقًا لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه به، فأما قبل ذلك، فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدًى وسبيل ونجاة؛ فاليهود: هم أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم[2]، فلما بُعث عيسى وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، فلما بعث الله محمدًا خاتمًا للنبيين ورسولًا إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا.

ومن النصوص الصريحة في هذا الباب حديث أبي هريرة عن رسول الله أنه قال: "والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار "[3].

ثانيًا. من آمن بعيسى عليه السلام واتبعه فهو مسلم، فإذا بُعث محمد ﷺ لا يسعه إلا اتباعه:

في الآية: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥)، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم: إنني ناصر من اتبعك على الإسلام على الذين كفروا إلى يوم القيامة، وقيل: إن النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة، فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود في شرق أو غرب، فهم - أي اليهود - في كل بلد مستذلون، وقيل: إن عيسى مرفوع عند الله، ثم ينزل قبل يوم القيامة، فمن صدَّق عيسى ومحمد - عليهما السلام - وكان على دينهما، لم يزالوا ظاهرين على من فارقهم إلى يوم القيامة[4].

وذُكر أنه لما تأكد لعيسى عليه السلام عناد بني إسرائيل وإصرارهم على الكفر، أراد أن يميِّز بين أنصاره الذين

1. أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره (١/ ١٦٦)، تفسير سورة البقرة، رقم (٦٣٥).
2. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٨.
3. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (٤٠٣).
4. انظر: الدر المنثور، السيوطي، مرجع سابق، ج٢، ص٢٢٧.

آمنوا به من الكافرين، فقال لهم: من منكم ينصر دين الله، ويساعدني على تبليغ ما أُمرت به؟ فقال أصفياؤه وخلصاؤه - وكانوا اثني عشر رجلًا، وهم الحواريون -: نحن أنصار الله المخلصون لدعوته والمؤمنون بما جئت به، فاشهد بذلك لنا يوم القيامة، ثم توجهوا إلى الله تعالى أن يكتبهم مع الذين شهدوا بوحدانيته، وأقروا بربوبيته، واتبعوا رسول الله ﷺ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (آل عمران)، وقد دعا الله تبارك وتعالى أتباع النبي محمد ﷺ أن ينصروا دين الله، كما فعل الحواريون، قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ (الصف).

فأمر هؤلاء الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله عيسى عليه السلام، فقالوا: آمنا، واشهد بأنَّا مسلمون لك واشهد يا عيسى بأننا مسلمون لله، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ (المائدة) [1].

وقيل: إن المراد من قوله ﷻ: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥)، أنه جاعلهم فوقهم في كثير من مصالح الدنيا؛ لأن ذلك يصح الاشتراك فيه، دون ما يتصل بأمر الآخرة لأن ذلك مما لا يصح الاشتراك فيه بين المسلم والكافر، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران: ٥٥) [2]. أي يوم القيامة، وقد قال ﷻ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ (النساء)، فهذا في معنى تفضيل المؤمنين على الكافرين.

الخلاصة:

- لا تعارض بين الآيتين؛ إذ الإسلام هو إخلاص الدين لله بالتوحيد، وإسلام الوجه لله ﷻ، وهو دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادته وحده لا شريك له، فالإسلام عقيدة، وهو استمرار لعقيدة التوحيد التي تتابع بها الرسل من آدم إلى محمد - صلوات الله عليهم أجمعين -.
- أما الإسلام شريعة، فقد وافق بعض الشرائع السابقة في بعض الأحكام وخالفها في بعض آخر، وواجب على الخلق أجمعين أن يؤمنوا برسالة الإسلام عقيدة وشريعة - كما جاء بها محمد ﷺ - ويَدَعوا غيرها، ومن ابتغى غير ذلك خاب وخسر.
- الذين اتبعوا عيسى عليه السلام على فطرته وسُنَّته هم من أهل الإسلام، وهم الذين ناصروه وآزروه، وهم الذين يصدقون عيسى ومحمدًا - عليهما الصلاة والسلام - بعد نزول عيسى من السماء، وهم الحواريون المخلصون لدعوته والمؤمنون بما جاء به.

وقيل: إن المراد أن الله جعل الذين اتبعوا عيسى

---

١. دراسات في القرآن الكريم، د. محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م، ص٢١٨، ٢١٩.

٢. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص٨٦، ٨٧.

فوق الذين كفروا في كثير من مصالح الدنيا.

الشبهة الثامنة عشرة

توهم تناقض القرآن بشأن حرية العقيدة والإكراه عليها (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغرضين تناقض القرآن في قوله ﷻ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقوله ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ (الكهف: ٢٩)، مع قوله ﷻ: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة)، ويتساءلون: كيف يقرر القرآن في الموضع الأول والثاني حرية الاعتقاد، وأنه لا إكراه في الدين، ثم يأمر في الموضع الثالث بإكراه الناس على الدين وقتال الذين لا يؤمنون به؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في القرآن الكريم ووصفه بالتناقض.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الموضع الأول نزل في الأنصار خاصّة، ولكن حكمه شامل، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٢) الإسلام لم يُكره أحدًا على اعتناقه للعديد من الأسباب النبيلة.

٣) شَرَع الإسلام الحربَ والقتال لأهداف محددة ومشروعة، ولم تشرع لمجرد العدوان على الآخرين بدون وجه حق كما يدعي المبطلون.

التفصيل:

أولا. الموضع الأول نزل في الأنصار خاصّة، ولكن حكمه شامل، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

ورد عن سعيد بن جبير وغيره في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، أنه قال: نزلت في الأنصار خاصة؛ حيث كانت المرأة منهم إذا كانت مقلاتًا[١] وولدت ولدًا تنذر لتجعلنّه في اليهود ملتمسةً بذلك طول بقائه، فجاء الإسلام وفيهم من هؤلاء النسوة، فلما أُجليت النضير، قالت الأنصار: يا رسول الله، أبناؤنا وإخواننا فيهم!! فسكت عنهم رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، فقال النبي ﷺ: "خيِّروا أصحابكم، فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم، فأجلوهم معهم"[٢]. ولكن حكمها عام شامل الخلق كافة، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معروف في الأصول[٣].

ثانيًا. الإسلام لم يكره أحدًا على اعتناقه لكثير من الأسباب:

الإسلام لم يكره أحدًا على اعتناقه، وذلك يظهر جليًّا

(*) الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجمع البحوث الإسلامية، مرجع سابق.

١. المقلات: هي المرأة التي لا يعيش لها ولد.
٢. أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٤٠٩)، تفسير سورة البقرة، آية (٢٥٦)، برقم (٥٨١٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٣٣٩).
٣. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٢، ج٢، ص٢٧، ٢٨ بتصرف.

في العديد من الآيات الكريمة، كقوله ﷻ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقوله ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ (يونس)، وقوله ﷻ: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ ﴾ (الغاشية).

وهناك العديد من الأسباب التي جعلت الإسلام لم يكره أحدًا على اعتناقه، منها أن الإكراه:

- يقهر النفس الإنسانية ويذلها.
- يولد النفاق وينتج أفرادًا يتربصون بالأمة ويسارعون إلى خيانتها وتحطيمها من الداخل.
- يحطم الشخصية الإنسانية ويقتلها.
- يورث في القلوب الأحقاد، ويزرع في النفوس الضغائن.
- ينزع إلى النفور، ويرسّخ في النفس ردود الفعل والانفجار حين تسنح الظروف.
- يُسيء إلى سمعة الدعوة الإسلامية في الداخل والخارج.
- يجعل عمل المرء المُكْره غير مقبول عند الله تعالى؛ لأنه سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا له، والمُكْره على الإيمان خوفًا، لن يتوجه به إلى الله تبارك وتعالى خالصًا، وما كان كذلك من الإيمان فهو غير مقبول.

لهذا كله دعا الإسلام الناس جميعًا إلى الدخول فيه عن إيمان وقناعة واختيار، لا عن كره وإجبار، وأعلن على مسامع الدنيا شعاره الثابت[1]: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)[®].

ثالثًا. الإسلام شرع الحرب والقتال لأهداف محددة منها:

يشرح د. البوطي هذه الأسباب ذاكرًا منها:

١. دفع الظلم والعدوان عن أرض الإسلام لقول الله ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ (البقرة).

٢. المحافظة على العهود والمواثيق، فإذا كان بين دولة الإسلام وإحدى الدول الأجنبية عهود أو مواثيق، وأخلَّت تلك الدولة بتلك العهود، كان ذلك مُسوِّغًا لقتالها لقول الله ﷻ: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ ﴾ (التوبة)، ويُفهم من هذه الآية أن المشركين إذا نقضوا عهدهم جاز قتالهم.

٣. إزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة الإسلامية، فمن المعلوم أن دعوة الإسلام دعوة عالمية، وأن بعثة النبي ﷺ للناس كافَّة، ومعنى هذا أنه يجب أن تصل إلى كل أمة وأن تدخل كل بلد، فكل من يقف في طريق الدعوة ويصد عن تبليغها من طواغيت متجبرين وحكام متألهين، يجب أن يزاحوا عن الطريق؛ حتى تصل الدعوة إلى الشعوب نقيَّة صافية واضحة، والشعوب هي التي تقرر مصيرها؛ إن شاءت أن تدخل

---

١. حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ط٤، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣١: ٣٣.

® في "**لا إكراه في الدين**" طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١). وفي "**دلالة انتشار الإسلام في عصور الضعف على اعتناقه طواعيةً**" طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

في الإسلام عن طواعية واختيار، وإن شاءت أن تبقى على دينها وتدفع الجزية إلى الدولة الإسلامية مقابل حمايتها من العدوان.

ومما يؤكد أن الهدف من القتال هو إزاحة الطواغيت والحكام المتألهين، موقف رِبْعِي بن عامر مع رستم قائد جيش الفرس حين تحدَّاه، وقال: "إنما بعثنا من أجل أن نخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام"، ولو كان الإسلام يفرض وجوده واعتناقه بقوة السيف والإكراه لما قَبِلَ الرسول ﷺ الجزية من صاحب "أيلة" وهي بلدة بفلسطين تُعرف الآن بإيلات، ومن أهل "جَرْباء"، ومن أهل "أَذْرُح" بعد أن انسحبت أمامه جَحافل[1] الروم يوم خرج لقتالهم يوم تبوك، فإن طبيعة النصر تدفع المرء إلى الظفر بأكبر قسط منه، ولكن رسول الله ﷺ أبى أن يحارب أهل هذه البلاد لما وجد جنوحهم إلى السلم؛ امتثالًا لقوله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال) [2].

وبهذا الشأن وتحت عنوان "شبهة آية السيف" كتب د. عبد الصبور مرزوق ـ مُفنِّدًا هذه المقولات الظالمة في حق الإسلام، ومزيلًا شبهة التناقض وحالة الالتباس المُثارة في هذا الشأن ـ فقال: " كثيرون من المبشرين والمستشرقين الظالمين للإسلام يقولون: إن الإسلام شرع القتال ـ الجهاد ـ لحمل الناس على الدخول فيه بالقوة، وإنه انتشر بحد السيف. ويستدلون بأن في القرآن آية تعارَفَ المفسرون المسلمون على أن يسموها "آية السيف"، وأنها نَسَخَت مائة وعشرين آية من القرآن تسمح أو تدعو إلى الرفق والمسالمة. وهنا تكون لنا وقفة: فقد أشرنا من قبل إلى أن الواقع في بلاد الإسلام يؤكد أنه دخل وانتشر في بلاد لم تدخلها أي جيوش مسلمة ولا حدثت فيها أي معارك قتال. ومنطقة شرق وجنوب شرق آسيا كلها خير شاهد على ذلك وكذلك مناطق وسط أفريقيا وجنوبها الشرقي والغربي، فهذه شهادة الواقع على بطلان هذه المقولة.

ونعود إلى الآية التي سموها "آية السيف"، فقد قال بعضهم: إنها قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (التوبة)، وواضح من منطوقها أنها تدعو المسلمين إلى التعامل مع أعدائهم بالمثل: كما يقاتلونكم فقاتلوهم كذلك. وقال آخرون: إن هذه الآية هي قول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ (التوبة)، يقول د. يوسف القرضاوي: وهذه الآية نزلت في مشركي العرب الذين نكثوا العهد وأخرجوا المسلمين من ديارهم وبادروهم بالقتال. وهذا ما يشير إليه قوله ﷻ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم

---

١. الجحافل: جمع الجَحْفَل، وهو الجيش الكبير.

٢. حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الله ناصح علوان، مرجع سابق، ص٤٣: ٤٩ بتصرف.

بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ (التوبة).

ويضيف د. يوسف القرضاوي: وقبل هذه الآية نقرأقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (التوبة)، ويأتي بعدها قوله ﷻ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (التوبة)، فالسياق لا يتحدث عن أي عدوان ولا عن أي قتال، إلا مع الذين نقضوا العهد أو أعانوا الأعداء على قتال المسلمين، ولا أظن أحدًا ـ مسلمًا أو غير مسلم ـ ينكر هذا الحق في مواجهة من ينقض العهد أو يساعد العدو، فشأنه في هذه الحالة شأن عدو تجب مواجهته.

ونعود إلى آية السيف ـ وما زلنا مع بحث د. القرضاوي ـ فقد قال آخرون: إن آية السيف هي قوله ﷻ: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة)، وهذه الآية نزلت بعد غزوة تبوك، التي كانت في قتال مع دولة الروم البيزنطية، وواضح من قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أن المراد: حتى لا يعودوا إلى قتالكم مرة أخرى، ويخضعوا للدولة الإسلامية ويدفعوا لها ضريبة حمايتهم.

على أنَّ مما يوضح أن مقولة "آية السيف"، واعتبارها دليل إدانة للإسلام، هي في حقيقتها مقولةٌ ظالمة وتهمةٌ ساقطة ـ قوله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنفال)، وبعدها قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأنفال).

وخلاصة القول هي سقوط شبهة ومقولة: إن الإسلام دين السيف، أو إنه انتشر بحدِّ السيف.

ومما تجدر الإشارة إليه أن في القرآن آيتين في سورة "الممتحنة" تشكلان إطارًا عامًّا متوازنًا يحدد علاقة المسلمين بغير المسلمين في رؤية أخلاقية منصفة لطرفي التعامل ـ مسلمين وغير مسلمين ـ جوهرها: نسالم من يسالمنا، ونعادي من يعادينا. والآيتان الكريمتان هما قوله ﷻ: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الممتحنة)، وأعتقد أنكم ترون ـ كما أرى ـ أن هذا الضابط الأخلاقي والإنساني العادل والمتوازن الذي حدَّدته الآيتان السابقتان أعظم شاهد على إنصاف الإسلام لنفسه وللآخرين، لا يرفضه إلا من يكون العدوان بعض طباعهم فيعتدون ويعتدون، فإذا قام المُعتدَى عليهم بردِّ هذا العدوان صرخوا: هذا إرهابي يمارس الإرهاب، ومن حقِّنا أن نسحقه ونسقي الأرض من دمه؟!

ألا ترون معي أن الإسلام في تعامله مع الآخرين عادل ومنصف وعظيم، وأنه يحفظ ويرعى حقوق الآخرين، ولا يُفرِّط كذلك في حقه وحق أتباعه،

ومعياره في كل ذلك هو رعاية الحق والعدل[1] ®.

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين الآيات التي استدل بها هؤلاء على زعمهم، وذلك للآتي:

- المقصود بالموضع الأول أنه خصوصية للأنصار؛ لأنه كان من أبنائهم وإخوانهم من يعيش بين اليهود؛ ملتمسين بذلك طول بقائه، فلما اعتنقوا الإسلام، أرادوا أن يُكرهوهم على الإسلام، فأبى النبي ﷺ ذلك، ونزلت الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ ورغم ذلك، فإن الآية تنطبق على كافة الخلق؛ لأن حكمها عامٌّ وشامل؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
- الإسلام لم يُكْرِه أحدًا على الدخول فيه لأسباب عديدة، منها أن الإكراه:
  - يقهر النفس الإنسانية ويُذِلُّها.
  - يحطِّم الشخصية الإنسانية ويقتلها.
  - يورث في القلوب الأحقاد.
  - يجعل إيمان المرء المكره غير مقبول عند الله.
  - يزرع النفاق في المجتمع وينتج أفرادًا متربصين خَوَنة.
  - يُسيء إلى سمعة الدعوة الإسلامية.
  - يرسخ في النفس ردود الفعل والانفجار حين تسنح الظروف.
- الإسلام شرع الحرب والقتال لأهداف محددة منها:
  - رد الظلم والعدوان عن أرض الإسلام.
  - المحافظة على العهود والمواثيق.
  - إزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة الإسلامية.

الشبهة التاسعة عشرة

توهم تناقض القرآن بشأن القسم بالأماكن والأزمان (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قول الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ (النجم) مقسمًا بالنجم، وقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ (التين) مقسمًا بمكة المكرمة، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ (البروج) مقسمًا بيوم القيامة، وبين قوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ (الواقعة) مقسمًا بمواقع النجوم، وبين قوله ﷻ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ (البلد)، وقوله ﷻ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ (القيامة)، ويتساءلون: كيف يقسم الله بشيء في موضع، ثم ينفي هذا القَسَم في موضع آخر؟ ويرمون من وراء ذلك إلى التأكيد على أن القرآن الكريم

---

1. رسائل إلى عقل الغرب وضميره، د. عبد الصبور مرزوق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٥٣: ٢٥٦.

® في "**أهداف القتال في الإسلام والحكمة من مشروعيته**" طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية. والوجه الأول، من الشبهة الرابعة. والوجه الأول، من الشبهة العاشرة؛ من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

من صنع البشر.

وجه إبطال الشبهة:

للعلماء في معنى "لا" أربعة أوجه:

- "لا" صلة أو زائدة، والمعنى على الإثبات فلا نفي فيه.
- "لا" رد لكلام المشركين المكذبين للنبي ﷺ، وقوله"أقسم" إثبات مستأنف.
- "لا" لنفي ما ينبئ عنه القسم من إعظام المقسَم به وتفخيمه.
- "لا" اللام للابتداء، وإنما أشبعت فتحتها فتولَّد عنها ألف، وهذا مشهور في لغة العرب.

التفصيل:

للعلماء في معنى "لا" أربعة أوجه يفصلها د. أنور الحديدي على النحو الآتي:

أن الله ﷻ أقسم بالبلد الأمين، وبيوم القيامة، وبمواقع النجوم، ويكون الكلام في "لا" واحدًا من أربعة أوجه:

الأول: أن "لا" صلة أو زائدة على عادة العرب، فإنها ربما لفظت بلفظة "لا" من غير قصد النفي، بل لتقوية الكلام وتوكيده كقول موسى عليه السلام - فيما حكاه القرآن الكريم - لأخيه هارون عليه السلام لما وجد قومه عبدوا العِجْل في غيبته: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾ (طـه)، يعني: أن تتبعن.

وقوله تعالى لإبليس لما امتنع من السجود لآدم كما أمره الله: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (الأعراف: ١٢)، أي: أن تسجد، بدليل قوله ﷻ: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ (ص: ٧٥)، وقوله تعالى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الحديد: ٢٩)، أي: ليعلم أهل الكتاب، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء)، أي: فوربك.

ووردت زيادة "لا" في الشعر كثيرًا، كقول العجاج:

في بئرِ لا حُورٍ سَرى وَما شَعَر

بإفكِهِ حَتّى رَأى الصُّبحَ جَشَر[1]

فالحور: الهلكة، يعني: في بئر هلكة و "لا" زائدة.

الثاني: أن "لا" رد لكلام المشركين المكذبين للنبي ﷺ، وقوله: "أُقْسِمُ" إثبات مستأنف كقول القائل: لا والله. "فلا" رد لكلام تقدمها، ومنه قول الشاعر:

فلا وَأَبيكَ اِبنَةَ العامِرِي

لا يَدَّعي القَومُ أَنّي أَفِر

ولكن ضُعِّفَ هذا الوجه بأن حذف اسم "لا" وخبرها غير جائز.

الثالث: أن "لا" للنفي، ولكن لا تنفي القسم، بل تنفي ما يُنبئ عنه من إعظام المُقْسَم به وتفخيمه، كأن معنى: لا أُقْسِمُ بكذا: لا أعظمه بإقسامي به، فإنه عظيم في نفسه، أقُسم به أو لا، وهذا القول ذكره الزمخشري والألوسي.

الرابع: أن اللام لام الابتداء، والأصل: لأقسم،

---

١. جَشَر: طلع.

أُشْبِعَت فتحتها فتولدت منها ألف، والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف، والكسرة بياء، والضمة بواو.

فمثاله في الفتحة قول الراجز:

إذا العَجُوزُ غَضِبَتْ فَطَلِّقْ

وَلَا ترضاها وَلا تَمَلَّقْ

فالأصل: ترضها؛ لأن الفعل مجزوم بلا الناهية.

وفي إشباع الكسرة بالياء قول قيس بن زهير:

أَلَمْ يَأتِيكَ وَالأَنباءُ تَسْرِي

بِمَا لَاقَتْ لَبُون بني زِياد

فالأصل: يأتك؛ لوجود الجازم.

وفي إشباع الضمة بالواو قول الراجز:

لَوْ أَنَّ عَمْرًا هَمَّ أَنْ يَرْقُودَا

فَانْهَضْ فَشُدَّ المِئْزَرَ المَعْقُودَا

يعني: يرقد، ويدل لهذا الوجه قراءة الحسن والأعشى "لأقسم" من غير ألف. والوجه الأول أرجحها جميعها[1].

وقال علماء اللغة: إن هذا القسم يفيد تعظيم المقسوم به، كما في سورة البلد، وكما في قوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ (الواقعة)، وكقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ (القيامة)، فهذه كلها أقسام.

وليس هذا من دقائق اللغة، وإنما هو من أوّلياتها، ولكن القوم لا يعلمون، وإذا اعتبرت "لا" نافية والجملة خبرية فهي مقيَّدة؛ أي: لا أقسم به و أنت حِلٌّ به، ولكن أقسم به وأنت غير حلٍّ به، فلا تناقض أيضًا.

الخلاصة:

أن لا تعارض بين الآيات التي يقسم الله ﷻ فيها بمكة ويوم القيامة ومواقع النجوم، وبين الآيات التي يُوهِم ظاهرها بعدم القسم؛ لأن "لا" في هذه الآيات لا تخرج على أربعة أوجه:

- إما أنها صلة أو زائدة ونُطِقَت لغير قصد النفي، بل التوكيد.
- وإما أنها ردٌّ لكلام المشركين المكذبين للنبي ﷺ.
- وإما على أنها لنفي ما ينبني عليه القسم من إعظام المقسم به وتفخيمه.
- وإما على أن اللام لام الابتداء، أُشْبِعَتْ فتحتها، وهذا مشهور في كلام العرب.

الشبهة العشرون

توهم تعارض القرآن بشأن قدر تفضيل المجاهدين على القاعدين (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغرضين أن هناك تعارضًا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾

1. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٨٦: ٨٨ بتصرف.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦ ﴾ (النساء). ويتساءلون: كيف يقرر القرآن في الآية الأولى تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة واحدة، وفي الآية الثانية يصرِّح بتفضيل المجاهدين على القاعدين درجات؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى القول بأن القرآن ليس من عند الله ما دام فيه هذا التعارض.

وجه إبطال الشبهة

فَضَّل الله المجاهدين بالمال والنفس درجة على القاعدين غير أولي الضرر، في حين أنه ﷻ فَضَّل المجاهدين على بعضهم درجات، فمن نال كل الدرجات فقد نال درجة ـ أي: منزلة ـ عظيمة، ومن نال بعضها فقد نال درجة أقل، فلا تعارض بين الآيتين.

التفصيل:

فَضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولي الضرر درجة، في حين أنه ﷻ فَضَّل المجاهدين على بعضهم البعض درجات:

إن الفهم الصحيح لمعنى الآيتين ينفي شبهة التعارض بينهما؛ فالمقصود بالآية الأولى أنه ليس من العدل أن يستوي المجاهدون وغير المجاهدين في الثواب الدنيوي والأخروي، فللذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﷻ درجة فوق الذين لا يجاهدون بالمال ولا بالنفس، أما أصحاب الأعذار الشرعية التي تمنعهم من الجهاد، فلا يدخلون في هذه المفاضلة؛ لأن أعذارهم كانت بمثابة الرُّخصة التي ترفع عنهم حرج الجهاد في سبيل الله مثل غيرهم من الأصِحَّاء.

ومما يؤكد هذا الفهم ما ذكره ابن عاشور في تفسير هذه الآية؛ إذ يقول: إن القاعد عن الجهاد لا يساوي المجاهد في فضيلة نُصْرة الدين ولا في ثوابه على ذلك، فتعيَّن التعريض بالقاعدين وتشنيع حالهم، وبهذا يظهر موقع الاستثناء بقوله: ﴿ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ (النساء: ٩٥)؛ كيلا يحسب أصحاب الضرر أنهم مقصودون بالتحريض فيخرجوا مع المسلمين، فيُكلِّفوهم مؤونة نقلهم وحفظهم بلا جدوى، أو يظنوا أنهم مقصودون بالتعريض فتنكسر لذلك نفوسهم زيادة على انكسارها بعجزهم، ولأن في استثنائهم إنصافًا لهم وعذرًا بأنهم لو كانوا قادرين لما قعدوا.

ومما يؤكد هذا، ما جاء عن زيد بن ثابت أنه قال: نزل الوحي على رسول الله وأنا إلى جَنْبه، ثم سُرِّي عنه[1] فقال: اكتب، فكتبت ـ وكان زيد من كُتَّاب الوحي ـ: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم)، وخَلْف النبي ﷺ ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، فنزلت مكانها: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ ﴾ (النساء:٩٥)[2]. فابن أم مكتوم فهم المقصود من نفي الاستواء، فظن أن التعريض يشمله وأمثاله، فإنه من القاعدين؛ ولأجل هذا الظن عُدِل عن حراسة المقام إلى صراحة الكلام[3].

---

١. سرِّي عنه: ذهب ما به من هَمٍّ.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ (النساء: ٩٥) (٢٦٧٧)، وفي موضع آخر.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ج٣، ص١٧٠.

ومعنى كلمة "درجة" التي فضَّل الله ﷻ بها المجاهدين على القاعدين هي المنزلة، وليس معناها الإفراد، بل يقصد بها الجنس المعنوي، قال ابن عاشور: والدرجة هنا مستعارة للعلو المعنوي كما في قوله ﷻ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾ (البقرة)، والعلو المراد هنا علو الفضل ووفرة الأجر، وجيء بـ"درجة" بصيغة الإفراد، وليس إفرادها للوحدة، لأن درجة هنا جنس معنوي لا إفراد له، ولذلك أُعيد التعبير عنها في الجملة التي جاءت بعدها ـ تأكيدًا لها ـ بصيغة الجمع بقوله: (درجات منه): لأن الجمع أقوى من المفرد، وتنوين "درجة" للتعظيم، وهو يساوي مفاد الجمع في قوله ﷻ: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ (النساء: ٩٦) [(١)].

وكما فضَّل الله تعالى المجاهدين على القاعدين غير أولي الضَّرر في المنزلة، فقد فضَّل الله أيضًا بعض المجاهدين على بعض منازل ـ درجات ـ، فكلٌّ يُثاب حسب عمله، ولذلك قال ﷻ: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)﴾ (النساء)، ويعلِّق الشيخ الشعراوي على هذه الآية فيقول: فالله ﷻ قد أعطى لأولي الضرر درجة، وفضَّل المجاهد في سبيل الله على القاعد من غير أولي الضرر درجات عدة، وساعة نسمع كلمة "درجة" فهي المنزلة، والمنزلة لا تكفي فقط للإيضاح الشامل للمعنى، ولكن هي المنزلة الارتقائية.

ولكن: هل تلك الدرجات لكل المجاهدين؟!

بالطبع لا؛ لأننا لا بد أن نلحظ الفرق بين الخروج من الوطن وترك الأهل للجهاد، وبين عملية الجهاد في ذاتها، فعملية الجهاد في ذاتها تحتاج إلى هِمَّة إيمانية،

١. المرجع السابق، ص١٧١، ١٧٢.

ولذلك جاء الحق بنص في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾ (التوبة).

هنا يوضح الحق أنه لا يصحُّ لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله، ولا يرضوا لأنفسهم بالدَّعة والراحة ورسول الله ﷺ في الشِّدَّة والمشقَّة، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا؛ لأن الثواب كبير، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح، ولا يُعَانُون من جوع إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح، ولا يسيرون في مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح، ولا ينالون من عدو نيلًا إلا ويكتبه الله لهم عملًا صالحًا، فسبحانه يجزي بأحسن ما كانوا يعملون.

وقام العلماء بحصر تلك العطاءات الربانية، بسبع درجات؛ فواحد ينال الدرجات جميعًا، وآخر أصابه ظمأ فقط فنال درجة الظمأ، وآخر أصابه نَصَب[(٢)] فأخذ درجة النصب، وثالث أصابته مخمصة[(٣)]، ورابع جمع ثلاث درجات. وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجدها:

٢. النَّصَب: التعب.

٣. مَخْمَصة: الجوع الشديد.

١. الإصابة بالظمأ.

٢. النَّصَب.

٣. الجوع.

٤. لا يطأون موطئًا يغيظ الكفار، أي: لا ينزلون في مكان يتمكن فيه المسلمون منهم ويبقون عليهم سلطانهم.

٥. النيل - التنكيل - بالعدو.

٦. النفقة الصغيرة والكبيرة.

٧. قطع أي وادٍ في سبيل الله.

هذه هي الدرجات السبع التي يجزي الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها كما فسرها العلماء، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة، وكل مجاهد على حسب ما بذل[1].

الخلاصة:

- لا تعارض بين الآيتين كما يدعي أصحاب هذه الشبهة، فالآية الأولى تقرر تفضيل الله ﷻ للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير ذوي الأعذار درجة، أي: منزلة عظيمة، في حين أن الآية الثانية تؤكد على تفضيل الله ﷻ للمجاهدين على بعضهم درجات، كلٌّ على قَدْر سعيه.

- حصر العلماء العطاءات الربانية الواردة في الآيتين رقم ١٢٠، ١٢١ من سورة التوبة بسبع درجات، قد تُنال كلها أو يُنال بعضها حسبما يقوم المجاهد، وهذه الدرجات السبع بعض عطاء الله للمجاهدين فقد جاء عن النبي ﷺ أن للمجاهدين في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، كل هذا الفضل لعظم ما يقوم به المجاهد في سبيل الله.

الشبهة الحادية والعشرون

توهم تناقض القرآن حول مصدر الحسنة والسيئة (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨)، وقوله ﷻ: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ (النساء). ويتساءلون: كيف يذكر القرآن في الموضع الأول أن مصدر الحسنة والسيئة هو الله ﷻ، ويقرِّر في الموضع الآخر أن السيئة من عند البشر؟ ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في القرآن والقول بتناقضه.

وجه إبطال الشبهة:

معنى الحسنة والسيئة في الآيتين مختلف؛ إذ إن:

- المراد بالحسنة والسيئة في الموضع الأول هو النِّعم والمصائب.

- المراد بالحسنة والسيئة في الموضع الثاني هو الطاعة والمعصية، أو النصر والهزيمة.

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص١٧١، ١٧٢.

(*) الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى، ابن حزم، دار العروبة، مصر، ١٩٦٠م.

التفصيل:

معنى الحسنة والسيئة في الآيتين مختلف؛ إذ إن:

١. المرد بالحسنة والسيئة في الموضع الأول هو النِّعم والمصائب:

المراد بالحسنة في الموضع الأول هو الخصب والرخاء، وبالسيئة الشدة والأمراض، فقد كانوا يقولون في مثل ذلك: إنها بشؤم محمد ﷺ؛ ينفِّرون العوام عن اتباعه، ورد الله عليهم قولهم بقوله ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨)، أي: النعم من عند الله، وأيضًا الشدة والمصائب من عند الله[١].

٢. المراد بالحسنة والسيئة في الموضع الثاني هو الطاعة والمعصية، أو النصر والهزيمة:

المراد بالحسنة في الموضع الثاني ما فتح الله على النبي ﷺ يوم بدر، وما أصاب من الغنيمة والفتح فمن الله، وما أصابه يوم أحد، أن شُجَّ وجهُه، وكُسرت رباعيته، وما كانت من نكبة فبذنبك، أي: بذنوب البشر.

ويعلق القاضي عبد الجبار على الآية الثانية قائلًا: وأراد بذلك ما يفعله المرء من الطاعة والمعصية، ولولا صحة ما ذكرناه لكان الكلام متناقضًا، ولقالت العرب لرسول الله ﷺ: أنت تزعم في القرآن أنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، وقد وجدنا ذلك، وإنما عدلوا عن هذا القول؛ لأن المراد بالأول - أي: الآية الأولى - المصائب والأمراض، وبالثاني - أي: الآية الثانية - المعاصي، فأضافها إلى نفس الإنسان[٢].

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين الآيتين، فالحسنة في الآية الأولى هي النِّعم والرخاء، والسيئة هي الشدة والمصائب، وهذا كله من عند الله. أما الحسنة في الموضع الآخر فهي الطاعة أو النصر، فهذا من عند الله ﷻ والسيئة هي المعصية أو الهزيمة، وهذه تكون من عند البشر؛ حيث إنهم بمعصيتهم يجلبون الهزيمة لأنفسهم، وبذلك البيان يبطل هذا الادعاء.

الشبهة الثانية والعشرون

توهم تناقض القرآن حول رؤية الله ﷻ بالأبصار(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تعارضًا بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القيامة)، وبين قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ (المطففين)، وقوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ (الأنعام). ويتساءلون: كيف يُصرِّح القرآن في موضع

---

١. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص١٢٣.

٢. المرجع السابق، ص١٢٣.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مرجع سابق.

بإمكان رؤية الله تبارك وتعالى بالأبصار، بينما ينفي ذلك في موضع آخر؟ ويعتبرون هذا التعارض على حد قولهم دليلًا على بشرية القرآن.

وجها إبطال الشبهة:

١) رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة حقيقة ثابتة، أما معنى قوله ﷻ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ أي: لا تحيط به وبكنهه جل وعلا، أو لا تدركه في الدنيا، وعدم الإدراك بالأبصار في الدنيا لا ينافي الرؤية في الآخرة، أو أن الآية من العام المخصص.

٢) اختلف العلماء حول حقيقة رؤية النبي ﷺ لله ﷻ ليلة الإسراء والمعراج، فمنهم من أثبت ذلك، ومنهم من نفاه، والراجح أن رؤية النبي لله ثابتة.

التفصيل:

أولا. حقيقة رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة:

رؤية المؤمنين لربهم ﷻ حقيقه لا مِراء فيها، بَيْد أن سوء الفهم وخُبْث الطَّوِيَّة[1] يؤديان بصاحبهما إلى نفي ذلك والوقوف عند ظاهر الآيات، فعن حقيقة الرؤية يقول د. أبو النور الحديدي:

إن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة كما نطقت بذلك آيات، منها قوله ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ (القيامة)، وقوله ﷻ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس: ٢٦)، والحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، وقوله ﷻ: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ (المطففين)، وهي في حق الكفار، فيُفهم أن المؤمنين ليسوا محجوبين عن ربهم. وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة عن نبينا ﷺ، ومنها ما جاء عن صهيب عن النبي ﷺ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا، ألم تُدخلنا الجنة، وتُنجنا من النار، قال: فيُكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ"[2].

ولقد أخطأ من زعم أن الله ﷻ لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلًا؛ وذلك أن الرؤية ـ عندهم ـ تتوقف على اتصال الأشعة بالمرئي، وتستلزم أن يكون المرئي في جهة، وأن يكون مقابلًا للرائي، وكل هذا لا يجوز على الله تعالى.

ويُردُّ على شبههم هذه بما قاله أهل الحق من أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى في خلقه، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة، ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك، لكن جرت العادة في رؤية بعضنا بعضًا بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط، كما لا يلزم من رؤية الله ﷻ إثبات جهة له ـ تعالى عن ذلك ـ، بل يراه المؤمنون لا في جهة، كما يعلمونه.

وقد ذهب الذين اعتمدوا على اتصال الأشعة بالمرئي، وكونه في جهة حتى يمكن رؤيته إلى قولين كلاهما خطأ:

١. فسروا قوله ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ (القيامة)، بمعنى: منتظرة، وأن المؤمنين ينتظرون ما لهم عند الله من الثواب والنعمة. وهذا التفسير خطأ؛

---

١. الطَّوِيَّة: النية.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (٤٦٧).

لأنه لا يُقال: نظر إلى كذا، بمعنى: انتظر، وأن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، وإذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته، لا نظرت إليه.

٢. وأما تمسكهم بالآية الكريمة وهي: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣) على أن الإدراك هو الرؤية، فالآية تنفي رؤية الأبصار لله ﷻ، وهو خطأ إذا حُمل على الإطلاق؛ إذ معنى قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ يُحمل على أحد الوجوه الآتية:

الوجه الأول: نفي الإحاطة بالكُنْه:

يُرد على هؤلاء بأن الإدراك المنفي في الآية هو الرؤية مع إحاطة بالكُنْه، أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه، بل هو ثابت بالآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة، واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك، فمعنى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾: لا تحيط به، كما أنه تعالى يعلمه الخلق ولا يحيطون به علمًا، كما في قوله تعالى عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ (يونس: ٩٠) أي: أحاط به من كل جانب.

ومعلوم أن نفي الأخصِّ لا يستلزم نفي الأعمِّ، فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية، فالله تعالى يراه المؤمنون في الآخرة، ولا يدركون كنهه.

الوجه الثاني: لا تدركه الأبصار في الدنيا:

فلا ينافي الرؤية في الآخرة، ورؤية الباري سبحانه في الدنيا جائزة عقلًا؛ لأن كل موجود يجوز أن يُرى عقلًا، وسؤال موسى عليه السلام إياها دليل على جوازها؛ إذ لا يجهل نبي ما يجوز وما يمتنع على ربه.

الوجه الثالث: ما ذهب إليه بعض العلماء من أن الآية من العام المخصص: فمعنى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣): لا تدركه جميع الأبصار، وهذا عام مخصوص بما ثبت من رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة[1].

ثانيًا. اختلاف العلماء حول حقيقة رؤية النبي ﷺ لله ﷻ في ليلة الإسراء والمعراج:

أما وقوع الرؤية في الحياة الدنيا، فقد اخْتُلف فيها، قال القاضي عياض - رحمه الله -: اختلف السلف والخلف: هل رأى نبينا ﷺ ربه ليلة الإسراء؟ فأنكرته عائشة - رضي الله عنها - كما وقع في صحيح مسلم.

فقد جاء عن مسروق أنه قال: كنت متكئًا عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث من تكلَّم بواحدة منهن، فقد أعظم على الله الفِرْيَة[2]، قلت: ما هُنَّ؟ قالت: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئًا، فجلست فقلت: يا أم المؤمنين، أنظريني[3] ولا تُعجليني، ألم يقل الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (التكوير)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ (النجم)، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: "إنما هو جبريل، لم أَرَه على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء، سادًّا عِظَم خَلْقِه ما بين السماء والأرض، فقالت: أولم تسمع أن الله يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٨٩: ٩٤ بتصرف.
٢. الفِرْية: الكذب.
٣. أَنْظِريني: أمهليني.

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ (الأنعام)، أولم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ٥١﴾ (الشورى)؟! قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (المائدة: ٦٧)، قالت: ومن زعم أنه يُخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥)[1].

وقد خالف عائشة ابن عباس رضي الله عنهما من الصحابة، فعنه أن نبينا ﷺ رأى ربه بعينه[2]، وجاء عنه: أنه رآه بفؤاده مرتين[3].

فكيف يكون التوفيق إذن بين حديث عائشة وحديث ابن عباس؟

يُرجِّح النووي مذهب ابن عباس، ويجيب عن الآيتين اللتين استندت إليهما عائشة فيقول: الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء؛ لحديث ابن عباس وغيره، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ، هذا مما لا ينبغي أن يُتشكَّك فيه.

ثم إن عائشة - رضي الله عنها - لم تَنْفِ الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ، ولو كان معها فيه حديث لذكرته، وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات، ويوضح الجواب عنها بالآتي:

- أما احتجاج عائشة بقول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) فجوابه ظاهر، فإن الإدراك هو الإحاطة، والله تعالى لا يُحاط به، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة.
- وأما احتجاجها - رضي الله عنها - بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ٥١﴾ (الشورى)؛ فالجواب عنه من أوجه:

أحدها: أنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام.

الثاني: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة.

الثالث: ما قاله بعض العلماء: أن المراد بالوحي: الكلام من غير واسطة وهذا الذي قاله هذا القائل وإن كان محتملًا، ولكن الجمهور على أن المراد بالوحي هنا: الإلهام والرؤية في المنام، وكلاهما يُسمَّى وحيًا.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ (الشورى: ٥١)، فقال الواحدي وغيره: معناه: غير مجاهر لهم بالكلام، بل يسمعون كلامه تعالى من حيث لا يرونه، وليس المراد: أن هناك حجابًا يفصل موضعًا من موضع، ويدل على تحديد المحجوب، فهو بمنزلة ما يُسمع من وراء حجاب حيث لم ير المتكلم[4].

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣﴾ (النجم: ١٣) (٤٥٧).

٢. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي، كتاب الإيمان، باب معنى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣﴾ (النجم: ١٣) (٣/ ٤).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣﴾ (النجم: ١٣) (٤٥٥).

٤. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٨٩ وما بعدها.

الخلاصة:

- من الثابت شرعًا وعقلًا أن رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة حقيقة لا خلاف عليها بين أهل العلم، وهذا ما أكدت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وإجماع أهل العلم من السلف والخلف.
- فسَّر أهل العلم قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، عدة تفسيرات، منها أن:
  - الرؤية ثابتة حقيقة، مع عدم الإحاطة بِكُنْه الله سبحانه وتعالى، فكل ما خطر ببال المرء عن ذات الله فهو خلافه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ (الشورى).
  - لا تدرك الأبصار الله ﷻ في الدنيا وهذا لا ينافي رؤيته في الآخرة.
  - يرى بعض العلماء أن الآية من العام المخصوص، أي: لا تدركه جميع الأبصار، وهذا عام المخصوص بما تثبت من رؤية المؤمنين له في الآخرة.
- اختلف العلماء حول حقيقة رؤية النبي ﷺ الله ﷻ ليلة الإسراء والمعراج، ففريق ينفي هذه الرؤية، ويستدل هؤلاء بحديث للسيدة عائشة - رضي الله عنها - تنفي ذلك، وفريق يثبت الرؤية على الحقيقة، ومن هؤلاء ابن عباس وغيره، والراجح أن رؤية النبي ﷺ الله ﷻ ليلة الإسراء والمعراج ثابتة على الحقيقة، وليست من وراء حجاب كما يعتقد بعضهم.

الشبهة الثالثة والعشرون

ادعاء تناقض القرآن حول عدد ملائكة المدد في غزوة بدر(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين وجود تناقض بين قوله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ (الأنفال)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ (آل عمران). ويتساءلون: كيف يشير القرآن إلى أن عدد الملائكة في غزوة بدر كان ألفًا في موضع، ثم يفيد في موضع آخر أن عددهم كان ثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف؟ ويرمون من وراء ذلك إلى القول ببشرية القرآن؛ لأنه لو كان من عند الله لما وُجِدَ فيه هذا التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

اختلف المفسرون حول المقصود بمدد الله بالملائكة في سورة آل عمران إلى رأيين:

- أن المدد فيها كان لأهل بدر، ويكون المعنى: أن الله أمدَّ المسلمين بألف كما في سورة الأنفال، ثم أتبعهم

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com

بمدد آخر، بدليل قوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾.

- أنه كان لأهل أحد، ولم يتحقق هذا المدد لعدم تحقق شرطه، وهو الصبر والتقوى.

التفصيل:

من المقصود بمدد الملائكة في سورة آل عمران؟!

يذكر د. أبو النور الحديدي أن المفسرين اختلفوا في وعد الله تعالى للمؤمنين بمدد الملائكة في سورة آل عمران، هل كان في غزوة بدر، أم في غزوة أحد، على قولين:

الأول: أن الوعد بمدد الملائكة كان يوم بدر، وقوله ﷻ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٤) ظرف لقوله: ﴿نَصَرَكُمُ﴾ أي: نصركم الله وقت مقالتكم هذه، وهو يوم بدر.

الثاني: أنه كان يوم أحد، فالوعد في قوله ﷻ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٤)، متعلق بقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٢١)، أي: بدل ثانٍ من: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ والبدل الأول هو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ (آل عمران: ١٢٢)، وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم.

وعلى هذا فلا تعارض؛ لأن الإمداد المذكور في الأنفال في يوم بدر، والإمداد المذكور في آل عمران في يوم أحد، على أن الإمداد في أُحد لم يحصل، لا بالخمسة آلاف ولا بالثلاثة؛ لعدم توفر شرط الإمداد، وهو صبر المؤمنين وتقواهم، وهم لم يصبروا في مواجهة العدو، بل فَرُّوا، ولم يتقوا؛ حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فلم يُمَدُّوا بملَكٍ واحد.

فقد أخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله ﷻ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٢٥) قال: يوم بدر، قال: فلم يصبروا ولم يتقوا، فلم يُمدُّوا يوم أحد، ولو مُدُّوا لم يُهزموا يومئذ[١].

وعلى رأي من يرى أن المدد في الموضعين كان لأهل بدر، يمكن الجمع بين آيتي الأنفال التي فيها أن المدد كان بألف، وآية آل عمران، التي تفيد أن المدد بأكثر من ألف بما يأتي:

١. ما قاله الربيع بن أنس: أنَّ الله تعالى أمد المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف[٢]، والنص في آية الأنفال على الألف لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها في سورة آل عمران؛ لقوله فيها: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بمعنى: يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف أخرى مثلهم، ويكون معنى ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ (آل عمران: ١٢٥): بتمام خمسة آلاف، وهذا هو القول الأرجح.

٢. ما ذكره بعض العلماء من ضَمِّ العدد القليل إلى الكثير، فقال: لأن الله تعالى ذكر الألف في سورة الأنفال، وذكر في سورة آل عمران ثلاثة آلاف وخمسة آلاف، فيكون المجموع تسعة آلاف.

٣. وما ذهب إليه بعضهم من أن المدد كان بأربعة آلاف، فقد جاء عن الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم

---

١. أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٧٩)، تفسير سورة آل عمران، آية (١٢٤)، برقم (٧٧٥٩).

٢. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ١٦١)، تفسير سورة آل عمران (٤١٤٦).

بدر أن كُرْز بن جابر المحاربي يَمُدُّ المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران)، قال: فبلغت كُرْزًا الهزيمة، فلم يَمُدّ المشركين، ولم يُمَدّ المسلمون بالخمسة[1]، وذلك بناءً على تعليق الإمداد بالخمسة بمجموع الأمور الثلاثة، وهي: الصبر، والتقوى، وإتيان أصحاب كُرْز، وقد فُقِد الأمر الثالث، فلم يوجد الإمداد بالخمسة.

وفي رواية ابن جرير عن الشعبي أنه قال: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ (آل عمران: ١٢٥) - يعني: كُرْزًا وأصحابه - ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥)، فبلغ كرزًا وأصحابه الهزيمة فلم يَمُدُّهم، ولم تنزل الخمسة، وأُمدوا بعد ذلك بألف فهم أربعة آلاف[2][3].

الخلاصة:

لا تعارض بين آية سورة الأنفال وآيتي سورة آل عمران؛ لأن المفسرين اختلفوا حول مدد الله تعالى بالملائكة في آل عمران، هل كان لأهل بدر، أم كان لأهل أحد؟!

- فعلى الرأي الأول يكون المقصود: أن الله أمدَّ المسلمين بألف ملك، كما في سورة الأنفال، ثم أَتْبع هذا المدد بمدد آخر، كما في سورة آل عمران؛ ويدلُّ على هذا قوله ﷻ، مع الاختلاف في عدد الملائكة إلى ثلاثة أقوال:
    - أن عددهم كان ألفًا، ثم أصبحوا ثلاثة آلاف، ثم أصبحوا خمسة، وهو الأرجح.
    - أن عددهم كان تسعة آلاف؛ بضم الألف والثلاثة آلاف والخمسة.
    - أن عددهم كان أربعة آلاف بضم الألف والثلاثة معًا، ولم تنزل الخمسة آلاف الأخرى؛ لعدم تحقق شرط نزولها.
- وعلى الرأي الثاني يكون المقصود: أن المدد في سورة الأنفال كان يوم بدر، والمدد في سورة آل عمران كان يوم أُحد، ولكن مدد أُحد لم يتحقق؛ لعدم تحقق شرطه، وهو صبر المؤمنين وتقواهم، فقد انتفت النتيجة لانتفاء المقدمات.

الشبهة الرابعة والعشرون

توهم تناقض القرآن بشأن إثبات القوة لله تعالى(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين الآيات التي أثبتت العزَّة والقدرة المطلقة لله ﷻ، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ

---

١. أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٧٣)، تفسير سورة آل عمران، آية (١٢٤)، برقم (٧٧٤٣)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٦١)، تفسير سورة آل عمران، (٤١٤٥).

٢. أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٧٤)، تفسير سورة آل عمران، آية (١٢٤)، برقم (٧٧٤٤).

٣. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢١٦ وما بعدها.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة. هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ (البقرة)، وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ (البقرة)، وبين قوله ﷻ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ (البقرة)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النحل)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ (الأحزاب). ويتساءلون: إذا كان الله قد أثبت لنفسه العزَّة والقدرة المُطْلَقة، فكيف يسمح للمنافقين بخداعه وللكافرين بإيذائه هو ورسوله الذي بعثه للناس؟ ألا يعدُّ هذا دليلًا على اضطراب القرآن؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من الخطأ والاضطراب.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله ﷻ هو الملك وهو على كل شيء قدير.

٢) المكر والمخادعة والإيذاء من صفات الضعفاء، ومن يخادع الله يخدع نفسه في الحقيقة.

٣) الله تبارك وتعالى لا يعنيه أن يتفق الناس أو يختلفوا، وإنما هم وحكمهم بيده.

٤) أمر الله تبارك وتعالى بالشيء يختلف عن إذنه بحدوثه.

٥) إيذاء الله ورسوله ليس كإيذاء الإنسان للإنسان، وللعلماء آراء في تفسير معناه تنفي ما ذهب إليه هؤلاء المدَّعون.

التفصيل:

أولا. الله ﷻ هو الملك وهو على كل شيء قدير:

إن الله ﷻ إذا أراد أن يقضي أمرًا قال له: كن فيكون. قال ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (يس)، وحكم الله ﷻ بأن له الملك وله الأمر وله الحُكم، وحَكَم بأنه على كل شيء قدير، فهل خرج من تاريخ الناس من حاول أن يخرق هذه الأحكام؟! وحكم الله ﷻ بأنه له العزة ولرسوله وللمؤمنين، فهل كذبت هذه الحقيقة؟!

ثانيًا. المكر والخديعة من العبد مع الله تقع على العبد نفسه فهو من باب المجاز وتسمية العقوبة باسم الذنب:

قال علماؤنا في تفسير قوله ﷻ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (البقرة: ٩) معنى: يخادعون الله أي يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم. وقيل: قال ذلك لعملهم عمل المخادع. وقيل: في الكلام حذف، تقديره: يخادعون رسول الله ﷺ وجعل خداعهم لرسوله خداعًا له؛ لأنه دعاهم برسالته، وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله. ومخادعتهم: ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر؛ ليحقنوا دماءهم وأموالهم، ويظنوا أنهم قد نجوا وخدعوا، قاله جماعة من المتأوِّلين. وقال أهل اللغة: أصل الخَدْع في كلام العرب الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي. وأنشد:

أَبْيَضُ اللَّوْنِ لَذِيذٌ طَعْمُهُ

طَيِّبُ الرِّيقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَعْ

فقوله: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾على هذا أي: يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله ﷻ بالرياء، وكذا جاء مُفسَّرًا عن النبي ﷺ، وفي التنزيل: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾وقيل: أصله الإخفاء، ومنه مَخْدَع البيت الذي يُحْرَز فيه الشيء، حكاه ابن فارس وغيره. وتقول العرب: انخدع الضَّبُّ في جُحْرِه.

وقوله ﷻ: ﴿ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ⁽٩⁾ ﴾ (البقرة) نفي وإيجاب، أي: ما تحلُّ عاقبة الخداع إلا بهم. ومن كلامهم: مَنْ خَدَع مَنْ لا يُخْدَع فإنما يَخْدَع نفسه. وهذا صحيح؛ لأن الخِداع إنما يكون مع مَنْ لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه، ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله؛ إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يُخْدع[1].

أما الخداع من الله، فلا يعني أنه مثل خداعهم، ولكن هو مجازاتهم على خداعهم، فسمَّى العقوبة باسم الذنب والعرب تستعمل ذلك كثيرًا في كلامهم، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلَـنْ أَحَـدٌ عَلَيْنَـا

فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَا

فسمَّى انتصاره جهلًا، والجهل لا يفتخر به ذو عقل، وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما. وكانت العرب إذا وضعوا لفظًا بإزاء لفظ جوابًا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفًا له في معناه وعلى هذا جاء القرآن والسنة، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٥٤)، وقال رسول الله ﷺ: "إن الله لا يَمَلُّ حتى تملُّوا[2]، وقال ﷺ: "لا يسأم الله حتى تسأموا"[3].

ومثل هذا: الاستهزاء، والكيد، إذا أضيف إلى الله تعالى فلا يعني إلا الانتقام والعقاب والمجازاة على أعماله[4]®.

ثالثًا. الله ﷻ لا يعنيه أن يتفق الناس أو يختلفوا، وإنما هم وحكمهم بيده:

أما استدلال هؤلاء على قدرة الله بقوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (النحل: ٩٣)، فليس صحيحًا؛ فسبحانه يعلم أنه بقوته رضي وجود الخلاف، والمَلِكُ في الدنيا يخيفه أن يختلف أتباعه؛ لأنه لا يعرف كيف يسوسهم، أما لو كانوا فريقًا واحدًا فتسهل قيادته لهم.

أما ربنا تبارك وتعالى، فلأنه لا يعنيه أن يتفق الناس أو يختلفوا - وإنما أمرهم وحكمهم بيده - شاء ألا يكونوا أمة واحدة، وقد عبرت الآية بـ "لو" التي تفيد

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١، ص١٩٥، ١٩٦.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم شعبان (١٨٦٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان (٢٧٧٩).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نفس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك (١٨٦٩).

٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٧، ٢٠٨ بتصرف.

® في **"إسناد المكر والخداع والنسيان إلى الله في القرآن الكريم"** طالع أيضًا: الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

الامتناع للامتناع، فامتنعت الوحدة بين الناس جميعًا؛ لأنه لم يشأ.

رابعًا. أَمْرُ الله بالشيء يختلف عن إذنه بحدوثه:

لو فهم هؤلاء المقصود من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، لعرفوا أن الله تعالى يأمر بما يشاء، ويأذن أن يقع في ملكه ما قدَّره، فبهذا يبلو إيمان الناس، وقد طلب من الناس الإيمان، وكتب على الكافرين الكفر وإن لم يَرْضَه منهم، لكن الكافرين كفروا لا رغمًا عن الله؛ ولكن لأن الله لم يشأ لهم الإيمان؛ لعلمه المحيط بأنهم سيستحِبُّون العَمَى على الهدى.

يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: جعل الناس "أمة واحدة" متفقة على الإسلام، ﴿وَلَكِن﴾ لا يشاء ذلك رعاية للحكمة، بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله بأن يخلق فيه الضلال فيما يصرف اختياره التابع لاستعداده لتحصيلها، ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ جميعًا يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة لا سؤال استعلام، ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ (النحل)، تستمرُّون على عمله في الدنيا، والآية ظاهرة في أن مشيئة الله تعالى لإسلام الخلق كلهم ما وقعت، وأنه سبحانه شاء منهم الافتراق والاختلاف، فإيمان وكفر، وتصديق وتكذيب، ووقع الأمر كما شاء الله عز وجل.

وذكر الزمخشري أن المعنى: لو شاء على طريقة الإلجاء[1] والقَسْر[2] لجعلكم أمة واحدة مسلمة، فإنه سبحانه قادر على ذلك، لكن اقتضت الحكمة أن يضل ويخذل من يشاء ممن علم سبحانه أنه يختار الكفر ويصمم عليه، ويهدي من يشاء بأن يلطف بمن علم أنه سيختار الإيمان، والحاصل أنه تعالى بنى الأمر على الاختيار، وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان، والثواب والعقاب.

ومما يدعم ما سبق ذكره، أنه لما كلَّف سبحانه بني إسرائيل بالوفاء بالعهد وتحريم نقضه، أتبعه ببيان أنه تعالى قادر على أن يجمعهم على هذا الوفاء، وعلى سائر أبواب الإيمان، ولكنه سبحانه بحكمته الإلهية يضل من يشاء ويهدي من يشاء[3].

خامسًا. إيذاء الله ورسوله ليس كإيذاء الإنسان لغيره من بني البشر:

أما عن مسألة إيذاء الله وإيذاء الرسول، فقد ذكر عَقِبه أمرين: اللعن، والتعذيب، فاللعن جزاء الله؛ لأن من آذى الملك يبعده عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول؛ ولا يقال هذا من يؤذي الله ولا يؤذي الرسول لا يعذب؛ لأنا نقول: إن انفكاك أحدهما عن الآخر محال من هذا الوجه؛ لأن من آذى الله فقد آذى الرسول، وأما على الوجه الآخر، وهو أن من يؤذي النبي ﷺ ولا يؤذي الله كمن عصى من غير إشراك، وكمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر، فقد آذى النبي ﷺ، غير أن الله جل جلاله صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه.

وأما قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ

---

١. الإلجاء: الاضطرار.

٢. القَسْر: القهر.

٣. انظر: روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث، بيروت، عند تفسير الآية.

وَرَسُولَهُۥ﴾ (الأحزاب: ٥٧) فالمراد بالإيذاء: إما ارتكاب ما لا يَرْضاه من الكفر وكبائر المعاصي، ويكون الكلام على سبيل المجاز؛ لأنه سبب أو لازم له. وقيل في إيذائه تعالى: هو قول اليهود والنصارى والمشركين: "يَدُ الله مغلولة، والمسيح ابن الله، والملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فالأمر ليس كما ظن هؤلاء الزاعمون؛ أنه لو كان بالله حول وقوة لاستطاع أن يدفع الإيذاء عن نفسه، ولما قدر أحد أن يؤذيه.

كما يجوز كون الإيذاء على حقيقته، والكلام على حذف مضاف: أن يؤذي أولياء الله ورسوله. وقيل: يجوز أن يراد منه المعنى المجازي بالنسبة إليه تعالى، والمعنى الحقيقي بالنسبة إلى رسوله ﷺ[1].

الخلاصة:

- أثبت الله ﷻ لنفسه من الصفات التي تليق به، فهو سيد الكون وهو على كل شيء قدير، وإليه يرجع كل ما في السماوات وما في الأرض، ومن بين هذه الصفات صفة القدرة المطلقة على كل شيء، فلا يعجزه شيء مهما كان شأنه.
- خداع المنافقين الله ﷻ ورسوله ﷺ ليس على سبيل الحقيقة، بل على سبيل المجاز، ومعنى يخادعون الله: يظنون أن حِيَلَهم تنفع مع الله تعالى، بالطبع لا، فَهُم في الحقيقة يخدعون أنفسهم؛ لأن الله ﷻ لا يُخْدع مثل البشر.
- لا يقع شيء في الكون دون علم الله ﷻ به، فهو يأمر بما يشاء، ويأذن أن يقع في ملكه ما يريد، فهو الذي كتب للمسلم الإيمان، هو الذي كتب على الكافر العصيان؛ لعلمه المسبق بعدم اتباعه سبيل الحق.
- اختلف المفسرون حول المقصود بإيذاء الله ورسوله، فمنهم من قال: ارتكاب ما حرم الله ورسوله. ومنهم من قال: إن في الآية الكريمة حذفًا، والأصل: يؤذون أولياء الله ورسوله ومنهم من قال: إن الإيذاء في حق الله ﷻ على المجاز، وفي حق رسول الله على الحقيقة، وبناء على هذه التفسيرات ـ وغيرها ـ يبطل زعم هؤلاء بنفي العصمة عن القرآن الكريم.

الشبهة الخامسة والعشرون

توهم تناقض القرآن حول تبديل كلمات الله(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغالطين وجود تناقض بين قوله ﷻ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ٦٤)، وأيضًا قوله ﷻ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (الكهف: ٢٧)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ (النحل: ١٠١). ويتساءلون: كيف

1. انظر تفاسير: روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديثة، الرياض، ١٩٥٤م. الكشاف، الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٩٧م. مفاتيح الغيب، الرازي، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٣٠١هـ، عند تفسير الآية.

(*) رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، مرجع سابق.

ينفي الله تبديل كلماته في موضع، ثم يقرُّ هذا التبديل في موضع آخر؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى النَّيل من القرآن الكريم والطعن في عصمته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) معنى ﴿كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾: سنَّته، وقوانينه الكونية، وقضاؤه بين المخلوقات.

٢) المقصود "بالآية": هي الآية القرآنية، وليست الآية الكونية.

٣) المراد بالتبديل: هو تبديل الأحكام التي نزلت بها الآيات مع بقاء رسمها في المصحف.

التفصيل:

في واقع الأمر لا يوجد أدنى تناقض بين آيات الذكر الحكيم، ولو وجد مثل ذلك لما سكت عنه مشركو مكة، منذ نحو ألف وأربعمائة عام، وهم أهل البلاغة والفصاحة، ولم ينتظروا كل هذا الوقت حتى يأتي من ليس له أدنى حظ من تعلم العربية ويقول ذلك، ولم يقتصر الأمر على الجهل بأمور اللغة العربية فقط، بل الجهل أيضًا بقواعد المنهج العلمي الصحيح، فالتناقض لا يوجد إلا بين أمرين لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان معًا، فلا بد من وجود أحدهما، وعدم وجود الآخر، والقرآن الكريم، يخلو من مثل هذا التناقض الذي لا وجود له، إلا في عقول المدعين فقط. وللرد على هذا الوهم نقول:

أولا. معنى ﴿كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾: سنَّته وقوانينه الكونية وقضاؤه بين المخلوقات:

إن المراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ٦٤)، وقوله ﷻ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ (الكهف: ٢٧): أنه لا تبديل لقضاء الله تعالى الذي يقضيه في شئون الكائنات، ولا تغيير في السنن الكونية التي وضعها الله في الخلق، ولن يخرج أحد من خلقه على هذه السنن الكونية الثابتة، وهذا هو إجماع أهل العلم على تفسير هذه الآية، ومعناها أيضًا: لا خُلْف لوعده، ولا تبديل لأخباره، ولا تكون إلا كما قال[1].

ثانيًا. المقصود "بالآية" هي الآية القرآنية، وليست الآية الكونية:

المقصود بالآية في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ (النحل: ١٠١) أي: الآية القرآنية وليست السُّنَّة الكونية، يقول الإمام الطبري في تفسيره: "وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكمًا آخر - والله أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يُبَدِّل ويُغَيِّر من أحكامه - قال المشركون: إنما أنت يا محمد مُفْتَرٍ، أي: كاذب تُخَرِّصُ[2] بتقوُّل الباطل على الله.

ويورد الإمام الطبري روايات عن ابن عباس وابن مسعود وأصحابه يفسرون فيها نسخ الآية الكريمة بإثبات خَطِّها وتبديل حُكْمِها، دون أن يشرحوا معنى كلمة "آية"، وهذا يدل بوضوح على أن المتبادر إلى الذهن من إطلاق لفظ "آية" في القرآن الكريم هو الآية القرآنية، وليست الآية الكونية[3].

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٨، ص٣٥٩.

٢. تُخَرِّص: تكذب.

٣. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢٧٩.

ثالثًا. المراد بالتبديل هو تبديل للأحكام التي نزلت بها الآيات:

معنى التبديل في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ (النحل: ١٠١)، هو تبديل للأحكام التي نزلت بها الآيات، وليس للآيات نفسها، أي: ما ننقل من حكم آية إلى غير فنبدِّله ونغيِّره، وذلك أن يُحَوَّل الحلال حرامًا، والحرام حلالًا، والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة، فإذا حدث مثل هذا التبديل للأحكام، قال المشركون: يا محمد إنما أنت مُفْتَرٍ.

وعن ابن عباس أنه قال: "كان إذا نزلت آية فيها شدَّة، ثم نزلت آية ألين منها يقول كفار قريش: ما نرى إله محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدًا ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلى من عند نفسه".

وهذه الكلمة أحسن ما قاله المفسرون في حاصل معنى الآية الكريمة، فالمراد من التبديل في قوله تعالى: ﴿ بَدَّلْنَآ ﴾ مطلق التَّغاير بين الأغراض والمقامات، أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد مع وضوح الجمع بين محاملها[1].

الخلاصة:

- لا تعارض بين قوله ﷻ: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ (النحل: ١٠١)؛ لأن المقصود بكلمات الله في الآية الأولى: سننه الكونية التي قضاها على جميع خلقه. أما المقصود بالآية في الآية الثانية: الآية القرآنية التي هي جزء من أجزاء القرآن الكريم، وليست الآية الكونية.
- المراد بتبديل آية مكان آية: تبديل الأحكام التي نزلت بها الآيات؛ مناسبة للظروف المحيطة بكل آية، مع بقاء رسم الآية في المصحف كما هي دون حذف لها، وكان الكفار يعدون هذا دليلًا على أن القرآن من وضع النبي ﷺ.

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٨، ج١٤، ص٢٨١.

الشبهة السادسة والعشرون

توهم تناقض القرآن حول ما يبلِّغه الرسول ﷺ عن ربه(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تعارضًا بين قوله ﷻ: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ (النجم)، وبين بعض الآيات الأخرى التي تفيد أنه ﷺ تكلم ونطق بأشياء من غير وحي له فيها، حتى إن الله تعالى عاتبه على ما صدر منه، كإذنه لبعض المتخلفين عن غزوة تبوك، وقد عاتبه ربه على هذا الإذن في قوله ﷻ: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ﴾ (التوبة). ويتساءلون: كيف يُشير القرآن في موضع إلى أن

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

محمدًا لا ينطق إلا بوحي من ربه، ثم يعاتبه في موضع آخر على ما صدر منه؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

ينقسم كلام النبي ﷺ إلى قسمين:

- ما كان تبليغًا عن الله تعالى فهو وحي، ولا يكون عن هوى، وهذا صدق لا كذب فيه.
- ما وُكِل إليه النبي ﷺ الاجتهاد فيه - مثل ما حدث في غزوة تبوك - أو ما كان في أمور المعاش - كحادثة تَأْبير النَّخل[1] - فهو ليس بوحي، وإنما باجتهاد ظهر له ﷺ ولا يوصف هذا بالصدق ولا بالكذب.

التفصيل:

كلام النبي ﷺ بين الوحي[2] والاجتهاد[3]:

حول كلام النبي وأنواعه كتب د. الحديدي قائلًا: ينقسم كلام النبي ﷺ إلى نوعين:

١. ما كان تبليغًا عن الله تعالى فهو وحي، ولا يكون عن هوى:

يقسم الله تعالى - في سورة النجم - بالنجم إذا هوى أن محمدًا ﷺ ما ضلَّ وما غوى، والضال: هو الجاهل الذي لا يسلك الطريق القويم بغير علم، والغاوي: هو العالم بالحق العادل عنه قصدًا إلى غيره، فهو ﷺ راشد تابع للحق، فتجنَّبَ الباطل، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ (النجم)، وما يصدر نطقه عن الهوى، لا بالقرآن ولا بغيره، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم) ما الذي ينطق به إلا وحي من الله تعالى، يوحيه إليه. فهذه الآيات تفيد أنه ﷺ لا يتكلم إلا عن وحي من الله ﷻ.

فما ينطق به الرسول ﷺ إن كان تبليغًا عن الله تبارك وتعالى فهو لا يكون عن هوى، إنما كل ما يبلغه عن ربه فهو وحي منه سبحانه، ولا يقول على الله شيئًا من عند نفسه، وفي هذا رد على الكفار الذين زعموا أن النبي ﷺ افترى هذا القرآن، وقد أقسم الرسول ﷺ على أنه لم يتكلم إلا بالحق - تبليغًا عن ربه - عندما ذكر بعضهم أن بشرية الرسول ربما تجعله يقول عند الغضب كلامًا يكون فيه متأثرًا بغضبه.

فقد جاء عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بَشَرٌ يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب - أي: عن الكتابة - فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: "اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق"[4].

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا أقول إلا حقًّا"، قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول

---

١. تَأْبِير النَّخْل: تلقيحه.

٢. الوَحْي: هو إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحُكْم شرعي ونحوه بواسطة أو غير واسطة.

٣. الاجتهاد: بذل الفقيه وسعه في طلب العلم بالحكم الشرعي.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (٦٥١٠)، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في كتابة العلم (٣٦٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٣٢).

الله! قال: "فإني لا أقول إلا حقًّا"[1].

٢. ما وُكِلَ إليه ﷺ للاجتهاد فيه فهو ليس بوحي، وإنما باجتهاد ظهر له ﷺ:

أما الآيات الأخرى التي تفيد أنه ﷺ تكلَّم ونطق بأشياء من غير وحي له فيها، حتى إن الله تعالى عاتبه على ما حصل منه، مثل إذنه لبعض المُتخلِّفين عن غزوة تبوك، فقد عاتبه الله على هذا الإذن، قال ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (التوبة)، فهذه الآيات تتحدث عن مواقف وُكِلَ فيها النبي بالاجتهاد، ومعنى الآية السابقة - كما قال ابن جرير -: عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلُّف عنك، من قبل أن تعلم صدقهم من كذبهم، وما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلُّف عنك، إذ قالوا لك: لو استطعنا لخرجنا معكم، حتى تعرف من له العُذْر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقًا وشكًّا في دين الله.

فكل ما ليس تبليغًا عن الله تعالى، بل وُكِلَ الرسول فيه لاجتهاده - كإذنه ﷺ للمتخلفين عن غزوة تبوك، فلا يكون قوله فيه نطقًا عن الهوى؛ حيث لا يخالف نهيًا تقدم له، وإنما عن اجتهاد ظهر له فيه أن هؤلاء المعتذرين لا يستطيعون الخروج معه، وكثيرًا ما كان المنافقون - مبالغة منهم في إخفاء حقيقتهم - يحلفون بالله على ما يقولون: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ (المنافقون)، والرسول ﷺ بَشَرٌ لا اطلاع له على بواطن الناس إلا فيما يُطْلِعه الله عليه منهم، وحتى وقت الإذن لهم في التخلف لم يكن قد أطلعه الله على أنهم منافقون كاذبون.

ومن ذلك أيضًا نصحه ﷺ بترك تَأْبِيْر النخل، وتركه يفسد ثمرتها فتصير شِيْصًا[2]، فعن أنس أن النبي ﷺ قَدِم المدينة وهم يَأْبِرون النخل، فقال: "ما تصنعون"؟ قالوا: كنا نصنعه، قال: "لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا"، فتركوه فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: "إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر"[3].

فهذا - كما قال العلماء - رجاء، والرجاء لا يوصف بصدق ولا كذب، وأنه من باب الظن والرأي في أمور المعاش. قال النووي - رحمه الله: قال العلماء: لم يكن هذا القول خبرًا، وإنما كان ظنًّا، ورأيه ﷺ في أمور المعايش وظنه كغيره، فلا يمتنع وقوع مثل هذا، ولا نقص في ذلك.

وعلى هذا، فأقوال الرسول ﷺ التي من باب الاجتهاد وإعمال الرأي في أمور المعاش لا توصف بصدق ولا كذب[4].

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٨٧٠٨)، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المزاح (١٩٩٠)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٠٢).

٢. الشِّيْص: تَمْر لم يتم نضجه لسوء تلقيحه.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٦٢٧٦).

٤. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٧٠: ٧٣.

الخلاصة:

لا تعارض بين الآيات التي استدل بها هؤلاء على وجود تناقض بين آيات القرآن حول كلام النبي؛ إذ إن كلام النبي ﷺ ينقسم إلى نوعين:

- ما كان وحيًا من الله تعالى، ومثل هذا لا يقبل الكذب أبدًا؛ لأنه كلام الله الذي لا يُغيَّر ولا يُبدَّل.
- ما كان اجتهادًا منه ﷺ أو كان متعلِّقًا بأمر من أمور الدنيا، وهذا لا يحتمل الصدق ولا الكذب، والنبي في هذا الجانب شأنه شأن بقية البشر.

الشبهة السابعة والعشرون

توهم تناقض القرآن بشأن إثبات سلطان الشيطان على الإنسان (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ (سبأ: ٢١)، وقوله ﷻ على لسان الشيطان: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) وبين قوله ﷻ: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ (القصص: ١٥)، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (النحل)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحجر). ويتساءلون: كيف يقرر القرآن في موضعٍ أن للشيطان على العباد سلطانًا، ثم ينفي ما قرره في موضع آخر؟ ويهدفون من وراء ذلك إلى القول بأن القرآن غير معصوم ما دام فيه مثل هذا التعارض.

وجه إبطال الشبهة:

تتحدث الآيات التي استدل بها هؤلاء على زعمهم عن نوعين من سلطان الشيطان:

- سلطان مُثْبَت: وهو سلطان الضلالة والإغواء وتزيين الباطل.
- سلطان مَنْفِي: هو سلطان الحجة والبرهان والقوة والقهر مع ضعف الإيمان.

التفصيل:

الآيات التي استدل بها أصحاب هذه الشبهة على زعمهم لا تتحدث عن نوع من أنواع سلطان الشيطان على البشر، بل تتحدث عن نوعين من السلطان:

١. سلطان مُثْبَت:

السلطان الذي أثبته الله للشيطان إنما هو سلطان الضلالة والإغواء وتزيين الباطل والوسوسة بالشَّرِّ[1]، وليس له أكثر من الوسوسة والاستغفال، ومع ضخامة قواه المادية، فهو مكفوف عن استخدامها ضد بني آدم! إنه يجيء المترددَ فيغريه بالجبن، والمتوقِّح فيغريه بالكبر، والمتهافتَ على الشهوات فيغريه بالفسق... وهكذا.

فإذا زاغ بشر فهو المسئول عن نفسه، وما يملك أحد إرغامه على عِوَج، ولو استخدم مواهبه ما قدر أحد على الضحك منه.

وقد تكون قصتنا على ظهر الأرض هي قصة أبينا

(*) أسئلة عن الإيمان، قناة الحياة.

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٧٤.

آدم أيام الجنة، إنه لو ظل ذاكرًا فلم يَنْسَ، قادرًا فلم يضعف، لارتد سهم إبليس إلى نَحْره، ولكنه نسي، فالذين ينزلقون في الدنيا وقع لهم خلل جعلهم يتجاوبون مع كيد الشيطان، وينخدعون بكذبه، وفرحة الشيطان أن يرى الإنسان ساقطًا ذليلًا مغاضبًا لربه، ولذلك يقول تعالى لبني آدم مُوبِّخًا: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ (الكهف)[1].

٢. سلطان منفي:

والسلطان الذي نفاه الله ﷻ عن الشيطان هو سلطان الحجة والبرهان، فليس له حجة على دعواه الزائفة عن الحق، وليس له برهان على دعوته الباطلة، ومواعيده الكاذبة، وليس له على العباد قهر يضطرهم إلى إجابته، وإنما هم الذين أطاعوه واتبعوه في باطله بإرادتهم واختيارهم بمجرد أن وسوس لهم[2].

قال ابن عاشور في تفسير قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحجر): إن الله وضع سُنَّة في نفوس البشر، وهي أن الشيطان لا يتسلَّط إلا على من كان غاويًا، أي: مائلًا للغواية مكتسبًا لها دون من كبح نفسه عن الشر، فإن العاقل إذا تعلَّق به وسواس الشيطان علم ما فيه من ضلال، وعلم أن الهدى في خلافه، فإذا توفَّق وحمل نفسه على اختيار الهدى وصرف إليه عزمه، قوي على الشيطان فلم يكن له عليه سلطان، وإذا مال إلى الضلال واستحسنه واختار إرضاء شهوته، صار متهيئًا إلى الغواية فأغواه الشيطان فغوى[3].

فالله تبارك وتعالى لم يقل: إن للشيطان على العباد سلطانًا ابتداءً ألبتة، وإنما هم الذين سلطوه على أنفسهم بطاعتهم له، ودخولهم في حزبه، ومعصيتهم لله ﷻ، فهو لم يتسلط عليهم بقوة ولا حجة، وإنما تسلَّط عليهم بضعف إيمانهم، ودناءة نفوسهم، وخروجهم عن طاعة ربهم؛ ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ (النساء).

الخلاصة:

التعارض الذي توهمه بعض هؤلاء المشككين بشأن سلطان الشيطان على الإنسان مردود؛ لأن للشيطان نوعين من السلطان:

- سلطان مثبت: هو سلطان الضلالة والإغواء، وتزيين الباطل، ولا ينجرف في هذا التيار - تيار الشيطان - إلا ضعفاء الإيمان وأدنياء النفوس.
- سلطان منفي: وهو سلطان الحجج والبراهين والقوة والقهر، فالشيطان لا يتسلط على الإنسان ببرهان أو حجة، أو بقهر أو قوة، بل الإنسان هو الذي يتبع الشيطان بإرادته واختياره؛ لضَعْف إيمانه.

---

١. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٢٩٩، ٣٠٠ بتصرف.

٢. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٧٣، ١٧٤.

٣. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٤، ص٥٢.

الشبهة الثامنة والعشرون

توهم تعارض القرآن بخصوص تكفُّل الله بهداية الناس(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تعارضًا بين قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ (الليل)، وبين قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (آل عمران)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة: ٦٧).

حيث تدل الآية الأولى على أن الله ﷻ أوجب على نفسه هداية الناس وتكفَّل بها، بينما دلت الآيتان الأُخريان على أنه ﷻ لا يهدي بعض الناس.

ويتساءلون: كيف يُقرِّر الله أمرًا في موضع، ثم يأتي في موضع آخر ويُصرِّح بما ينافيه؟ ويعدُّون هذا التناقض في زعمهم دليلًا على أن القرآن ليس من عند الله.

وجه إبطال الشبهة:

هُدَى الله ﷻ ينقسم إلى نوعين:

- هدى الدَّلالة[1] والبيان: وهذا يقدر عليه البشر، ومن ذلك ما يفعله الرسل مع أتباعهم.
- هدى التوفيق[2]: وهذا لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وهو تفضُّل منه تبارك وتعالى على من يشاء من عباده.

التفصيل:

هدى الدلالة والبيان يقدر عليه الخلق كالرسل مع أتباعهم، وهدى التوفيق لا يقدر عليه إلا الله ﷻ:

لا تعارض بين آية سورة الليل، وبين ما في سورتي آل عمران والمائدة وغيرهما من الآيات؛ لأن هدى الله ينقسم إلى نوعين: هدى الدلالة، وهدى التوفيق.

فإن الهدى في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ (الليل) بمعنى: الدلالة والبيان، وقد خلق الله ﷻ عباده وأرشدهم إلى الحق بما أرسل من رسل وما أنزل من كتب.

وهدى الدلالة يقدر عليه الخلق كالرسل مع أتباعهم؛ حيث يبينون لهم طريق الحق، سواء سلكوها أم لا، وبهذا المعنى يُفهم قول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ (فصلت:١٧)، أي: بيَّنا لهم طريق الحق على لسان نبينا صالح عليه السلام مع أنهم لم يسلكوها بدليل قول الله ﷻ: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧)، ومنه أيضًا قوله ﷻ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ (الإنسان: ٣) أي بينا له طريق الخير، والشر بدليل قوله ﷻ: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان).

أما الآيات التي أخبرت أن الله لا يهدي الظالمين، ولا يهدي الكافرين، وما إليها من الآيات، فالهدى فيها بمعنى: التوفيق للإيمان والحق، وهذه التي تفرَّد الله ﷻ بها، ولا يقدر عليها أَحَدٌ من الخلق.

فالهدى المثبت ـ هنا ـ هدى الدلالة للخلق كلهم،

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

1. هدى الدلالة: الإرشاد.
2. هدى التوفيق: الهدى إلى الخير.

والهدى المنفي - هنا - عن الظالمين والكافرين هدى التوفيق للإيمان والحق، ونفي الثاني لا يستلزم نفي الأول، فإن الأول عام، والثاني خاص، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

قال القرطبي: الهدى هديان. "هدى دلالة، وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ (الرعد)، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى)، فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرَّد سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص:٥٦)، فالهدى على هذا يجيء بمعنى: خَلْق الإيمان في القلب.

ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ (البقرة: ٥)، وقوله: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ (يونس: ٢٥). وقوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ (الأنعام: ٩٠)، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

مما سبق يكون الجواب عن سؤال آخر هو: قد أخبر الله عز وجل عن القرآن بأن هداه خاص بالمتقين في قوله جل جلاله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ (البقرة)، وأخبر في نفس السورة بأن هداه عام لجميع الناس في قوله عز وجل: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، فكيف يكون التوفيق بين الآيتين؟

والجواب: إن الهدى في قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) هو الهدى الخاص الذي هو التفضُّل بتوفيقهم، والهدى الذي هو لعموم الناس في قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، هو الهدى العام الذي هو إبانة للطريق وإيضاح للحجة[1].

وبهذا يرتفع الإشكال أيضًا بين قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ (القصص: ٥٦)، مع قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى)؛ لأن الهدى المنفي عنه ﷺ هو الهدى الخاص وهو هدى التوفيق؛ لأن التوفيق بيد الله وحده، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا. والهدى المثبت له هو الهدى العام الذي هو إبانة الطريق، وقد بيَّنها ﷺ حتى تركها مَحَجَّة[2] بيضاء ليلها كنهارها[3].

الخلاصة:

- لا تعارض بين ما يدل على أن الله عز وجل ألزم نفسه هدى الناس، وبين ما يدل على أنه عز وجل لا يهدي بعض الناس؛ وذلك لأن الهدى هديان:
- هدى دلالة، وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم، وهو المقصود في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ (الليل)، أي: الدلالة والبيان والدعوة والتنبيه.
- هدى التأييد والتوفيق للإيمان، وهو الذي تفرَّد الله تعالى به، ولا يقدر عليه أحد من الخلق، ومنه

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٥٤: ٥٦.
٢. المَحَجَّة: الطريق المستقيم.
٣. البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مرجع سابق، ص١٧.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة).

الشبهة التاسعة والعشرون

توهم تناقض القرآن حول مشيئة الله تعالى للشرك وعدم رضاه عنه (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغرضين أن هناك تناقضًا في القرآن الكريم بين قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، وقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ (الزخرف: ٢٠)، وبين قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ (الزمر: ٧). ويتساءلون: كيف يصرِّح القرآن في موضع بأن شرك المشركين حصل بمشيئة الله وإرادته وإذنه، ثم يثبت في موضع آخر عدم رضاه عن شركهم وكفرهم؟ ويهدفون من وراء ذلك إلى القول بتناقض القرآن وعدم عصمته.

وجه إبطال الشبهة:

إرادة الله ﷻ تنقسم إلى:

- **إرادة كونيَّة**: وهي التي قدَّرها الله على الخلق كافة، وإن لم يرض بها ولم يحبها، كعصيان إبليس وكفر المشركين.
- **إرادة شرعيَّة**: وهي التي قدَّرها الله على عباده وأحبها، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التفصيل:

إرادة الله الشرك للمشركين حقيقة لا شك فيها، لكنها إرادة كَوْنيَّة قدريَّة، لا شرعيَّة دينيَّة:

القول بأن الله تعالى أراد شرك المشركين، قولُ صدقٍ وحق ولا شك في ذلك، فإن كل شيء بمشيئة الله ﷻ، فلو شاء عدم إشراكهم ما أشركوا، ولو شاء منهم عدم عبادة سواه ما عبدوا من دونه من شيء، ولو شاء منهم عدم تحريم ما حرموه لما وقع، وهذا ما صَرَّحت به آيات كثيرة مثل قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ (الزخرف: ٢٠)، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ (النحل: ٣٥)، وقد أيَّدت آيات أخرى ذلك المعنى، منها قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنعام).

وأفادت الآية: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ (الأنعام: ٣٥) أن الله ﷻ لو شاء هداية الجميع لاهتدوا، وأفادت الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ (النحل)، أن الله تعالى لم يشأ هداية جميع الناس، ولو شاء هداية الجميع لهداهم، ولكن شاء هداية بعضهم دون بعض، كما أفادت نفس المعنى الآية الكريمة: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

﴿ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (السجدة)، ولكن هذه المشيئة أو هذه الإرادة مما قدَّره الله ﷻ في الكون ولم يُشرِّعه، فقد أرسل الله الرسل فأنذروا وبشَّروا، وأمروا ونهوا، فأبت طائفة إلا التكذيب.

وهنا أمر يجب التنبيه له وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة، وهو أن الله ﷻ له الخلق والأمر، وأمره نوعان: أمر كَوْنِي قدري، وأمر ديني شَرْعِي، فمشيئة الله متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يَبغضه، وخلق الشيطان والكفَّار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وُجِدَ منه تعلَّقت به محبته وأمره الديني ولم يتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والعصيان تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، فلفظ "المشيئة" كوني ولفظ "المحبة" ديني شرعي.

ولفظ الإرادة ينقسم إلى: إرادة كونية فتكون هي المشيئة. وإرادة دينية فتكون هي المحبة.

إذا عرفت هذا، فقوله ﷻ: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (الزمر: ٧)، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (البقرة)، وقوله ﷻ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥)، لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره، فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق.

ونظير هذا اللفظ: الأمر، فإنه نوعان: أمر تكوين وأمر تشريع، والثاني قد يُعْصَى ويُخالَف بخلاف الأول، فقوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس)، أمر كوني لا يناقض قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (الأعراف: ٢٨)، فالأول أمر تكوين، والثاني تشريع[1].

فإذا كان الله أراد الشرك لفئة من عباده، فلا يعني هذا أنه ارتضاه لهم، وأما ما قاله الكفار فهو حق أُريد به باطل، فقد زعموا أن الله تعالى راضٍ بفعلهم وهذا باطل، فرد الله عليهم هذا الباطل الذي قصدوه من هذا الكلام الحق وكذبهم فيه.

وتوضيح ذلك كما ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: إن مرادهم أنهم لما كان كفرهم وعصيانهم بمشيئة الله، وأنه لو شاء لمنعهم من ذلك، فعدم منعه لهم دليل على رضاه بفعلهم، فكذَّبهم الله في ذلك مبيِّنًا أنه لا يرضى بكفرهم، كما نصَّ عليه بقوله: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (الزمر: ٧).

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية يلزمها الرِّضا، وهو زعم باطل، بل الله يريد بإرادته الكونية ما لا يرضاه؛ بدليل قوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (البقرة: ٧) مع قوله: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (الزمر: ٧)، والذي يلازم الرِّضا حقًّا إنما هو الإرادة الشرعية.

فما قاله المشركون من أن إرادة الله يلزمها الرضا لم يقولوه عن اعتقاد، بل قالوه استهزاءً، قال النسفي: وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك؛ إذ لم يقولوه عن اعتقاد، بل قالوا ذلك استهزاءً، ولأنهم جعلوا مشيئته

١. عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مكتبة فياض، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢١٤، ٢١٥.

حجة لهم على أنهم معذورون به، وهذا مردود[1].

الخلاصة:

لا تعارض بين الآيات التي تؤكد على أن إشراك المشرك كان بإرادة الله ﷻ، وأن الله ﷻ لا يرضى بالشرك؛ وذلك لأن إرادة الله تنقسم إلى: إرادة كونيَّة قَدَريَّة، وهي التي قدَّرها كونًا وإن لم يرضها ولم يحبها، وإرادة شرعية دينية، وهي التي شرعها وأحبها وارتضاها، فليس كل ما قدَّره الله ﷻ أحبه، بل منها ما أحبه ومنها ما أبغضه، فقد قدَّر الشرك وأبغضه ونهى عنه، وقدَّر الخير وأمر به وأحبه.

الشبهة الثلاثون

توهم تناقض القرآن بشأن ولاية الله للكافرين (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ (الأنعام: ٦٢)، وبين قوله ﷻ: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ ﴾ (محمد)، ويتساءلون: إذا كان القرآن من عند الله حقًّا، فلماذا يقرر في موضع أن الله مولى الكافرين، ثم يخالف ذلك في موضع آخر مقرِّرًا أن الكافرين لا مولى لهم؟! ويرمون من وراء ذلك إلى القول ببشرية القرآن وعدم عصمته.

وجه إبطال الشبهة:

الولاية في الآية الأولى تعني: المالك والمتصرف، أما الولاية في الآية الثانية فتعني: الناصر والمعين.

التفصيل:

الولاية في الآية الأولى تعني: المالك المتصرف، وفي الآية الثانية تعني: الناصر المعين:

معنى "مولاهم" في الآية الأولى: أن الله ﷻ هو خالق كل شيء ومالكه ووليه، ولا يُنكر هذا إلا ملحد أو مشرك، أو معاند يعلم الحق ويأبى عناده إلا أن يكتمه ليحترق به قلبه ولا يظهره، ففي كل صغيرة وكبيرة في الكون دلالة على أنه الواحد الأحد المالك المهيمن.

الشَّمْسُ والبَدْرُ مِنْ أَنْوَارِ حِكْمَتِه
وَالبَرُّ والبَحْرُ فَيْضٌ مِنْ عَطَايَاهُ
السَّبْعُ قَدَّسَهُ والطَّيْرُ سَبَّحَهُ
وَالمَوجُ كَبَّرَهُ والحُوتُ نَاجَاهُ
والنَّملُ تحتَ الصُّخُورِ الصُّمِّ قَدَّسَهُ
والنَّحْلُ يَهْتِفُ حَمْدًا في خَلايَاهُ
والنَّاسُ يَعْصُونَه جَهْرًا فَيَسْتُرُهُمُ
والعَبْدُ يَنْسَى وَربِّي لَيْسَ يَنْسَاهُ

إلهٌ بتلك الصفات الحميدة الرفيعة العزيزة، تكون العزة والشرف لمن يخضع لكبريائه، ولا شك أن كل شيء خاضع له شاء أم أبى. فكيف إذًا لا يكون وليًّا، مالكًا للمؤمنين والكافرين

---

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٩٩: ٢٠١.

(*) البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مرجع سابق. أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة. هل القرآن معصوم؟ عبد الله الفادي، موقع إسلاميات www.islameyat.com.

على السواء؟!

ويفهم لمن قرأ سورة محمد - لأول وهلة - أن السورة منذ بدأت إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ (محمد) تتحدث عن الكافرين الذين صدُّوا عن سبيل الله؛ فأضلَّ الله أعمالهم، وعن حال اللقاء، ثم جزاء من ينصر الله، وعقاب من يكفر به جل وعلا، ثم بيان سبب نصر الله للمؤمنين وخزيه للكافرين.

فمن خلال موضوع السورة نستطيع أن نحدد معنى ألفاظها؛ فمعنى قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (محمد: ١١)، أي: ناصرهم. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ (محمد)، أي: لا ناصر لهم يدفع عنهم، فمعنى كونه تعالى مولى الكافرين في الآية الأولى: أي المتصرف فيهم بما شاء، ومعنى كونه مولى المؤمنين دون الكافرين في الآية الثانية: ولاية المحبة والتوفيق والنصر.

قال ابن عاشور: فقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ (محمد)، أفاد شيئين: أن الله لا ينصرهم، وأنه إذ لم ينصرهم فلا ناصر لهم، وأما إثبات المولى للمشركين في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ (الأنعام: ٦٢)، فذلك المولى بمعنى آخر، وهو معنى: المالك والرب، فلا تعارض بينهما[1].

الخلاصة:

بهذا البيان بطل الزعم القائل بوجود تعارض بين آيات القرآن بشأن ولاية الله للكافرين وعدم ولايته لهم؛ وذلك لما يلي:

- المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ (الأنعام: ٦٢)، أن الله خالقهم ومالكهم ووليهم.
- أما المراد بقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ (محمد)، أن الله ﷻ ناصر المؤمنين، ومعينهم على أعدائهم، وأن الكافرين لا مولى ولا ناصر ولا معين لهم.

الشبهة الحادية والثلاثون

توهم تناقض القرآن بشأن تعذيب الكفار في الدنيا(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال)، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (الأنفال: ٣٤)، ويتساءلون: كيف ينفي الله تعذيبه للكافرين طالما أن محمدًا ﷺ فيهم وطالما أنهم يستغفرون، ثم يثبته في موضع آخر؟! ويرمون من وراء ذلك إلى القول بأن القرآن ليس نصًّا سماويًّا ما دام فيه مثل هذا التناقض.

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٢، ج٢٦، ص٨٩ بتصرف.

(*) أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com

وجها إبطال الشبهة:

1) العذاب لا ينزل بالكافرين ما دام النبي ﷺ مقيمًا فيهم، فإذا خرج من بين أظهرهم تعرضوا للعذاب.

2) للعلماء في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾عدة أقوال للعلماء، منها:

- أن استغفار المؤمنين الذين بقوا في مكة لم يهاجروا يرفع عن كفارها العذاب.
- أن كفار مكة هم الذين يستغفرون، واستغفارهم هو ندمهم على ما صدر منهم من طلب العذاب.
- أن الله ما كان معذبهم وقد سبق في علمه أن منهم من يستغفر الله من كفره ويتوب ويدخل الإسلام.
- أن هذه الآية نسختها الآية التي تليها.

التفصيل:

أولا. وجود النبي ﷺ بينهم يَقِيهم من العذاب:

منح الله ﷻ مشركي مكة الأمن والأمان عند طلبهم العذاب بأمنين يفسرهما د. أبو النور الحديدي فيقول: "إن لكفار مكة أمنين يدفع الله عنهم العذاب بسببهما:

أحدهما: كون النبي ﷺ فيهم؛ لأن الله لم يُهلك أُمَّة ونبيهم فيهم.

والثاني: استغفارهم الله ﷻ.

فالعذاب لا ينزل بالكافرين ما دام النبي ﷺ مقيمًا فيهم، فإذا خرج من بين أظهرهم تعرضوا للعذاب، وقد خرج ﷺ من بينهم مهاجرًا؛ فارتفع بخروجه - مهاجرًا - الأمان الأول من العذاب، كما أن العذاب لا ينزل بهم في حال استغفارهم من الكفر وصيرورتهم مؤمنين، لكنهم لم يستغفروا من الكفر، بل أصرُّوا عليه، ورفضوا الإيمان، وصدُّوا عن المسجد الحرام؛ فارتفع الأمان الثاني من العذاب، وتعرَّضُوا له لكفرهم وصدهم عن المسجد الحرام.

وبعد خروج الرسول ﷺ من بينهم مهاجرًا، وإصرارهم على الكفر، عذَّبهم الله تعالى في الدنيا بالقتل والأَسْر والهزيمة يوم بدر، هذا بجانب ما أعدَّه للمقيمين على الكفر حتى الموت من عذاب أليم في النار، في الآخرة.

ثانيًا. تفسير قوله ﷻ: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هناك عدة أقوال للعلماء منها:

1. **استغفار المؤمنين بمكة يقي أهلها من العذاب:**

المراد باستغفارهم هو استغفار المؤمنين الذين بَقُوا في مكة لم يهاجروا، وقد أسند الاستغفار الصادر عن المؤمنين إلى مجموع أهل مكة؛ جريًا على طريقة إسناد ما صدر من بعض الخلق إلى كلهم، كما في قوله ﷻ: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ ﴾ (الأعراف: 77)، مع أن العاقر واحد منهم، بدليل قوله: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) ﴾ (القمر). والمعنى: أنه بعد خروج النبي ﷺ مهاجرًا كان استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة دافعًا العذاب الدنيوي عن أهل مكة، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ﴾ (الأنفال: 34)، معناه: بعد خروج المؤمنين المستضعفين منها بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم ففتحوا مكة.

فقد جاء عن ابن أبزى أنه قال: كان رسول الله بمكة فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال: ٣٣)، ثم خرج إلى المدينة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنفال)، وكان مَنْ بَقِي من المسلمين بمكة يستغفرون، فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (الأنفال: ٣٤) فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم الله[1].

وقال ابن كثير: فلولا ما كان بين أَظْهُرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يُرد، لكن دفع عنهم بسبب أولئك.

٢. استغفار الكفار بمعنى: ندمهم على ما كان منهم من طلب العذاب، وهو ما يمنع عنهم العذاب:

المراد بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾: أن استغفارهم هو ندمهم على ما صدر منهم من طلب العذاب في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأنفال)، وأنهم قالوا: غفرانك اللهم، والله تعالى دفع عنهم العذاب الدنيوي بسبب ذلك، أما عذاب الآخرة فهو واقع بهم ما داموا مُصرِّين على الكفر حتى الموت.

٣. معنى: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي: ما كان معذبهم وفيهم من يستغفره من الكفر ويدخل الإسلام:

إن معنى قوله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنفال)، هو: ما كان الله سبحانه وتعالى معذبهم وقد سبق في علمه أن منهم من يستغفر الله من كفره ويدخل في الإسلام، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (الأنفال: ٣٤): في الذين قضى الله ألا يسلموا، كأبي جهل ومن على شاكلته، الذين عُذِّبوا بالقتل على أيدي المسلمين.

وهناك رأي يقول: إن آية: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، ناسخة للآية التي قبلها، رواه ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري، قالا: قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنفال)، فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (الأنفال: ٣٤)[2].

وقد ضعَّف هذا الرأي بعض العلماء؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنفال) خبر من الله بعدم تعذيبه لهم في حالة استغفارهم، والخبر لا يجوز نسخه شرعًا بإجماع المسلمين.

وأقوى هذه الآراء الرأي الأول[3].

الخلاصة:

إن توهم التناقض بين قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، وبين قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾توهُّمٌ غير صحيح ولا أساس له،

---

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، تفسير سورة الأنفال، آية (٣٤)، برقم (١٥٩٩٠).

٢. أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٥١٧)، تفسير سورة الأنفال، آية (٣٤) برقم (١٦٠١٧).

٣. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٢٠ وما بعدها.

وسرعان ما يختفي ويزول؛ لأن:

- الآيتين تخبران أن هناك أمانين من العذاب لكفار مكة:

أولهما: أن النبي ﷺ فيهم، والله تعالى لم يُهلك أمة ونبيها فيهم، فإذا خرج من بين أظهرهم تعرضوا للعذاب.

وثانيهما: استغفارهم الله عز وجل.

- المراد بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أن استغفارهم هو استغفار المؤمنين المقيمين في مكة، أو هو ندمهم على ما صدر منهم من طلب العذاب، والله تعالى دفع عنهم العذاب الدنيوي بسبب ذلك، أو أن الله تعالى لا يعذبهم، وقد سبق في علمه أن منهم من يستغفر من كُفْرِه ويدخل في الإسلام.

الشبهة الثانية والثلاثون

توهم تناقض القرآن بشأن وسيلة شفاء الصدور(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغرضين أن هناك تناقضًا بين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ (يونس)، وبين قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾ (التوبة). ويتساءلون: كيف يثبت الله في الآية الأولى أن القرآن هو الشفاء لما في الصدور، ثم يقر في الآية الأخرى أن الانتصار وتعذيب الأعداء هو الشفاء لما في الصدور؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

المراد بشفاء الصدور في الآيتين مختلف؛ إذ إن:

- المراد بالشفاء في الآية الأولى، تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة.
- المراد بالشفاء في الآية الثانية، قتل الأعداء وخزيهم والنُّصرة عليهم.

التفصيل:

معنى شفاء الصدور في الآيتين مختلف:

١. **فالمراد بالشفاء في الآية الأولى: تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة:**

من المسلَّم به أن القرآن الكريم يُهذِّب الباطن عن العقائد الفاسدة، والأخلاق الذميمة، ويهذب الظاهر عن فعل ما لا ينبغي، ويحلِّي النفس بالعقائد الحقَّة، والأخلاق الفاضلة المستعدة لما حصل لها من الكمال الظاهر والباطن؛ فالقرآن واعظ بما فيه من الترغيب والترهيب، أو بما فيه من الزجر عن المعاصي، وشاف لما في الصدور من الأدواء المُفْضِيَة[1] إلى الهلاك: كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها، ويرشد ببيان ما يليق وما لا يليق إلى ما فيه النجاة والفوز بالنعيم الدائم، أو موصل إلى ذلك، وسبب الرحمة للمؤمنين الذين آمنوا به وامتثلوا ما فيه من الأحكام.

(*) دعوة للتفكير، موقع الكلمة.

١. المُفْضِية: المؤدِّية.

وجاء عن ابن مسعود ﷺ قال: " شفاءان: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور "[1].

٢. أما المراد بالشفاء في الآية الثانية: قتل الأعداء وخزيهم والنُّصْرة عليهم:

عن مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مخرمة قالا: كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش: أن من شاء أن يدخل في عَقْد النبي ﷺ وعهده دخل فيه، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه، فتواثبت خُزاعة فقالوا: ندخل في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: ندخل في عقد قريش وعهدهم، دخلت خُزَاعة وبنو بكر في تلك الهُدْنَة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرًا، ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خُزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلًا بماء لهم يُقال له "الوتير" قريب من مكة، فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوا عليهم بالكُرَاع[2] والسلاح فقاتلوهم معه؛ للضِّغْن[3] على رسول الله ﷺ، وركب عمرو بن سالم عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قَدِمَ المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات أنشده إياها، فقال رسول الله ﷺ: "نصرت يا عمرو بن سالم"، فما برح حتى مرَّت غمامة في السماء، فقال رسول الله: "إن هذه السماء لتشهد بنصر بني كعب"، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يُعمِّي على قريش خبره حتى يَبْغَتهم في بلادهم[4].

ومن هذا الحديث وضح لنا أن بني بكر وقريشًا قد خانوا العهد مع النبي ﷺ وحلفائه من بني خُزَاعة، فأنزل الله ﷻ أمرًا بالقتال: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ (التوبة)، جزاءً لما فعلوا؛ ليكون هذا القتال عذابًا لهم وخزيًا، ويكون على الجانب الآخر شفاء لصدور بني خُزَاعة - بعدما حدث لهم -، ولكَوْن النُّصرة مدار القصد كان أثره إذهاب الغيظ من القلب الذي هو أخص من الصدر، وقد أنجز الله تعالى جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون[5].

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين الآيتين اللتين معنا؛ وذلك لأن:

- الشفاء في الآية الأولى المراد به: تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة.
- الشفاء في الآية الثانية المراد به: قتل الأعداء من قريش وبني بكر، وخزيهم والنصرة عليهم، وذلك لنقضهم العهد مع النبي ﷺ والإغارة على حلفائه من بني خزاعة ليلًا، فهذا القتل والخزي يكون شفاء لصدور بني خزاعة.

---

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٥٠)، تفسير سورة النحل، آية (٦٩).

٢. الكُرَاع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

٣. الضِّغْن: الحقد.

٤. انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٣). عيون الأثر، ابن سيد الناس (٢/ ١٨٢). السيرة النبوية، ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

٥. انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

الشبهة الثالثة والثلاثون

توهم تناقض القرآن بشأن ذم الخاطئ(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تعارضًا بين قوله تعالى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (العلق)، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ (الأحزاب: ٥). ويتساءلون: كيف يذم الله المخطئ في موضع، في حين يرفع عنه الحرج في موضع آخر؟! زاعمين أن ذلك دليل على تناقض القرآن الكريم.

وجه إبطال الشبهة:

لا تعارض بين الآيتين؛ إذ إن:

- الخاطئ في الآية الأولى: هو الذي يذنب متعمدًا.
- "أخطأ" في الآية الثانية بمعنى: أذنب بغير تعمد.

التفصيل:

لا تعارض بين الآيتين؛ إذ إن:

١. الخاطئ في الآية الأولى: هو الذي يذنب متعمدًا:

الخاطئ من خَطِئَ: بمعنى أذنب أو تعمَّد الذنب، ومنه قوله عز وجل: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (يوسف).

فسورة العلق تتحدث عن قُبْح ما صنع أبو جهل مع رسول الله ﷺ، فقد كان ينهاه عن الصلاة، فهدده الله تبارك وتعالى وتوعده - إن لم يَنْتَه عما هو عليه - بالأخذ بناصيته، وجرِّه إلى النار، ثم وصف الله عز وجل ناصيته بأنها كاذبة خاطئة، والمراد: أن صاحبها كاذب خاطئ.

ومما يؤكد هذا المعنى الآيات التي جاءت قبل هذه الآية؛ إذ قال الله عز وجل فيها: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (العلق) ففي هذه الآية التي معنا - وما قبلها -، ذم الخاطئ وتهديده.

٢. "أخطأ" في الآية الثانية بمعنى أذنب غير متعمد:

أخطأ معناها: حادَ عن الصواب، وأخطأ الهدف لم يصبه، ومنه قولهم: "أخطأ نوْؤك"، مَثَل يُضرَب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها، ومن ذلك حديث رسول الله ﷺ "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[1]. ويقال: أخطأ فلان: أذنب سهوًا أو عمدًا.

ومن هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ (الأحزاب)، فقد أمر الله عز وجل المؤمنين أن يدعو الأبناء لآبائهم الصُّلب وينسبوهم إليهم، ولا يدعوهم

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٦٩١٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٤٥٨٤).

إلى غيرهم، فإن وقع من أحدهم نسبة ابن إلى غير أبيه على سبيل الخطأ من غير تعمد فلا إثم فيه، وإنما الإثم فيما كان عمدًا[1].

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين الآيتين اللتين معنا؛ إذ إن:

- الخاطئة في الآية الأولى هي التي تُذنب متعمدة، ونزلت هذه الآية في أبي جهل ـ لعنه الله ـ، فالخاطئ هنا هو فاعل الخطيئة ـ الذنب ـ عمدًا.
- أما المخطئ في الآية الأخرى؛ فهو من صدر عنه الفعل من غير تعمد؛ فهو معذور ولا إثم عليه، فلا تعارض بين الآيتين.

الشبهة الرابعة والثلاثون

توهُّم تناقض القرآن حول الأمر بالتقوى (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ (آل عمران)، وبين قوله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ (التغابن: ١٦). ويتساءلون: كيف يأمر الله المؤمنين أن يتّقوه حقَّ تقاته في موضع، ثم يأمرهم أن يتّقوه قدر استطاعتهم في موضع آخر؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم لما فيه من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

للعلماء في التوفيق بين الآيتين رأيان، وهما أن:

- آية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ناسخة لقوله ﷻ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.
- آية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ مبينة للمقصود بالآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

التفصيل:

اختلف العلماء حول كيفية التوفيق بين الآيتين، فقيل إن:

١. الآية الثانية ناسخة للأولى:

آية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ناسخة لقوله ﷻ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ (آل عمران)، يقول ابن سلامة: "لما نزلت: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لم يعلموا تأويلها حتى سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: ما حق تقاته؟! قال: "أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر"، فشقَّ نزولها عليهم فقالوا: لا نطيق، فقال النبي ﷺ: " أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير[2].

ثم نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ

---

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢، ٣٣ بتصرف.

(*) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مرجع سابق.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) (٣٤٤).

﴿ جِهَادِهِۦ ﴾ (الحج: ٧٨)، فكان هذا أعظم عليهم من الأول، حتى يَسَّر الله ذلك وسهَّله؛ فنزل قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾، فصارت ناسخة لما قبلها[1].

٢. **الثانية مبينة للمقصود من الأولى:**

قيل: إن آية: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن: ١٦) جاءت مبينة للمقصود بقوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، فقوله ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ أي: بقدر الطاقة، والذي يؤيد هذا القول قوله ﷻ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (البقرة)، وقوله ﷺ: "إن الدين يسر، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه"[2] [3].

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين قوله ﷻ: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ وبين قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾، وذلك لأن العلماء اختلفوا في كيفية التوفيق بين الآيتين فقالوا:

- الآية الثانية ناسخة للآية الأولى، فبعدما شَقَّ الأمر على المسلمين، اشتد عليهم العمل، فقاموا حتى انتفخت عراقيبهم، وتقرَّحت جباههم، فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ تخفيفًا عليهم وتيسيرًا لهم.
- إن الآية الثانية مبينة للمقصود بالآية الأولى؛ فقوله ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾، أي: بقدر الطاقة، ويدعم هذا القول قوله ﷻ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

الشبهة الخامسة والثلاثون

توهم تناقض القرآن بشأن اختصاص الشفاعة بالله ﷻ وحده(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين وجود تناقض بين قوله ﷻ: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الزمر)، وقوله ﷻ: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (السجدة: ٤)، وبين قوله ﷻ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (يونس)، ويتساءلون: كيف أن الله يقرر في الموضعين الأولين أنه لا شفاعة لغيره، ويثبت في الموضع الثالث وجود شفعاء من دونه؟ ويستدلون بذلك على وقوع التناقض في القرآن، ليثبتوا زعمهم بأن القرآن من صنع

---

١. التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن، د. مصطفى إبراهيم الزلمي، طبعة جامعة صدام، بغداد، ص١٧٧.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (٣٩).

٣. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مرجع سابق، ص٥٧، تفسير أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٩. الدر المنثور، السيوطي، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨٣.

(*) رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، مرجع سابق.

البشر، وليس كتابًا إلهيًّا.

وجه إبطال الشبهة:

الشفاعة لله وحده، فلا شفاعة إلا بإذنه، ولا يشفع أحد إلا لمن يرتضي الله له ذلك.

التفصيل:

الشفاعة لله وحده ولا يشفع أحد إلا لمن يرتضي الله له ذلك:

لا يجترئ أحد على الشفاعة عند الله إلا بإذنه تعالى؛ إذ هو تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب، وفي ذلك دليل على عزته وكبريائه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة:٢٥٥).

ويعلِّق الطاهر ابن عاشور على آية سورة يونس فيقول: وفي إجراء هذه الصفات - صفات خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش وتدبير الأمر - على الله ﷻ تعريض بالرد على المشركين؛ إذ جعلوا لأنفسهم آلهة لا تخلق ولا تعلم، كما قال ﷻ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (النحل)، ولذلك حَسُن وَقْع جملة: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ (يونس: ٣)، عقب جملة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بتمامها؛ لأن المشركين جعلوا آلهتهم شفعاء فإذا أُنذروا بغضب الله يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، أي: حماتنا من غضبه، فبعد أن وُصف الإله الحق بما هو مُنْتَفٍ عن آلهتهم نُفِي عن آلهتهم وصف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليهم منه.

وأكد النفي بـ"من" التي تقع بعد حرف النفي لتأكيد النفي وانتفاء الواصف عن جميع أفراد الجنس الذي دخلت "من" على اسمه، بحيث لم تبقَ لآلهتهم خصوصية.

وزيادة "إلا من بعد إذنه" احتراس لإثبات شفاعة محمد ﷺ بإذن الله، قال ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء: ٢٨)، والمقصود من ذلك عنده نافذة كشفاعة النِدِّ عند نِدِّه[1].

وكذلك الحال في كل الآيات التي تثبت أن الشفاعة لله وحده دون غيره، وجاءت نسبة الشفاعة لله وحده - ولمن أذن لهم - ردًّا على الكفار الذين كانوا يقولون عن الأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، فكان الجواب من الله ﷻ واضحًا: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٤٤).

وقيل: إن المراد بقوله: (شفيع) في سورة يونس: أن الله تبارك وتعالى يدبر الأمر وحده، فهو لا ثاني له؛ لأنه لم يكن معه أحد، ثم خلق الأشياء من بعد أمره أن يكون الخلق فكان. إنه أوجد العالم وحده لا شريك يعينه، ولم يَحْدث شيء في الوجود محل الزعم إلا من بعد قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ (البقرة).

الخلاصة:

- ليس هناك أي وجه للتناقض بين الآيات التي بين أيدينا، وذلك لأن: الآيات الثلاث تذكر أن الله وحده هو المتصرف في خلقه، ولا يشفع عنده إلا من أذن له فأي تناقض بين هذه الآيات؟ أليست الشفاعة

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٧، ص٨٧، ٨٨.

في هذا كله لله وحده؟ أفلا تذكرون؟

- نَفَى الله تعالى الشفاعة التي يعتقدها المشركون في معبوداتهم، وأثبتها له تبارك وتعالى وحده ولمن يأذن له فيها، فهو سبحانه ينفيها في حال ويثبتها في حال آخر.

الشبهة السادسة والثلاثون

توهُّم تناقض القرآن حول آيات فجور العبد وتقواه(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (الشمس)، على أن "ألهمها" تعني: أن الله تعالى جعل في النفس الفجور والتقوى، فالله تعالى خلق في الكافر فجوره، وخلق في المؤمن تقواه. بينما يُصرِّح في آيات أخرى أن فجور العبد وتقواه باختياره ومشيئته كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (فصلت)، وقوله ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف:٢٩)، وقوله ﷻ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (البقرة). ويتساءلون: كيف يقرِّر الله في موضع أنه خلق في نفس الكافر فجورها، وخلق في نفس المؤمن تقواها، ثم ينفي ذلك في موضع آخر، مبينًا أن فجور العبد وتقواه باختياره نفسه؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن.

وجها إبطال الشبهة:

١) مذهب القدرية في القول باستقلال العبد في خلق أفعاله دون تأثير لقدرة الله مذهب مخالفٌ لعقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم.

٢) للعبد إرادة اختيارية يكون عليها الثواب والعقاب، ولكنها محاطة بإرادة الله وقدرته، فهو الذي خلق العبد وخلق إرادته وأفعاله.

التفصيل:

أولا. دَحْض مذهب القَدَريَّة في القول باستقلال العبد في خلق أفعاله دون تأثير لقدرة الله:

قال الله ﷻ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (الشمس)، يذكر الدكتور الحديدي أن للمفسرين في معنى "فألهمها" قولين:

الأول: عرَّفها وبيَّن لها طريق الخير وطريق الشر، وعليه فلا إشكال في الآية.

الثاني: جعل فيها الفجور والتقوى، بالخذلان للأولى، والتوفيق للثانية، فالله تعالى خلق في الكافر فجوره، وخلق في المؤمن تقواه.

وعلى المعنى الثاني قد يظن بعض المتوهمين تعارضها مع الآيات القرآنية الدالة على أن فجور العبد وتقواه

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة. هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com.

® في "**الإيمان بالقدر وسلب إرادة العبد!**" طالع: الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

باختياره ومشيئته!

وللرد على هذا الزعم يمكن القول: إن الزاعمين بأن العبد يخلق أعماله بنفسه استقلالًا من غير تأثير لقدرة الله فيه - وهم القدرية - قد أخطأوا وضلُّوا ضلالًا بعيدًا. كما أن الذين ذهبوا إلى أن العبد لا عمل له أصلًا حتى يؤاخذ به قد ضلُّوا كذلك.

وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، من أن للعبد أفعالًا اختيارية عليها يكون الثواب إن كانت خيرًا وطاعة وبرًّا، أو العقاب إن كانت شرًّا ومعصية وفسقًا - هو الصواب.

ثانيًا. للعبد إرادة اختيارية يكون عليها الثواب والعقاب ولكنها مُحاطة بإرادة الله ﷻ:

وهنا يُثار تساؤل.. إذا كان للإنسان أفعالٌ اختيارية يفعلها بإرادته، فأين منها إرادة الله وقدرته؟

ويمكن أن نجيب عن هذا التساؤل بعدة نقاط هي:

١. أن الله تعالى خالق كل شيء، فهو خالق العبد وخالق قدرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد يكون بمشيئة الله تعالى؛ إذ يفعل العبد ما يفعله اختيارًا بالإرادة والقدرة اللتين خلقهما الله تعالى فيه.

٢. أن الله تعالى قد بيَّن لعباده طريق الخير وطريق الشر، وجعل للإنسان عقلًا يميز به هذا من ذاك، وأرسل الرسل هُداة ومرشدين ومبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

والإنسان لا يدري ما قدَّر الله عليه، ولذا فليس من حقه أن يتعلَّل لكفره وعصيانه، بأن الله تعالى قدَّر عليه ذلك، وهو لا يملك مدافعة إرادة الله ومشيئته.

٣. لا يُعقل كذلك أن يقع في مُلك رب العالمين، وخالق الخلق أجمعين شيء لا يريده، وكيف يتحكم العبد - وهو المخلوق - فيفعل فعلًا لا يريده الرب الخالق؟ وقد قال ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ (الإنسان)، فأثبت للعبد مشيئة، وبيَّن أنه لا مشيئة للعبد إلا بمشيئة الله ﷻ[1].

يُرْوَى أنه لَمَّا تناظر أبو إسحاق الإسفرائيني مع عبد الجبار المعتزلي، قال عبد الجبار: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، وقَصْدُه أن المعاصي - كالسرقة والزنا - بمشيئة العبد دون مشيئة الله؛ لأن الله أعلى وأجلُّ من أن يشاء القبائح في زعمهم. فقال أبو إسحاق: كلمة حقٍّ أُريد بها باطل، ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أتراه يخلقه ويعاقبني عليه؟ فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبرًا عليه؟ أأنت الرب، وهو العبد؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى عليّ بالرَّدى، أتراه أحسن إلي أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: إن كان الذي منعك مِلْكًا لك، فقد أساء، وإن كان له، فإن أعطاك فَفَضْلٌ، وإن منعك فعَدْلٌ، فبُهِتَ عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب[2].

جاء في الصحيح عن أبي الأسود الدُّؤَلي أنه قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه؟ أشيء قُضِي عليهم ومضى عليهم من قَدَر ما سَبَق، أو فيما يُستقبَلون به مما أتاهم به نبيُّهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قُضي عليهم

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٨٤ وما بعدها.
٢. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مرجع سابق، ص٥٧.

ومضى عليهم. قال: فقال: أفلا يكون ظلمًا؟ قال: ففزعتُ من ذلك فزعًا شديدًا، وقلت: كل شيء خَلْق الله ومِلْك يده، فلا يُسْأَل عما يفعل وهم يُسألون، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أُرِدْ بما سألتُك إلا لأحْزِر[1] عقلك: إن رجلين من مزينة أتَيَا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضِي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سَبَق، أو فيما يُستقبَلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: "لا، بل شيء قُضِي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (الشمس)"[2].

وعن عمران بن حصين أنه قال: قيل: يا رسول الله، أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: فقال: "نعم"، قال: قيل: ففيمَ يعمل العاملون؟ قال: "كلٌّ مُيَسَّر لما خُلِقَ له"[3][4].

الخلاصة:

لا تعارض في كتاب الله بين ما يفيد أن الله جعل في النفس الفجور والتقوى، فخلق في الكافر فجوره، وخلق في المؤمن تقواه، وبيَّن ما يفيد أن فجور العبد وتقواه باختياره ومشيئته؛ وذلك لأن للعبد أفعالًا اختيارية يكون عليها الثواب والعقاب، واختيار العبد لأفعاله لا ينفي إرادة الله وقُدْرَته، فالله تعالى خلق العبد وخلق قُدْرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد يكون بمشيئة الله.

1. أحزر: أمتحن.
2. أخرجه مسلم في صحيحه،كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٦٩٠٩).
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله (٦٢٢٣)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٦٩٠٧).
4. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٨٥.

الشبهة السابعة والثلاثون

توهم تناقض القرآن بشأن جزاء السيئة (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قول الله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى:٤٠)، وبين قوله ﷻ: ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ (هود: ٢٠). ويتساءلون: كيف يُثبت القرآن في الموضع الأول أن جزاء السيئة سيئةٌ مثلها، ويقرر في الموضع الآخر أن جزاء السيئة مضاعف؟! ويرمون من وراء ذلك إلى التأكيد على وجود تناقض بين آيات القرآن؛ ليثبتوا زعمهم أن القرآن الكريم ليس من عند الله.

وجه إبطال الشبهة:

لا تعارض بين الآيتين؛ إذ إن:

- الموضع الأول يتحدث عن جواز القصاص في الدنيا، مع أفضلية العفو والصفح.
- الله عز وجل يضاعف العذاب للذين يصدون عن سبيله؛ لضلالهم وإضلالهم.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

التفصيل:

لا تعارض بين الآيتين:

التوهم القائل: إن هناك تناقضًا بين قول الله ﷻ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ (الشورى: ٤٠)، وبين قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (هود) ليس صحيحًا؛ إذ إن الموضعين ذُكِرا تعليقًا على موقفين مختلفين:

١. **الموضع الأول يتحدث عن جواز القصاص في الدنيا، مع أفضلية العفو والصفح:**

قال رسول الله ﷺ: "المُسْتبَّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يَعْتَدِ المظلوم"[1]. وقال الشذيُّ في قوله ﷻ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ (الشورى: ٤٠): إذا شتمك فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدي[2]، فمثلًا: إذا قال أحد لغيره: أخزاك الله، فيقول له: أخزاك الله دون أن يعتدي أو يزيد، ومع جواز القصاص في الدنيا، رغب الله ﷻ ورسوله الكريم ﷺ في العفو والصفح عمن أساء. وعن الحسن البصري قال: "أفضل أخلاق المسلمين: العفو".

وبهذا اتضح لنا أن المراد من الموضع الذي بين أيدينا: جواز القصاص في الدنيا ممن سَبَّ أو شتم، مع أفضلية العفو والصفح، فيكون الأجر عند الله ﷻ.

٢. **المراد في الموضع الثاني أن الله ﷻ يضاعف العذاب للذين يصدون عن سبيله؛ لضلالهم وإضلالهم:**

بيَّن الله ﷻ في الموضع الآخر أن الكفار الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، يضاعف لهم العذاب يوم القيامة؛ لأنهم يُعذَّبون على ضلالهم، ويُعذَّبون أيضًا على إضلالهم غيرهم، كما أوضحه الله ﷻ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (النحل)[3].

ويزيد الشيخ الشعراوي هذا الأمر وضوحًا فيقول: وقول الحق ﷻ: ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ (هود: ٢٠)، لا يتناقض مع قوله الحق: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ (الأنعام:١٦٤)؛ لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد، بل لهم وُزْران: وزر الضلال في ذواتهم، ووزر الإضلال لغيرهم؛ ولذلك تجد بعضًا من الذين أُضِلُّوا يقولون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (فصلت)، ويقولون أيضًا: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأحزاب).

إذن: فالدعوة إلى الانحراف إضلال، وعمل الشيء بالانحراف إضلال؛ لأنه أسوة أمام الغير.

ومضاعفة العذاب لا تعني الإحراق مرة واحدة في النار؛ لأن الحق سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام؛ ولذلك أراد الحق ﷻ أن

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن السباب (٦٧٥٦).

٢. أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٥٤٧)، تفسير سورة الشورى، آية (٣٩).

٣. انظر: الدر المنثور، السيوطي، مرجع سابق، ج٧.

يكون هناك عذاب بعد عذاب. يقول الحق تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (النساء: ٥٦)، فهو عذاب على الدوام.

أو أن العذاب الذي يُضاعف له لون آخر، فهناك عذاب للكفر، وهناك عذاب للإفساد، والعذاب على الكفر لا يلغي العذاب على المعاصي التي يرتكبها الكفار[1].

الخلاصة:

ليس هناك أي وجه للتناقض بين الآيتين؛ ذلك لأن:

- الموضع الأول: يتحدث عن جواز القصاص في الدنيا، مع أفضلية العفو والصلح، فمن شُتِم أو سُبَّ أو اعتُدي عليه، جاز له أن يَرُدَّ ذلك، وإن عفا وأصلح، فأجره على الله.
- الموضع الثاني: أن الله تبارك وتعالى يضاعف العذاب يوم القيامة للذين يصدون عن سبيل الله؛ لأنهم ضلُّوا وأضلوا غيرهم، فحق عليهم مضاعفة العذاب.

الشبهة الثامنة والثلاثون

توهُّم تناقض القرآن بشأن مقدار اليوم عند الله(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين وقوع التناقض بين قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ (السجدة)، وبين قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ (المعارج). ويتساءلون: كيف يقرر القرآن في الموضع الأول أن مقدار اليوم ألف سنة، ثم يثبت في الموضع الثاني أن مقدار اليوم خمسون ألف سنة؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى القول بأن القرآن ليس من عند الله، بل هو من عند البشر.

وجه إبطال الشبهة:

ذكر العلماء لمعنى اليوم في الآيتين عدة تفسيرات، أرجحها أن:

- اليوم في الموضع الأول هو يوم نزول الأمر من السماء إلى الأرض وعروجه إليها مرة ثانية.
- أما اليوم في الموضع الثاني هو يوم القيامة.

التفصيل:

اختلف العلماء حول المقصود باليوم في الآيتين إلى عدة أقوال، أرجحها أن:

١. اليوم في الموضع الأول يوم نزول الأمر من السماء وعروجه إليها:

المقصود باليوم في الموضع الأول هو يوم نزول الأمر من السماء، وعروجه من الأرض إلى السماء في يوم واحد، وذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، فنزول الأمر من السماء إلى الأرض يستغرق خمسمائة عام، وعروجه من الأرض إلى السماء يستغرق خمسمائة عام، تلك ألف سنة كاملة.

٢. أما اليوم في الموضع الثاني فهو يوم القيامة:

المقصود باليوم في الموضع الثاني هو يوم القيامة،

---

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٠ ص٦٤٠٩: ٦٤١١ بتصرف.

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي.

ويدل على ذلك قوله ﷻ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)﴾ (المعارج)، وهو القول الراجح، فقد ذكر ابن كثير أربعة أقوال في المراد من اليوم، ومال إلى أن المراد به "يوم القيامة".

وهو الراجح بدليل ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: "ما من صاحب ذهبٍ ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نارٍ، فأُحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنةٍ حتى يُقْضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار"[1].

فبيَّن أنه يطول على الكفار لشدته، فيساوي لأجل ذلك خمسين ألف سنة؛ وذلك لاختلاف زمن اليوم باعتبار حال المؤمن والكافر؛ فيوم القيامة أخفُّ على المؤمن منه على الكافر، كما قال ﷻ: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)﴾ (المدثر)[2].

قال بعضهم: إن اليوم في اللغة يعني: الوقت؛ فيكون المعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في وقت كان مقداره ألف سنة، وفي وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة.

٣. وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام، فمنه ما مقداره ألف سنة، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة.

٤. وقيل: إن القيامة خمسون موقفًا، كل موقف ألف سنة، فمعنى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (السجدة: ٥) أي: مقدار وقف أو موقف من يوم القيامة.

٥. وقيل في معنى اليوم في الآيتين عدة آراء أخرى تنفي كلها أي تعارض بين الآيتين[3].

الخلاصة:

إن الآيتين ليستا على مورد واحد، فقد ذكر العلماء لمعنى اليوم في الآيتين عدة تفسيرات، أرجحها أن الآية الأولى تتحدث عن أمر لا تتحدث عنه الأخرى، فالآية الأولى تتحدث عن مدة يوم نزول الأمر من السماء إلى الأرض وعروجه إلى السماء مرة ثانية ومدته ألف سنة، والثانية تتحدث عن يوم القيامة ومُدَّته خمسون ألف سنة.

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٢٣٣٧).

٢. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص٣٤٨.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٨، ص٨٧: ٨٩ بتصرف.

الشبهة التاسعة والثلاثون

توهم تناقض القرآن حول شهادة الكفار على أنفسهم بالكفر (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تعارضًا بين آيات القرآن الكريم؛ حيث يدل بعضها على أن الكفار يشهدون على أنفسهم بالكفر، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) ﴾ (العاديات). بينما تجد آيات أخرى تفيد أن الكفار يحسبون أنهم على الهدى، وأنهم يحسنون صنعًا كقول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) ﴾ (الزخرف)، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ (الكهف)، ويتساءلون: كيف يقرر القرآن في مواضع أن الكفار يشهدون على أنفسهم بالكفر، بينما يقرر في مواضع أخرى أنهم على هدى؟ ويرون أن هذا التناقض على حد زعمهم دليل على بشرية القرآن.

وجه إبطال الشبهة:

الكفار لا يدركون أنهم على ضلال، على الرغم من شهادة لسان الحال عليهم في الدنيا، وشهادة لسان المقال عليهم في الآخرة.

التفصيل:

إن المتأمل للآيات التي تخصُّ تلك القضية، ليعلم بنفسه ويدرك بعقله الذي أودعه الله تعالى إياه أنه لا تعارض بينهما، بل بقليل من التَّفكر يمكن التوفيق بين ما ظاهره يوهم بالتناقض، يوضح ذلك د. الحديدي فيقول:

الكفار لا يدركون أنهم على ضلال، على الرغم من شهادة لسان الحال عليهم في الدنيا وشهادة لسان المقال عليهم في الآخرة:

إن الكفار يحسبون أنهم - في الدنيا - على الحق والصواب، ولا يدركون أنهم على ضلال وسوء عمل، كما أفاد ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) ﴾ (الزخرف).

والمعنى: أن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلِّين، يعاقبه الله تعالى بشيطان يُقيِّضه له، ويلازمه قرينًا له، يتبعه ويطيعه فيما يوسوس به إليه، فلا يهتدي مجازاة له حين آثر الباطل على الحق المبين.

وإن الشياطين الذين يُقيِّضهم الله لكل من يَعْشُون عن ذكره يَحُولون بينهم وبين سبيل الحق ويمنعونهم منه، ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنوا صدق ما يوسوسون به، ويحسب الكفار بسبب هذه الوسوسة أنهم في أنفسهم مهتدون. وكما أفاد ذلك أيضًا قوله ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ (الكهف).

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفار: هل نخبركم بأخسر الناس عند الله الذين بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا؛ لأن الكفر لا تنفع معه طاعة، وهم يظنون

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

أنهم محسنون بأفعالهم.

لسان حالهم يُغني عن مقالهم، فهو يشهد عليهم في الدنيا بالكفر والجحود:

مع إيمان الكفار بأنهم على حق وهدى في الدنيا، إلا أن لسان حالهم في هذه الدنيا يشهد عليهم بالكفر والجحود، وذلك كما وضح في قول الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (التوبة). والمعنى: ما صحَّ للمشركين وما استقام لهم أن يَعْمُروا مساجد الله - إما بالمعنى المجازي أو الحقيقي الذي هو التعبد فيها وملازمتها - حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر بإظهار ما هو كُفر من عبادة الأوثان وجعلها آلهة، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا ذلك بألسنتهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين: عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرَّب إلى الله بعمارة مساجده؟ أولئك بطلت أعمالهم التي يفتخرون بها، ويظنون أنها من أعمال الخير، وفي النار هم ماكثون أبدًا لا يخرجون منها.

ومن ذلك أيضًا قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ (العاديات)، فقد أقسم الله عز وجل بالعاديات على أن الإنسان - والمراد به بعض أفراده وهو الكافر - كنود، أي: جاحد لنِعَم ربه شديد الكفران، وأنه على جحوده لشهيد يشهد على نفسه به؛ لظهور أثره عليه، وأنه لحب المال قوي مجد في طلبه متهالك في تحصيله، فهذه شهادة من الكافر على نفسه بكفره[1].

لسان مقالهم يشهد عليهم في الآخرة بالكفر والجحود:

وتأييدًا للسان حالهم الشاهد عليهم بالكفر وجحود فضل الله في الدنيا يشهد عليهم لسان مقالهم في الآخرة كما في قوله عز وجل: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الأعراف)، والمعنى: لا أحد أظلم ممن تعلم الكذب على الله، أو كذَّب بآياته المنزلة، أولئك يصيبهم حظهم في الدنيا مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال، حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت تفيض أرواحهم قالوا لهم على سبيل التبكيت[2] والتوبيخ[3]: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟! ادعوهم ليخلصوكم من العذاب، قال الكفرة: لقد غابوا عنَّا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم. وأقرُّوا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال.

وقوله عز وجل: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (الأنعام).

والمعنى: يُنادى يوم القيامة كفار الجن والإنس: ألم يأتكم الرسل يتلون عليكم آيات ربكم ويخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد؟ فلم يجدوا إلا الاعتراف فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا،

---

1. المرجع السابق، ص٦٣ وما بعدها.
2. التَّبكِيت: التقريع والتوبيخ.
3. التَّوبيخ: اللوم والتأنيب.

وأنذرتنا لقاء يومنا هذا.

قال ابن عطية - رحمه الله: وهذا إقرار منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ (الملك: ٩)، وخدعتهم الدنيا بنعيمها وبَهْرَجها[1] الكاذب، واعترفوا على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين.

وقوله ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ (الزمر)، والمراد بكلمة العذاب قوله ﷻ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (هود)، وقوله تعالى عن الكفار في الآخرة: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ (الملك)، أي: أَقَرَّ الكفرة في الآخرة بأنهم أجرموا في الدنيا وكذَّبوا الرسل فبعدًا وهلاكًا لأهل النار[2].

الخلاصة:

لا تعارض بين الآيات؛ فالكفار في الدنيا يحسبون أنهم على الهدى، إلا أن لسان حالهم في هذه الدنيا يشهد عليهم بالكفر والجحود، ومن قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (العاديات)، وتأييدًا للسان حالهم الشاهد عليهم بالكفر وجحود فضل الله في الدنيا يشهد عليهم لسان مقالهم في الآخرة كما في قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الأعراف).

١. البَهْرج: الزيف.

٢. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٦٥: ٦٧.

الشبهة الأربعون

توهُّم تناقض القرآن حول نطق الكفار في الآخرة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن هناك تعارضًا بين آيات القرآن الكريم التي تثبت نطق الكافرين في الآخرة بالإنكار أو الاختصام مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنعام)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الزمر)، وبين الآيات التي تنفي ذلك كقوله ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المرسلات)، وقوله أيضًا: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (النمل). ويتساءلون: كيف يذكر القرآن في موضع أن الكافرين ينطقون يوم القيامة، ويذكر في موضع آخر أنهم لا ينطقون؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض.

(*) المرجع السابق.

وجه إبطال الشبهة:

يمكن التوفيق بين هذه الآيات بأحد رأيين:

- إن القيامة مواقف، والنار حالات، ففي بعضها ينطقون وفي بعضها لا ينطقون.
- إن الكفار ينطقون بما لا فائدة لهم منه، وما لا فائدة منه في حكم العدم.

التفصيل:

يمكن التوفيق بين الآيات التي تثبت كلام الكفار في الآخرة، وبين الآيات التي تنفي ذلك بأحد رأيين:

١. أن القيامة مواقف، والنار حالات، ففي بعضها ينطقون وفي بعضها لا ينطقون:

تختلف مواقف القيامة، وحالات النار؛ ولذا فهم ينطقون في بعضها كما دلَّت بعض الآيات، ولا ينطقون في بعضها كما دلَّت آيات أخرى، فعن قتادة: أن رجلًا جاء إلى عكرمة، فقال: أرأيت قول الله ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (المرسلات)، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الزمر) فقال: إنها مواقف، فأما موقف منها فتكلموا واختصموا، ثم ختم الله على أفواههم، فتكلَّمت أيديهم وأرجلهم، فحينئذ لا يتكلمون[1].

ومما يدل على اختلاف كلامهم في الآخرة تبعًا لاختلاف مواقف القيامة، ما يحكي إنكارهم الشرك وعمل السوء في الدنيا، مثل قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (النحل)، هذا في إنكارهم الشرك عند الموت والاحتضار، وما يحكي إنكارهم الشرك يوم القيامة كقوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنعام).

وما يحكي إنكارهم عبادة من عبدوهم من دون الله في النار كقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (غافر).

وأما الآيات التي تحكي اختصامهم يوم القيامة، فمنها ما يحكي الاختصام بين النبي ﷺ وبين الكافرين، مثل قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الزمر).

ومنها ما يحكي الاختصام بين الكفرة ومعبوديهم في النار مثل قوله ﷻ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الشعراء).

ومنها ما يحكي الاختصام بين الكفرة بعضهم مع بعض في النار، كقوله ﷻ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ

---

١. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، المكتبة العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٦٦.

عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الأعراف)، ونظيرها قوله ﷻ: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأحزاب)"[1].

وهناك مواقف أخرى لا يستطيع الكفار الكلام ولا ينبغي لهم، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (المرسلات).

٢. أن الكفار ينطقون بما لا فائدة لهم فيه، وما لا فائدة فيه في حُكْم العدم:

الكافرون ينطقون بما لا فائدة لهم فيه، والذي لا فائدة فيه يُعدُّ في حكم العدم، وهو ما يحكيه تعالى عن اعتذارهم في الآخرة في قوله ﷻ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (غافر)، والأوضح في معنى هذه الآية: أن الكافرين يعتذرون، ولكن لا يُقبل اعتذارهم. قال ابن جرير: لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم؛ لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل. وقال الشوكاني: وإنما لم تنفعهم المعذرة؛ لأنها معذرة باطلة، وتَعِلَّة داحضة، وشبهة زائفة[2].

وعلى هذا المعنى يمكن تفسير الآيات التي تنفي نطق الكفار في الآخرة كقوله ﷻ: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (المرسلات)، والمعنى: أن الكفار في الآخرة لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا؛ لأن هذا لا ينفعهم لعدم إيمانهم في الآخرة، وقوله ﷻ: ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (النمل)؛ والمعنى: وجب الغضب عليهم، أو حق العذاب عليهم بسبب ظلمهم، الذي أعظم أنواعه الشرك بالله، فهم لا ينطقون؛ إذ ليس لهم عذر ينطقون به، أو لا يقدرون على الكلام لما يرونه من الهول العظيم، وقال أكثر المفسرين: يختم على أفواههم فلا ينطقون[3].

ويظهر هذا جليًّا من كلامهم حين يقول الحق تبارك وتعالى على لسانهم: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (إبراهيم).

فندمهم وتحسرهم هذا لا ينفعهم، بدليل ما قاله الله ﷻ على لسان الشيطان لما قُضِي الأمر: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

والمتتبع لآي القرآن الكريم يجد أن ما قيل على لسان الكفار لا يغني عنهم شيئًا، ولا ينفعهم بقليل أو كثير، فعذاب الله واقع بهم لا محالة، فقد ردَّ الله ﷻ على من طلب الرجعة بعد الموت إلى الحياة مرة ثانية بكلمة "كلَّا": ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (المؤمنون)، وفي سورة النبأ: ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ

---

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٩٦: ١٠٠ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص١٠٠، ١٠١.

٣. المرجع السابق، ص٩٥.

يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ (النبأ)، فهل كان ترابًا كما تمنى؟!

الخلاصة:

لا يوجد تعارض بين الآيات التي تصرِّح بنطق الكافرين في الآخرة، وبين الآيات التي تحكي كلامهم واختصامهم يوم القيامة، وذلك لسببين:

- الأول: أن القيامة مواقف، والنار حالات؛ فينطقون ويتكلمون أولًا، ثم يُمنعون من الكلام بعد ذلك.
- الثاني: أنهم ينطقون بما لا فائدة لهم فيه، وما لا فائدة فيه في حكم العدم.

الشبهة الحادية والأربعون

توهُّم تناقض القرآن حول إيمان الكافرين بيوم القيامة(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين وجود تناقض بين قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (يونس)، وبين قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (المؤمنون). ويتساءلون: كيف يشير القرآن إلى شفاعة الأصنام للكافرين - مما يفيد إيمانهم بيوم القيامة محلّ الشفاعة - في موضع، ثم يأتي في موضع آخر ويدل على إنكار الكافرين ليوم القيامة والبعث؟ ويستدلون بذلك في ظنهم على القول ببشرية القرآن؛ إذ كيف يكون من عند الله وبه هذا الخلل وذلك الاضطراب؟!

وجه إبطال الشبهة:

الكفار لا يؤمنون بيوم القيامة، وما ورد في القرآن على ألسنتهم عكس ذلك فهو على سبيل التَّهكُّم والاستهزاء بالرسل.

التفصيل:

الكافرون يرجون شفاعة الأصنام؛ لإصلاح معاشهم في الدنيا، وشفاعتهم لهم في الآخرة على سبيل السخرية:

الثابت أن الكفار يَرْجون شفاعة الأصنام في الدنيا؛ لإصلاح معاشهم، أما شفاعتها لهم في الآخرة فهي على تقدير وجودها؛ لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة.

ومما يؤكد هذا المعنى ما ذكره ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس: ١٨)؛ إذ يقول: عَطْفٌ على جملة: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ (يونس: ١٥) عَطْفَ القصة على القصة، فهذه قصة أخرى من قصص أحوال كفرهم أن قالوا: ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ (يونس: ١٥)، حين تُتلى عليهم آيات القرآن، ومن كفرهم أنهم يعبدون الأصنام ويقولون: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس: ١٨).

والمناسبة بين القصتين أن في كلتيهما كفرًا أظهره في صورة السخرية والاستهزاء وإيهام أن العذر لهم في

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

الاسترسال على الكفر، فلعلهم ـ كما أوهموا أنه إن أتاهم النبي ﷺ بعذاب الله قالوا: تشفع لنا آلهتنا عند الله. وقد جاء أن النضر بن الحارث قاله ـ على معنى فرض ما لا يقع واقعًا ـ: إذا كان يوم القيامة شَفَعَتْ لي اللات والعزى.

وإيثار اسم الموصول في قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ (يونس: ١٨)؛ لما تؤذن به صلة الموصول من التنبيه على أنهم مخطئون في عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وفيه تمهيد لعطف: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨) لتحقير رأيهم من رجاء الشفاعة من تلك الأصنام، فإنها لا تقدر على ضُرٍّ ولا نفع في الدنيا، فهي أضعف مقدرة في الآخرة[1].

والدليل على ذلك قوله تعالى على لسان الكافر: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ (الكهف)، أي: أن الرجل لا يؤمن بالساعة، وعلى فرض وجودها، فإن الله سيبدله جنة خيرًا من التي له في الدنيا، وقال هذا الكلام تهكمًا من صاحبه.

وكان الكافر إذا سمع إنذار النبي ﷺ بقيام الساعة أو هَجَسَ في نفسه هاجس[2] عاقبة هذه الحياة، قال لمن يدعوه إلى العمل ليوم الحساب أو قال في نفسه: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ (الكهف: ٣٦)، ولئن فرضت قيام الساعة على احتمال ضعيف، فإني سأجد عند الله العاقبة بالحسنى؛ لأني من أهل الثراء والرفاهية في الدنيا، فكذلك سأكون في القيامة، وهذا من سوء اعتقادهم أن يحسبوا أحوال الدنيا مقارنة لهم في الآخرة، كما حكى الله تعالى عن العاص بن وائل حين اقتضاه خَبَّاب بن الأرتّ مالًا له عنده من أجر صناعة سيف فقال له: حتى تكفر بمحمد؟ فقال خَبَّاب: لا أكفر بمحمد حتى يُميتك الله ويبعثك، فقال: أَوَإِنِّي لميِّت فمبعوث؟! قال: نعم، فقال: لئن بعثني الله فسيكون لي مالي فأقضيك فأنزل الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ (مريم).

ولعل قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (فصلت: ٥٠)، إنما هو على سبيل الاستهزاء كما في مقالة العاص بن وائل.

وجاءت "إن" الشرطية، لتدل على الشك في حصول الشرط؛ لأنه جعل رجوعه إلى الله أمرًا مفروضًا ضعيف الاحتمال[3].

وعلى هذا المعنى يمكن تفسير كل الآيات التي جاءت في القرآن الكريم على لسان الكفار تؤكد إنكارهم ليوم القيامة إنكارًا تامًّا.

الخلاصة:

الثابت في آيات القرآن الكريم أن الكفار والمشركين لا يؤمنون بيوم القيامة ولا بالحساب بعد الموت، أما قول القرآن على ألسنتهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، فمعناه: على فرض وجود الآخرة ـ في

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١١، ص١٢٤، ١٢٥ بتصرف.

٢. الهاجس: الخاطر.

٣. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١١، ص١١، ١٢.

نظرهم - فإن الأصنام التي عبدوها في الدنيا سوف تشفع لهم عند الله فيها، وإنما قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، وبهذا يزول التعارض المزعوم بين هذه الآيات.

الشبهة الثانية والأربعون

توهم تناقض القرآن حول طعام أهل النار(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن هناك تعارضًا واختلافًا في القرآن الكريم حول طعام أهل النار؛ حيث يقول ﷻ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ (الدخان)، ويقول ﷻ: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ (الحاقة)، ويقول ﷻ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ (الغاشية). ويتساءلون: هل طعام أهل النار هو "الزقوم" أم "الغسلين" أم "الضريع"؟! ألا يقود هذا التعارض إلى التسليم ببشرية القرآن وتعدُّد مؤلِّفيه؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

ليس كل اختلاف تعارضًا. فقد اختلف العلماء في توجيه هذه الآيات إلى عدة آراء؛ منها:

- النار دَرَكات[1]، ولكل دركة فيها طعام خاص.
- الله ﷻ يدلنا على الغائب عنده بالحاضر عندنا.
- كل هذه الأطعمة طعام لأهل النار.
- لا طعام لأهل النار أصلًا بالمفهوم المتعارف عليه في الدار الدنيا أو الآخرة؛ لأن هذه الأشياء ليست أطعمة.

التفصيل:

ليس كل اختلاف تعارضًا:

هناك قاعدة منطقية تقول: كل ما هو متعارض مختلف، وليس كلُّ مختلف متعارضًا؛ فعلى سبيل المثال: طعام أهل الدنيا يختلف من وجبة لأخرى، بل الطعام على الوجبة الواحدة يختلف، ولكنه لا يتعارض، والمرأة تختلف عن الرجل، ولكنها لا تتعارض معه.

بل إن كُلًّا منهما يكمِّل الآخر، وأبسط مثال على ذلك: التلميذ في الصف الأول يدرس منهجًا يختلف في مضمونه عن المنهج الذي يدرسه في الصف الثاني، فهل يُعدُّ هذا تعارضًا؟ بالطبع كلَّا. فما يدرسه في الصف الثاني إنما هو مُكمِّل لما درس في الصف الأول فكذلك اختلاف الألفاظ في شأن طعام أهل النار، فهو طعام متعدد على حسب أعمال أصحاب أهل النار، أي أن الاختلاف اختلاف تنوُّع وتعدد وليس اختلاف تعارض.

اختلاف العلماء حول تفسير هذه الآيات:

ذكر العلماء للتوفيق بين هذه الآيات عدة تفسيرات منها:

١. النار دركات، ولكل دَرَكَة فيها طعام معين:

إن العذاب ألوان، والمعذبين طبقات، فمنهم من

(*) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، مرجع سابق.

١. الدَّرَكات: جمع الدَّرَكة، وهي المَنْزِلة.

يأكل الضَّريع[1]، ومنهم من يأكل الغِسلين[2]، ومنهم من يأكل الزَّقُّوم[3]، فلا تناقض ولا تعارض بين هذه الآيات.

قال ابن قتيبة: "إن النار دَرَكَات، والجنة درجات، وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثوبات"[4] ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)﴾ (الحجر).

٢. الله تعالى يدلنا على الغائب بالحاضر عندنا:

فلفظ الطعام في الآخرة ـ سواء في الجنة، أم في النار ـ هو لفظ الطعام عندنا في الدنيا، ولكن جنس الطعام نفسه في الآخرة يختلف اختلافًا جذريًّا عن جنس طعام الدنيا، ومثال ذلك: أن الله تبارك وتعالى أخبر أن طعام أهل النار ـ مثلًا ـ من الضريع، والضريع: شجر ينبت في الجزيرة العربية، وهو طعام للحيوانات، وليس طعامًا للإنسان. وإذا تركت فيه الإبل جاعت، وهلكت هُزالًا.

وأما ضريع أهل النار، فليس كضريع الدنيا، ولا يستطيع أي إنسان أن يتصوره؛ لأن ذلك فوق أفهامنا وعقولنا، وهو طعام لأهل النار، إلا أنه أيضًا لا يُسْمن ولا يُغْني من جوع.

٣. وقيل يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك.

---

١. الضَّريع: القِشر الذي على العظم تحت اللحم، والضريع: طعام أهل النار.

٢. الغِسْلِين: صديد أهل النار.

٣. الزَّقوم: طعام فيه تمر وزُبد، وشجرة الزقوم هي المُعدَّة لأهل النار، وهي من أخبث الشجر طعمًا ومرارة.

٤. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص٦٨ وما بعدها.

٤. ومن العلماء من قال:

إنهم لا طعام لهم أصلًا؛ لأن الضريع لا يصدق عليه اسم الطعام، ولا تأكله البهائم، فأحرى ألَّا يأكله الآدميون، وكذلك الغسلين والنار والزَّقوم[5].

الخلاصة:

ليس كل اختلاف تعارضًا، فلا خلل ولا اضطراب بين آيات القرآن الكريم؛ لأن العلماء ذكروا عدة تفسيرات لهذه الآيات، منها: النار دركات وعلى قدر الذنوب تكون العقوبات، فمن أهل النار من طعامه الضريع، ومنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنها أن هذه الأسماء أسماء أطعمة وأشربة الدنيا، لكن حقيقتها تختلف اختلافًا جذريًّا عن أطعمة وأشربة الدنيا. فدلنا الله بالحاضر عندنا، وبما تدركه عقولنا، على الغائب عنده سبحانه وما لا تدركه أفهامنا وقيل غير ذلك.

الشبهة الثالثة والأربعون

ادِّعاء تناقض القرآن بشأن إبصار أهل النار(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ:

---

٥. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٧٢. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مرجع سابق، ص٢٤٣، ٢٤٤ بتصرف.

(*) موقع الكلمة. موقع المتنصرين. قناة الحياة.

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ (ق)، وقوله ﷻ: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ (السجدة)، وبين قوله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ (طه)، وقوله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (الإسراء: ٩٧). ويتساءلون: كيف يقرُّ القرآن أن أهل النار يبصرون، ثم ينفي ما أقره في موضع آخر؟! ويستدلون بذلك في زعمهم على أن القرآن ليس من عند الله؛ تمهيدًا للطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

ذكر العلماء عدة تفسيرات لهذه الآيات الكريمة؛ منها:

١) يُحشر أهل النار صُمًّا[1] بُكمًا[2] عُميًا، ثم يَرُدُّ الله تعالى إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم.

٢) أن أهل النار لا يرون ولا يسمعون شيئًا يُسِرُّهم، ولا يستطيعون أن ينطقوا بحجة.

٣) يقول الله تعالى لأهل جهنم: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ (المؤمنون)، فيقع بهم ذلك العمى والصمم والبكم.

٤) تلك الآيات الكريمة التي تُثبت السمع والبصر والنطق لأهل النار هي على حقيقة اللفظ عند جمهور علماء الأمة، مع اختلاف بينهم في المواقف التي قيلت فيها.

التفصيل:

توجيهات العلماء لهذه الآيات:

١. أهل النار يُحشرون صمًّا بكمًا عميًا، ثم يَرُدُّ الله ﷻ إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم:

فالمراد بقوله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (الإسراء: ٩٧) أن الله ﷻ يحشرهم على هذا الحال حقيقة، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم، فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

٢. أهل النار لا يرون شيئًا يَسُّرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بِحُجَّة.

وقيل: إن الكفار يوم القيامة يبصرون ويتكلمون ويسمعون وكل حواسِّهم سليمة مُدْرِكة، وأما أنهم يحشرون عميًا وبكمًا وصمًّا فذلك على المجاز، أي أنهم لا يرون شيئًا يسرُّهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجّة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون، فنزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العَدَم؛ لعدم الانتفاع به.

٣. الله ﷻ يقول لأصحاب جهنم: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ (المؤمنون)، فيقع بهم ذلك العمى والصمم والبَكَم.

وقيل: إن قوى الكفار تكون سليمة عندما يحشرون بعد الحساب، من الموقف إلى النار، ثم إن الله ﷻ إذا قال لهم: اخسأوا فيها ولا تكلمون، وقع بهم ذلك العمى والصَّمم والبكم من شدة الكَرْب واليأس من الفرج، قال الله ﷻ: ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ

---

[1] . الأصمُّ: الذي لا يسمع.

[2] . الأبكم: الذي لا ينطق.

﴿لَا يَنطِقُونَ (٨٥)﴾ (النمل).

٤. **وقيل:** إن الكفار حُشِروا وحواسهم سليمة، ثم إنهم عَمُوا حين دخلوا النار؛ لشدة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم: اخْسَئُوا فيها ولا تكلمون، وذهب الزفير والشهيق بسمعهم، فلم يسمعوا شيئًا[1].

أما قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ (ق)، فقيل: المراد به: بصر القلب، كما يقال: هو بصير بالفقه، فبصر القلب، وبصيرته تبصِرَتُهُ شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار كما تُبْصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به: بصر العين وهو الظاهر، أي: بصر عينك اليوم حديد أي قوي نافذ يرى ما كان محجوبًا عنك. قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾، يعني: نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك وقال الضحاك: يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب، وقيل: يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد[2] ثم يَزْرَقُّ ويَعْمَى[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ (السجدة)، فقد قيل فيه أن معنى أبصرنا: أي: أبصرنا ما كنا نكذب، وسمعنا ما كنا ننكر. وقيل: أبصرنا صِدْق وعيدك، وسمعنا صديق رسلك.. وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا، ولكن لم يكونوا يتدبرون، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع، فلما تنبهوا في الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا. وقيل: أي ربنا لك الحجة، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك في الدنيا، وسمعنا كلامهم، فلا حجة لنا. فهذا اعتراف منهم[4].

الخلاصة:

ليس هناك أي تناقض بين الآيات التي يدور حديثنا حولها؛ وذلك لأن:

- المراد بالآية: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء: ٩٧): أنهم يحشرون صمًّا بكمًا عميًا في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم؛ فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع. وقيل: إن أهل النار لا يرون ما يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالحق، ولا ينطقون به، ولا يسمعونه. وقيل: إنَّ الله ﷻ يقول لأصحاب جهنم ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾ (المؤمنون)؛ فيقع بهم ذلك العمى والصمم والبَكَم من شدة الكرب واليأس من الفرج.
- أما الآيات الكريمة التي تثبت السمع والبصر والنطق للكفار يوم القيامة، فأغلب آراء العلماء على أنها على حقيقة ألفاظها، فالسمع حقيقي، وكذلك النطق والبصر، على خلاف بينهم في المواقف التي

---

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤١: ١٤٣.

٢. بصرك حديد: حادٌّ تدرك به ما كنت تنكره في الدنيا من البعث والجزاء.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٧، ص١٥.

٤. المرجع السابق، ج١٤، ص٩٥، ٩٦ بتصرف.

ذكرت فيها هذه الآيات.

الشبهة الرابعة والأربعون

توهُّم تناقض القرآن حول مساءلة الكفار يوم القيامة عن أفعالهم(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قوله عز وجل: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ (الأعراف)، وقوله عز وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (الحجر)، وبين قوله عز وجل: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (القصص)، وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ (الرحمن). ويتساءلون: كيف يثبت القرآن مساءلة الكفار يوم القيامة عن أفعالهم، ثم يقرِّر عدم مساءلتهم؟ أهذا مما يليق بالله عز وجل إن كان حقًّا هو صاحب هذا القرآن؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن.

وجه إبطال الشبهة:

للعلماء في هذه الآيات عدة توجيهات، منها أن:

- السؤال المُثْبَت هو سؤال التوبيخ، والمنفي هو سؤال الاستعلام.
- السؤال المُثْبَت يختص بالتوحيد، السؤال المنفي يختص بالدين وفروعه.
- اختلاف المواقف يوم القيامة يستدعي سؤال بعض الناس دون البعض الآخر.

التفصيل:

لا تعارض بين الآيات الدالة على أن الله تعالى يسأل الناس يوم القيامة، وبين الآيات الدالة على عدم السؤال:

فقد ذكر العلماء عدة آراء للتوفيق بين الآيات، منها أن:

1. السؤال المثبت هو سؤال التوبيخ، والمنفي هو سؤال الاستعلام:

إن المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع، والمنفي هو سؤال الاستعلام، وسؤال الله تعالى للرسل: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ (المائدة)، لتوبيخ الذين كذبوهم، ومثل ذلك سؤال الموءودة عن الذَّنْب الذي قُتلت به في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكوير)، أي: بأي ذنب قُتلت به، فهو لتوبيخ قاتلها. ويدل على هذا الوجه ما جاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (الحجر)، ثم قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ (الرحمن)، قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا[1].

فالسؤال عن علة العمل وسببه، أما عدم السؤال

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

1. أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ١٥٠)، تفسير سورة الحجر، آية (٩٢).

فعن العمل نفسه.

٢. السؤال المثبت يختص بالتوحيد، والسؤال المنفي يختص بالدين وفروعه:

إن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على شرائع الدين وفروعه.

٣. اختلاف المواقف يوم القيامة يستدعي سؤال بعضهم، وعدم سؤال الآخرين:

إن في القيامة مواقف متعددة، ففي بعضها يسألون، وفي بعضها لا يسألون. وقد ذكر الزركشي الوجهين الثاني والثالث فقال: قال الحليمي: فتحمل - الآيات الأولى - على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه.

وحمله غيره على اختلاف الأماكن؛ لأن في القيامة مواقف كثيرة، فموضع يُسأل ويناقش، وموضع آخر يُرحم ويُلطف به، وموضع آخر يُعنَّف ويُوبَّخ، وهم الكفار، وموضع آخر لا يُعنف، وهم المؤمنون[١].

الخلاصة:

بهذا البيان بطل الزعم القائل بوجود تناقض بين آيات القرآن حول مساءلة الكفار يوم القيامة وعدم مساءلتهم، وعلمنا أن للعلماء عدة توجيهات في هذه المسألة منها أن:

- السؤال المثبت يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع، أما السؤال المنفي هو سؤال الاستعلام؛ لأنه ﷻ أعلم بسرائر النفوس.
- السؤال المثبت محمول على التوحيد، وهو تصديق الأنبياء والرسل، والسؤال المنفي هو السؤال عن الدين وفروعه.
- اختلاف المواقف يوم القيامة يستدعي سؤال بعض الناس وعدم سؤال بعضهم.

الشبهة الخامسة والأربعون

ادِّعاء تناقض القرآن بشأن المغفرة لمن أشرك (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا في القرآن الكريم بشأن المغفرة لمن أشرك؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء)، على الإطلاق، في حين يشير القرآن إلى أن إبراهيم عليه السلام في ظنهم كان قد أشرك بالله، مستدلين على ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنعام)؛ إذ كيف ينفي القرآن الكريم المغفرة عن المشركين إطلاقًا، ثم يغفر لإبراهيم النبي وهو مشرك بالله بشهادة

---

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١١٣، ١١٤.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

القرآن نفسه؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم بسبب التناقض الواقع فيه.

وجها إبطال الشبهة:

١) الله عز وجل لا يغفر لمن مات وهو مشرك.

٢) مقولة إبراهيم عليه السلام لَفْتٌ لأنظار قومه إلى فساد عقيدتهم، وكان ذلك في مقام المناظرة لهم، ولم يكن إيمانًا منه بربوبية الكوكب أو القمر أو الشمس.

التفصيل:

أولا. الله عز وجل لا يغفر لمن أصرَّ على شركه:

يبين الله عز وجل في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء)، أنه تعالى يغفر كل الذنوب التي يقترفها العبد ما لم يشرك بالله أحدًا، ولكن هذا لا يعني تشجيع الناس على المعصية ما دام الله يقبل التوبة منهم ما لم يشركوا معه غيره من خلقه، وهذا المشرك إن تاب إلى الله تعالى يقبل توبته، ولكنه إن أصرَّ عليه يستحق اللعنة والعذاب يوم القيامة.

"وذلك يُوجب للعبد شدة الخوف من الشرك، الذي هذا شأنه عند الله؛ لأنه أقبح القبيح، وأظلم الظلم، وتنقُّص لرب العالمين، وصرفُ خالصِ حقه لغيره، وعَدْل غيره به كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ (الأنعام)، وفي الآية ردٌّ على الخوارج المُكفِّرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يَخْلُدون في النار.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: يا ابن آدم، ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني لغفرت لك. يا ابن آدم، لو أتيتني بقُراب الأرض[1] خطايا ثم لقيتني لا تُشرك به شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة"[2].

فقوله: "ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا" شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة، وهي السلامة من الشرك؛ كثيره وقليله، صغيره وكبيره، ولا يَسْلَم من ذلك إلا من سلَّم الله عز وجل، وذلك هو القلب السليم كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الشعراء).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في معنى الحديث: ويُعْفَى لأهل التوحيد المَحْض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يُعفى لمن ليس كذلك، فلو لَقِي المُوحِّد الذي لم يُشرك بالله شيئًا ألبتة ربه بقُراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب؛ لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ـ ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض.

وعليه، فلا يجوز أن يُحمل قوله عز وجل: ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨)، على التائب، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ

١. قُراب الأرض: أي بما يُقارب ملأها.

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده (٣٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٠٥).

﴿ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر)، فها هنا عَمَّم وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خصَّ وعلَّق؛ لأن المراد به من لم يَتُب"[1].

ثانيًا. مقولة إبراهيم عليه السلام لفتٌ لأنظار قومه إلى فساد عقيدتهم، وكان ذلك في مقام المناظرة لهم:

أفاض د. محمد أبو النور الحديدي في هذه المسألة، وكان مما قاله فيها: يقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران)، هذه الآية الكريمة وأمثالها تدل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن مشركًا في أي وقت؛ لأن نَفْي الكون الماضي في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ يدل على استغراق النفي لجميع الزمن الماضي.

وقد جاء في آيات أخرى ما يوهم أنه اعتقد ربوبية الكوكب والقمر والشمس، كما في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنعام).

وفي الإجابة عن هذا التوهم نقول: إن هذا القول من الخليل عليه السلام كان في مقام المناظرة لقومه والدليل على ذلك:

1. أن القول بربوبية الكواكب كُفْرٌ، والكفر غير جائز عن الأنبياء بالإجماع، قال الخطيب الشربيني: "لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحِّد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء".

2. إن الله عز وجل أخبر عنه قبل هذه الواقعة أنه قال لأبيه آزر ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ (الأنعام). فهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام عرف ربه قبل هذه الواقعة؛ إذ لا يدعو غيره إلى الله إلا إذا كان عارفًا به موحِّدًا له.

3. إن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض، وقد أكسبته تلك الإراءة يقينًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنعام)، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ (الأنعام: ٧٦) والفاء تقتضي الترتيب، فدلَّ هذا على أن هذه الواقعة وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربهم.

4. النصُّ في أكثر من آية على أن هذه المحاجَّة كانت مع قومه، منها قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنعام)، فهذا يدل على أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا عليه من الشرك، لا ناظرًا لنفسه.

5. إخبار الله تعالى عنه بأنه آتاه رشده من قبل، وكان عالمًا باستحقاقه الرسالة لتجنبه الشرك، وسوء الفِعال، وقبيح الصفات، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا

---

1. عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مرجع سابق، ص٩٧: ٩٩ بتصرف.

﴿ هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال عنه أيضًا: ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الصافات)، أي: لم يشرك قط.

٦. ما جاء عن عِياض بن حِمَار أن رسول الله ﷺ قال: "قال الله ﷻ: إني خلقت عبادي حُنَفاء كلهم"[١]، فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أُمَّة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ناظرًا في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفِطْرة السليمة والسَّجِيَّة[٢] المستقيمة بعد رسول الله بلا شك ولا ريب.

فإبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه، لا ناظرًا لنفسه، ويكون قوله عليه السلام عن كل من الكوكب والقمر والشمس: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ من قبيل استدراج الخصم بإظهار موافقته ليسمع الحُجَّة، ويتم إلزامه؛ فإنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم، وبُعْد طباعهم عن قبول الحق، أنه لو صرَّح بالدعوة إلى الله تعالى، وإبطال ربوبية الكواكب من أول الأمر لَمَا قبلوا قوله، ولَمَا تمكَّن من إقامة الدليل على إبطال معتقدهم؛ فعمد إلى هذا الأسلوب الذي يحقق مقصوده، قال أبو السعود: لو صدع إبراهيم بالحق من أول الأمر كما فعله في حق عِبَادة الأصنام، لتمادوا في المُكابرة والعِناد، ولَجُّوا[٣] في طغيانهم يعمهون[٤].

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٧٣٨٦).
٢. السَّجِيَّة: الطبيعة والخُلُق.
٣. عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مرجع سابق، ص٢٣٦: ٢٣٩ بتصرف.
٤. لجَّ في الأمر: لزمه وأَبَى أن ينصرف عنه.

الخلاصة:

- الله ﷻ يغفر كل الذنوب لعباده، ما عدا الشرك بالله مع الإصرار عليه دون توبة إلى الله، وهذا لا يعني فتح باب المعصية أمام الناس؛ بل يعني سعة رحمة الله للناس جميعًا، وفتح باب التوبة لكل عاصٍ لكي يرجع إلى الله.
- ليس صحيحًا أن إبراهيم عليه السلام أشرك بالله بزعم إيمانه بربوبية الكوكب والقمر والشمس؛ لأن هذا الكلام من إبراهيم عليه السلام كان على سبيل مناظرة قومه واستدراجهم لكي يؤمنوا بالله ﷻ، وليس أدل على هذا من الآثار التي تنفي الشرك عن رسل الله، وتؤكد أن ما فعله إبراهيم كان مُحاجَّة لقومه وأنه عليه السلام أفضل رسل الله بعد النبي ﷺ، فكيف يصحُّ في حق نبي كإبراهيم اتهامه بالشرك بالله؟!

الشبهة السادسة والأربعون

توهم تناقض القرآن بشأن الانتفاع بسعي الغير يوم القيامة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ (النجم)، وبين قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ (الطور). ويتساءلون: كيف يثبت القرآن أنه لا ينفع الإنسان إلا عمله وسعيه، وأنه لا يمكنه الانتفاع بعمل أو بسعي غيره في موضع ثم يُلمح في موضع آخر أن الأبناء ينتفعون بسعي آبائهم؟! مستدلين بذلك في زعمهم على أن القرآن من صنع البشر مادام فيه هذا التعارض.

وجه إبطال الشبهة:

للعلماء في التوفيق بين الآيتين عدة آراء، منها أن:

- المؤمن ينتفع بعمل نفسه بفضل الله تعالى عليه.
- الآية الأولى عامَّة خُصِّصت بالآية الثانية، فهي من العام المخصوص.

التفصيل:

للعلماء في توجيه هاتين الآيتين عدة آراء، منها:

١. أن المؤمن ينتفع بعمل نفسه بفضل الله تعالى عليه:

فإيمانه وطاعته سَعْي منه يستفيد به، ويتداركه ـ مع هذا ـ فضل الله عليه في كل الأمور حتى دخول الجنة، فإنه يناله المؤمن بفضل الله ورحمته ففي الحديث: "لن ينجي أحدًا منكم عمله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمة"[1].

والذُّرية المؤمنة كان منها السعي الذي هو الإيمان والعمل الصالح، الذي عرَّضها لفضل الله برفع درجتها.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٠٩٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى (٧٢٨٩).

وعلى هذا، فرفعُ درجة الذرية ليس بسعي الآباء حتى يُقال: انتفع بِكَسْب الغير، وإنما هو بفضل الله تعالى؛ لتقر أعين الآباء بوجود ذرياتهم معهم في درجاتهم.

وأما ما ورد في انتفاع الميت بثواب صدقته الجارية، وعلمه المُنتَفع به، ودعاء ولده الصالح له ففي الحديث الصحيح الذي جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[2].

فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وعمله، فالصَّدقة الجارية ـ كالوقف ونحوه ـ هي آثار عمله، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ (يس:١٢)، والعلم الذي نشره في الناس فانتفعوا به هو من سعيه وكسبه، وثبت في الصحيح: "من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا"[3]، والولد من كسب الوالد كما جاء في الحديث: "إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه"[4][5].

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٤٣١٠).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة (٦٩٨٠).

٤. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب في الرجل يأكل من مال ولده (٣٥٣٠)، والحاكم في مستدركه، كتاب البيوع (٢٢٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٨).

٥. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٧٩: ٨١.

٢. الآية الأولى عامة خُصِّصَت بالآية الثانية فهي من العام المخصوص:

إن هذا من العام المخصوص، فآية النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾عامَّة خُصِّصت بآية الطور: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾، وبما ورد من شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد، وبما ورد في انتفاع الأموات بدعاء الأحياء، كما في الحديث السابق: "أو ولد صالح يدعو له"، وبتصدُّقِهم عنهم أيضًا، كما في الحديث: أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمِّي افتَلَتَتْ نفسها[1] ولم توصِ، وأظنها لو تكلمت تصدقت. أفلها أجر إن تصدقتُ عنها؟ قال: "نعم"[2].

قال ابن تيمية: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع، وذلك باطل من وجوه كثيرة ـ عدَّ منها واحدًا وعشرين، ونجتزئ بعضها ـ:

أحدها: أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير.

ثانيها: أن النبي ﷺ يشفع لأهل الموقف في الحساب، ثم لأهل الجنة في دخولها.

ثالثها: شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر للخروج من النار، يعتبر انتفاعًا بسعي الغير.

رابعها: أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض، وذلك منفعة بعمل الغير.

خامسها: أن الميت ينتفع بالصدقة عنه بنص السُّنَّة والإجماع، وهو من عمل الغير.

سادسها: أن الميِّتَ المَدِين تَبْرَأ ذمته بقضاء دينه عنه.

وقال الشوكاني: ولم يُصِبْ من قال: إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور؛ فإن الخاصَّ لا يَنْسَخُ العامَّ، بل يُخَصِّصه، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه، كان مخصصًا لِمَا في هذه الآية من العموم[3].

الخلاصة:

بهذا البيان بطل الزعم القائل: إن هناك تناقضًا بين آيات القرآن بشأن الانتفاع بسعي الغير، وعدم الانتفاع به؛ وذلك لأن:

- المؤمن ينتفع بعمل نفسه وبفضل الله تعالى عليه، ورفع درجة الذُّرِّيَّة ليس بسعي الآباء حتى يُقال: انتفع بكسب الغير، وإنما هو بفضل الله لتقر أعين الآباء بوجود ذرياتهم معهم في درجاتهم، فالولد من كسب الوالد كما جاء في الحديث: "إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه".
- الآية الأولى من العام المخصوص؛ حيث خصَّصتها آية الطور: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾، وخُصِّصَت أيضًا بما ورد في شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد، وبما ورد في انتفاع الأموات بدعاء الأحياء.

---

١. افتَلَتَتْ نفسها: ماتت فجأة.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب موت الفجأة البغتة (١٣٢٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه (٢٣٧٣).

٣. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٨١، ٨٢.

الشبهة السابعة والأربعون

توهم تناقض القرآن بشأن حمل الذنوب(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين آيات القرآن الكريم؛ ففي القرآن الكريم آيات تفيد أنه: ليس لنفسٍ أن تحمل ذنب نفس أخرى، كما في قوله ﷻ: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ (النجم)، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (فاطر: ١٨)، وقوله ﷻ: ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

بينما تجد في آيات أخرى تصريح وإفادة بأن الضالين يحملون أوزارهم كاملة، ويحملون أيضًا من أوزار الأتباع الذين اتبعوهم في الضلال، مثل قوله الله تبارك وتعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (النحل)، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (العنكبوت).

ويتساءلون: كيف يذكر القرآن في موضع أن كل إنسان يحمل وزر نفسه فقط، ويأتي في موضع آخر ويقرر أن هناك من يحمل وزره ووزر غيره؟ أيصح أن يكون هذا قول إله؟ ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم.

وجه إبطال الشبهة:

العدل الإلهي في حساب العباد وعدم ظلمهم قائم في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (الكهف)، وهذا العدل يقتضي أمرين متلازمين:

- ضرورة أن يحاسب كل إنسان على عمله دون عمل غيره.
- أنه من يشارك في إضلال شخص يحمل بعض الوزر الذي يحمله من اتبعه، وهذا هو منتهى العدل الإلهي.

التفصيل:

العدل الإلهي مطلق قائم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (الكهف)**:**

يقتضي هذا العدل المطلق من الله ﷻ أمرين متلازمين، يُفَصِّل د. أبو النور الحديدي القول في ذلك فيقول:

١. أن تحمل كل نفس إثم ما ارتكبت من الذنوب دون غيرها:

إن كل نفس تحمل وزر ما ارتكبت من سوء، ولا يُؤاخَذ بمعصيتها سواها، وكل كَسْبٍ للشر على مرتكبه لا يتعداه إلى غيره، كما قال ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ (طه)، وقد قيل في تفسيرها: فلا يُظلم بأن يُحمل

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

عليه سيئات غيره، ولا يُهضم بأن يُنقص من حسناته. وكما قال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ (المدثر)، والمعنى: كل نفس مرتهنة بكسبها وعملها السيء، إلا أصحاب اليمين؛ فإن بركة أعمالهم الصالحة تعود على ذُرِّيَّاتهم، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ (الطور).

والمراد بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء: ١٥)، في الآيات المتقدمة واحد من اثنين:

الأول: أن ذلك في الآخرة، فلا تحمل نفس يوم القيامة ذنب نفس أخرى، أما في الدنيا، فقد تُصيب المحنة الناس صالحهم وطالحهم من جَرَّاء الطالحين؛ لقوله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنفال)، أي: اتقوا محنة يَعُمُّ الله بها المسيء وغيره، ولا يخصُّ بها أهل المعاصي، ولا من باشروا الذنوب وحدهم، بل يعم الصالح والطالح.

ويزكي ذلك ما جاء عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ: "إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه"، فقلت - أي: عائشة -: وفيهم أهل الله؟ قال: "نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله"[1]. فالجزاء من جنس العمل.

وقد ذكر الشوكاني: أنه يمكن حمل ما في الآية والحديثين على:

العقوبات الدنيوية تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض؛ جرَّاء ترك بعضهم بعضًا بدون موعظة ونهي عن فعل المعاصي.

ويمكن أن يكون هذا في العقوبات العامة.

ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسبَّبوا للعقوبة بأسباب: كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الإصابة التي تَعدَّت الظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم.

وقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أمر الله المؤمنين ألا يقرُّوا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمهم الله بالعذاب.

الثاني: أنها من العام المخصوص: فقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء:١٥) عامٌّ خُصِّصَ بما جاء فيه المؤاخذة بذنب الغير.

يقول الشوكاني: والأَوْلَى حَمْل الآية على ظاهرها، أعني: العموم، وما ورد من المؤاخذة بذنب الغير - كالدية التي تحملها العاقلة[2] ونحو ذلك - فيكون في حكم المخصِّص لهذا العموم ويُقرُّ في موضعه.

٢. أن تحمل كل نفس إلى جانب وزرها وزر من شاركت في إضلاله:

وأما آيات المجموعة الثانية التي تفيد تحمل الضالين أوزارهم وبعض أوزار الذين اتبعوهم في الضلال، فلا تعارض آيات المجموعة الأولى، بل هي متوافقة معها؛ فإن الضالين إنما حُمِّلوا أوزار أنفسهم حيث ضلوا،

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤١٧٩)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصل أحاديث في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٥٩٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٧٢).

٢. العاقلة: عُصْبَة الرجل الذين يتحملون معه دية القتل الخطأ.

فحُمِّلوا وزر الضلال، وأضلوا غيرهم، فحُمِّلوا أيضًا وزر إضلال الآخرين.

يقول ابن كثير في معنى الآية: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (النحل: ٢٥)، إنما قدرنا عليهم أن يقولوا: ذلك القرآن ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (النحل)، ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، وامتداد أولئك بهم، كما جاء في الحديث: "ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا"[1]. وقال ﷻ: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (العنكبوت)[2].

الخلاصة:

المولى ﷻ عدل لا يظلم الناس شيئًا، فمن عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها، إلا أصحاب اليمين، فإن بركة عملهم الصالح تعود على ذرياتهم من بعدهم كما تعود عليهم هم أنفسهم، ومقتضى عدل الله يستلزم أمرين:

١. أن كل إنسان يحاسب على عمله يوم القيامة، ولا يتحمل عنه غيره عاقبة ما اكتسبت يداه، وهذا من أعظم صور العدل الإلهي.

٢. أن كل إنسان اشترك في إضلال شخص آخر لا بد أن يتحمل جزءًا من العقاب الذي يناله الذي ضَلَّ بسببه، كما أن من يساعد على نشر حسنة له أجرها وأجر من عمل بها؛ مصداقًا لحديث النبي ﷺ: "من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"[3]. فهو يحمل وزره لضلاله، ووزر غيره لإضلاله.

الشبهة الثامنة والأربعون

توهم تناقض القرآن بشأن فترة بقاء المجرمين في الدنيا، أو في القبر (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين آيات القرآن الكريم؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (الروم)، وقوله ﷻ: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ (طه). حيث إن المكث في زعمهم لا

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٦٩٨٠).

٢. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٧٥ وما بعدها.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٦٩٧٥).

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مرجع سابق.

يمكن أن يكون ساعة وعشرًا، ويومًا في آن واحد. ويتساءلون: إن كان القرآن من عند الله حقًّا، فكيف يقع فيه هذا الاضطراب؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم.

وجه إبطال الشبهة:

يمكن التوفيق بين هذه الآيات بعدة آراء؛ منها:

- فترة مكث المجرمين في الدنيا لم تكن ساعة، ولا عشرًا، ولا يومًا، وكلامهم هذا من قبيل المجاز.
- عُبِّر عن فترة مكثهم في الدنيا بالساعة، والعشر، واليوم، قياسًا على طول يوم القيامة، وتقليلًا لفترة تمتعهم في الدنيا، وإنما اضطربت أقوالهم لهول الصدمة، والقرآن يصور الحالات التي سيكونون عليها، فكل إنسان يصف الحالة التي يشعر بها.

التفصيل:

هناك عدة تفسيرات تبين السبب الذي من أجله اختُلِفَ تحديد الزمن في هذه الآيات، ومنها أن:

١. مدة مكث المجرمين ليست كما ذكروا، وكلامهم عنها رمزٌ، لا حقيقة:

إن واقع الحياة يستدعي شرطًا أساسيًّا فيمن يوصف بأنه مجرم؛ حيث إن الإنسان العادي من الممكن أن يموت في أول ساعة من ميلاده، أو أول عشر ليالٍ من عمره، أو أول يوم من مولده، فهو في كل حال من هذه الأحوال لم تتجاوز مدة مكوثه في الدنيا أكثر مما ذكرنا، ومن الممكن أن يمكث أكثر من ذلك. أما المجرم فلا يمكن أن تقلَّ مدة لبثه في الدنيا عن سن البلوغ؛ لأن الإنسان قبل هذه السن غير مُكلَّف مرفوع عنه القلم، فلا يجوز بأية حال تسميته بالمجرم.

ومن هنا نعلم كيف أن المجرم مُدَّة لبثه في الدنيا لم تكن ساعة، أو عشرًا، أو يومًا.

إن قسمهم بأنهم لم يلبثوا غير ساعة كان على سبيل الرمز لا الحقيقة؛ فلا يُحكم عليه بالتناقض مع غيره من المتشابه، وإنما الحقيقة - كما ذكرنا - أن فترة المكوث تتجاوز المدة التي ادعوا فيها التناقض، بل إن من الناس من يُعمَّر فيزيد سِنُّه عن الستين والسبعين، بل ويتجاوز المائة.

٢. اضطراب أقوال المجرمين يوم القيامة كان لهول الصدمة:

لما رأى المجرمون أهوال يوم القيامة والنار - وهذا محقق لا محالة - حينئذٍ استقلُّوا مدة تمتُّعهم في الدنيا، فراحوا يَهْذُون بكلام غير معقول إذا قورن بالحقيقة؛ تخمينًا ونسيانًا وكذبًا منهم، كما نص الحق عز وجل في كتابه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (الروم)، أي: مثل ذلك الصَّرف كانوا يصرفون في الدنيا عن الحق والصدق.

وهذا ما تؤيده الآيات الأخرى التي وردت في هذا المقام كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ (النازعات)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ (المؤمنون).

فهذه الآيات في سياق الحديث عما يحدث يوم تقوم الساعة، ويوم يرى المجرمون ما يوعدون، ويوم يرون النار، ويوم يعرضون على الواحد القهار، فمن هَوْل ما يلقون يكون لسانهم تُرجُمانًا لحال قلوبهم.

وهناك حقيقة أخرى تَنْبُض بها الآيات تتضح من تكرار ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الآيتين الأوليين، وقولهم: ﴿يَوْمًا أَوْ

﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا يدل على الشك الموحي بخلاف الحقيقة.

إن الذي جعلهم يهذون بهذه التخمينات الكاذبة أنهم كانوا مصروفين في الدنيا عن وجه الحق والصواب، وبهذا تكون هذه الآيات مؤيدة متضامنة مع الآيات المزعوم التناقض فيها.

وقد يسأل سائل: إذا كان مكوث المجرمين في الدنيا أو في القبر ليس ساعة ولا عشرًا ولا يومًا، وإنما الحقيقة أنهم لبثوا أكثر من ذلك، وأن هذه الألفاظ جيء بها كرمز لما هُمْ فيه من الهَوْل، ولما أصابهم من الذهول، أو فقد جزئي للذاكرة، فلِمَ قال في موضع: ساعة، وفي موضع ثانٍ: عشرًا، أي: ليالٍ، وفي موضع ثالث: يومًا، لِمَ لَمْ يجعل لذلك لفظًا واحدًا؟

وفي الجواب نقول: أيها السائل، انتبه! فالتعبير في الآية الأولى بالساعة إفكٌ منهم، وكذلك كانوا يؤفكون في الدنيا، وفي الآية الثانية بالعَشْر؛ إذ كانوا يتخافتون ويقترحون، ويؤكدون غفلتهم بأنهم لم يلبثوا إلا عشر ليالٍ.

وفي الآية الثالثة باليوم، قال عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾ (طه)، أي: أعدلهم رأيًا أو عملًا؛ لأن "يوم" تناسب قلة البقاء في الدنيا، إذا قُورِن بهول يوم القيامة الذي تضع فيه كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد[1].

١. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص٢٨٣. البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مرجع سابق، ص٧٠.

الخلاصة:

- لا تعارض بين الآيات؛ فقد ذكر العلماء عدة آراء في تفسير هذه الآيات، منها: أن مدة مكوث المجرمين لم تكن ساعة، ولا يومًا، ولا حتى عشرًا، وإنما الحقيقة أنهم مكثوا أكثر من ذلك بكثير، بل إن منهم من كان من المعمِّرين، فقولهم هذا كان على سبيل الرمز، ومنها: أنهم قالوا هذا لما أصاب عقلهم وذاكرتهم من الذهول لهول يوم القيامة، مما جعلهم ينظرون لحياتهم في الدنيا وكأنها يوم، أو ساعة، أو عشية، أو ضحاها، أو مثل ذلك.
- إن التعبير في الآية الأولى: إفك وكذب منهم، وفي الثانية: اقتراحٌ منهم، وفي الثالثة: إثبات لِقِصَر الدنيا حقًّا إذا ما قُورِنَت بهول يوم القيامة.

الشبهة التاسعة والأربعون

توهم تناقض القرآن بشأن تعدد أسمائه وأوصافه، وتعدد أسماء سوره وأوصافها (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين وجود تناقض بين آيات القرآن بشأن أسمائه وأوصافه؛ فتارة يُسمَّى "الكتاب" في قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ (البقرة)، وفي موضع آخر يُسمَّى "الذكر" في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ (الحجر)،

(*) موقع www.Fatherzakaria.com

وموضع ثالث يُسمَّى "القرآن" في قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾ (الحجر)، وموضع رابع يُسمَّى "الفرقان" في قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾ (الفرقان)، وكذلك تعدد أسماء سوره وأوصافها؛ حيث تجد أكثر من اسم للسورة الواحدة، كـ "الفاتحة"، و"أم الكتاب"، و"السبع المثاني"، كلها أسماء لأول سور القرآن. مستدلين بذلك في زعمهم على تعدد مصادر القرآن الكريم، وأنه من وضع البشر.

وجوه إبطال الشبهة:

١) تعدد أسماء القرآن وأوصافه ليس مجرد حشو لا فائدة منه، بل إن لكل اسم ووصف معنى جديدًا يضاف إلى معاني القرآن الكريم.

٢) أسماء سور القرآن ليست توقيفية، وإنما هي اجتهادية في أغلبها، ورد بعضها عن النبي ﷺ ومعظمها عن الصحابة ﷺ.

٣) تعدد أسماء الشيء الواحد ليس غريبًا عن لغة العرب، بل نجد فيها كتبًا كاملة عن شيء واحد، وهذا ينفي تناقض القرآن.

التفصيل:

أولا. تعدد أسماء القرآن وأوصافه نظرًا لتعدد معانيه:

اختلف العلماء حول تحديد أسماء القرآن وأوصافه، فقد بلغت أسماء القرآن عند بعضهم خمسة وخمسين اسمًا، وقيل: هي أكثر من تسعين اسمًا، ولكن المشهور منها هو: القرآن، والكتاب، والتنزيل، والذكر، والفرقان، والمصحف، ولم ترد هذه التسميات الكثيرة للقرآن دون فائدة، بل إن لكل اسم من هذه الأسماء معنىً جديدًا، يضاف إلى معاني أسماء القرآن، فنجد أن اسم:

١. **القرآن**: يعني: كلام الله المنزَّل على نبيه ﷺ، بلفظه، المتعبَّد بتلاوته، المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف من أول الفاتحة إلى آخر الناس. وسُمِّي قرآنًا؛ لأنه جمع السور وأنواع العلوم ويسَّرها للقراءة، ولأنه يُقرأ ويُتلى.

وقيل: من قرنت الشيء بالشيء، يعني: ضممته؛ لاقتران السور والآيات والحروف فيه.

٢. **الكتاب**: مصدر كتب بمعنى: الجمع والضم، أُريد به القرآن؛ لجمعه العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه.

٣. **التنزيل**: مصدر أريد به المُنزل؛ لنزوله من عند الله ﷻ.

٤. **الذكر**: سُمِّي به القرآن؛ لاشتماله على المواعظ والزواجر. وقيل: لاشتماله على أخبار الأنبياء والأمم الماضية. وقيل: من الذكر بمعنى: الشرف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف: ٤٤)، أي: شرف؛ لأنه نزل بلغتكم.

٥. **الفرقان**: سُمِّي القرآن؛ لأنه فارق بين الحق والباطل.

٦. **المصحف**: ظهر بعد جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق، ولأنه يُصحَّف الآيات والسور. وكذلك كل وصف من أوصاف القرآن الكريم يضيف معنى جديدًا إليه، ومن بين هذه الأوصاف الكثيرة: الهدى والرحمة، الصراط المستقيم، الوحي، المحكم، البشير النذير،

البلاغ، الصدق، الفصل، النبأ العظيم، البيان... إلخ[1].

ثانيًا. أسماء السور القرآنية ليست توقيفية في أغلبها، وإنما من اجتهادات الصحابة والأئمة:

لم يَرِدْ نصٌّ بتسمية كل السور القرآنية، وإن كانت وردت أحاديث في تسمية كثير من السور، كالفاتحة، والبقرة، وآل عمران، وغيرها، ولكنه لم يحفظ ذلك في كل السور، والمعتمد فيها ما اعتاده المسلمون من أسمائها.

وقد وردت بعض الآثار الدالة على ذلك، منها: ما جاء عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، فقال: قل: سورة النضير[2].

وفي هذا بيان واضح أن تسمية السور ليست توقيفية، ولا فرضًا فرضه الله ﷻ، أو أقره النبي ﷺ، وكان الاجتهاد في التسمية حسب طبيعة السورة وما فيها من مواقف.

ومن أمثلة ذلك: سورة "الفاتحة"، فسُمِّيت "الفاتحة"، و"أم الكتاب"، و"السبع المثاني"، و"القرآن العظيم"، و"الوافية"، و"الكنز"، وأيضًا سورة "محمد" سُمِّيت "القتال"، و"الإسراء" سُمِّيت "بني إسرائيل"، وكان اختيار اسم السورة طبقًا لطبيعتها، والموضوعات التي تعالجها، فسورة "محمد" سُمِّيت بـ "القتال"؛ لأن الله ﷻ عالج فيها أمور الحروب والقتال بين المسلمين وأعدائهم، وماذا يجب على المسلم أثناء القتال وقبله وبعده، وسورة الإسراء سُمِّيت بهذا الاسم؛ لاستهلالها بحديث الإسراء.

وأما ما تراه مذكورًا في فواتح السور في مصاحف المسلمين من أسمائها؛ فذلك مما زاده كُتَّاب المصاحف تعريفًا بالسورة، كما زادوا ذكر المكِّي والمدني وعدد أي السورة، ولم يكن شيء من ذلك موجودًا في المصاحف العثمانية، فليست تلك التسمية جزءًا من المصحف.

وكان بعض السلف يحترز من ذلك أسماء السور؛ خشية أن يعدَّه الناس من القرآن، فعن أبي بكر السرَّاج قال: قلت لأبي رُزَيْن: أكتبُ في مصحفي سورة كذا وكذا؟ قال: لا، إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه، فيظنوا أنه من القرآن[3][4].

ثالثًا. تعدد أسماء القرآن وأوصافه وتعدد أسماء سوره ليس غريبًا عن لغة العرب:

إن تعدد أسماء القرآن وأوصافه وأسماء سوره ليس بدعة ابتدعها الرسول ﷺ وأصحابه، وإنما هناك العديد من الأسماء التي تدل على مسمًّى واحد عرفها العرب قبل الإسلام، من ذلك: ما يُقال للأسد فهو: الضرغام، الغضنفر، القسورة، الليث، ... إلخ، ويقال للسيف:

---

١. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ج١، ص١٠ بتصرف. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٢، ١٣ بتصرف. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد بن محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٤، ٢٥ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير (٣٨٠٥)، وفي مواضع أخرى.

٣. أخرجه أبو عمر الداني في المحكم في نقط المصاحف، باب ما جاء في رسم فواتح السور، ص١٦.

٤. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق، ص١٢٦: ١٢٨ بتصرف.

الحسام، الباتر، المهند... إلخ، بل إننا نجد كتبًا كاملة تمثل هذه الأنواع من المسميات، فنجد "كتاب الإبل" و "كتاب الخيل" و"كتاب الأشربة"... إلخ. واشتهر العديد من العلماء في التصنيف في هذا المجال أمثال: الأصمعي وابن سيده وغيرهما.

الخلاصة:

- النبي ﷺ وأصحابه لم يبتدعوا تعدد الأسماء، بل عرف العرب ذلك قبل الإسلام اهتمامًا بالمسمَّى؛ فالأسد يُقال له: الغضنفر، والضرغام.. وكذلك السيف يقال له: المهند، والحسام. وهناك كتب كاملة عن هذه الكلمات أمثال "كتاب الخيل" و"كتاب الإبل"... إلخ.
- صحيح أننا نجد للقرآن الكريم عددًا كبيرًا من الأسماء والأوصاف، إلا أن هذا ليس من قبيل الحشو الذي لا فائدة منه، بل إن لكل اسم ووصف معنى جديدًا يضاف إلى معاني القرآن الكريم.
- أسماء سور القرآن الكريم ليست توقيفية، بل هي اجتهادية في أغلبها ورد بعضها في أحاديث النبي ﷺ، وورد أكثرها عن الصحابة، وكانت كل سورة يوضع لها اسمٌ حسب طبيعة الأحداث والموضوعات التي تتحدد عنها فسورة "محمد" سُمِّيت بسورة "القتال"؛ لاشتمالها على تشريع القتال والجهاد ضد الأعداء، وهكذا كل سور القرآن.

الشبهة الخمسون

توهم تعارض القرآن بشأن حفظه من الضياع (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن هناك تعارضًا بين قوله ﷻ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ (الأعلى)، وبين قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة)، حيث أخبر الله ﷻ أن النبي ﷺ ينسى من القرآن ما شاء الله أن ينساه في الآية الأولى، والذي يُنْسَى يَضيع، وقد بَيَّنت آيات أخرى أن القرآن الكريم محفوظ من الضياع.

ويتساءل هؤلاء: كيف يشير الله في موضع إلى أن هذا القرآن يُنْسَى، والنسيان طريق الضياع، ثم يقرر في موضع آخر أن القرآن محفوظ من الضياع؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

ينتفي هذا التعارض عن طريقين:

- النسيان في قوله ﷻ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ (الأعلى) على الوجهين:

الأول: أنه من قبيل الإنشاء (النهي).

الثاني: أنه من قبيل الخبر.

- الاستثناء في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى: ٧)

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

بين الحقيقة والمجاز.

الأول: الحقيقة، والمستثنى هنا هو المنسوخ أو المَنسِي نسيانًا مؤقتًا.

الثاني: المجاز، والاستثناء هنا لبيان القدرة الإلهية.

التفصيل:

انتفاء التعارض بين الآيات:

أخبر الله عز وجل النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة)، بأنه تعالى تولى جمع القرآن في صدره ﷺ، لكي يقرأه على الناس من غير أن ينسى منه شيئًا.

وقد كان ﷺ يقرأ مع جبريل أثناء تَلَقِّي الوحي منه، من شدة حرصه على حفظ القرآن؛ مخافة أن ينسى منه شيئًا، فنهاه الله تعالى عن ذلك، وطمأنه بأنه سيجمع القرآن في صدره، فلا ينسى منه شيئًا. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر)، فالقرآن تكفَّل رب العالمين بحفظه، فلا يضيع منه شيء، كما ذكرت آية الحجر وآية القيامة؛ فلا تعارض بين الآيات، أما عن قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ (الأعلى)، فيحتمل احتمالين:

الأول: أن يكون نهيًا، فيكون المعنى: فلا تُغفِل قراءته وتكراره؛ حتى لا تنساه. وعلى هذا فلا تعارض، وأُثبتت الألف في ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ مع أنه مجزوم بـ"لا" الناهية؛ رعاية لفواصل الآيات في السورة.

الثاني: أن يكون خبرًا، فتكون الآية بشارة من الله، ووعدًا للنبي ﷺ بأنه سبحانه سَيُقَوِّي حفظ نبيه للقرآن؛ حتى لا ينساه.

والأصح: أن الآية من قبيل الخبر على سبيل البشارة والوعد، ويؤيد ذلك عدة قرائن، منها:

- أنه يلزم على كونها نهيًا ارتكاب مجاز في النسيان، يحمله على ترك القراءة والغفلة عنها، والحمل على الحقيقة أولى من المجاز.
- أن جعل الألف مَزِيْدة للفاصلة خلاف الأصل.
- أن في كون الآية خبرًا تأييدًا لرسول الله ﷺ، وكل ما يدل على إعجاز القرآن وصدق الرسول ﷺ أولى.

وإذا كان قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ (الأعلى) من باب الإخبار والبشارة والوعد، فما معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى: ٧) وهل هو على حقيقته أم لا؟

وفُسر الاستثناء في هذه الآية على قولين:

الأول: أنه على حقيقته، ومعنى الآية: سنقرئك القرآن فلا تنسى منه إلا ما شاء الله أن تنساه، ويرفع حكمه وتلاوته، فالمستثنى هو ما نسخه الله من القرآن، ورفع حكمه وتلاوته، أو أن النسيان الذي أفاده الاستثناء هو الذي يعقبه التذكر، لا النسيان التام الذي هو محو الشيء من الذهن بالكلية؛ لأن النسيان التام يُخِلُّ بموجب التبليغ عن الله تعالى، ويزعزع الثقة في القرآن الكريم. ومعنى الآية: سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه، ثم يذكرك به بعد، إما بنفسك، وإما بغيرك.

الثاني: أن الاستثناء ليس على حقيقته، ومنهم الفَرَّاء الذي قال: إن هذا استثناء صلة في الكلام على سُنَّة الله تعالى في الاستثناء، وليس ثَمَّ شيء أُبيح استثناؤه، والزمخشري أيضًا الذي ذكر أن الغرض نفي النسيان رأسًا، ولا يقصد استثناء شيء. والاستثناء على هذا

لبيان أن الله ﷻ لو أراد أن يُصيِّر نبيه ﷺ ناسيًا لـذلك لقَدِرَ عليه، كما قـال ﷻ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ (الإسراء: ٨٦)، والله ﷻ، لم يشأ ذلك.

فعدم النسيان إنما هو من الله تعالى وإحسانه، لا من قدرة رسول الله ﷺ، وقد قوّى هذا القول ما قيل في قول الله ﷻ عـن أهـل الجنـة: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (هـود)، مـن أن الاسـتثناء لـيس عـلى حقيقته، وإنما المقـصود: أن دوامهـم فـيما هـم فيـه مـن النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى مـشيئة الله ﷻ.

وقد ضَعَّف هذا القول بعض المفسرين كـأبي حيـان الذي قال: وقول الفراء والزمخشري يجعل الاستثناء كَلا استثناء، وهذا لا ينبغي أن يكون في كلام الله تعالى، بـل ولا في كلام فصيح[1].

والأرجح: أن الاستثناء على حقيقتـه، وأن النـسيان الذي أفاده الاستثناء هو الذي يعقبه التذكر، لا النسيان التام، وذلك لأمور هي:

- أن الأصل إبقاء الأشياء على حقيقتهـا، وحيـث يمكن هنا الاستثناء عـلى حقيقتـه مـع عـدم الإخـلال بالقاعدة المقطوع بهـا، وهـي عـصمة الأنبيـاء ـ علـيهم الصلاة والسلام ـ في مجال التبليغ عن الله ﷻ؛ فلا داعي للخروج به عن حقيقته.
- أن النسيان الذي يعقبه التذكر لا ضـير فيـه، ولا يخل بمهمة التبليغ، ولا يزعزع الثقة بالنبي ولا بالقرآن، ولوقوعه من النبي ﷺ فائدة هي أن يُسَنَّ لنا.
- أن هذا القـول تؤيـده أحاديـث متعـددة منهـا: أن عائشة ـ رضي الله عنهـا ـ قالـت: سـمع النبـي ﷺ رجلًا يقرأ في المسجد فقال: "يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية مـن سـورة كـذا"[2]. وعـن ابـن مـسعود ﵁ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: "إنـما أنـا بـشر أنـسى كـما تنسون"[3] [4]. ويذكر ابن حجر: أن في قـول النبـي ﷺ حجة لمن أجاز النسيان على النبي ﷺ فـيما لـيس طريقـه البلاغ مطلقًا، وكذا فيما طريقه البلاغ لكن بشرطين:

أحدهما: أنه بعدما يقع منه تبليغه.

والآخر: أنه لا يستمر عـلى نـسيانه، بـل يحـصل لـه تذكرة، إما بنفسه، وإما بغيره[5].

ويندرج تحت زعمهم هذا ادعاؤهم تناقض القـرآن حول قولـه ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجـر)، وقولــه: ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الرعد)، ويتساءلون: كيـف يجتمع الحفظ مع المحو؟

---

١. البحـر المحـيط، أبـو حيـان الأندلـسي، مرجـع سـابق، ج٧، ص٤٥٩.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتـاب فـضائل القـرآن، بـاب نسيان القرآن وهل يقول: نسيت آيـة كـذا وكـذا (٤٧٥٠)، وفي مواضع أخرى، ومـسلم في صـحيحه، كتـاب صـلاة المـسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول نـسيت آيـة كـذا (١٨٧٣).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، أبـواب القبلـة، بـاب التوجـه نحو القبلة حيث كان (٣٩٢)، وفي مواضـع أخـرى، ومـسلم في صحيحه، كتـاب المـساجد ومواضـع الـصلاة، بـاب الـسهو في الصلاة والسجود له (١٣٠٢).

٤. البيان في دفع التعارض المتوهم بـين آيـات القـرآن، د. محمـد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٨، ٤٩ بتصرف.

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجـر العـسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ج٩، ص٦٨.

ونحن نجيب بأن: الآية تذكر أن الله يمحو أحكامًا ويثبت أخرى، ويمحو مقادير ويثبت غيرها، أفي هذا تضارب؟ كما أن المقصود بالمحو والإثبات هو في وقت حياة النبي ﷺ، وأما بعد اكتمال القرآن وموت النبي ﷺ، فإن الله يحفظ القرآن ويصونه.

الخلاصة:

- ليس في قول الله ﷻ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ (الأعلى)، ما يدل على أن النبي ﷺ نسي آيات من القرآن نسيانًا يقدح في عصمته في التبليغ، ويتعارض مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)، الذي يفيد تكفُّل الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم؛ لأن النسيان الذي أفادته الآية هو النسيان الذي يعقبه التذكر، لا النسيان التام على أرجح الأقوال. وهذا ما يتناسب مع تكفل المولى بحفظه في مواضع أخرى منه. أو أن الأمر كله من قبيل النفي، بمعنى: فلن تنسى.
- الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (الأعلى) يمكن أن يُفسَّر على وجهين: إما أنه على الحقيقة، وهذا يعني أن الله ﷻ أراد أن ينسى الرسول ﷺ ما نسخه الله تعالى من القرآن الكريم ورفع كلمه وتلاوته، أو أنه نسيان يعقبه تذكُّر. وإما أنه على غير حقيقته، أي: لا يوجد شيء أُبيح نسيانه أصلًا، فلا مجال للاستثناء في الآية.

الشبهة الحادية والخمسون

توهم تناقض القرآن بشأن كونه مُبينًا أو متشابهًا (*) ®

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النحل)، وبين قوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ (آل عمران: ٧). ويتساءلون: أيليق بكتاب الله أن نجد فيه موضعًا يصف القرآن بأنه مبين، ويصفه في موضع آخر بأنه متشابه؟! ألا يدل هذا التناقض - في ظنهم - على أن القرآن ليس من عند الله؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن كله مُحْكَم باعتبار إتقانه وإحكامه، ورصانته، وكله متشابه باعتبار تماثل آياته في البلاغة والإعجاز وصعوبة المفاضلة بين أجزائه، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار التأويل.

٢) أوجد الله سبحانه وتعالى المتشابه - بالمعنى الصحيح - في القرآن الكريم لحكمة عظيمة عَلِمها من

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

® في "فائدة وجود المتشابه وبلاغته في القرآن الكريم" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

عَلِمها وجَهِلَها من جَهِلَها.

التفصيل:

أولا. القرآن محكم من حيث الإتقان ومتشابه من حيث البلاغة والإعجاز، ومحكم ومتشابه في آنٍ من حيث التأويل:

إن العاقل إذا تأمل القرآن يجده كله في قمة الإحكام والإتقان والبيان والوضوح، يشهد بذلك القرآن نفسه: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ (هود)، ونحن نجد القرآن - منذ أن أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ إلى يوم القيامة - يوجه المسلمين بتعاليمه الأخلاقية العالية دون اختلاف منهم على أي آية، أو تنازع منهم على أي مفردة، وإن يكن هناك اختلاف في الرأي؛ فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون هذا الاختلاف رحمة بعباده وتيسيرًا لأمة رسوله ﷺ.

كما يجده المتفكر في آياته وكلماته وتركيبه، من حيث تماثله في البلاغة والإعجاز وصعوبة المفاضلة بين أجزائه[1] - يجده متشابهًا، يشهد بذلك القرآن نفسه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ (الزمر: ٢٣). ويشبه بعضه بعضًا ويصدِّق بعضه بعضًا.

وليس المراد بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ (آل عمران: ٧)، هذا المعنى، وإنما المتشابه في هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه، من قوله: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ۝٧٠ ﴾ (البقرة)، أي: التبس علينا، أي: يحتمل أنواعًا كثيرة من البقر، والمراد بالمحكم ما في مقابلة هذا وهو ما لا التباس فيه، ولا يحتمل إلا وجهًا واحدًا.

وقيل: إن المتشابه ما يحتمل وجوهًا، ثم إذا رُدَّت الوجوه إلى وجه واحد، وأُبْطِل الباقي صار المتشابه محكمًا، فالمحكم أبدًا أصل تُرَدُّ إليه الفروع، والمتشابه هو الفرع[2].

فوصف القرآن بـ"المبين"، أي: الذي أبان وأفصح عن كل صغيرة وكبيرة تخص أمر المسلمين والناس أجمعين في حياتهم، وبعد مماتهم، وبعد أن يُبعثوا من قبورهم، والقرآن - بلا شك - أتى بتركيب معجز تحدَّى به الإنس والجن، وأهل السماوات والأرض على أن يأتوا بمثله، وحقًّا لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا؛ فالقرآن محكم بيِّن لا ينكر هذا إلا معاند. كما أن المتشابه ليس معناه الغامض المُبْهم الملبِس الذي لا يمكن أن يصل عقل إلى معناه، وإنما المقصود به: الذي تتعدد فيه الآراء.

وأما معنى أنه بعضه محكم وبعضه متشابه، فقد اختلف العلماء في تفسير المحكم والمتشابه على أقوال يذكرها د. أبو النور الحديدي:

أحدها: أن المحكم: ما عُرف تأويله، وفُهم معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل، قالوا: وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

ثانيها: أن المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، والمتشابه: ما يحتمل وجوهًا، فإذا رُدَّت إلى وجه واحد

---

١. بحوث منهجية في علوم القرآن، موسى إبراهيم الإبراهيمي، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٥.

٢. بحوث في علوم القرآن، د. محمد نبيل غنايم، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٦٤.

وترك الباقي صار المتشابه محكمًا.

ثالثها: أن المحكم: ناسخه، وحرامه وحلاله وفرائضه، وما نؤمن به ونعمل عليه. والمتشابه: منسوخه، وأمثاله، وأقسامه، وما نؤمن به ولا نعمل به.

رابعها: أن المحكم: الناسخ، والمتشابه: المنسوخ.

خامسها: أن المحكم: ما كان قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره. والمتشابه: ما يرجع فيه إلى غيره.

قال الشوكاني - بعد حكاية هذه الأقوال -: والأَوْلَى أن يُقال: إن المحكم هو الواضح المعنى، الظاهر الدلالة إما باعتبار نفسه، أو باعتبار غيره. والمتشابه: ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالته، لا باعتبار نفسه، ولا باعتبار غيره.

فظهر من هذا أنه لا تعارض بين هذه الآيات، وأن القرآن الكريم يصدق عليه كله أنه محكم، وأنه كله متشابه، وأن بعضه محكم وبعضه متشابه، وكلٌّ باعتبار[1].

ثانيًا. الله ﷻ أوجد المتشابه لحكمة يعلمها:

وقد يسأل بعض الناس: لماذا جاء الله ﷻ بالمتشابه في كتابه؟! نقول: لحكمة ظهرت في ثنايا الآية.

إلا أن خلاصة القول في ذلك: أن الله ﷻ قد استأثر في علمه بآيات وكلمات في القرآن لا يعلم المراد منها إلا الله، قال ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٧)، كالحروف المقطَّعة في فواتح السور وغيرها، وهناك بعض المتشابه أراد الله أن يكون للعلماء فضل عن غيرهم فأعلمهم تأويله؛ ليعلِّموه لغيرهم فتعمَّ الإفادة للجميع، ويفهم الناس مراد الله منه.

وفي جميع الأحوال، على قارئ القرآن أن يؤمن بمتشابه القرآن على مراد الله منه، ولا يحمل نفسه على الكلام فيه؛ فإن الخوض في المتشابه من أعظم أسباب الضلال، من ذلك نصوص صفات الله ﷻ، لا من جهة معاني ألفاظها، وإنما من جهة إدراك كيفياتها في حق الله ﷻ، فإنه مُنزَّه عن الشبيه والنظير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)[2].

وأما أسباب مجيء المتشابه في القرآن مع أنه نزل لبيان الدين، وإرشاد العباد وهدايتهم، وهذا يتحقق بكونه كله محكمًا، فهو - كما ذكر العلماء - أربعة:

١. أن القرآن جاء بألفاظ العرب ولغاتهم، وكلام العرب على ضربين:

أحدهما: الإيجاز للاختصار، والموجز الذي لا يخفى على سامعه، ولا يحتمل غير ظاهره، والإطالة لبيان المراد والتوكيد.

الضرب الثاني: المجاز والكنايات والإشارات والتلميحات وإغماض بعض المعاني. وهذا الضرب هو المستحسن عند العرب، والبديع في كلامهم؛ فأنزل الله تعالى القرآن على هذين الضربين ليتحقق عجزهم التام عن الإتيان بمثله.

٢. أن **يشتغل** أهل العلم والنظر بردِّهم المتشابه إلى المحكم فيزداد اهتمامهم بالبحث عن معانيه؛ فيُثَابون على تَعَبِهِم، كما أُثيبوا على عباداتهم، ولو أُنزل القرآن كله محكمًا لاستوى في معرفته العالم والجاهل ولم يفضل العالم على غيره.

---

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٢٧، ٢٢٨.

٢. المرجع السابق، ص٢٢٧، ٢٢٨.

٣. أن أهل كل علم يجعلون في علومهم معاني غامضة ومسائل دقيقة؛ ليختبروا بذلك أذهان المتعلمين منهم على انتزاع الجواب، فلما كان ذلك حسنًا عند العلماء جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من التشابه على هذا النحو.

٤. اختبار الله تعالى عباده بالمتشابه؛ ليقف المؤمن عنده ويرد علمه إلى عالمه؛ فيعظم بذلك ثوابه، ويرتاب به المنافق ويداخله الزَّيْغ؛ فيستحق بذلك العقوبة، كما أبتُلِي بنو إسرائيل بالنهر، والله أعلم[1].

الخلاصة:

- لا تناقض في وصف القرآن بالمبين، ووصفه بالمتشابه؛ إذ إن القرآن كله محكم باعتبار إتقانه وإحكامه وإعجاز تركيبه، وكله متشابه باعتبار تماثل آياته في البلاغة، والإعجاز وصعوبة المفاضلة بين أجزائه. وبعضه محكم، والآخر متشابه باعتبار التأويل، ومن حيث كون المحكم أصلًا والمتشابه فرعًا عنه. وغير ذلك من الفروق التي ذكرها العلماء بين المحكم والمتشابه.

- هناك من المتشابه ما استأثر الله بعلمه ولم يُطلع عليه خلقه؛ لحكمة أرادها، ومنه ما جعل الله للراسخين في العلم علمًا به؛ ليعلموا الناس مراد الله منه ومن بين هذه الحكم: أن الله أنزل القرآن بطريقة العرب للتأكيد على عجزهم أمام هذا الكتاب، أو للتمييز بين العالم والجاهل، أو لتشجيع أهل العلم على النظر والبحث، أو للتفريق بين المؤمن والمنافق.

١. المرجع السابق، ص٢٢٨، ٢٢٩.

الشبهة الثانية والخمسون

توهم تناقض القرآن في عدد الأيام التي خُلقت فيها السماوات والأرض(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (ق: ٣٨)، وقوله ﷻ: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (فصلت).

ويتساءلون: كيف يشير القرآن في موضع إلى أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام، ثم يُلمح في موضع آخر بما يدل على غير ذلك؟ أليس هذا مما يذهب بعصمة قرآن المسلمين؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض والاختلاف.

وجه إبطال الشبهة:

ثبوت خلق السماوات والأرض - وما بينهما - على هيئتها الحالية في ستة أيام، ولو شاء الله لخلقهم في لمح البصر، فالله على كل شيء قدير.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

التفصيل:

الخلق في ستة أيام ولا تعارض بين الآيات:

بجمع هذه الأيام - دون فهم وعلم - يكون المجموع ثمانية، وقد ذكر الله في مواضع كثيرة من القرآن أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وما ظنَّه هؤلاء المتوهمون تناقضًا فليس بتناقض؛ لأن الأربعة أيام الأولى هي حصيلة جمع اثنين واثنين؛ فقد خلق الله تعالى الأرض خلقًا أوَّليًّا في يومين، ثم جعل فيها الرواسي وهي الجبال، ووضع فيها بركتها من الماء والزرع، وما ذخره فيها من الأرزاق في يومين آخرين، فكانت أربعة أيام، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت)، هذه الأيام الأربعة هي حصيلة اليومين الأولين ويومين آخرين، فيكون المجموع أربعة، وليست هذه الأربعة هي أربعة أيام مستقلة أخرى زيادة على اليومين الأولين.. ومن هنا جاء الخطأ عند المتوهمين.

ثم إن الله خلق السماوات في يومين، فيكون المجموع ستة أيام بجمع أربعة واثنين، ولا تناقض في القرآن بأي وجه من الوجوه.

ثم إن القرآن لو كان مُفترًى، فإن محمدًا لم يكن ليجهل مثلًا أن اثنين وأربعة واثنين تساوي ثمانية، وأنه قال في مكان آخر من القرآن: إن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فهل يَتَصور عاقل أن من يقدم على تزييف رسالة بهذا الحجم، وكتاب بهذه الصورة يمكن أن يخطئ مثل هذا الخطأ؟! لا شك أن من ظن أن الرسول ﷺ افترى هذا القرآن العظيم، ثم وقع في مثل هذا الخطأ المزعوم، فهو مخطئ.

قال بدر الدين الزركشي: والجواب: أن المراد بقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ٩) إلى قوله ﷻ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ (فصلت: ١٠) مع اليومين المتقدمين، ولم يُرِدْ بذكر الأربعة غير ما تقدم ذكره، وهذا كما يقول الفصيح: سِرْتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وسِرْتُ إلى الكوفة في ثلاثة عشر يومًا، ولا يريد سوى العشرة، بل يريد مع العشرة ثلاثة، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ١٢) وأراد سوى الأربعة، وذلك لا مخالفة فيه؛ لأن المجموع يكون ستة[1].

وليس هناك تعارض بين آيات القرآن في تحديد زمن الخلق للسماوات والأرض في ستة أيام، وبين ما يراه العلم من استغراق ذلك الخلق بلايين السنين، ذلك أن المدى الزمني لليوم عند الله ﻷ ليس هو المدى الزمني لليوم في العُرف والتقويم الذي تعارف عليه الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وأيضًا لأن الله ﻷ بطلاقة قدرته يقدر على خلقهم في لمح البصر إن أراد، وأيضًا بقدرته يقبض ويبسط في الزمن بحكمته وعلمه وحسب إرادته تبارك وتعالى، وفي القرآن الكريم آيات شاهدة على ذلك منها: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ

---

١. المرجع السابق، ص١٠٥: ١٠٧ بتصرف.

مِأْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة)، فيوم الدين، وأيام الله، والأيام الستة التي خلق الله تعالى فيها السماوات والأرض مداها - بمقياس أيامنا نحن - لا يعلمها إلا الله ﷻ[1].

الخلاصة:

خلق الله تبارك وتعالى السماوات والأرض في ستةأيام، ثم استوى على العرش، ولو شاء لخلقهن في لمح البصر؛ لأنه ﷻ عنده طلاقة القدرة، فلا اعتداد عنده بالزمن؛ وذلك لأن القدرة على القيام بالفعل تتناسب عكسيًّا مع الزمن اللازم لحدوثه، وأن وَهْم التعارض بين آيات الله تعالى إنما هو من قصور التفكُّر والتدبُّر واتباع الهوى؛ فالفهم الصحيح لمضامين الآيات - المزعوم تعارضها أو تناقضها - يُفْضي إلى نتيجة واحدة لا تعارض بينها ولا تناقض فيها، ثم إن ما اكتشفه العلم من سرعات للضوء، وزمن للضوء - كالسَّنَة الضوئية - يجعل تفاوت واختلاف المفاهيم والمقاييس لمصطلح " اليوم" أمرًا مقررًا وواقعًا علميًّا.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٨٠: ٢٨٤.

الشبهة الثالثة والخمسون

توهم تناقض القرآن بشأن نفي التعب عن الله ﷻ من خلق السماوات والأرض (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تناقضًا بين قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (ق)، وبين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧)، ويتساءلون: كيف يخلق الله السماوات والأرض في ستة أيام دون أن يمسَّه أي تعب، ثم يُصَرِّح في موطن آخر أن خلق الخلق صعب عليه؟ ظانين أن ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: صعبٌ عليه، ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض.

وجها إبطال الشبهة:

١) الله ﷻ لم يصبه أي تعب من خلق السماوات والأرض، وكان هذا ردًّا على اليهود الذين زعموا أن الله استراح في اليوم السابع بعد خلقه السماوات والأرض في ستة أيام.

٢) ذكر العلماء عدة تفسيرات لقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾منها:

- هيِّن سهل لا صعوبة فيه.
- أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم، فالذي يخلق

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

أول مرة يكون البعث أهون عليه حسب منطقكم.

- الضمير في "عليه" يعود على الخلق.

التفصيل:

أولا. إن الله ﷻ خلق الخلق دون نَصَب أو تعب:

إن قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (ق) يظلُّ على أصل معناه، فالله ﷻ لم يصبه أي تعب أو سَأم من خلق أي شيء، وهذه الآية نزلت ردًّا على اليهود الذين زعموا أن الله ﷻ تَعِب من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع يوم السبت.

يقول ابن كثير: في الآية تقرير المعاد؛ لأن من قَدَر على خَلْقِ السماوات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأَوْلى والأَحْرَى. وقال قتادة: قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه "يوم الراحة"، فأنزل الله ﷻ تكذيبهم فيما قالوه قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (ق)، أي: ما مسنا من إعياء ولا تعب ولا نصب، وقال ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحقاف)[1].

ثانيًا. الفهم الصحيح لقوله ﷻ: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (الروم: ٢٧) ينفي هذه الشبهة:

ذكر العلماء عدة تفسيرات لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾، وكان من بينها أن قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ معناه: هَيِّن عليه لا يستصعبه، ولا يوجد شيء في قدرته ﷻ بعضه أهون من بعض، فكل الأشياء لديه سبحانه سواء، يوجدها بقوله: كن فتكون.

يقول أبو عبيد: من جعل "أهون" عبارة عن تفضيل شيء على شيء، فقوله مردود بقوله ﷻ ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الأحزاب)، وأيضًا قوله: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ (البقرة: ٢٥٥)، والعرب تحمل صيغة أفعل على صيغة فاعل كثيرًا، كما في قول الفرزدق:

إنَّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بَنى لَنا
بَيْتًا دَعائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

أي: عزيزة وطويلة.

وقرأ عبد الله بن مسعود "وهو عليه هين".

وقيل: أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم وعلى ما يقوله بعضكم لبعض، فالله تعالى قد خاطب العباد بما يعقلونه، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحكمكم، فإن من قدر على الإنشاء أول مرة كان البعث أهون عليه حسب منطقكم وأصولكم.

قال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن المعنى: أن الإعادة أهون عليه ـ أي على الله ـ من البداية، أي: أيسر، وإن كان جميعه على الله تعالى هينًا. وقاله ابن عباس، ووجهه: أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء[2].

---

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج٧، ص٤٠٩.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٤، ص٢١.

وقيل: إن الضمير في "عليه" يعود على الخلق، أي: وهو أهون على الخلق؛ لأنه يُصاح بهم صيحة واحدة فيقومون، ويقال لهم: كونوا فيكونون؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى آخر النشأة، وقال الربيع بن هيثم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧): ما شيء على الله بعزيز[1].

الخلاصة:

- ليس هناك تناقض بين قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾ (ق)، وبين قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧)، فالآية الأولى نزلت ردًّا على اليهود الذين زعموا أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أُصيب بالتعب والنَّصَب، فاستراح في اليوم السابع - يوم السبت - فرَدّ الله عليهم: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾ (ق).

- ذكر العلماء عدة تفسيرات لقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧) منها:

  - أن معنى ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: هيِّن لا يُسْتَصْعب، ولا يوجد شيء على قدرته تعالى بعضه أهون من بعض، بل كل الأشياء لديه سواء يوجدها بقوله: كن فتكون.
  - وقيل: أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم وعلى ما يقوله بعضكم لبعض.
  - وقيل: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على الخلق، فبعثهم مرة واحدة أهون عليهم من المرور بكل مراحل الخلق المعروفة.

الشبهة الرابعة والخمسون

توهم تناقض القرآن حول طبيعة الأرض وشكلها(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المغرضين أن هناك تناقضًا وتعارضًا حول الآيات التي تدور حول طبيعة الأرض وهذه الآيات هي: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩)﴾ (نوح)، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)﴾ (ق)، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾ (الغاشية)، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾ (النازعات).

ويتساءلون: كيف تتعدد طبيعة الأرض في القرآن هكذا؟ أهي ممدودة، أم مبسوطة، أم مسطَّحة، أم مَدْحوَّة - أي بيضاوية -؟

مستدلين بهذا الاضطراب في ظنهم على أن القرآن من صنع البشر ما دام فيه هذا الخلط العلمي!

وجها إبطال الشبهة:

١) الحقائق العلمية تُقِرُّ وجود هذه الأشكال كلها

---

١. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٠٨: ١١٠ بتصرف.

(*) الحوار الخفي: الدين الإسلامي في كليات اللاهوت، محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

للأرض، وهذا لا يعارض - مطلقًا - كونها كروية بيضاوية.

٢) اختلاف زاوية النظر يؤدي إلى اختلاف الرؤية وليس اختلاف الحقيقة أو الطبيعة.

التفصيل:

أولا. الحقائق العلمية تقر هذه الأوصاف كلها، وكلُّها بمعنى واحد:

إن المتأمل في الآيات الكريمة التي تدور حول مدِّ الأرض وَبْسطِها وسَطْحِها، ودَحْوِها، يجدها كلها تثبت كُروية الأرض، يقول ابن حزم الظاهري[1]: إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم ﷺ لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها، قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ (الزمر: ٥)، وهذا أوضح بيان في تكوير بعضه على بعض، مأخوذ من: كوّر العمامة، وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض[2].

وهذا ما أكده الشنقيطي في كتاب " أضواء البيان"؛ إذ يقول: والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا استخدم النص القرآني لفظة "يكوِّر"؟ والجواب: إنك لو جئت بشيء ولففته حول كرة، فتقول: إنك كورت هذا القماش مثلًا، أي: جعلته يأخذ شكل الكرة الملفوف عليها، ومعنى قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ﴾" أي: يجعلهما يحيطان بالكرة الأرضية، ومن إعجاز القرآن أن الليل والنهار مكوَّران حول الأرض في كل وقت.

وألفاظ "المد" و "البسط" و "السطح" و "الدَّحو" لا تبعد عن هذا المعنى، بل تدور في فلكه، فقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾ (الغاشية) آية ثابتة؛ لأن حروفها مع إجماع المفسرين على تكويرها، فإنها تُرَى مسطحة، أي: من النقطة التي هي في امتداد البصر، وذلك يدل على سعتها وكِبَر حجمها؛ لأن الجِرْم المتكوِّر إذا بلغ من الكبر والضخامة حَدًّا بعيدًا، يكاد سطحه يُرى مسطَّحًا من نقطة النظر إليه.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ (النازعات)، فقد اختلف المفسرون في معنى "دحاها"، لكن بعد تأملِ قول المفسرين نجده متفقًا في مجموعه بأن "دحاها": مَهَّدها وسَهَّل الحياة عليها، وذكر لوازم التمكين من: الحياة عليها، وإخراج الماء والمرعى، ووضع الجبال، وهو المتفق مع نصوص القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦﴾ (النبأ).

أما إذا انتقلنا إلى كتب اللغة نجدها كلها تنصُّ على أن الدَّحْو: بمعنى: البسط، والرمي، والإزالة، والتمهيد، فالبسط والتمهيد والرمي بالحجر المستدير في الحفرة الصغيرة معانٍ مشتركة، وكلها تفسر "دحاها" بمعنى: بسطها ومهدها.

كل ما له طول وعرض له امتداد، والشيء الذي لا امتداد له هو الخط:

إن كل ما له طول وعرض له امتداد، والشيء الوحيد الذي لا امتداد له هو الخط بمعناه الهندسي،

---

١. الفِصَل في المِلَل والنِّحل، ابن حزم الظاهري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج٢، ص٧٨.

٢. مجلة الإعجاز العلمي، مجلة يصدرها المجمع العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٢٤، جمادى الأولى، ١٤٢٧هـ، ص٣٦، ٣٧.

ومعنى هذا أن المراد بالامتداد الذي يصف القرآن به الأرض، كما في قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ (ق: ٧) هو الامتداد الكُلِّي، أي: الامتداد الذي لا ينتهي بحرف أيًا كانت وجهتك من الأرض، فلو سِرت إلى أقصى الغرب لا تصل من الأرض إلى حافة لها، كذلك لو سرت إلى أقصى الشرق أو الشمال أو الجنوب، فما تفسير ذلك؟

إن الأرض ذات انحناء مستمر لا نهاية ولا حد له، وذلك يعني أن الانحناء المستمر ينتهي بدائرة يتلاقى فيها الطرفان، فكان هذا التعبير القرآني؛ تبصيرًا وتعليمًا للجاهلين بأن الأرض ليست قطعة كونية ذات حواف، وإنما هي مستديرة، والشيء المستدير لا حواف له[1].

وإذا رجعنا إلى كلام من نظر في علم الهيئة من المسلمين، فإنا نجدهم متفقين على أن شكل الأرض مستدير، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الأفلاك مستديرة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ (فصلت: ٣٧) وقال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس).

قال ابن عباس: في فَلَكه مثل فَلْكَة المِغْزَل، وهكذا هو في لسان العرب، الفلك: الشيء المستدير والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي، ليس بعضه مخالفًا لبعض، ولا خلاف بين العلماء حول أن السماء على مثال الكرة، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في الشمال، والآخر في الجنوب.

فالكرة الأرضية مثبَّتة في وسط السماء كالنقطة في الدائرة، يدل على ذلك أن جِرْم كل كوكب يُرَى في جميع نواحي السماء على قدر واحد، فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد، فهذا نَقْلٌ لإجماع الأمة من إمام جليل في عِلْمَي المعقول والمنقول على أن الأرض على شكل الكرة.

ثانيًا. تعدد الأشكال لاختلاف زاوية النظر لا لاختلاف الحقيقة:

إذا كان علماء الإسلام يثبتون كروية الأرض، فماذا يقولون في قوله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشية)، وجوابهم كجوابهم على قوله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ (الكهف: ٨٦) أي: في نظر العين؛ لأن الشمس تغرب عن أمة، وتستمر في الأفق على أمة أخرى، حتى تأتي مطلعها من الشرق في صبيحة اليوم الثاني، ويكون بَسْط الأرض وتمهيدها نظرًا لكل إقليم وكل جزء منها؛ لسعتها وعِظَم جِرْمها، وهذا لا يتنافى مع حقيقة شكلها، فقد نرى الجبل الشاهق إذا تسلقناه ووصلنا قمته، وجدناه سطحًا مستويًا[2].

الخلاصة:

لا يوجد أي تعارض بين الآيات الدالة على بسط الأرض وامتدادها ودحوها، بل كل هذه الآيات تدل على كروية الأرض، فهذه الأوصاف تدل على معنى

١. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ج٦، ص٦٧٥. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد البوطي، مرجع سابق، ص٤٠.

٢. أضواء البيان، الشنقطي، مرجع سابق، ص٣٣، ٣٤.

واحد، لكنها تختلف تبعًا لاختلاف الناظر، فاختلاف النظر يؤدي إلى اختلاف الرؤية، وليس اختلاف الأرض ذاتها، فكروية الأرض حقيقة ثابتة لا جدال فيها، والآيات الواردة تدعم هذه الحقيقة.

الشبهة الخامسة والخمسون

توهم تناقض القرآن حول أسبقية خلق الأرض والسماء(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن هناك تعارضًا بين قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ (فصلت). وبين قوله تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) ﴾ (النازعات).

ويتساءلون: كيف يدل الموضع الأول على أن خلق الأرض سابق على خلق السماوات، في حين يدل الموضع الثاني على عكس ذلك؟ مستدلين بذلك حسب ظنهم على أن القرآن الكريم به من التناقض والاضطراب ما يكفي لإثبات بشريته.

وجها إبطال الشبهة:

١) المراحل التي ذكرها القرآن الكريم لخلق السماوات والأرض تتفق مع معطيات العلم الحديث، وهذه المراحل هي:

- مرحلة الرتق والفتق.
- مرحلة خلق السماوات والأرض.
- مرحة دحو الأرض.

٢) ذكر العلماء عدة توجيهات للآيات - فضلًا عما سبق - تنفي أي تناقض بينها، ومنها:

- المراد بخلق ما في الأرض جميعًا قبل خلق السماء: الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل.
- لما خلق الله الأرض غير مدحوَّة وهي أصل لكل ما فيها، فكان كل ما فيها وكأنه خُلقَ بالفعل لوجود أصله فعلًا.
- الظرف "بعد" يأتي بمعنى "مع"، ومن ثَمَّ، دحو الأرض كان مع بناء السماء.

التفصيل:

أولا. مَوْلِد الكون ونشأته ومراحل خلقه كما جاء في القرآن الكريم حقائق يؤكدها العلم الحديث:

قبل الشروع في الرد على هذا التوهُّم يجدر بنا أن نتحدث عن مَوْلِد الكون ونشأته كما جاء في القرآن الكريم، ومدى تأكيد العلم الحديث لتلك الحقائق القرآنية.

فلقد عرض لنا القرآن الكريم بداية خلق الكون والمراحل التي مر بها عرضًا بيانيًّا دقيقًا، يصور كل طور من أطوار الخلق بوضوح وجلاء دون لَبْس أو غموض، وسوف نستعرض الآيات القرآنية التي تتحدث عن كل مرحلة مع الإشارة إلى فهم علماء

(*) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق.

التفسير واللغة، ثم نحدِّد معطياتها؛ لنرى مدى التوافق بينها وبين ما وصل إليه علماء الفلك والكون في عصرنا الحاضر.

وقد أفاض مروان وحيد شعبان في كتابه " الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث" في هذا الجانب، وكان مما قاله:

مراحل الخلق:

١. **مرحلة الرتق والفتق:**

يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ (الأنبياء)، والآية هنا تشير إلى أن السماوات والأرض، أي: الكون وما بُث في أرجائه من: نجوم ومجرَّات وكواكب وشموس وأقمار كان شيئًا واحدًا، كان مادة واحدة كتلة واحدة، ثم انشطرت هذه المادة وفُتِقَت وتفجرت، فانفصلت السماوات عن الأرض، وتباعدت أجزاؤها وأصبحت عالمًا عظيمًا مترامي الأطراف بعيد المدى واسع الرِّحاب.

وعند الطبري ".. كانتا رتقًا، يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين. ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله تعالى السماوات والارض بالرَّتْق، وكيف كان الرتق، وبأي معنى فتق؟ قال ابن عباس: كانتا ملتصقتين فرفع السماء ووضع الأرض، وكان الحسن وقتادة يقولان: كانتا جميعًا ففصل الله بينهما بهذا الهواء، وقال آخرون: بل معنى ذلك أن السماوات كانت مُرْتَتِقة طبقة، ففتقها الله فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة ففتقها فجعلها سبع أرضين.

وإذا بحثنا في كل كتب التفسير عند أهل اللغة سوف نلاحظ أن الكل قد اتفق على أن معنى الرتق هو: السد، وأن معنى ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ أي: ملتصقتين، وأن معنى ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أي: فصلناهما، فصل الله بينهما.

وبذلك نستطيع أن نحدد ـ من خلال التصوير القرآني عن المرحلة الأولى لخلق الكون ـ ما يأتي:

- أن السماوات والأرض في لحظة الخلق الأولى وبداية النشأة كانتا كتلة واحدة متلاصقة ثم انفصلت وتوزعت.
- طبيعة هذه المادة التي تشكل الكون منها إنما هي الدخان.

٢. **مرحلة خلق السماوات والأرض:**

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ (فصلت).

كان الحديث في المرحلة الأولى من خلال آية سورة الأنبياء عن طبيعة المادة الكونية الأولى وما هيتها وكيف أنها كانت كتلة واحدة ثم انفصلت، أما هنا في آيات سورة فصلت فإنها تتحدث عن أطوار خلق السماوات والأرض، والمراحل التي اعترتها بعد عملية انفصال المادة الأولى، وهذه الآيات التي بين أيدينا تقرر حقيقة كونية ثابتة وقطعية الدلالة وهي: أن الأرض بعد عملية فَتْق الرَّتْق خُلِقَت أولًا، ثم تم تشكيل السماء وبناؤها من الدخان. وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين، ولقد

وقع في الخطأ والخلط من حاول أن يقدم مرحلة خلق السماوات على الأرض، وذلك بسبب رغبة شديدة دفعته إلى تَوْأَمة هذا النص القرآني مع التخمينات النظرية التي تحدث عنها بعض الفلكيين، وهذا الكلام لا يستند إلى دليل لا من النصوص القرآنية ولا من المعطيات العلمية الثابتة، وهذا ما توضحه أقوال المفسرين.

٣. مرحلة دَحْو الأرض:

قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات).

والآيات توضح ـ كما ذهب إليه المفسرون ـ أن هذه المرحلة الثالثة، وذلك بعد المرحلتين السابقتين، فبعد أن خلق الله الأرض أولًا في يومين، ثم خلق السماء في يومين، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ودحا الأرض أي: أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال، والجماد والآكام[1]، وكل ما بين السماء والأرض في يومين آخرين.

وقد عُرض هذا السؤال على ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأجاب عليه كما ورد في صحيح البخاري: قال رجل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات)، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾ (فصلت)، خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال "أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين إلى قوله طائعين" فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء؟! إلى أن قال: خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد، والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ٩)، فجُعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السماوات في يومين[2].

وعلى هذا النسق سار المفسرون، فقد جاء في إرشاد العقل السليم ما نصُّه: فهي وما في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (البقرة)، تدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها، وعلى هذا الرأي أكثر أهل التفسير، وقد رُوِي أن العرش العظيم كان قبل خلق السماوات والأرض على الماء، ثم إنه تعالى أحدث في الماء اضطرابًا فأَزْبَد فارتفع منه دخان، فأما الزَّبَد فبقي على وجه الماء، فخلق فيه اليُبُوسة فجعله أرضًا واحدة، ثم فتقها فجعلها أرضَيْن، وأما الدخان فارتفع وعلا، فخلق منه السماوات. وقيل: إن خلق جِرْم[3] الأرض

١. الآكام: التِّلال.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة فصلت (٤٥٣٧).

٣. الجِرْم: الجسد.

مُقدَّم على خلق السماوات، لكن دَحْوَها وخَلْق ما فيها مُؤخَّر عنه لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات).

ولما رُوِي عن الحسن ﷺ من أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر[1] عليه دخان ملتزق بها، ثم أصعد الدخان وخلق منه السماوات وأمسك الفِهْر في موضعها وبسط منها الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنبياء)، وليس المراد بنظمها مع السماء في سلكِ الآمر بالإتيانِ وإنشائِها وإحداثِها، بل إنشاءَ دَحْوِها وجَعْلِها على وجهٍ خاص يليق بها من شكل معين ووصف مخصوص، كأنه قيل: ائتيَا على ما ينبغي أن تَأْتِيَا عليه، ائتِي يا أرض مَدْحوَّة قرارًا ومهادًا لأهلِك، وائتِي يا سماء مُقبَّبة[2] سقفًا لهم.

وعند الطبري عن ابن عباس قوله: حيث ذكر خلق الأرض قبل السماء، ثم ذكر السماء قبل الأرض، وذلك أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات) وفي تفسير القرطبي: أن الله تعالى خلق أوَّلًا دخان السماء، ثم خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسوَّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

فالأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، أما دحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك فَبَعد خلق السماء، ويدل على ذلك أنه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات)، ولم يقل: خلقها. ثم فسَّر دحوه إياها بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ (النازعات).

ثانيًا. الحقائق العلمية تؤكد حقائق القرآن:

وقبل الشروع في عرض وبيان آراء العلماء حول مولد الكون ونشأته، يُنبِّه إلى أن هناك العديد من النظريات التي أُعلنت حول أصل الكون، إلا أن معظمها خَفَتَ صوتها وغُيِّبت عندما ظهرت أحدث نظرية حول مولد الكون، والتي تُدعى بالانفجار العظيم (***big bang***)، بل التي أجمع على صحتها جمهور علماء الفلك، مما دفع بعض الفلكيين إلى القول بأنها حقيقة قطعية.

وبوسعنا أن نستعرض طائفة من دراسات الفلكيين حول الانفجار الكوني العظيم؛ لنرى مدى التوافق بين ما أثبتوه، وبين الحقائق القرآنية التي سبق وأن قرَّر من خلالها الحق نشأة الكون.

فقد توصل عالم الفلك البلجيكي " جورج إدوارد لوميتر " إلى نتيجة الانفجار العظيم وأعلنها في عام ١٩٢٧م، وقد افترض في مستهل الأمر أن المادة الكونية كانت كلها مضغوطة في حجم ضئيل للغاية أسماه "البيضة الكونية"، ثم تعرض ذلك الجسم لتمدد مفاجئ سريع وما زال يتمدد.

ولما طرح "هبل " قانونه في عام ١٩٢٩م، وشرح المشاهدات التي استند إليها، بدا واضحًا أن ذلك يجسد تمامًا ما ينبغي أن يكون من شأن كون في حالة تمدد، وكون كل المجرات تبتعد عنا بمعدل أسرع كلما كانت

---

١. الفِهْر: الحجر.

٢. مُقبَّبة: مرتفعة.

أكثر بعدًا، أمر ليس له أي دلالة خاصة تتعلق بنا وبمجرتنا، فما دام الكون في حالة تمدد فهذا يعني أن كل مجراته تتباعد عن بعضها.

وقد التقط الفيزيائي جورج جاموف فكرة البيضة الكونية وعمَّمها، ثم أطلق على عملية التمدد الأولى اسم "الانفجار العظيم"، وما زال ذلك الاسم مستخدمًا حتى الآن، ويشير جاموف إلى أن الأشعة التي صاحبت الانفجار العظيم لا بد أن يكون لها من الآثار حتى الآن ما يمكن رصده من أي اتجاه على هيئة موجات ميكروويف ضعيفة، لها من المواصفات ما يمكن تقديره حسابيًّا، وبهذا الاكتشاف انتهى علماء الفلك إلى الاقتناع بوجود الانفجار العظيم، ومن المتفق عليه الآن أن الكون قد بدأ بجسم ضئيل انفجر منذ خمسة عشر بليون سنة، وما زال تحديد عمر الكون على وجه الدقة قيد البحث، ولكنه يصعب أن يقلَّ عن عشرة بلايين سنة، ولن يزيد - على الأرجح - على عشرين بليون سنة.

وهذا ما أكده كثير من علماء الكون الذين يدرسون الزمن الغابر باستقراء خارجي للشروط السائدة في الكون حاليًا، بمعنى أنهم يستعملون قوانين الفيزياء لاستنباط الكيفية التي كان الكون عليها حين نشأته وبداية تكوينه، فلقد تبين أن الكون كان في بدايته حارًّا وكثيفًا، وكان غازيًّا وكانت مادته وإشعاعه ممتزجين معًا امتزاجًا يختلف فيه تمامًا عما نعرفه عنهما من حيث تميُّزهما الواضح عن بعضهما، ويعود سبب الامتزاج إلى أنه في غاز ذي درجة حرارة مرتفعة يحمل الإشعاع طاقة هائلة، الأمر الذي يوفر إمكان تحوله إلى مادة وهكذا، فالإشعاع والمادة في بداية نشأة الكون سلكا سلوكًا لا يكاد يميز أحدهما عن الآخر.... وهم يعتقدون أن درجة حرارته كانت عالية جدًّا مما أدى إلى الانفجار العظيم.

ويؤكد هذا المعنى العالم "جون فايفر" فيقول: (لقد كانت الظلمات السائدة حينذاك نقطة بداية لا نقطة نهاية، عندما تكوَّنت فيها سحابة لا تشبه سُحُب اليوم أبدًا، فقد بدأت المادة تتجمع بالغريزة كما تتجمع قطعان الأغنام، وهكذا بدأت كثافة السحابة تزداد، وبدأت الظُّلمة تنقشع ويبدو فيها بصيص من النور، ولقد كان هذا النور بداية تكون النجوم)[1].

ولم يكتف العلماء بذكر المراحل التي نص عليها القرآن لخلق الكون ومدى اتفاقها مع العلم الحديث، بل أضافوا عدة تأويلات أخرى، منها:

١. المراد بخلق ما في الأرض جميعًا قبل خلقه السماء الخلق اللغوي:

إن المراد بخلق ما في الأرض جميعًا قبل خلق السماء: الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمِّي التقدير خلقًا، ومنه قول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وبعضهم

مَزِقُ الحَدِيثِ يَقُولُ ما لا يَفْعَلُ

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير: أنه تعالى نصَّ على ذلك، فقال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ (فصلت: ١٠)،

١. الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٦٧ بتصرف.

ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ (فصلت).

٢. لما خلق الله الأرض غير مدحوّة، فكان كل ما فيها وكأنه خُلِق بالفعل لوجود أصله فعلًا:

إنه لما خلق الأرض غير مدحوّة، وهي أهْلٌ لكل ما فيها، فكان كل ما فيها وكأنه خلق بالفعل؛ لوجود أصله فعلًا.

والدليل من القرآن الكريم على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع وإن لم يكن موجودًا بالفعل، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ (الأعراف)، فقوله: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾أي: بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم.

٣. دلالة الظرف "بعد" تأتي بمعنى "مع،" ومن ثَمَّ فدحو الأرض كان مع بناء السماء:

قال بعض العلماء بأن معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات) أي: مع ذلك، فلفظة "بعد" بمعنى "مع" ونظيره قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ (القلم)، وعليه، فلا إشكال في الآية.

الخلاصة:

- لا يوجد أي تناقض بين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ٩)، وبين قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات)؛ لأن الله تعالى خلق الأرض أولًا، ثم خلق السماوات بعد ذلك، ثم دحا الأرض بعد هذا بسهولها وجبالها وغير ذلك، وهذا ما يتفق اتفاقًا تامًّا مع معطيات العلم الحديث.

- ذكر العلماء عدة تأويلات للآيات - فضلًا عما سبق - تنفي أي تناقض بينها، ومنها:
  - أن الله تعالى لما خلق ما في الأرض جميعًا قبل خلق السماء: الخلق اللغوي، أي: التقدير لا الخلق بالفعل.
  - أن الله تعالى لما خلق الأصل وهو الأرض فكأنما خلق ما يتصل به من فروع، ومنها دحو هذه الأرض.
  - أن كلمة "بعد" في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات) قد تكون بمعنى "مع"، وبناء عليه فلا تناقض بين الآيات.

الشبهة السادسة والخمسون

توهم تناقض القرآن بشأن دعوته للسِّلم(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن هناك تناقضًا بين قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ (البقرة)، وبين قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟

(*) الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجمع البحوث الإسلامية، مرجع سابق.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ (محمد: ٣٥) ويتساءلون: كيف يأمر الله بالدخول في السِّلم في موضع، ثم ينهى عن الدعوة إليه في موضع آخر؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

لكل آية من الآيات التي استدل بها هؤلاء على دعواهم معنًى مختلف؛ إذ إن:

- قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١) أمر بقبول طلب الأعداء المسالمة إن طلبوها، على أن يدخلوا الإسلام، أو يدفعوا الجزية.
- في قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ (محمد: ٣٥)، نهي من الله ﷻ للمسلمين عن أن يضعُفُوا ويدعوا إلى السَّلْم - السلام - حتى لو هُزموا في بعض الوقت، فالله معهم وهم الأعلون بالإيمان.
- في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ﴾ (البقرة: ٢٠٨) السِّلْم معناه: الإسلام بأوامره ونواهيه، وليس معناه السلام.

التفصيل:

يختلف معنى السَّلْم أو السِّلْم في كل آية عن الأخرى، وذلك كالآتي:

١. في قول الله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١) يعني: قبول دعوة الأعداء المسالمة إن طلبوها.

إن طلب الأعداء المسالمة والمصالحة بدفع الجزية، أو بالدخول في الإسلام، فعلى المسلمين أن يقبلوا منهم ذلك، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١)، ففي الآية نجد أن الله ﷻ يأمر النبي ﷺ - والمسلمين من بعده - إذا مال الأعداء إلى المسالمة والموادعة أن يقبلوا هذه المسالمة، وهي إما بالدخول في الإسلام، فيكونوا إخوانًا للمسلمين، وإما بدفع الجزية فتكون حمايتهم واجبة على المسلمين.

لما طلب المشركون الصلح مع النبي ﷺ عام الحديبية أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط، وأمر النبي ﷺ بالسَّلم، حيث قال: "إنه سيكون اختلاف أو أمر، فإن استطعت أن يكون السلم، فافعل"[1]. وقيل: إن آية الأنفال نزلت في يهود بني قريظة، وهم أهل كتاب، وأهل الكتاب تُقبل منهم الجزية، فإن طلبوا أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، قَبِل ذلك منهم المسلمون[2].

٢. في قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ (محمد: ٣٥) يعني: النهي عن الهوان والصَّغار.

نهى الله المسلمين عن أن يهنوا ويدعوا إلى السلم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، ففيه ينهى الله ﷻ المسلمين عن الضعف مع الأعداء والدعوة إلى المهادنة والمسالمة، أو ترك القتال بينهم وبين الكفار في حال كثرة عدد المسلمين وتوافر عدتهم، ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، أي: في حال عُلُوِّكم على عدوكم. وقيل: أنتم الأعلون في الحُجَّة، وقيل: المعنى أنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في

١. أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة، (٢/ ٥٤٤) باب ذكر الرجال (١١٥٣).

٢. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج٢، ص١٩٠٣.

بعض الأحوال[1].

والقول الأخير هو الراجح؛ لأن الآية نفسها جاءت أيضًا في معرض الحديث عن مواساة المؤمنين بعد هزيمة أُحُد.

أما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة للمسلمين، فله أن يفعل ذلك، كما فعله النبي ﷺ[2].

٣. في قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ (البقرة: ٢٠٨) يعني: الإسلام بجميع شرائعه.

ففي قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ (البقرة: ٢٠٨) يأمر الله تعالى عباده المؤمنين به والمصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام[3] وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا ذلك، فالمقصود هنا بالسلم إنما هو الإسلام.

الخلاصة:

- ليس هناك أي تناقض بين قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١) وبين قوله ﷻ: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ﴾ (محمد: ٣٥)، فالآية الأولى يأمر الله فيها عباده المؤمنين أن يُجيبوا طلب أعدائهم بالمسالمة والمصالحة بأن يدخلوا في الإسلام، أو يدفعوا الجزية، وفي الآية الثانية ينهى الله عباده المؤمنين عن الضعف مع الأعداء، وينهاهم عن دعوة أعدائهم إلى السَّلم إن كان فيه هوان وإذلال للمؤمنين وهم في حال علوهم وكثرة عدتهم وعددهم، وكذلك في حال هزيمتهم من الأعداء في بعض الوقت؛ لأن المسلمين هم الأعلون بالإيمان دائمًا ومعيَّة الله ونصرته معهم أبدًا. أما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام المعاهدة، فله ذلك كما فعل النبي ﷺ.

- أما قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ (البقرة:٢٠٨) فهو أمر من الله لعباده المؤمنين أن يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ونواهيه قدر استطاعتهم ذلك.

الشبهة السابعة والخمسون

توهم تناقض القرآن في حُكْمه على النصارى (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين وجود تناقض في القرآن الكريم في حكمه على النصارى، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ (المائدة: ٧٣)، وقوله ﷻ: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٦، ص٢٥٥، ٢٥٦.

٢. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق. تفسير الطبري، الطبري، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

٣. عُرى الإسلام: قواعده.

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat. com

يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (آل عمران). ويتساءلون: إذا كان القرآن لا يؤمن بهذه الأقانيم الثلاثة[1]، ويعتبر هذا شركًا بالله، فلماذا اعترف بأن النصارى مؤمنون، وهل يَعِد القرآن المشركينَ بالجنة؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض.

وجها إبطال الشبهة:

١) عقيدة التثليث مرفوضة عند المسلمين لفسادها؛ فلم يَأْتِ بها المسيح، ولم تقرها الفطرة السليمة؛ إذ إنها من وضع بشر خدعوا بها ضعاف القلوب.

٢) إحكام القرآن واستحالة التعارض بين آياته من المسلَّمات، فمن العدل الإلهي مع أتباع عيسى عليه السلام أن يُثاب مسلمهم ويُذم كافرهم؛ لأن الدين عند الله الإسلام.

التفصيل:

أولا. عقيدة التثليث مرفوضة عند المسلمين لفسادها، فما جاء بها المسيح، ولا تقرُّها الفطرة السليمة:

في البداية لا بد أن نشير إلى أن المسيحية الحقَّة التي دعا إليها المسيح عيسى عليه السلام، قد قامت على التوحيد فليس فيها نص واحد يمكن أن يُتَّخذ دليلًا على الثالوث المزعوم، والمتأمل في القرآن الكريم يتبين له حقيقة الدعوة التوحيدية التي نادى بها نبي الله ورسوله عيسى عليه السلام؛ وذلك لأن القرآن الكريم - سراج الله في الأرض - قد تحدث به خالق الأكوان إلى النبي ﷺ، مخبرًا إياه أن دعوات الأنبياء عامة قد قامت على التوحيد، وأن ليس هناك نبي واحد قد دعا إلى ثالوث في يوم ما، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء)، وقال عز وجل: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الزخرف)، فإذا كان الأنبياء جميعًا يعترفون بعقيدة التوحيد، وإليها يدعون على مرِّ العصور، فهل يقبل عقل سليم أن يتَّهم المسيح بأنه قد خالف الأنبياء ودعا بغير ما أَمَرَتْ به السماء؟!

إن هذا الهُراء الذي لا يوجد عليه دليل لا يمكن أن يُسَلِّم به القرآن الكريم، ولذلك وجدنا القرآن الكريم ينصُّ - كما قال الشيخ محمد أبو زهرة - على أن عقيدة المسيح هي التوحيد الكامل بكل شُعَبه: التوحيد في العبادة، فلا يُعبد إلا الله، التوحيد في التكوين، فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله عز وجل، والتوحيد في الذات والصفات، فليس ذاته بمركبة وهي منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى.

يقول جل جلاله على لسان المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة)، وساعة أن حاول النصارى أن يخرجوا بدعوة المسيح عن الوحدانية ويلبسوها ثوب الوثنية، ألبسهم الله ثوب الكفر، وما أقذره من ثوب، ثم أخبر أنه واحد لا شريك له، وأن على القوم أن ينتهوا عما زعموه في حقه، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

١. الأقانيم: جمع أقنوم، وهو الأصل أو الجوهر، وعند النصارى: الأب والابن وروح القدس.

﴿ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (المائدة) [1].

ويمضي القرآن الكريم في تصحيح عقيدة النصارى الحالية وإثبات حقيقة الدعوة المسيحية، فيقول تبارك وتعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (النساء).

والمفهوم من هذه الآيات كلها: أن المسيح - عليه السلام - ما دعا إلا إلى توحيد الله، وعلى ذلك، فكل ما ليس توحيدًا قد دخل النصرانية من بعده - عليه السلام -، وما كان عيسى إلا رسول رب العالمين، ولو كان المسيح بخلاف ذلك وعقيدته تغاير عقيدة الأنبياء، لصرَّح بذلك القرآن الذي شهد له التاريخ بالصدق، والعقلاء بالعصمة.

هذا عن القرآن الكريم، أما عن كتبهم المقدسة التي يؤمنون بها والتي شابها الكثير من التحريف، فيذكر د. عبد المنعم فؤاد أنه على الرغم من هذا، فقد أقرَّت أيضًا فكرة التوحيد، ولا نجد بينها ما يثبت فكرة الأقانيم الثلاثة المزعومة.

ففي أسفار موسى - عليه السلام - الأصل الأول لكتاب اليهود، والذي يقدِّسه النصارى في كنائسهم - نجد نصوص التوحيد واضحة المعالم، فالوصايا العَشْر - والتي قُدِّر لها أن تبقى - جاءت بصيغتين، الأولى - والتي تتصل بالعقيدة - جاء في سِفْر الخروج: "احفظ ما أنا موصيك اليوم... لا تسجد لإله آخر؛ لأن الرب اسمه غيور". (الخروج ٣٤: ١١ - ١٤)، هذه هي الوصية الأولى، أما الثانية فقد جاء فيها: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور". (الخروج ٢٠: ٣ - ٥).

ومن هنا يتضح لنا أن الله دعا إلى وحدانيته في أول وصاياه لنبيه موسى - عليه السلام -، ولا نجد أي نصٍّ في التوراة يشير - لا من قريب ولا بعيد - إلى عقيدة التثليث [2].

أما المُطَّلع على الأناجيل ورسائل العهد الجديد يَهُوله هذا الحشد الهائل من النصوص المتراكمة التي تشير إلى وحدانية الله، وتقرر بشرية المسيح، وتدل على أنه نبي لم يلفظ بكلمة واحدة تؤيد ما يقوله النصارى في الثالوث الوثني الذي نُسب زورًا إلى المسيحية، ففي إنجيل متى يقول المسيح: "لا تدعوا لكم أبًا في الأرض؛ لأن أباكم واحد، الذي في السماوات". (متى ٢٣: ٩)، فهو يبين أنه إله واحد ليس له شريك في الأرض ولا في السماء، وفي إنجيل مرقس نجد أن أحد الكَتَبة يتقدم إلى المسيح قائلًا: "أية وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا: اسمع يا اسرائيل، الرب إلهنا رب واحد". (مرقس ١٢: ٢٨، ٢٩)، وفي إنجيل لوقا نجد المسيح يقول: "إنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد" (لوقا ٤: ٨).

أما في رسائل التلاميذ فيقول يعقوب: "أنت تؤمن أن الله واحد، حسنًا تفعل". (يعقوب ٢: ١٩)، ويقول أيضًا: "واحد هو واضع النَّاموس القادر أن يخلِّص

1. محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ص١٢ بتصرف.

2. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٧٣، ٧٤.

ويُهْلك". (يعقوب ٤: ١٢)، وفي إحدى رسائل بُـوْلِس إلى أهل غلاطية يقول فيها: "ولكن الله واحد". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣: ٢٠)[1].

ومن هنا نجد أن المسيحية الحقة ظلت ثلاثة قرون بعد رفع المسيح إلى السماء تدين بالتوحيد الخالص، ولم تُعرف عقيدة الثالوث إلا بعد أن نالتها أيدي المُحَرِّفين في المجامع التي اختلقت مسيحية أخرى غير التي دعا إليها المسيح عليه السلام.

ويؤكد ذلك أن عقيدة الثالوث ليس لها أدلة ثابتة وصحيحة في العهدين كما أثبتت الترجمات الحديثة التي قام بها النصارى، وفي العصر الحديث وجدنا من يتجهون إلى الإسلام "دين التوحيد الخالص"؛ لأنه ناسب فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فارتموا في أحضانه، ولاذوا به كملجأ تطمئن إليه العقول والقلوب، بل رددوا بكل ارتياح قوله: "لا إله إلا الله عيسى ومحمد رسولا الله". إذن فدخول هؤلاء في الإسلام يؤكد فساد هذه العقيدة كما يرفضها العقل.. وكيف يطمئن القلب إلى فكرة من وضع البشر لا تُعظِّم إلهًا، ولا تُريح الفطرة السليمة.

يقول الشيخ رحمة الله الهندي: إن الواحد الحقيقي ليس له ثلث صحيح، أما الثلاثة فلها ثلث صحيح وهو واحد، وأن الثلاثة مجموع آحاد ثلاثة، والواحد الحقيقي جزء الثلاثة، فلو اجتمعا في محل واحد يلزم كون الواحد ثلث نفسه، والثلاثة ثلث الواحد، وكون الثلاثة ثلاثة أمثال نفسها، والواحد ثلاثة أمثال الثلاثة، وهذا محال".

١. المرجع السابق، ص٧٦ وما بعدها.

هذا القول ما زال النصارى يدورون حوله بلا حل؛ ذلك لأن الواحد الحقيقي هو الذي لا يقبل الانقسام بوجه من الوجوه، إذن فأصحاب الجمع بين التوحيد والتثليث قد عزلوا العقل عن الحكم عليهم، وهذا هو رأي الكنيسة المسيحية عبر القرون[2] ®.

ثانيًا. إحكام القرآن واستحالة التعارض بين آياته:

إن القرآن الكريم لا يمكن أن يناقض نفسه، ولا تتعارض آياته وأحكامه، وما كان الله تبارك وتعالى ليناقض نفسه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ (النساء)، والقرآن صريح في الحكم على الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة بالكفر، فهو تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾(المائدة)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) ﴾ (البينة).

فمن العدل الإلهي أن يُثاب مسلمهم ويُذم كافرهم: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران: ١٩) والتأويل السريع والفهم الخاطئ للآيات يؤديان إلى مثل هذا اللبس - إذا كان لبسًا وليس تعمدًا - فالآيات التي يشيرون إليها على أنها اعتراف من القرآن بأن المسيحيين

٢. المرجع السابق، ص٢٥٧، ٢٥٨ بتصرف.

® في "تهافت المزاعم عن إقرار الإسلام للتثليث" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). والوجه الأول، من الشبهة السابعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

مؤمنون لهم الجنة، فهي قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾ (آل عمران). وقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾ (المائدة).

وهذه الآيات خاصة بمن آمن بالله وبرسوله من أهل الكتاب من علمائهم وأحبارهم ورهبانهم، كعبد الله بن سلام: الحَبْر اليهودي الذي اعترف بالإسلام، وحَسُن إسلامه، وعن عطاء: أنها نزلت في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثلاثة من الروم، كانوا على دين عيسى وصدَّقوا بمحمد ﷺ[1].

وكذلك آيات المائدة، فهي تعني من آمن من أهل الكتاب، وليس جميعهم.

قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ (المائدة): يريد النجاشي وأصحابه؛ وذلك لأن جعفر الطيار قرأ عليهم سورة مريم، فأخذ النجاشي نَبْتَة من الأرض، وقال: "والله ما زاد على ما قال في الإنجيل"، وما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة.

وإذا كان النصارى يرون أنهم المؤمنون، وأنهم أحق بالجنة، وأن غيرهم الكافرون أهل النار، فهنيئًا لهم إيمانهم وجنتهم، ونحن كافرون بإيمانهم راضون بإيماننا، وليتعدُّوا على أُمَّة القرآن الكريم، وليقولوا ما شاءوا أن يقولوا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)﴾ (سبأ)[2].

الخلاصة:

- عقيدة التثليث مرفوضة عند المسلمين الموحِّدين لفسادها، فما جاء بها المسيح، ولا يوجد لها أصل في كتبهم، بل كل كتبهم قبل تحريفها نصوص تنطق بالتوحيد، فعقيدة التثليث تأباها الفِطَر السليمة؛ إذ إنها من وضع البشر، تبنَّاها بولس الوثني والمجامع، وعلى أساسها ترقَّى إلى درجة رسول، ولكنها ليست المسيحية الحقَّة التي عرفها المسيحيون إلى أن ظهرت هذه الفتنة على يد بولس وغيره ممن حرَّفوا وغيَّروا، وخُدع بها ضعاف القلوب.
- أما حُكم القرآن الكريم على هؤلاء فصريح لا

١. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

٢. المسيحية بين التوحيد والتثليث، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص١٣٥.

يحمل تناقضًا أو غموضًا، فقد حسَّن مسلمهم، وقبَّح كافرهم، وهذا محكم العدل الإلهي، فالدين عند الله الإسلام"، لذلك أثاب من أسلم منهم مثل النجاشي ـ ملك الحبشة ـ والذين آمنوا معه، وعبد الله بن سلام الحبر اليهودي، فكان جزاؤهم الجنة بالحجة والمنطق، وبيَّن أوجه الفساد في عقائدهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وبذلك يكون الحكم عادلًا منصفًا.

الشبهة الثامنة والخمسين

توهم تناقض القرآن الكريم بشأن بيان أظلم الناس(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم المبطلون وجود تناقض بين قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ﴾ (البقرة)، وبين قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ (٣٧) ﴾ (الأعراف)، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧) ﴾ (يونس).

ويتساءلون: كيف يَذكُر القرآن الكريم في موضع أن أظلم الناس هو الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعى في خرابها، بينما يذكر في مواضع أخرى أن أظلم الناس هو الذي افترى على الله الكذب أو كذب بآياته؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

يزول التناقض المزعوم بواحد من التوجيهات التالية:

- تخصيص كل موضع من مواضع هذه الآيات بمعنى سياقه الذي ورد فيه.
- أن التخصيص بالنسبة إلى السبق في الفعل، أي: لا أحد ممن يأتي بعد كُلٍّ من المذكورين سالكًا طريقهُ، أظلم منه في فعله.
- لا أحد من هؤلاء المذكورين في الآيات أظلم من الآخر؛ لأنهم يتساوون جميعًا في الظلم.

التفصيل:

توهم وجود تعارض بين آيات القرآن الكريم حول أظلم الناس وجزائه ـ توهم لا أساس له، فقد ذكر العلماء عدة توجيهات للتوفيق بين هذه الآيات منها:

١. تخصيص كل موضع بذكر معنى صلته وموصوله يوضح اللبس:

تخصيص كل موضع بمعنى صلته، أي: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبًا، وهكذا سائر الآيات، وإذا تخصصت بصلاتها زال التناقض.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٢. التخصيص بالنسبة إلى السبق في الفعل:

إن التخصيص بالنسبة إلى السبق، أي: لا أحد ممن جاء بعدُ - كل واحد من المذكورين في الآيات - سالكًا طريقه أظلم منه، فالمانع ذكر الله في مساجده لا أحد ممن جاء بعده - في منع ذكر الله في مساجده - أظلم منه، وهكذا.

يقول السيوطي في "الإتقان": وهذا يؤول معناه إلى ما قبله، لأن المراد السبق إلى المانعية والافترائية. وهذا الوجه يؤول معناه إلى الوجه الأول باعتبار أن في كل منهما تخصيصًا، الأول فيه التخصيص بما يفهم من نفس الصلات، والثاني: التخصيص فيه بالنسبة إلى ما سبق من ذلك النوع.

٣. لا أحد من هؤلاء المذكورين أظلم من الآخر لمساواتهم جميعًا في الظلم:

إن نفي التفضيل لا يلزم منه نفي المساواة، فنفي الأشد ظلمًا أو الظلم الشديد الطاغي لا يستلزم نفي ما دونه من الظلم؛ لأن نفي المُقَيَّد لا يدل على نفي المطلق، وإذا لم يدل علي نفي ما دونه من الظلم لم يلزم التناقض؛ لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية أو الظلم الشديد الطاغي، وإذا ثبتت التسوية فيها لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر؛ لأنهم يتساوون في الأظلمية، وصار المعنى: لا أحد أظلم ممن افترى ومنع ونحوها.

ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية، ولا يدل على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر، كما إذا قلت: لا أحد أفقه من زيد وعمرو وخالد لا يدل على أكثر من نفي أن يكون أحد أفقه منهم، وأما أنه يدل على أن أحدهم أفقه من الآخر فلا. وقال بعض العلماء: هذا استفهام مقصود به التهويل والتفظيع من غير قصد إثبات الظلم للمذكور في الآية حقيقة ولا نفيها عن غيره[1].

الخلاصة:

إن توهم تناقض القرآن الكريم بشأن من هو أظلم الناس توهمٌ مردود ويزول بأحد الوجوه الآتية:

- تخصيص كل موضع بمعنى صلته، أي: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبًا، وهكذا.
- التخصيص بالنسبة إلى السبق، أي: لا أحد ممن جاء بعد سالكًا طريقه أظلم منه.
- نفي التفضيل لا يلزم نفي المساواة، ونفي الأظلمية - أي الظلم الشديد - لا يستدعي نفي الظالمية - أي ما دونه من الظلم -؛ لأن نفي المقيد لا يدل على نفي المطلق.

الشبهة التاسعة والخمسون

توهُّم تناقض القرآن فيمن نزل بالوحي على محمد ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين أنَّ هناك تناقضًا في القرآن الكريم في الآيات الدالة على من نزل بالوحي على النبي محمد ﷺ، ويستدلون على ذلك بآيات من القرآن الكريم

١. المرجع السابق، ص١٩٩: ٢٠١ بتصرف.

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

كقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (النجم)، فهذه الآية تذكر أن الله نفسه أوحى إلى محمد ﷺ، في حين أن قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (النحل) يبين أنَّ جبريل هو الذي نزل بالوحي، وذكر أيضًا أن أكثر من مَلَك نزل إلى محمد ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الحجر).

ويتساءلون: ألا يُعَدُّ هذا تناقضًا في الآيات الدالة على من نزل بالوحي على النبي؟ هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في القرآن وعصمته من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

لكل آية من هذه الآيات معنى مختلف عن الآية الأخرى؛ إذ إن:

١) معنى الآية الأولى: فأوحى جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ ما أوحاه إليه ربه.

٢) قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾يعني: جبريل نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه.

٣) نزول الملائكة في الآية الثالثة يكون بالعذاب لمن لم يؤمن.

التفصيل:

يختلف معنى كل آية عن الآية الأخرى؛ إذ إن:

١. معنى الآية الأولى: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحاه إليه ربه:

ورد في تفسير القرطبي أن قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (النجم) تفخيم للوحي الذي أُوحي إليه، وتقدم معنى الوحي: وهو إلقاء الشيء بسرعة، ومنه الوَحَاء. والمعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى. وقيل: المعنى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (النجم) جبريل عليه السلام: ﴿مَآ أَوْحَىٰ ﴾. وقيل: المعنى: فأوحى جبريل عليه السلام إلى عبد الله محمد ﷺ ما أَوْحَى إليه ربه[1].

٢. قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ يعني: جبريل نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه:

وعلى هذا، فلا تعارض ولا تناقض بين الآيتين؛ لأن الآيتين تشيران إلى أن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالوحي على النبي ﷺ بعد تلقيه من ربه ﷻ، فقوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾يعني أن جبريل نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه[2]، وجبريل المذكور في سورة النجم هو نفسه الذي ذكره الله تعالى في سورة النحل، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (النحل)، فقد سمّاه الله روحًا؛ لأنه ينزل بما يُحْيِي موات القلوب، وهو وحي الله إلى رسله، ووصفه "بروح القدس" أي: المقدس، وهو المنزه عن الكذب أو الغش، فهو الذي قدّسه الله ورفعه، وأعلى من شأنه عليه السلام.

٣. نزول الملائكة في الآية الثالثة يكون بالعذاب لمن لم يؤمن:

ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٧، ص٩١.

٢. المرجع السابق، ج١٠، ص١٧٦، ١٧٧.

بِٱلْحَقِّ ﴾ (الحجر) عدة تفسيرات، أرجحها أن الحق هو العذاب إن لم يؤمنوا، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الحجر) أي: لو تنزَّلت الملائكة بإهلاكهم لما أُمْهِلوا ولا قُبِلَت توبتهم. وقيل: المعنى: لو تنزَّلت الملائكة تشهد لك فكفروا بعد ذلك لم ينظروا، وأصل ﴿ إِذًا ﴾: إذ إن، ومعناه: حينئذ[1].

الخلاصة:

- معنى الآية الأولى: فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أَوْحَى إليه ربه، وعلى هذا، فلا تناقض ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله ﷻ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾؛ لأن آية ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ تعني: جبريل عليه السلام نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه، وقد سمَّاه الله تعالى روحًا؛ لأنه ينزل بما يحيي موات القلوب، وهو وحي الله تعالى إلى رسله.
- ونزول الملائكة في الآية الثالثة يكون بالعذاب لمن لم يؤمن في أغلب الآراء، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ أي: لو نزلت الملائكة بإهلاكهم لما أُمْهِلُوا ولا قُبِلَتْ لهم توبة. وقيل: المعنى: لو نزلت الملائكة تشهد لك فكفروا بعد ذلك لم يُنْظروا.

1. المرجع السابق، ج١٠، ص٤، ٥.

الشبهة الستون

توهم تناقض القرآن حول النهي عن سبِّ الأصنام والأمر بقتال عُبَّادها (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أنَّ هناك تعارضًا بين قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (الأنعام)، وبين قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ (محمد).

ويتساءلون: ألا يُعَدُّ تناقضًا بين نهي المسلمين عن سبِّ الأصنام التي يعبدها المشركون، وبين الحث على قتالهم؟!

ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم من التناقض والاختلاف.

وجها إبطال الشبهة:

١) الآية الأولى جاءت لنهي المسلمين عن سبِّ الأصنام والأوثان، وهذا من الآداب التي يحثنا عليها الإسلام، وليس مودةً وعطفًا على أهل الشرك وأصنامهم.

٢) للحرب في الإسلام مسوِّغاتها وآدابها، فليست حقدًا ولا كرهًا أعمى كما يدعي هؤلاء.

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

التفصيل:

أولا. نَهْي المسلمين عن سبِّ الأصنام والأوثان، من الآداب التي يحثنا عليها الإسلام، وليس مودةً وعطفًا على أهل الشرك وأصنامهم:

فالآية الأولى مكيَّة سَنَّتْ للمسلمين أدبًا خُلقيًّا، فنهتهم عن شَتْم الأصنام وَهُم يعلمون أنها لا تضر ولا تنفع، ولكن لو سبُّوها لسبَّ الكفار الإله الخالق سبحانه عدوانًا وجهلًا؛ لأنهم لم يعرفوه ولم يعرفوا صفاته وهذا أدب أخلاقي رفيع.

وقد قيل في قوله: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾ (الأنعام): نهي، ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ ﴾: جواب النهي، فنهى سبحانه المؤمنين أن يسبُّوا أوثانهم؛ لأنه علم إذا سبُّوها نفر الكفار وازدادوا كفرًا. قال ابن عباس: قالت كفار قريش لأبي طالب: إما أن تنهى محمدًا وأصحابه عن سبِّ آلهتنا والغضِّ منها، وإما أن نسبَّ إلهه ونهجوه، فنزلت الآية.

وقال العلماء: أن حكمها باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في مَنَعة وخِيف أن يُسبَّ الإسلام أو النبي ﷺ أو الله ﷻ، فلا يحل لمسلم سَبُّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه بمنزلة الحث على المعصية.

وعبرت الآية عن الأصنام وهي لا تعقل بـ "الذين" على معتقد الكفرة فيها[1].

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٧، ص٦١ بتصرف.

ثانيًا. للحرب في الإسلام مسوِّغاتها وآدابها، فليست حقدًا ولا كرهًا:

تبين الآية الرابعة من سورة محمد جانبًا من تعاليم الحرب في الإسلام؛ فتعلم المسلمين أنهم إذا قابلوا الكفار في المعركة فعليهم أن يُوقعوا بهم الضرب، فإذا أثخنوهم قتالًا وهزموهم كان لهم بعد ذلك أن يمنُّوا على من يستحق المَنَّ، وأن يأخذوا الفدية ممن يستحق أن يفدي، فليس في الآية إباحة لسب الأصنام.

ولقد ظَنَّ هؤلاء الواهمون أنه طالما جاء النهي في سورة الأنعام عن سَبِّ أصنام الكفار، فمن باب أولى يجب الكفُّ عن قتالهم؛ إذ القتال وضرب الرقاب أعظم من السَّبِّ، ولو أنهم تدبروا في الآيات لأدركوا عِلَّة النهي عن سبِّ أصنام الكفار في نفس الآية، وهي أن سبَّ آلهتهم يُفضي إلى حَمْلِ المشركين على سبِّ الله تعالى، وهم أجهلُ الناسِ بقدر الله، وليس للنهي في الآية أي علاقة بمراعاة مشاعر المشركين، ولكنْ لضآلة عقولهم وسوء طَوِيَّتهم نظروا إلى صَدْرِ الآية فقط وتركوا باقيها، فزعموا أنَّ في القرآن آية تنهى عن سبِّ أصنام المشركين لحفظ مشاعرهم، وآية أخرى تأمر بضرب رقابهم، غير أن الآيتين مختلفتان لكل منهما حكمها الخاص بها، فلا تناقض بينهما®.

الخلاصة:

- وبهذا البيان يتضح بطلان زعمهم وتوهمهم، فقد جاء في معنى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ

® في **"أهداف القتال في الإسلام والحكمة من مشروعيته"** طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية. والوجه الأول، من الشبهة الرابعة. والوجه الأول، من الشبهة العاشرة؛ من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

﴿اللَّهِ﴾: نهى الله المؤمنين أن يسبوا أوثان أعدائهم، وفي هذا أدب عالٍ؛ لأن الله ﷻ يريد ألا يترك الرسول لغرائزهم مكانًا للإباء عليه، وألا يجدوا وسيلة لينفروا من الدعوة، وفي هذا يعلمنا الحق الجدل اللطيف للدعوة، فهذا تذييل[1] للدعوة، والدعوة في ذاتها جميلة؛ لذلك لا بد أن يكون عرضها جميلًا[2].

- أما آية سورة محمد فتبيِّن جانبًا من تعاليم الحرب، والآيتان في وقتين مختلفين لكل منهما حكمها الخاص، فليس ثمَّة تناقض بينهما.

الشبهة الحادية والستون

توهُّم تناقض القرآن بشأن طلب الرسول أجرًا على تبليغ الرسالة(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين وجود تناقض في القرآن الكريم؛ حيث نفى الله عن نبيه طلب الأجر على تبليغ الرسالة والوحي، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (سبأ: ٤٧)، بينما أثبت في آيات أخرى طلب الرسول أجرًا على تبليغ الرسالة، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧)﴾ (الفرقان)، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣)، ويستدلون بذلك على وقوع التناقض في القرآن.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الرسول ﷺ لم يطلب أجرًا على تبليغ الرسالة، وذلك شأن الرسل جميعًا.

٢) معنى الأجر في آية سورة الفرقان: أنه الاستجابة للنبي ﷺ والإيمان والطاعة، فهذا بمنزلة الأجر للنبي ﷺ وليس أجرًا حقيقيًّا له، أو أن معناه: الإنفاق في سبيل الله والبذل والتضحية، وهذا بمثابة الأجر للنبي ﷺ كذلك.

٣) ذكر العلماء عدة تفسيرات لمعنى الأجر في آية سورة الشورى منها: لا أسألكم إلا أن تودوني وتكفُّوا أذاكم عني مراعاة للقربى بيننا، أو لا أسألكم إلا أن تحفظوني في قرابتي وأهل بيتي من بعدي وتكفُّوا عنهم، أو أن تتوددوا إلى الله بالطاعة، أو أن تصلوا أرحامكم، وكل هذا لا يعد أجرًا على تبليغ الدعوة.

التفصيل:

أولا. الرسول ﷺ لم يطلب أجرًا على تبليغ الرسالة، وذلك شأن الرسل جميعًا:

ينفي الله تعالى عن نبيه ﷺ أنه يطلب أجرًا على تبليغ الرسالة والوحي، وبهذا لا يكون قد أثقل عليهم بهذا الأجر إثقالًا، امتنعوا بسببه عن الإيمان به واتباعه، قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠)﴾ (الطور).

فإن "أم" استفهامية، والاستفهام فيها بمعنى النفي، أي: لستَ تطلب أجرًا على تبليغ الرسالة. وفي سورة "ص" أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: إنه لا يسألهم على تبليغ القرآن والوحي أجرًا فقال تعالى:

---

١. التذييل: التأكيد.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٦، ص٣٨٥٩: ٣٨٦١ بتصرف.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (ص). وفي سورة سبأ يقول تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ (سبأ).

وشأن النبي ﷺ في عدم طلب الأجر على تبليغ الرسالة والوحي، هو شأن الرسل جميعًا، فلم يطلب واحد منهم على التبليغ أجرًا فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (هود: ٢٩). وهذا نبي الله هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (هود). وفي سورة الشعراء يقول كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم الصلاة والسلام جميعًا -: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠). فجميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لم يطلبوا أجرًا من أقوامهم على تبليغ رسالات الله إليهم[1].

ثانيًا. معنى الأجر في سورة الفرقان:

ففي آية سورة الفرقان قد يُفْهَم منها أن فِعْل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا هو أجر للرسول ﷺ على التبليغ، والأمر ليس كذلك، فالحقيقة أن ذلك ليس أجرًا للرسول ﷺ من قومه، وإنما صُوِّرَ بصورة الأجر، فاتخاذ السبيل إلى الله ﷻ - الذي هو على الأصح تقربهم إلى الله بالإيمان والطاعة - يُعَدُّ بمنزلة الأجر له، أما أنه أجر حقيقي له ﷺ فلا، بل هو في الحقيقة أجر لهم، فباتباعهم دينه ينالون كرامة الدنيا والآخرة.

وقد فسَّر بعض العلماء اتخاذ السبيل إلى الله بأنه: الانفاق من المال والتصدق منه، وهذا لا يعني طلب الأجر والمال منهم، بل إن المعنى: لا أطلب من أموالكم جُعْلا خاصًّا لنفسي، لكن من شاء إنفاقها لوجه الله فليفعل[2].

ثالثًا. معنى الأجر في سورة الشورى:

أما قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (الشورى: ٢٣)، لا ينبغي أن يُفهم منه أن المودة في القُرْبى أجر له ﷺ على التبليغ؛ فقد ذكر العلماء في معناها أقوالًا يبعد كل قول منها أن المودة في القُرْبى أجر للرسول ﷺ نكتفي منها بما يأتي:

١. أن معنى الآية: قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم فتكفُّوا أذاكم عَنِّي، وتمنعوني من أذى الناس كما تمنعون كل من كان بينكم وبينه قرابة مثل قرابتي منكم.

فقد كان له ﷺ في كل بطون قريش قرابة، فإذا سألهم مودته والانتصار له من أذى الناس لم يكن ذلك أجرًا على التبليغ في الحقيقة؛ إذ هو حق القريب على قريبه، إذ كل إنسان يودُّه أهل قرابته، ويكفون عنه أذى الآخرين.

وقد انتصر للنبي ﷺ ودافع عنه عمه أبو طالب - وهو كافر - ولم يكن ذلك أجرًا له على التبليغ، وإذا كان الرسول ﷺ لا يسأل أجرًا إلا هذه المودة - وهي ليست بأجر - تحقق أنه لا يسأل أجرًا.

٢. أن المعنى: كَفُّ الأذى عن قرابتي وأهل بيتي من بعدي وحفظي فيهم، وهذا ليس أجرًا؛ لأن المودة بين

---

١. المرجع السابق، ص٣٤، ٣٥.

٢. المرجع السابق، ص٣٤، ٣٥.

المسلمين واجبة، وأحق بها قرابة الرسول ﷺ.

٣. أن المعنى: إلا أن تتوددوا إلى الله تعالى وتتقربوا له بالطاعة والعمل الصالح، والتقرب إلى الله تعالى ليس أجرًا على التبليغ.

٤. أن المعنى: إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم، وصلة الإنسان رحمه ليست أجرًا على التبليغ[1].

وبناء على هذه الآراء، فقد ثبت لدينا، عدم وجود أي تناقض بين الآيات التي استدل بها هؤلاء على زعمهم.

الخلاصة:

- لقد نفى الله تعالى عن نبيه ﷺ طلب الأجر على تبليغ الرسالة والوحي، فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (ص)، وقد كان شأن النبي ﷺ في ذلك شأن الرسل جميعًا، فجميع الرسل - عليهم السلام - لم يطلبوا أجرًا من أقوامهم على تبليغ رسالات الله إليهم.

- في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الفرقان) المراد بكلمة "أجر" - في الحقيقة - ليس أجرًا للرسول ﷺ، فتقربهم إلى الله بالإيمان والطاعة يُعدُّ بمنزلة الأجر له ﷺ، أما أنه أجر حقيقي فلا، وقد يجوز أن يكون اتخاذ السبيل هو الإنفاق من المال، وهذا لا يعني طلب الأجر، بل إنفاقه لوجه الله تعالى.

- أما قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (الشورى: ٢٣)، لا ينبغي أن يفهم منه أن المودة في القربى أجر له ﷺ، فقد ذكر العلماء عدة تفسيرات للآية منها:

  - لا أسألكم عليه أجرًا، إلا أن تودُّونى في قرابتي التي بينى وبينكم، فَكُفُّوا أذاكم عنى.
  - لا أسألكم أجرًا، لكن أذكركم الله في قرابتي، فاحفظوني فيهم.
  - لا أسألكم أجرًا، ولكن تـوددوا إلى الله بالطاعة والعمل الصالح.
  - لا أسألكم أجرًا، ولكن تـوددوا إلى قراباتكم وصلوا أرحامكم.

وكل هذه التفسيرات تثبت أن النبي ﷺ لم يأخذ أجرًا على تبليغ الدعوة للناس كما زعم أصحاب هذه الدعوى الباطلة.

الشبهة الثانية والستون

توهُّم تناقض القرآن الكريم حول نجاة ابن نوح عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المغالطين وجود تناقض بين قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الأنبياء)، وبين قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ

---

١. المرجع السابق، ص٣٥: ٣٧ بتصرف يسير.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ (هود).

ويتساءلون: كيف يذكر القرآن أنَّ الله نَجَّا نوحًا وأهله من الغرق في موضع، ثم يذكر غرق ابنه في موضع آخر؟! هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن من التناقض.

وجه إبطال الشبهة:

المراد بأهل نوح الذين نجوا من الغرق ومن آمن منهم فقط، وابنه ليس من أهله؛ لأنه لم يؤمن. وعليه فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦) أي: الموعود بنجاتهم.

التفصيل:

المراد بأهل نوح عليه السلام من آمن منهم فقط، أما ابنه فهو ليس من أهله؛ لأنه لم يؤمن بدعوته:

إن المراد بأهل سيدنا نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦)﴾ (الأنبياء)، هو من آمن منهم فقط، حيث أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قال لسيدنا نوح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾ (هود)، فقد أمره الله أن يحمل أهله معه في السفينة التي أمره الله بصنعها لينجو فيها من الغرق، إلا من سبق القول من الله بهلاكهم، وكان قد سبق في علم الله أن يهلك ابنه مع الهالكين؛ لأنه لم يكن مؤمنًا، ولم يكتب الله لأحد النجاة مع نوح إلا أهل الإيمان فقط، وابنه لم يكن مؤمنًا.

وعلى هذا يفهم قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ (هود).

فالله تعالى استثنى من الغرق من شملته رحمته، ورحمته تعالى شملت المؤمنين، وابن سيدنا نوح لم يؤمن، ومن ثَمَّ لم تشمله الرحمة، أي: النجاة من الغرق، فالاستثناء أسلوب معروف في لغة العرب، فيذكر المتكلم المستثنى منه على وجه العموم، ثم يخرج منهم من أراد إخراجه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦) أي: ليس من الموعود بنجاتهم في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦)﴾ (الأنبياء)؛ لأنه كافر لا مؤمن، وقول سيدنا نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ (هود: ٤٥) يظنه مسلمًا من جملة المسلمين الناجين، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (هود: ٤٦)، وقد شهد الله تعالى بأنه ابنه، حيث قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ (هود: ٤٢)، إلا أنه أخبره بأن هذا الابن عمل غير صالح لكفره، فليس من الأهل الموعود بنجاتهم، وإن كان من جملة الأهل نسبًا[1].

---

١. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مرجع سابق، ص١٢٣. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤٨، ١٤٩ بتصرف.

الخلاصة:

إن توهم تناقض القرآن بشأن غرق ابن نوح عليه السلام ونجاته توهم لا أساس له؛ إذ إن: المراد بأهل سيدنا نوح في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنبياء): من آمن منهم فقط، وأطاع نوحًا وركب معه في السفينة، وهم المقصودون من الاستثناء في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣)، وعليه، فإن معنى قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦) أي: ليس من أهلك الموعود بنجاتهم؛ لأنه كافر غير مؤمن.

الشبهة الثالثة والستون

توهُّم تناقض القرآن بشأن تعذيب قاتل المؤمن عمدًا(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المغالطين أنَّ هناك تناقضًا بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ (النساء)، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء).

ويتساءلون: كيف تُخبرنا الآية الأولى أنَّ قاتل المؤمن متعمدًا يُجازى بالخلود في جهنم، وأنَّ الله يغضب عليه ويلعنه، في حين أنَّ الآية الثانية تقرر أنَّ التائب من أي ذنب يغفر الله له، ولا يُحرم من مغفرة الله تعالى إلا من مات على الشرك؟! ويستدلون بذلك حسب زعمهم على وقوع التناقض في القرآن الكريم.

وجها إبطال الشبهة:

١) الآية الأولى حكمها فيمن يستحلُّ قتل المؤمن؛ لأن مستحلَّ ذلك كافرٌ، وهذه الآية للتشديد والتخويف والتغليظ في الزَّجر عن قتل المؤمن.

٢) إن جزاء القاتل عمدًا جهنم إنْ لم يتب وأصرَّ على الذنب حتى موته، أما إن تاب فإن الله غفورٌ رحيم، وهذا ما تؤكده الآية الثانية.

التفصيل:

أولا. الآية الأولى نزلت فيمن يستحلُّ قتل المؤمن؛ لأن مُستحلَّ ذلك كافر، فهي من قبيل التشديد والتغليظ والتخويف:

ورد في سبب نزول الآية أنها نزلت في مِقْيَس بن صُبابة الكناني، وكان قد أسلم هو وأخوه هشام، فوجد أخاه هشامًا قتيلًا في بني النجار، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فأرسل رسول الله ﷺ معه رجلًا من بني فِهْر إلى بني النجار أن رسول الله يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى مقيس فيقتصَّ منه، وإن لم تعلموا أن تدفعوا إليه دِيَته.

فأبلغهم الفِهْري ذلك، فقالوا: سمعًا وطاعة لله ولرسوله، والله ما نعلم له قاتلًا، ولكنا نؤدي دِيَتَه، فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعَيْن نحو المدينة، فأتى الشيطان مقيسًا، فوسوس إليه فقال: تَقْبَلُ دِية أخيك فتكون عليك مَسَبَّة، اقتل الذي معك، فتكون نفس مكان نفسٍ، وفَضْل الدية، فتغفَّل الفهري، فرماه

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

بصخرة فقتله، ثم ركب بعيرًا، وساق بقيتها راجعًا إلى مكة كافرًا؛ فنزل فيه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٣)، بكفره وارتداده، وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة ممن أمّنه، فقُتل وهو متعلق بأستار الكعبة.

وعلى هذا، فالآية مختصة بالقاتل المستحلّ للقتل الخارج عن الإسلام، الذي هو كمقيس بن صبابة، فإنه مخلَّد في النار. أما أي مؤمن يرتكب ذنبًا غير مستحلٍّ له، فإنه لا يُخلَّد في النار.

فهذه الآية الكريمة نزلت للتشديد والتخويف والتغليظ في الزجر عن قتل المؤمن، ولذلك نظير في قوله تبارك وتعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران)، على أن القول بأن معنى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومن لم يحج.

وما جاء عن ابن عباس من عدم قبول توبة قاتل المؤمن عمدًا، فقد أراد به التشديد، فقد جاء عنه أيضًا قبول توبته.

قال الخطيب: وما جاء عن ابن عباس أنه قال: "لا تُقبل توبة قاتل المؤمن عمدًا" أراد به التشديد، كما قاله البيضاوي؛ إذ روي عنه خلافه[1].

وقال القرطبي: وذهب جماعة من العلماء - منهم عبد الله بن عمر، وهو أيضًا مَرْوِي عن ابن عباس وزيد - إلى أن له توبة، فقد جاء عن يزيد بن هارون قال: أخبرنا أبو مالك الأشجعي عن سعد بن عبيدة قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: ألمن قتل مؤمنًا متعمدًا توبة؟ قال: لا، إلا النارُ قال: فلما ذهب قال له جلساؤه: أهكذا كُنْتَ تفتينا؟ كنتَ تُفْتينا أن لمن قتل توبة مقبولة، قال: إني لأحسبه رجلًا مغضبًا يريد أن يقتل مؤمنًا، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك.

كما جاء عن سفيان بن عُيَيْنَة أنه قال: إن لم يَقْتُل، يُقال له: لا توبة لك. وإن قتل ثم جاء يُقال: لك توبة، ويُروى قَتْلُه عن ابن عباس[2].

وهكذا يُبَشِّع الله لنا جريمة القتل العَمْد؛ لأن التَّعمُّد يعني أن القاتل قد عاش في فكره أن يُقْتل. وكان المفروض في الفترة التي يُرتب فيها للقتل أن يراجعه وازِعُه الديني، وهذا يعني أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير للجريمة، وما دام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله، فلو جاء الله في باله لتراجع، وما دام الإنسان قد غاب عن الله، فالله يُغيِّبه عن رحمته.

ثانيًا. جزاء القاتل عمدًا جهنم إن أصرَّ على الذنب حتى موته، أما إن تاب فإن الله غفور رحيم:

قال القرطبي: إن الجمع بين الآيتين ممكن، فلا نسخ ولا تعارض بينهما، وذلك أن يحمل مطلق الآية الأولى على مُقيَّد الآية الثانية، فيكون معناه: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما وقد اتَّحد المُوجِب وهو القتل، والمُوجَب وهو التَّوعد بالعقاب.

وأما الأخبار فكثيرة، كحديث عُبادة بن الصامت ﷺ الذي قال فيه: "تُبايعوني على ألا تشركوا

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الفرقان (٤٤٨٤)، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب التفسير (٧٧٣٠).

2. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٧: ٢٥٩.

بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفي منكم، فأجره على الله، ومن أصاب شيئًا من ذلك، فعُوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه فأمره إلى الله: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه"[1].

وكحديث أبي سعيد عن النبي ﷺ في الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عالمًا: هل لي من توبة؟ فقال له: ومن يَحُول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة[2]، ثم يقول ابن كثير: وإذا كان هذا في بني إسرائيل، فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأَوْلى والأَحْرى؛ لأن الله وضع عنَّا الآصار[3] والأغلال[4] التي كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة؛ ولأن الكفر أعظم من القتل، وتوبة الكافر مقبولة بدليل قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ (الأنفال: ٣٨)، وإذا كانت التوبة من الكفر مقبولة، فلأن تُقْبَل من القاتل أولى.

والمراد بالخلود في جهنم على هذا، والذي قبله المُكْث الطويل؛ إذ الخلود في حق الكفار بمعنى: الدوام الذي لا ينقطع، وبالنسبة للمؤمنين: المكث الطويل، فالله يعذِّب عُصاة المؤمنين في النار ثم يخرجهم منها برحمته وكرمه، فقد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحيحة، إخراج جميع الموحدين من النار، وهذا الوجه الأخير هو الأرجح[5].

الخلاصة:

- الآية الأولى نزلت في مُستحلِّ قتل المؤمن؛ لأن مستحلَّ ذلك كافر، وعلى هذا، فإن الآية مختصَّة بالقاتل المسْتَحِلِّ للقتل الخارج عن الإسلام، فإنه مخلَّد في النار، أما أي مؤمن يرتكب ذنبًا غير مستحلٍّ له، فإنه لا يخلَّد في النار.
- ثم إن الآية للتشديد والتخويف والتغليظ في الزجر عن قتل المؤمن، وهكذا يُبشِّع الله لنا جريمة القتل العمد؛ لأن القاتل قد غاب الله تبارك وتعالى عن باله مدة التحضير للجريمة، وما دام قد عاش ذلك، فهو قد غاب عن الله، فلو جاء الله تعالى في باله لتراجع، وما دام الإنسان قد غاب عن الله، فالله تعالى يُغيِّبه عن رحمته.
- إن جزاء القاتل عمدًا جهنم إن لم يتب وأصرَّ على الذنب حتى موته، وذلك أن يُحمل مطلق آية الفرقان على مقيد آية النساء، فيكون معناه: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، أما إن تاب عن ذنبه فإن الله ﷻ يقبل توبته.
- وعليه، فإن المراد بالخلود في جهنم على هذا هو: المكث الطويل؛ إذ الخلود حق الكفار، بمعنى: الدوام

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء (٦٧٨٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (٤٥٥٨).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٨٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٧١٨٥).

٣. الآصار: جمع الإصر، وهو الذنب أو العقوبة.

٤. الأغلال: جمع الغُلِّ، وهو طَوْق من حديد أو جلد يُجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما.

٥. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٩، ٢٦٠.

الذي لا ينقطع، وبالنسبة للمؤمنين: المكث الطويل.

الشبهة الرابعة والستون

توهُّم تناقض القرآن حول حالة الجبال يوم القيامة(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين أنَّ هناك تناقضًا بين آيات القرآن الكريم في وصفه حالة الجبال يوم القيامة؛ فتارة يذكر أنَّ الجبال تضطرب حتى تصير رملًا سائلًا في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ (المزمل)، وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (طه) وتارة يذكر أنَّ الجبال تكون كالصوف المنفوش وذلك في قوله: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ (القارعة)، وأخرى تكون هباءً منبثًّا، في قوله: ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ (الواقعة)، ورابعة تكون كالسحاب تسوقها الرياح في قوله ﷻ: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (النمل)، ويتساءلون: ألا يعد هذا التناقض دليلًا على بشريَّة القرآن؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن من التناقض.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

وجه إبطال الشبهة:

تتحدث كل آية من هذه الآيات عن حالة مختلفة من حالات الجبال يوم القيامة، وذلك كالآتي:

- حالة تفتُّت الجبال وصيرورتها رملًا سائلًا.
- حالة صيرورة الجبال كالصوف المنفوش.
- حالة كون الجبال هباءً منبثًّا.
- حالة صيرورتها كالسراب.

أما مرور الجبال مر السحاب، فهذا وصف لجبال الدنيا لا جبال الآخرة.

التفصيل:

الآيات التي تحدثت عن أحوال الجبال يوم القيامة كل منها تتحدث عن مرحلة أو حالة مختلفة للجبال:

فقد مرَّت الجبال يوم القيامة بالعديد من الحالات؛ وهي:

الحالة الأولى: تفتُّت الجبال وصيرورتها رملًا سائلًا.

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ (المزمل)، "ترجف" بمعنى: تتحرك وتضطرب بمن عليها وما عليها، والكثيب: الرمل المجتمع، والمهيل: السائل الذي يمر تحت الأرجل، وإذا أُخذ أسفله انهال، ففي يوم القيامة تضطرب الجبال فتصير رملًا سائلًا.

ويقول ﷻ أيضًا: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (طه)، فأول مرحلة تمر بها الجبال يوم القيامة، وأول حالة تكون عليها هي: مرحلة النسف؛ حيث ينسفها الله تبارك وتعالى نسفًا أي: يقلعها قلعًا من

أصولها، ثم يُصيِّرها رملًا سائلًا ويترك موضعها - بعد نسف ما كان عليها من الجبال - أرضًا ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء، ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع.

الحالة الثانية: صيرورتها كالعِهْن المنفوش.

بعد أن يقلع الله ﷻ الجبال قلعًا من أصولها ويصيرها رملًا سائلًا يسيل سيلًا، بعد ذلك يصيِّرها كالصوف المنفوش تطيِّرها الرياح هكذا وهكذا، ولا يكون العِهْن من الصوف إلا المصبوغ الملوَّن بالألوان المختلفة الذي نُفِشَ بالمِنْدَف[1].

الحالة الثالثة: عندما تكون هباءً منبثًّا.

يقول تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ ﴾ (الواقعة)، فبعد أن تُبسَّ[2] الجبال تصير هباءً منبثًّا، أي: غبارًا متفرقًا منتشرًا.

الحالة الرابعة: صيرورتها كالسراب.

قال تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (النبأ)، فبعد أن تُقلع الجبال عن مواضعها، وتسير عن أماكنها في الهواء فتكون هباء منبثًّا، فحينئذ يظنها الناظر سرابًا، فالجبال صارت لا شيء في آخر مرحلة من مراحلها يوم القيامة[3].

أما قوله ﷻ: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ (النمل: ٨٨) فهو وصف لجبال الدنيا لا جبال الآخرة، فإن الناظر لحال الجبال في الدنيا يراها أمام عينيه ثابتة لا تتحرك، في حين أنها تسير سير السحاب في السماء، ولكننا لا نشعر بهذه الحركة، وهذا من قبيل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فقد أثبت القرآن هذه الحقيقة العلمية قبل أن يعرفها العلماء في العصر الحديث بأكثر من ١٤٠٠ سنة فكيف يوصف كتاب يحتوي على مثل هذه الحقائق بأنه من وضع البشر؟!

الخلاصة:

الآيات التي تتحدث عن أحوال الجبال يوم القيامة كل منها تتحدث عن حالة مختلفة للجبال؛ وهي:

- حالة تفتُّت الجبال وصيرورتها رملًا سائلًا: فأول شئ يحدث للجبال يوم القيامة هو اقتلاعها من أماكنها، ثم جعلها كالرمل.
- صيرورة الجبال كالعهن المنفوش: فبعد أن يقلع الله ﷻ الجبال قلعًا من أصولها، ويصيرها رملًا سائلًا يسيل سيلًا، بعد ذلك يصيرها كالصوف المنفوش تُطيِّرُها الرياح هكذا وهكذا.
- جعلُ الجبال هباءً منبثًّا: فبعد أن تبسَّ الجبال تصير غبارًا متفرقًا منتشرًا.
- صيرورة الجبال سرابًا: فبعد أن تُقلع الجبال عن مواضعها، وتسير عن أماكنها في الهواء فتكون هباءً منبثًّا، فحينئذ يظنها الناظر سرابًا، فالجبال صارت لا شيء في آخر مرحلة من مراحلها يوم القيامة.
- أما مرور الجبال كالسحاب، فهذا وصف لجبال الدنيا لا جبال الآخرة، فإن الناظر إليها في الدنيا يظنها ثابتة لا تتحرك، في حين أنها تسير سير السحاب في السماء، وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن. وعليه، فلا تناقض بين هذه الآيات.



١. المِنْدف: خشب يُضرب بها القطن ليُرقَّق.
٢. البَسُّ: بمعنى التفتيت والتكسر الدقيق.
٣. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠: ٤٢ بتصرف.

الشبهة الخامسة والستون

توهُّم خطأ القرآن حين جعل القلب يؤدي وظيفة العقل (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن القلب مجرد "مضخَّة للدم" وليست له مهمة تعقُّليَّة، وأن العقل - بكل مزاياه، ومراكزه الحسية، والفكرية الموجودة في الدماغ هو الذي يقوم بوظيفة التعقُّل والتدبُّر والإدراك. ويتساءلون: كيف يقول القرآن بعد ذلك: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ (الحج: ٤٦)، فيجعل القلب محلًّا للعقل، ويستدلون بذلك على تناقض القرآن مع الواقع العملي والعلمي، الذي يثبت أن العقل محله الدماغ.

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم والسنة المطهرة يقرران أن القلب هو مستقر العقل.

٢) أثبت العلم الحديث أن القلب ليس مجرد مضخة للدم فقط، بل اكتشفوا فيه هرمونات عاقلةً تُرْسل إلى بقية أعضاء الجسم.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم والسنة المطهرة يقرران أن القلب هو مستقر العقل:

لقد قرر القرآن الكريم أن العقل في القلب، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج)، فجعل الله تعالى محل العقل في القلب، كما جعل محل السمع في الأذن، فلولا أن مستقر العقل في القلب، ما ذكر الأذن محلًّا للسمع وذكر عضوًا غيرها.

كما جعل القلب هو مناط التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وهذه هي صفات العقلاء أنهم يميزون بين ما يضر وما ينفع، وما هو حق وما هو باطل؛ لذا قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج)، وجاء في تفسير الإمام القرطبي: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ (الحج: ٤٦) "أضاف العقل إلى القلب لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن. وقد قيل: إن العقل محله الدماغ، وجاء عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة"[1].

وفي السُّنَّة: يقول النبي ﷺ: "الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطَّلع عليه الناس"[2].

وجاء أيضًا: "دع ما يَرِيْبُك إلى ما لا يريبك"[3].

وجاء أيضًا: "ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٢، ص٧٧.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم (٦٦٨٠).

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٨)، والنسائي في سننه، كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات (٥٧١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٧٧).

وهي القلب"[1].

وكان من دعائه ﷺ: "يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك"[2]. فزوال القلب فيه زوال العقل، وفي الحديث: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[3]. فلولا أن مناط التكليف محلُّه في القلب لما ركَّز الرسول ﷺ على الإشارة إليه والتعويل عليه، فسلامة القلب فيه سلامة العقل.

وفي الحديث أيضًا: " تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكْتَة[4] سوداء، وأي قلب أنكرها نُكِت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين على: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبادًّا[5] كالكُوز مُجَخِّيًا[6]، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر مُنْكَرًا إلا ما أُشْرِب من هواه"[7].

فإذا بلغ بالقلب هذا الحال ـ وهو عدم التمييز بين المعروف والمنكر ـ وهو معروف لدى عامَّة الناس أنه مَضَخَّة للدم فقط، ثبت أن به العقل الذي يميز بين المنكر والمعروف، والحق والباطل.

ثانيًا. العلم الحديث يشهد بأن العقل في القلب وليس في الدماغ:

وهذا ما يشهد به الأطباء المختصون بعمليات نقل القلب، ففي السِّتينيات من القرن الماضي اعتزل طبيبُ قلبٍ مشهور مهنةَ الطب بسبب هذا الموضوع، وكان اسمه "برنار".

وفي مناسبة نجاح عملية نَقْل قلب لطفل إنجليزي عمره أربعة عشر عامًا، قام بها الدكتور المصري مجدي يعقوب في لندن، إلا أن العملية دمَّرت خلايا المخ لدى الولد، فقام والده برفع دعوى ضد د. مجدي يعقوب يطالبه فيها بتعويض، بهذه المناسبة نشرت إحدى الصحف قصة د. برنار أول طبيب نقل قلبًا في الدنيا، وبعدما نُقِل القلب للمريض، أصبح القلب يعمل بطريقة ميكانيكية جيدة، لكن المريض أخذ يَهْذِي بكلام غير معهود منه، فأرجعوا السبب إلى تأثير المُخَدِّر، فلما انقضت مدة المخدِّر لم يُفِق المريض من الهذيان.

فقام نفس الطبيب برنار بعملية نقل قلب لمريض آخر، فأخذ هذا المريض يَهْذِي أيضًا بكلام غير معهود منه، فكالعادة أرجعوا السبب إلى المُخَدِّر؛ إلا أنه لم يُفِق من هذا الهذيان حتى بعد انتهاء مدة المخدر. هنا أرسل د. برنار مساعديه ليستقصوا عن صاحب القلب الأصلي، فوجدوا أن المريض الذي نُقِل إليه القلب الجديد يهذي بوقائع حقيقية لصاحب القلب الأصلي، مع أنه لا رباط بينهما في الواقع.

فحينئذ أُسْقِط في يد د. برنار، وأعلن في مؤتمر

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٤١٧٨).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٢١٢٨)، والترمذي في سننه، كتاب القدر، باب القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٧).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٦٧٠٨).

٤. النُّكْتة: النُّقطة والعلامة والأثر، وأصله من النكت في الأرض، وهو التأثير فيها بعصا أو بغيره.

٥. المُرْباد: المتغير سواده بكدرة.

٦. المُجَخِّي: المائل عن الاستقامة والاعتدال.

٧. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا (٣٨٦).

صحفي ـ بأسًى بالغ ـ اعتزال مهنة الطب؛ لأنه جنى على رجلين، ثم قال: "ما قيمة حياة الإنسان إذا كان يعيش في فَلَك إنسان آخر، يفكر بتفكيره، ويعيش في أحلامه، ويتخَلّى عن حياته"[1].

ولعل ما بثّته قناة الجزيرة القطرية في أحد برامجها عن الذين تم لهم عمليات نقل قلب، وما حدث لهم من تغير في الأحوال والأقوال والسلوكيات والتفكير، لعل هذا يعاضد ويؤيد علميًّا أن العقل مُستقرُّه في القلب، ولولا ذلك ما تغيرت سلوكيات هؤلاء.

وقال الشيخ الزنداني متعجبًا: هل مركز الإيمان والتعقُّل في الإنسان هو القلب؟ وإذا كان ذلك كذلك فكيف الحال في عمليات نقل القلوب والقلوب الصناعية؟ وهل القلب في القرآن والسنة هو هذا القلب؟

يقول: اليوم فقط فجرًا وجدتُ جوابًا جديدًا كنتُ أبحث عنه، فمنذ مدة ونحن نتتبع هذا، فأرسلنا واحدًا من إخواننا إلى مركز إجراء العمليات الصناعية إلى أمريكا، قال: لو تسمحون لي أن أقابل المرضى؟ قالوا: لا نسمح لك... لماذا؟ قال: أريد أن أقابلهم وأن أسألهم؛ فانزعجوا انزعاجًا شديدًا من طلبي وقالوا لي: أي معلومة تريدها نحن سنقدمها لك. قلنا: إن شاء الله ربنا سيكشف لنا وسيجعل من هذا إعجازًا علميًّا نتكلم عنه في الأعوام القادمة والأيام القادمة إن شاء الله.

وأخذنا نتتبَّع، فإذا بأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز قال لي: أما سمعت الخبر؟

قلت: وما هو؟ قال: نُشر في الجريدة منذ ثلاث سنوات ونصف أنهم اكتشفوا أن القلب ليس مَضَخَّة للدماء، بل هو مركز عقل وتعقُّل.

ومرَّت الأيام، وسمعنا عن مركز لتبديل القلوب بالأردن، فقلت: هذه بلاد عربية، لعلنا ـ إن شاء الله ـ يتيسر لنا معلومة، وأن نرى ذلك بأعيننا.

وقال أحد الإخوة المتتبعين لهذا الموضوع: هل سمعت المؤتمر الصحفي لأول شخص بدَّل قلبه؟ قلت: لا. قال: عقد مؤتمر صحفي، وقالوا: لو أنكم معنا في البيت تشاهدون سلوك هذا ما غَبَطْتموني على هذا.

قال الشيخ: اليوم اتَّصَلَ بي أحد الإخوة من الأطباء السعوديين يشتغل بعملية تغيير القلوب، ويريد أن يعدَّ بحثًا عن هذا الموضوع، فأخذتُ أسأله: أنا أريد أن تركز على التغييرات العقلية والنفسية التي تحدث، والقدرة على الاختيار، ماذا يحدث؟ قال: القلب الجديد لا تكون فيه أي عواطف ولا انفعالات، فقلت كيف هذا الكلام؟ قال: هذا القلب إذا قرَّبت إليه خطرًا، بدا وكأنه لا شيء يهدده، بينما الثاني يرعش، وإذا قرَّبت إليه شيئًا يحبه، بدا وكأنك لم تقدم إليه شيئًا، قلب بارد غير متفاعل مع سائر الجسد.

وها هم يقولون: اكتشفوا أن في القلب هرمونات عاقلة ترسل رسائل عاقلة إلى الجسم كله، وأن القلب مركز عقل وتعقل، وليس مجرد مضخة للدم[2].

---

١. محاضرة بعنوان "القلب ملك البدن"، الشيخ أبو إسحاق الحويني.

٢. الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، د. أحمد مصطفى متولي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٣٠٢، ٣٠٣ بتصرف.

الخلاصة:

- الوحي يقرِّر أن القلب محلُّ العقل ومستقرُّه لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ (الحج)، فجعل الله تعالى العقل الذي يميز بين الحق والباطل، وبين المعروف والمنكر، وبين الخير والشر، في القلب، كما جعل محل السمع في الأذن.
- وفي السنة آثارٌ تُدلِّل على أن القلب هو محلُّ التمييز والإدراك، وأن بصلاحه يصلح سائر البدن، وبفساده يفسد سائر البدن، ولا يكون ذلك إلا لمكانة القلب وما يحتويه من إشارات عاقلة تمد سائر الأعضاء بالقدرة على التصرُّف إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.
- ولقد ثبت علميًّا بعد عمليات نقل القلب لمرضى أنهم قد تغيَّرت سلوكياتهم وتفكيرهم وانفعالاتهم، وهذا دليل على أن مركز التفكُّر والتدبُّر، إنما هو في القلب، وليس في الرأس، وثبت علميًّا أيضًا أن في القلب هرمونات عاقلة ترسل رسائل عاقلة إلى الجسم كله، فالقلب ليس مجرد مضخَّة للدم فقط كما كان يعتقد الناس من قبل.

الشبهة السادسة والستون

توهُّم تناقض القرآن في حكم الجمع بين الأختين(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المغرضين أن هناك تناقضًا بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ (النساء: ٢٣) إلى أن يقول: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (النساء: ٢٣)، وبين قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) ﴾ (المؤمنون)، حيث دلَّت الآية الأولى على حرمة الجمع بين الأختين بالنكاح ومِلْك اليمين، ودلَّت الثانية على جواز الجمع بينهما بالوطء بملك اليمين.

ويتساءل هؤلاء: كيف يقع مثل هذا التناقض والاختلاف في القرآن الكريم الذي تَدَّعُون له العصمة من ذلك؟!

ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن من التناقض.

وجها إبطال الشبهة:

١) عموم آية: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ أرجح من عموم آية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وذلك من خمسة أوجه:

- عموم آية ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ (النساء: ٢٣) نص في محل المدرَك المقصود بالذات، أي أنها

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

واردة في سِياق ذِكْر من تحل من النساء ومن تحرم.

- آية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ليست باقية على عمومها بإجماع المسلمين.
- التعميم الوارد في مَعْرِض المدح أو الذم، اختلف العلماء في اعتبار عمومه.
- الأصل في الفروج التحريم حتى يدل دليل على الإباحة.
- العموم المقتضي للتحريم أولى من العموم المقتضي للإباحة.

٢) أجاز العلماء الجمع بين الأختين في مِلْك اليمين فقط دون الوَطْء.

التفصيل:

أولا. عموم الآية الأولى أرجح من عموم الآية الثانية:

لا بد أن يُخصَّص عموم إحدى الآيتين بعموم الأخرى، فيلزم الترجيح بين العمومين، والراجح منها يُقدَّم، ويُخصَّص به عموم الآخر؛ لوجوب العمل بالراجح إجماعًا، وعليه فعموم ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ أرجح من عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من خمسة أوجه:

الأول: أن عموم قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ نص في محل المدرك المقصود بالذات؛ لأن سورة النساء هي التي بيَّن الله فيها من تَحِل منهن ومن تَحْرُم، أما آية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ فإنها لم تُذْكَر من أجل تحريم النساء ولا تحليلهن، بل ذكر الله تبارك وتعالى صفات المتَّقين فذكر من جملتها حِفْظ الفرج، فاستطرد أنه لا يلزم حفظه عن الزوجة والسُّرِّية[1]، وقد تقرر في الأصول أن أخذ الأحكام من مظانِّها أولى من أخذها من غير مظانِّها.

الثاني: أن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ليست باقية على عمومها بإجماع المسلمين؛ لأن الأخت من الرضاع لا تحِلُّ بملك اليمين إجماعًا للإجماع على أن عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يخصصه عموم: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ (النساء: ٢٣)، وموطوءة الأب لا تحل بملك اليمين إجماعًا للإجماع على أن عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يخصِّصه عموم ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء:٢٢).

والأصحُّ عند الأصوليين في تعارض العام الذي دخله التخصيص مع العام الذي لم يدخله التخصيص هو: تقديم الذي لم يدخله التخصيص ووجهه ظاهر.

الثالث: أن عموم آية ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ غير وارد في مَعْرِض مدح ولا ذم، وعموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وارد في مَعْرِض مدح المتقين، والعام الوارد في معرض المدح أو الذم اختلف العلماء في اعتبار عمومه، فأكثر العلماء على أن عمومه معتبر كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤)﴾ (الانفطار) فإنه يَعُمُّ كل بَرٍّ مع أنه للمدح،

١. السُّرِّية: الأَمَة المملوكة يتخذها سيدها للجماع، وهي في الأصل منسوبة إلى السرِّ بمعنى الجماع، غير أنهم ضمُّوا السين تجنبًا للَّبس، وفرّقوا بينها وبين السِّرِّية، وهي الحُرَّة التي يتزوجها الرجل سِرًّا، وقيل: هي من السِّرِّ بمعنى الإخفاء، لأن الرجال كثيرًا ما يتخذون السراري سرًّا ويخفونهن عن زوجاتهم الحرائر، وقيل: هي من السُّر بالضم بمعنى السرور.

وكل فاجر مع أنه للذم، وخالف في ذلك بعض العلماء منهم الإمام الشافعي - رحمه الله - قائلًا: "إن العام الوارد في معرض المدح أو الذم لا عموم له؛ لأن المقصود منه الحث في المدح والزجر في الذم".

ولذا لم يأخذ الإمام الشافعي بعموم قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ (التوبة) في الحُلِيِّ المباح؛ لأن الآية سِيقَت للذمِّ، فلا تُعَمَّم عنده في الحُلي المباح، فإذا حققت ذلك فاعلم أن العام الذي لم يقترن بما يمنع اعتبار عمومه أَوْلى من المقترن بما يمنع اعتبار عمومه عند بعض العلماء.

الرابع: أننا لو سلمنا بالمعارضة بين الآيتين، فالأصل في الفروج التحريم حتى يدل دليل لا مُعارِض له على الإباحة.

الخامس: أن العموم المقتضي للتحريم أولى من المقتضي للإباحة؛ لأن ترك مباح أهون من ارتكاب حرام"[1].

ثانيًا. يجوز الجمع بين الأختين في مِلْك اليمين دون الوَطْء:

إن الجمع بين الأختين في مِلْك اليمين فقط يجوز بإجماع كافَّة أهل العلم، قال القرطبي: واختلفوا في الأختين بمِلْك اليمين، فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما بالملك في الوَطْء، وإن كان يجوز الجمع بينهما في الملك بإجماع، وكذلك المرأة وابنتها صفقة واحدة، واختلفوا في عقد النكاح على أخت الجارية التي وَطِئَها، فقال الأوزاعي: إذا وطِئَ جارية له بملك اليمين لم يَجُزْ له أن يتزوج أختها، وقال الشافعي: مِلْكُ اليمين لا يمنع نكاح الأخت، قال أبو عمر: من جعل عقدة النكاح كالشراء أجازه، ومن جعله كالوطء لم يُجِزْه[2].

الخلاصة:

- لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (النساء: ٢٣)، وبين قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ (المؤمنون)، فقد ردَّ العلماء على هذا بأكثر من وجه؛ منها أن:
  - عموم الآية ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ أرجح من عموم آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾؛ لأنها فرائض في محل المدَرك المقصود بالذات؛ لأن سورة النساء هي التي تختصُّ بحكم من تَحِلُّ من النساء ومن تحرم، أما آية ﴿أَوْمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ فإنها لم تُذْكر من أجل تحريم النساء ولا تحليلهن.
  - آية ﴿أَوْمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ليست باقية على عمومها بإجماع المسلمين؛ لأن الأصح عند الأصوليين هو تقديم العام الذي لم يدخله التخصيص على العام الذي دخله التخصيص.
  - العام الوارد في معرض المدح أو الذم اختلف

---

١. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي، مرجع سابق، ص٦٢، ٦٤. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٠، ٢٥١ بتصرف.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٥، ص١١٦.

العلماء في اعتبار عمومه، فمنهم من اعتبره ومنهم من لم يعتبره، وعلى الرأي الثاني يكون قوله ﷻ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ وارد في مَعْرِض مدح المتقين فقط لمجرد الحث على هذا الفعل.

- الأصل في الفروج التحريم مالم يثبت نص يدل على الإباحة.
- العموم المقتضي التحريم أولى من العموم المقتضي الإباحة.
- أباح كافة أهل العلم الجمع بين الأختين في ملك اليمين، وحرَّموا الجمع بينهما في الوطء.

الشبهة السابعة والستون

توهُّم تناقض القرآن في معاملة الوالدَيْن الكافِرَيْن(*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين وجود تناقض في القرآن الكريم في تحديده كيفية معاملة المسلم لوالديه الكافِرَيْن، فمرَّة يأمر بمصاحبتهما بالمعروف في قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥)، ومرة أخرى ينهى عن مُوادَّتهم في قوله تبارك و تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢).

ويتساءلون: كيف يأمر القرآن بشيء، ثم ينهى عنه؟! ألا يعدُّ ذلك تناقضًا صريحًا في القرآن؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن من التناقض.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن المصاحبة بالمعروف أعمُّ من الموادة، فالنهي عن الخاص - الموادة - لا يتناقض مع الأمر بالعام - المصاحبة بالمعروف -.

٢) مصاحبة الوالدين بالمعروف والإحسان إليهما من أفعال الجوارح، بينما الموادة من أفعال القلوب، فالمنهي عنه والمُحذَّر منه هو المحبة القلبية التي تستوجب الرضا عن عقيدة الكفر، وهذا غير وارد في المصاحبة بالإحسان.

التفصيل:

أولا. المصاحبة بالمعروف أعمُّ من المودة، والنهي عن الخاص - الموادة - لا يتناقض مع الأمر بالعام - المصاحبة بالمعروف -:

لقد أمر الله بمصاحبة الوالدَيْن إن كانا كافِرَيْن بالمعروف والإحسان إليهما في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥)، وينبغي ألا يُفْهَم من هذا الأمر أنه يتناقض مع قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢)[1].

فالحقيقة أنه لا اختلاف بين هاتين الآيتين إذا عددنا أن المصاحبة بالمعروف غير الموادَّة، فالمصاحبة بالمعروف أعمُّ من الموادَّة؛ لأن الإنسان يمكنه إسداء المعروف لمن

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. المرجع السابق، ص١٦٢.

يودُّه، ومن لا يودُّه، والنهي عن الأخصِّ لا يستلزم النهي عن الأعمِّ[1].

فالمؤمن مطالبٌ أن يصاحب والديه الكافرين بالمعروف من غير موادة، أو محبة، وأما والداه المؤمنان فيصاحبهما بالمعروف ويوادهما أيضًا.

فقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥) دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلا فالقول والدعاء إلى الإسلام برفق[2].

ثانيًا. مصاحبة الوالدَيْن بالمعروف والإحسان إليهما من أفعال الجوارح بينما المودة من أفعال القلوب:

لقد أمر الله الإنسان ألا يفعل لوالديه إلا المعروف والإحسان إليهما، وفعل المعروف والإحسان لا يستلزمان الموادة؛ لأن الموادة من أفعال القلوب، بينما المصاحبة بالمعروف والإحسان من أفعال الجوارح، فكأن الله تعالى حذَّر من محبة وموالاة الكفار جميعًا، ويدخل في ذلك الآباء وغيرهم[3].

ومما يؤكد ذلك ما جاء عن أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - أنها قالت للنبي ﷺ - وقد قَدِمَت عليها أمها من الرضاعة -: يا رسول الله، إن أمي قَدِمَت عليّ وهي راغبة - أي: راغبة عن الإسلام - أَفَأَصِلُها؟ قال: "نعم"[4][5]. فالصِّلة هنا لا تعني المودة القلبية، ولكن الإحسان والمصاحبة بالمعروف بالجوارح الظاهرية فحسب، ومن ثَمَّ فلا تعارض بين الآيتين.

الخلاصة:

- المصاحبة بالمعروف غير الموادة، فالمصاحبة بالمعروف أعمُّ من الموادة؛ لأن الإنسان يمكنه إسداء المعروف لمن يوده ومن لا يوده، والنهي عن الأخص لا يستلزم النهي عن الأعم.
- إن مصاحبة الوالدين - وإن كانا كافرَيْن - بالمعروف والإحسان إليهما لا تستلزم الموادة؛ لأن الموادة من أفعال القلوب، بينما المصاحبة بالمعروف والإحسان من أفعال الجوارح، ومن ثم لا تعارض بين آيات القرآن الكريم.

الشبهة الثامنة والستون

توهُّم تناقض القرآن في مسألة نُصْرَة الرسل (*)

مضمون الشبهة:

يتوهَّم بعض المشككين وجود تناقض بين قوله

١. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، مرجع سابق، ص١٨٤.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٤، ص٦٥.

٣. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، مرجع سابق، ص١٨٤. البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٦٢، ١٦٣.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠١٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد (٢٣٧١).

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٤، ص٦٥.

(*) البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾ (البقرة)، وبين قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ (الصافات)؛ حيث إنَّ الموضع الأول يفيد أنَّ بعض رسل بني إسرائيل قد قُتلوا، وأنَّ أعداءهم تمكَّنوا منهم وانتصروا عليهم، بينما الموضع الثاني يفيد أنَّ رسل الله تعالى منصورون في الدنيا والآخرة. ويتساءلون: ألا يُعَدُّ هذا التناقض دليلًا على عدم مصداقيته؟!

وجه إبطال الشبهة:

لا تعارض بين الآيات كما يدعي هؤلاء، ويمكن التوفيق بين الآيات بأحد الوجوه التالية:

١) أن الرسل قسمان: قسم أُمِرَ بالجهاد، فهؤلاء نَصَرَهم الله بالظَّفر على الأعداء، وقسم لم يُؤمر بالجهاد وأُمر بالصبر، وهؤلاء نصروا بالحجة الظاهرة.

٢) أن الحكم بنصر الرسل هو الأغلب، فلا مانع من أن يكون فيهم من لا ينصر على عدوه.

٣) أن جميع الرسل منصورون، بعضهم يكون بالظَّفر على العدو، وبعضهم يكون بالانتقام لهم من أعدائهم الذين آذوهم أو قتلوهم.

التفصيل:

يمكن التوفيق بين الآيات بواحد من ثلاثة:

الأول: أن الرسل قسمان: قسم أُمِر بجهاد أعدائهم، فهؤلاء نَصْرُهم وغَلَبَتهم عليهم يكون بالظَّفر على الأعداء وقهرهم، وقسم لم يُؤمر بقتال أعدائهم، بل أُمر بالصبر على أذاهم والكف عنهم، وهؤلاء نَصْرهم وغَلَبَتهم في الدنيا يكون بالحجة الظاهرة والبرهان الساطع الذي يدحض باطل الكافرين، ومن هؤلاء من قُتِلَ؛ وذلك ليعظم أجرهم وتزداد مكانتهم رِفْعة عند ربهم.

قال الزَّجّاج: معنى غلبة الرسل على نوعين: من بُعث منهم بالحرب، فهو الغالب في الحرب، ومن بُعث بغير الحرب، فهو غالب في الحجة.

الثاني: أن الحكم بنصر الرسل وغلبتهم على أعدائهم إنما هو للأكثر والمعظم، فلا مانع أن يكون فيهم من لا يُنصر على عدوِّه، بل يُصيبه الأذى أو يُقتل؛ وذلك ابتلاء لهم يَعْظُم به أجرهم، وترتفع به درجتهم عند ربهم.

الثالث: أن جميع الرسل منصورون كما نطقت بذلك الآيات القرآنية، فبعضهم يكون بالظَّفَر على العدو، وبعضهم يكون نَصْره بالانتقام ممن آذوهم، أو حاولوا قتلهم، أو قتلوهم بالفعل، ولو كان ذلك بعد موتهم.

وقد أورد ابن جرير سؤالًا عند تفسيره قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(غافر:٥١) قال: قد عُلِم أن بعض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قَتَلَه قومه بالكلية؛ كيحيى وزكريا وشعيب، ومنهم من خرج من بين أَظْهُرِهم، إما مهاجرًا كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟!

ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عامًّا والمراد به البعض. وهذا سائغ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر: الانتصار لهم

ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحَضْرَتهم، أو في غيبتهم، أو بعد موتهم، كما فُعِل بقتلة يحيى وزكريا وشعيب، فقد سلَّط الله عليهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر.

وأما الذين راموا صَلْب المسيح عليه السلام من اليهود، فسلَّط الله تعالى عليهم الروم فأذلُّوهم وأهانوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم، وقبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه السلام إمامًا عادلًا وحَكَمًا مقسطًا، فيقتل المسيحَ الدَّجَّال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجِزْية، فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصرة عظيمة، وهذه سُنَّة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين ويُقِرُّ أعينهم ممن آذاهم.

قال السُّدِّي: لم يبعث الله تعالى رسولًا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون، فيذهب بذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا.

قال: فكان الأنبياء والمؤمنون يُقْتلون في الدنيا وهم منصورون فيها.

وهكذا نصر الله نبيه ﷺ وأصحابه على من خالفه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان... ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (غافر: ٥١)، أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجلَّ[1].

١. المرجع السابق، ص١٩٦: ١٩٨.

الخلاصة:

لا تعارض بين الآيات التي استدل بها هؤلاء المتوهمون على زعمهم، ويمكن التوفيق بينها بواحد من هذه الوجوه:

- الرسل قسمان: قسم أُمروا بجهاد أعدائهم، فهؤلاء نصرهم الله، وقسم لم يُؤمروا بقتال أعدائهم، بل أمروا بالصبر على أذاهم، وهؤلاء يكون نصرهم في الدنيا بالحجة الظاهرة التي تدحض الكافرين.
- أن الحكم بنصر الرسل هو الأغلب، فلا مانع أن يكون فيهم من لا ينصر على عدوه؛ وذلك ابتلاءً لهم يَعْظُم به أجرهم.
- أن جميع الرسل منصورون كما نطقت بذلك الآيات القرآنية، وبعضهم يكون بالظفر على العدو، وبعضهم يكون نصره بالانتقام ممن آذوهم، أو حاولوا قتلهم، أو قتلوهم بالفعل.

الشبهة التاسعة والستون

الطعن في أسلوب القرآن الكريم(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن العجز عن مجاراة أسلوب القرآن الكريم - مجرد تقليده أو الإتيان بمثله - ليس مرجعه إلى خصوصية الأسلوب القرآني، بل إلى اختلاف العقول والطرق التعبيرية، ويستدلون على

(*) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٤، ١٩٧٧م.

ذلك بأن أي قائل أو كاتب إنما يضع في بيانه قطعة من عقله ووجدانه على الصورة التي تهديه فطرته وموهبته إليها، ويختلف أسلوبهم لاختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم أيضًا. ويتساءلون: كيف تعدُّون عجزهم عن الإتيان بمثله آية على قُدسيَّة القرآن وتَميُّز أسلوبه؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في خصوصية أسلوب القرآن الكريم.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، وقد امتاز الأسلوب القرآني بخصائص عديدة كجمال التعبير، ودقة التصوير، وقوة التأثير، والبراعة في تصريف القول حسب مقتضى الحال.

٢) اختلاف الأسلوب بين ما نزل من القرآن بمكة، وبين ما نزل منه بالمدينة، يدفع توهُّم وحدة الأسلوب القرآني وثباته على سَنَن معيَّن يختلف عن كلام العرب وأساليبها.

التفصيل:

أولا. خصائص الأسلوب القرآني:

لقد اتفق العلماء على أن الأسلوب هو: الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو: المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو: طابع الكلام، أو هو: فن الكلام الذي انفرد به المتكلم.

وعلى هذا، فأسلوب القرآن الكريم هو: طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به.

ونودُّ أن نلفت النظر إلى أن "الأسلوب" شيء، و"المفردات والتراكيب" التي يتألف منها الكلام شيء آخر، فالأسلوب هو: الطريقة التي ينتهجها المؤلف في اختيار مفرداته وتراكيبه. وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين، مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صَوْغ المفردات وتكوين الجمل واحدة، وذلك ـ أيضًا ـ هو السر في أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية، من حيث: المفردات والجمل وقوانينها العامة، ومع ذلك، فقد أعجزهم بأسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامي المعجِز عن أن يأتوا بمثله[١].

ثانيًا. للأسلوب القرآني خصائص عديدة امتاز بها:

إن لكل مقام مقالًا، ومراعاة مقتضى الحال من أخصِّ معاني البلاغة، وخصائص الأسلوب القرآني ـ مكي ومدني ـ تعطي الدارس منهجًا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم، وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحًا جليًّا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب[٢].

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط١، ١٤١٧/ ١٩٩٦م، ج٢، ص٢٤١.

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٤٦، ٤٧ بتصرف.

وقد أفاض د. محمد بكر إسماعيل في بيان خصائص الأسلوب القرآني البليغ، وكان مما ذكره من هذه الخصائص ما يلي:

الخاصية الأولى: جمال التعبير.

اصطفى الله من ألفاظ اللغة العربية أفصحها وأيسرها على اللسان، وأسهلها على الأفهام، وأمتعها للآذان، وأقواها تأثيرًا على القلوب، وأوفاها تأدية للمعاني، ثم ركَّبها تركيبًا مُحكَم البنيان، لا يدانيه في نسجه كلام البشر من قريب ولا من بعيد؛ وذلك لما يكمن في ألفاظه من الإيحاءات التي تَعْبُر إلى خَلَجات النفس[1]، وتقتحم شغاف القلوب، وما يكون في تركيبه من أُلْفة عجيبة، وانسجام وثيق بين هذه الألفاظ مهما تقاربت مخارج حروفها أو تباعدت، فقد جاء رصف المعاني وفق رصف المباني، فالتقى البحران على أمر قد قُدِر، فاستساغته جميع القبائل على اختلاف لهجاتها قراءة وسماعًا. وإن نظام القرآن الصوتي في ائتلاف حركاته وسكناته، ومدَّاته وغُنَّاته، واتصالاته وسكناته، أمر يبهر العقول ويسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس بصورة تختلف كل الاختلاف عما يجده المتذوِّق لكلام الناس من نسق وانسجام، فإنه مهما كان كلام البشر سهلًا عذبًا، فإنه لا يخلو من قصور في المعنى أو ثقل في النطق أو خلل في الترتيب.

وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية، وكان بعيدًا لا يسمع إلا صدى الصوت من غير تمييز للحروف والكلمات، يشعر من نفسه ولو كان أعجميًّا لا يعرف العربية ـ بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب، يفوق في حُسنه وجماله كل ما عُرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر؛ لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها، فلا يفتأ الطبع أن يمحوها والسمع أن يملها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبًا وإن طالت على نمط يورث سامعه المَلَل، بينما سامع لحن القرآن لا يملُّ؛ لأنه ينتقل فيه دائمًا بين ألحان متنوعة وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب وأعصاب الأفئدة.

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي هو أول شيء أحسَّته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلًا أم مسجوعًا، حتى خُيِّل إلى العرب أن القرآن شعر؛ لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هِزَّة، لم يعرفوا شيئًا قريبًا منها إلا في الشعر، ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا، حتى قال قائلهم ـ وهو الوليد بن المغيرة ـ: "وما هو بالشعر"، معلِّلًا ذلك بأنه ليس على أعاريض الشعر في رَجَزه ولا في قصيده.

بَيْدَ أنه تورَّط في خطأ أفحش من هذا الخطأ، حين زعم في ظلام العناد والحَيْرة أنه سحر؛ لأنه أخذ من النثر جلاله وروعته، ومن النظم جماله ومتعته، ووقف منهما في نقطة وسط، خارقة لحدود العادة البشرية، بين إطلاق النثر وإرساله، وتقييد الشعر وأوزانه.

ولو أنصف هؤلاء لعلموا أنه كلام منثور، لكنه معجز ليس كمثله كلام؛ لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثله شيء، وما هو بالشعر ولا بالسحر؛ لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه، وقانونه ورسمه،

1. خلجات النفس: بواطنها.

والقرآن ليس منه، ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة، ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموّها ونبلها؛ إذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسلوكه، وقد نشأ فيهم وشبَّ بينهم.

هذا إلى جانب أن القرآن الكريم كله ما هو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة، لا محل فيها إلى خبث ورجس، بل قد نهى عن تجارب السحر وخبثه ورجسه، وسماه كفرًا؛ إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: ١٠٢).

وبهذا البيان اتضح أن: اللفظ الذي انتقاه الله من أفصح لغات العرب يمتاز عن غيره من الألفاظ السائدة في كلامهم بثلاث سمات رئيسة مجتمعة:

١. جمال وقعه في السمع.
٢. انسجامه الكامل مع المعنى.
٣. اتساع دلالته لما لا تتسع له عادة دلالات الألفاظ الأخرى.

الخاصية الثانية: دقة التصوير.

ومع جمال التعبير تكون دقة التصوير، وهي نوع آخر من أنواع الجمال الفني المعجز الذي تتيه فيه عقول البلغاء في كل زمان ومكان.

فالقرآن الكريم يبرز المعاني المعقولة في صور محسَّة منتزعة من الواقع المشاهد، مؤتلفة ائتلافًا عجيبًا في قوالب كلية متحركة، تشعر فيها بالأصوات والألوان والحركات، مما يجعلك تعيش مع الواقع الذي تصوره لك هذه التشبيهات والاستعارات والكنايات المسبوكة سبكًا فريدًا يأخذ بمجامع القلوب، ويملك على الإنسان حسه ومشاعره، فلا يحتاج إلى مزيد تصوير للحقائق التي يذكرها القرآن في ثنايا هذه اللوحات البارعة البديعة في عناصرها، وائتلافها وانسجامها مع معانيها ومراميها.

ومن سمات الصور القرآنية: أنها تصور الغائب حتى يصبح حاضرًا، وتقرِّب البعيد النائي حتى يصير قريبًا دانيًا. ومن سماتها: التلوين في التشبيهات؛ فكثيرًا ما يكون المشبَّه واحدًا، والمشبَّه به شيئين فأكثر؛ تثبيتًا للمعاني المرادة، وتعميقًا لآثارها في النفس.

ومن ذلك ما شبَّه الله به حال المنافقين في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (البقرة).

والتشبيه الأول ناري، والثاني مائي، والمشبَّه فيهما المنافقون، والمشبَّه به أمور كثيرة مؤتلفة لا ينفك بعضها عن بعض، والصور فيهما كلية متزاحمة في نسق فريد؛ لإبراز أحوال هؤلاء المنافقين إبرازًا لا تخفى معه حقيقة من حقائقهم، ولا خفية من خفاياهم، فقد أخرجت لنا ما كان يدور في خلجات نفوسهم من شر أرادوا به المسلمين، وما كانت تنطوي عليه ضمائرهم من خبث ومكر ودهاء، وكشفت لنا بجلاء عن عاقبة أمرهم في

الدنيا والآخرة.

فهم في ادعائهم الإيمان كمن أوقد لنفسه نارًا لينتفع بها، وفي إخفائهم الكفر يكون مثلهم كمثل من لم ينتفع بالنار التي أوقدها أو أُوقِدَت له، فالمنافقون قد أظهروا الإيمان حماية لأنفسهم وأموالهم، ولتكون لهم مثل ما للمؤمنين من الحقوق العامة في الغنيمة والزكاة وغيرها.. لكنهم بكفرهم الذي أخفوه فأظهره الله في محكم آياته فقدوا الانتفاع والتمتع بهذه الحقوق الدنيوية، وفقدوا أيضًا ثواب الآخرة، وحُرموا نور الله الذي أوقدته في قلوبهم فطرة الله التي فطرهم عليها، وأوقده لهم نبيهم بما كان يتلوه عليهم من قرآن.

وهم في تخوُّفهم من أن يُفْتضح أمرهم، واحتيالهم في إخفاء كفرهم، وإفسادهم في الأرض، ومداهنتهم المؤمنين تارة، وطاعتهم لشياطينهم من الجن والإنس تارة أخرى، كمثل أهل الصيِّب ـ المطر ـ الذين يكونون في أَمَسِّ الحاجة إليه، فينزل عليهم مصحوبًا برعد وبرق وظلمات بعضها فوق بعض، فهم يطمعون في الغيث ـ المطر ـ ولكنهم يخشون ما يصحبه من رعد وبرق وظلمة، فيحاولون أن يتجاهلوه بوضع أناملهم في آذانهم توقيًا من الموت فزعًا وهلعًا، ولكن دون جدوى، فالله محيط بهم وبأمثالهم.

ومثلهم في تردُّدهم في شأن الإيمان، وحيرتهم بين إرضاء إخوانهم من اليهود والمشركين؛ لنيل ما في أيدي كليهما من المنافع العاجلة، مثلهم في ذلك كمثل من يمشي في ظلمة حالكة، لا يبصر تحت قدميه شيئًا، فيبرق البرق فيمشي على ضوئه هُنَيْهَة[1]، فإذا ذهب البرق ـ وسرعان ما يذهب ـ وقف كما هو لا يُقدِّم رِجلًا ولا يؤخر أخرى، فقد بلغ به الأمر أقصى درجات الخطر، فأفقده القدرة على مجرد التفكير في الذهاب أو الإياب.

وفي هذين المثالين وجوه من التشبيه لا تكاد تنحصر، فهي تختلف بحسب حال الممثل له في جميع مواطنه وشتى عصوره، بحيث لو أجرى كل مَثَل من هذين المثالين على قوم من المنافقين في أي عصر وأي مكان لطابق المشبَّه المشبَّه به، وطابق الاسم المسمَّى.

ومن عجيب أمر الأمثال في القرآن الكريم: أنها تخلو من المبالغات التي تخرج الكلام عن المعاني المرادة إلى جو من الخيال المُفْرِط، الذي يؤدي إلى تشتت الأذهان وذهاب الحقائق وخُلُو الأسلوب عن الإقناع العقلي، وإن صحبه شيء من الإمتاع العاطفي.

لهذا كانت تشبيهات القرآن وأمثاله صورًا حيَّة تعبِّر عن الواقع، لا تعدوه إلى غيره، ومع ذلك تجدها لا تخلو من الإمتاع العاطفي، والتأثير الوجداني بما اشتملت عليه من ألوان المعاني والبيان والبديع، الذي يخلو تمامًا من التكلُّف والاعتساف مع رقة في النظم والحواشي والفواصل، كانت ـ ولا تزال ـ زادًا للبلغاء والأدباء، ومتعة عظيمة لكل ذوَّاقة لفنون الكلام البليغ في أسمى صوره، وأبهى معانيه.

وإذا كان للأمثال القرآنية هذا الجمال الفني الرائع، كان للكنايات القرآنية لون آخر من هذا الجمال المتجدد على مر العصور، فإنها تأتي بالمعنى مصحوبًا بدليلها المقنع، ويتلاشى في طيَّاتها ما يُستقبح ذكره من الأقوال، وتقوم بما يقوم به التشبيه والاستعارة ـ وهو لون من التشبيه كما هو معروف ـ بإبراز المعاني والأهداف في

1. هُنَيْهة: الوقت القليل.

صور مُحَسَّة مفردة أو مركبة، موجبة أو سالبة، فيها تأديب وتهذيب، وترغيب وترهيب، وتنويه وتعريض، وتلميح وتمثيل، وغير ذلك من المقاصد والغايات، يجد فيها السامع من الإقناع العقلي، والإمتاع العاطفي ما لم يجده في غيرها من الكنايات المنتشرة في كلام الناس، هذا مع الإيجاز البليغ، والتعبير الأخَّاذ.

والكنايات في الأسلوب القرآني مُنتزعة من الواقع المشاهَد، وأكثرها أمثال مرسَلة مسلَّمة المقدمات والنتائج عند جميع العقلاء في كل زمان ومكان، مناسبة لجميع الظروف والملابسات الزمنية والإنسانية، لا تُبلى جِدَّتها، ولا تُبدَّل بغيرها، ولا يُغني غناءها سواها.

ومن كنايات القرآن الكريم قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (المائدة)، فالمقصود من قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥): هو ما يلزم عنه من إخراج الفضلات، وهو أمر يَمجُّ [١] الطبع السليم ذِكره، وتستهجن الآذان سماعه، فعدل عنه إلى ملزومه، وهو أكل الطعام.

والكناية هي: لفظ له معنيان، أحدهما قريب غير مراد، والآخر بعيد هو المراد، لعلاقة المشابهة بين المعنيين، فأكل الطعام يُحتاج إليه لإقامة البنية، ويُحتاج أيضًا إلى إخراج فضلاته، فاكتفى سبحانه بذكر الملزوم، وأراد اللازم، أو أرادهما معًا، فاكتفى بأكل الطعام عما يلزم عنه؛ لأنه دال عليه بالضرورة.

الخاصية الثالثة: قوة التأثير.

للأسلوب القرآني قوة في التاثير، وتنشأ هذه القوة من جمال التعبير ودقة التصوير، فيؤثر في العقول والقلوب معًا.

فالقرآن الكريم يخاطب بأسلوبه المتفرد، العقل والعاطفة معًا، ولا يخاطب العقل وحده؛ لأنه ليس كتاب فلسفة يقف عند حدود سرد المقدمات، ولا يخاطب القلب وحده؛ لأنه ليس كتاب أدب يَعْذُبُ فيه الكذب، ويَروق فيه الخيال المُفرِط، وإنما هو كتاب هداية، ومنهج حياة، يهدي الناس إلى ما فيه صلاح أمرهم في الدنيا والآخرة، ويقودهم إلى ساحات الخير والفضل الإلهي، فيدعوهم إلى الإيمان بخالقهم ﷻ في سلاسة أسلوب، وعذوبة منطق، وقوة حجة لا تدع لهم مجالًا للشك والارتياب.

والإيمان بالله يتطلب استجابة العقل والقلب معًا، فالعقل والقلب من الإيمان كجناحي طائر، لا يطير بأحدهما دون الآخر.

يُضاف إلى ذلك: أنه يُرضي بأسلوبه العامة والخاصة، وهو ما يُسمَّى عند الأدباء بـ "السهل الممتنع"، وأنه ذو أسلوب معجز، له جلال يقتحم القلوب في أعماقها من غير حاجز، ومعنى هذا: أنه إذا تُليت آياته على العامة والخاصة، وجدوا - جميعًا - في سماعه حلاوة تتذوقها القلوب قبل أن تصل إلى الأسماع.

والعامة والخاصة من الناس ليسوا سواء في تذوق حلاوة القرآن الكريم، بل إن الخاصة متفاوتون أيضًا في التذوق بحسب استعدادهم الوهبي والكسبي،

١. يَمُجُّ: يرفض.

وبحسب تفاوتهم في درجات الإيمان والإخلاص والصفاء الروحي والذهني.

الخاصية الرابعة: براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام.

ومعنى هذا: أنه يُورِد المعنى الواحد بألفاظ مختلفة، وطرق متعددة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء، فهو ينتقل بك بين الأساليب الإنشائية والخبرية في المعنى المراد إبرازه، ويسلك مسالك شتى في التعبير والتصوير والترغيب والترهيب، من غير أن تشعر بفجوة بين أسلوب وأسلوب، أو تنافر بين كلمة وأخرى، ومن غير أن تشعر بتغيير يُذكر في الجو العام للنص القرآني. وهذا ضرب فريد من الإعجاز البياني، وإليك بعض الأمثلة لأسلوبين فقط ـ من أساليبه المتنوعة ـ وهما: أسلوبا الأمر والنهي، ومن خلالهما تستطيع أن تنطلق باحثًا بين دفتي المصحف عن غيرهما من الأساليب.

١. فخذ أولًا تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين، فإنه قد ورد بأساليب مختلفة، كل أسلوب منها في موقعه سديد:

فقد يَرِدُ الأمر صريحًا بمادته المستعملة فيه، وهو لفظ "افعل"، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأعراف).

وقد يَرِدُ بلفظ فيه حروف الأمر نفسها، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النساء: ٥٨)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠)

وأحيانًا يدل على الأمر بصيغة "كُتِبَ"، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ (البقرة: ١٧٨). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وقد يُعبَّر عنه بكونه على الناس، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران).

وقد يُعبَّر عن الأمر بالإخبار عن المكلَّف بالفعل المطلوب منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، أي: مطلوب منهن أن يتربصن، وقد جاء هذا الأمر بصيغة الخبر مبالغة في طلب الحرص على فعله حتى لكأنه واقع منهن بمقتضى حيائهن الذي فُطِرْنَ عليه، فإن المطلَّقة من شأنها أن تستحي من تعريض نفسها للأزواج بعد الطلاق، حتى تظل مدة كافية تتأكد فيها من براءة رحمها، وتكون لزوجها فرصة في مراجعتها إن كان قد طلَّقها طلقة رجعية.

وقد يعبر عن الأمر بالإخبار عن الفعل بأنه خير، نحو قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾ (البقرة: ٢٢٠).

وقد يعبر عن الأمر بوصف الفعل بالفرضية، نحو قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ (الأحزاب: ٥٠)، أي: من بذل المهور والنفقة والمعاشرة بالمعروف.

وقد يعبر عن الأمر بترتيب الوعد والثواب على الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا

حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾ (الحديد).

وقد يعبر عن الأمر بترتيب الفعل على شرط قبله، نحو قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

وقد يعبر عن الأمر بإيقاع الفعل منفيًّا معطوفًا عقب استفهام، نحو قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل)، أي: تذكروا.

وقد يعبر عن الأمر بإيقاع الفعل عقب تَرَج، قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وقد يعبر عن الأمر بترتيب وصف شنيع على ترك الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة).

٢. أما أساليب القرآن الكريم في التعبير عن النهي فله صور منها:

الصيغة المألوفة الصريحة بأداة النهي المعروفة، مثل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ (النساء).

الصيغة الصريحة التي تفيد التحريم بلفظه، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأعراف)، وقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾(النساء: ٢٣)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾ (المائدة: ٣).

نفي الحِل عنه، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴾ (النساء: ١٩).

قد ينهى عن الفعل بوصفه بأنه ليس برًّا، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ (البقرة: ١٨٩).

قد ينهى عن الفعل بوصفه بأنه شر، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

قد ينهى عن الفعل بذكره مقرونًا بالوعيد، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ ﴾ (التوبة).

قد ينهى عن الفعل بذكره منسوبًا إليه الإثم، كقوله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ ﴾ (البقرة: ١٨١).

قد ينهى عن الفعل بالإتيان به في جانب مادة النهي، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ ﴾ (الممتحنة: ٩).

قد ينهى عن الفعل بالإخبار عنه بأنه رجس، ووصفه بأنه من عمل الشيطان، والأمر باجتنابه ورجاء الفلاح في تركه، وترتيب مضار مؤذية على فعله، والأمر بالانتهاء منه في صورة الاستفهام، ومثال هذه الطرق كلها تحريم الخمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ

﴿وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ (المائدة).

فهذه نماذج من الأوامر والنواهي جاءت على أساليب متعددة، وِفْق المقام الذي سِيقَت له والجو الذي سِيقَت فيه.

إن تصريف القول في القرآن على هذا النحو فنٌّ من فنون إعجازه الأسلوبي، وفي الوقت نفسه مِنَّة يمنُّها الله على الناس؛ ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعًا وتدبرًا وعملًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا (٨٩)﴾ (الإسراء)[1].

ها هو الأستاذ محمد الصادق قمحاوي يذكر في كتابه "البرهان في تجويد القرآن" شهادات الخصوم المشيدة بالقرآن وأسلوبه، منها قول المستشرق الفرنسي د. "موريس" في وصف القرآن الكريم: "إنه ندوة علمية للعلماء، ومعجم لغة للغويين، ومعلِّم نحوٍ لمن يريد تقويم لسانه، ودائرة معارف للشرائع والقوانين، وكل كتاب سماوي جاء قبله لا يساوي أدنى سورة من سوره في حسن المعاني وانسجام الألفاظ، ومن أجل ذلك ترى رجال الطبقة الراقية في الأمة الإسلامية يزدادون تمسكًا بهذا الكتاب، واقتباسًا منه كلما ازدادوا رِفْعة في القدر ونباهة في الفكر".

ثانيًا. اختلاف خصائص الأسلوب المكي عن الأسلوب المدني:

تختلف خصائص الأسلوب للسور المكية عن السور المدنية، وذلك تبعًا للموضوعات التي تتناولها، ولقد استنبط العلماء **ضوابط لخصائص الأسلوب القرآني في السور المكية** تبعًا للموضوعات التي تتطرق إليها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

١. الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذِكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والأدلة الكونية.

٢. وضع الأسس العامة للتشريع، والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلمًا، ووَأْد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣. ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة؛ زجرًا للمشركين حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله ﷺ، حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

٤. قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يصخ الآذان، ويشتد قرعه على المسامع، ويصعق القلوب أو يؤكد المعنى بكثرة القسم.

أما ضوابط السور التي نزلت بالمدينة، فيمكن إجمال خصائص أسلوبها والمواضيع التي تطرقت إليها فيما يلي:

١. بيان العبادات والمعاملات والحدود، ونظام الأسرة والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السِّلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

٢. مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله،

---

١. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٧٤ وما بعدها.

وتجنيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم.

٣. الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٤. طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر أحكام الشريعة، ويوضح أهدافها ومراميها.

وقد أتى هذا الاختلاف بين الأسلوبين تبعًا لاختلاف الموضوعات، وأيضًا لاختلاف نوعيات الناس الذين يخاطبهم، ذلك إلى يوم القيامة[1].

الخلاصة:

- إن معنى الأسلوب هو: الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه. وأسلوب القرآن هو: طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه.
- إن الأسلوب يختلف عن المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام، فالأسلوب هو: الطريقة التي ينتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه.
- إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن، والمزايا التي توافرت فيه جعلت له طابعًا معجزًا في لغته وبلاغته، ومن هذه الخصائص: جمال التعبير، ودقة التصوير، وقوة التأثير، و براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام.
- الخصائص الأسلوبية للغة القرآن جعلت لغته جديدة، فالجديد في لغة القرآن، أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخيَّر له أشرف الموادِّ، وأمسَّها رحمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق به؛ بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلَّا وطنه الأمين وقراره المكين... وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.
- تمتاز السور المكية بخصائص تختلف عن خصائص السور المدنية، حيث تتفق مع سمات المرحلة ووقتها، ومن أهم هذه الخصائص: موضوع العقيدة ومعالجته، والأخلاق الفاضلة، وقِصَر الآيات مع قوة العبارة، وكثرة الرَّدع والزجر، والبداية بالأحرف المُقطَّعة ـ غالبًا ـ، وذِكر القصص السابقة، والجنة والنار، وكثرة القسم. أما القرآن المدني فَمَعْنِي بآيات الجهاد، وذكر المنافقين والنفاق، والتشريع والنظم العامة، ومجادلة أهل الكتاب، وامتاز بطول آياته، وهدوء أسلوبه.
- وتلك المَيْزات هي التي أعطت القداسة والإعجاز للنص القرآني وعجز العرب أن يأتوا بمثله أو حتى بمثل آية واحدة.

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ص١٧١، ١٧٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٥٩، ٦٠. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٥٣: ٥٦.

الشبهة السبعون

التشكيك في نظم القرآن الكريم وإعجازه البلاغي(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المتوهمين في إعجاز القرآن الكريم البلاغي، مستدلين على دعواهم باشتماله على حروف لا معنى لها، افتتحت به أوائل السور مثل: (ص، ق، الم...)، كما زعموا أن محمدًا ﷺ شك فيه؛ حيث عاتبه ربه تعالى في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (يونس)، ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن.

وجوه إبطال الشبهة:

١) نزل القرآن على أرباب الفصاحة والبيان، ولو وجدوا فيه ما زعمتم لكانوا أول من شكك فيه وشنَّع عليه، لكنهم شهدوا له بالبلاغة والبيان.

٢) ليست الحروف المقطَّعة في القرآن الكريم كلامًا زائدًا دون معنى، وإنما هي معجزة لغوية.

٣) الفهم الصحيح للآية التي استدل بها هؤلاء يزيل هذا الوهم لديهم، فالمقصود هنا الفرض والتمثيل، وقيل: بل خُوطِب النبي ﷺ بالآية والمقصود أمته، وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك.

التفصيل:

أولا. إعجاز القرآن في بيئة بضاعتها الكلمة:

كان القرآن الكريم أكبر سبب لهداية العرب للحق، فقد نزل على عرب أَقْحاح، فاقوا الأمم في ميدان الفصاحة والبلاغة، واعتنوا بذلك أتم العناية، وبلغوا المنزلة العظمى في التفنن في البيان؛ فأقاموا الأسواق في الشِّعْر والخطابة، وعلَّقوا معلقاتهم على الكعبة؛ رفعًا لشأن البلاغة والبيان، ومع ذلك انخلعت قلوب صناديد الكفر خوفًا من أن تُفتن أمام بلاغة القرآن.

لهذا كان من حكمة الله ﷻ أن أنزل لهم هذا القرآن بهذه اللغة التي يفتخرون بها، وتعالوا بها على الأمم، فبهرهم القرآن ببديع ألفاظه، وجميل معانيه، وعظيم مقاصده ومبانيه، فخضعوا له وتهيَّبوا أن يتكلَّموا فيه طعنًا في لفظ أو في إعراب أو في بيان.

وتحدَّاهم القرآن أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء)، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود)، فلما عجزوا أن يأتوا بعشر سورٍ مثله، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ (البقرة: ٢٣).

ولقد تعددت مناحي الإعجاز البلاغي في القرآن؛ لأن القرآن بلغ الذُّروة في صياغته وأسلوبه، قال أبو بكر الباقلاني: "بديع النظم، عجيب التآلف، مُتَناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي عجز الخلق عن الإتيان بمثله".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أكمل الألسنة لسان العرب، وأكمل البلاغة بلاغة القرآن". وقال ابن

(*) موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق.

أبي الإصبع المصري: "وإذا انتهيت إلى بلاغة الكتاب العزيز انتهيت إلى نهاية البلاغة".

وقد طَفِقَ العلماء يكتبون بصدق صادق في بلاغة القرآن وطرائق نظمه، ونورد هنا بعض ما ذكره علماء التفسير والبلاغة حول بعض الكلمات القرآنية التي تحمل حشدًا من الصور البلاغية:

- في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ (التوبة: ٣٨) فعند سماع قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تشخص في الخيال صورة ذلك الجسم "المُثَّاقل" الذي يرفعه الرافعون في جهد شديد، فيسقط من أيديهم في ثقل، ولو كانت الكلمة "تثاقلتم" لخف جرس هذه الكلمة، وتوارت الصورة المطلوبة التي استقل هذا اللفظ برسمها.
- وفي قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة)، قال ابن عاشور: "وجاء تقتلون بالمضارع عوضًا عن الماضي لاستحضار الحالة الفظيعة، وهي حال قتلهم رسلهم، مع ما في صيغة "تقتلون" من مراعاة الفواصل، فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم[1].

فكيف مع هذه البلاغة والفصاحة يُتَّهم القرآن باحتوائه على كلام ليس بليغًا وليس له معنى.

ثانيًا. تفسير العلماء للحروف المُقطَّعة:

ذكر العلماء والمفسرون أن للحروف المقطعة معاني وتفسيرات عديدة منها:

١. أنها حروف دالة على أسماء أُخذت منها وحُذفت بقيتها.

٢. أنها أدوات صوتية مثيرة لانتباه السامعين، الغرض منها تفريغ القلوب من الشواغل الصارفة لها عن السماع من أول وهلة.

٣. أنها إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها كلامهم.

٤. أنها أسماء للسور التي وردت فيها، وسُمِّيت بها إشعارًا بأنها كلمات معروفة التركيب.

٥. أنها حروف مقطعة، لكنها معجزة بلاغيًّا، تحمل أحد أوجه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، فمثلًا: في سورة "ق" قال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ (ق)، تدل على بلاغة القرآن العالية في أسلوبه حين يوائم ما بين الكلمة المعجمة في معناها وبين جيرانها من ألفاظ اللغة العربية في الآيات التي تتلوها، حتى أمست واحدة من مفرداتها.

وكذلك الأمر في سورة "ص" في قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ (ص) فكلمة "صاد" في اللغة المصرية القديمة لها عدة معان منها: يتقوَّل عليَّ، يَشِي بـ، يُسيء إلي، يدَّعي، يعتقد، إلى غير ذلك من المعاني.

وتفسير أول السورة في ضوء هذا المعنى: تقوَّلوا عليك وأساءوا واتهموك بإتيان ما ليس له سند، وتقوَّلوا أيضًا على القرآن، وأساءوا إلى ما به من قصص السابقين، بل هم في استكبار وإعراض عما تبلِّغ به.

وبهذا البيان يتضح لنا معنى الحرف "ص"،

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٥٩٨.

ومما يؤازر هذا المعنى - بما لا يدع مجالًا للشك - كلمة "المتكلفين" في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (ص)، فيرد عليهم الرسول ﷺ بأنه ليس كما تقوّلوا عليه ولا يتكلّف شيئًا من عنده.

ثالثًا. التفسير الصحيح للآية ينفي دعوى أن النبي ﷺ شك في القرآن:

أما ادعاؤهم أن محمدًا ﷺ شك في القرآن، مستدلين على هذا بقوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (يونس: ٩٤)، فالمقصود به هو: الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلًا - وهذا لم ولن يحدث - فاسأل الذين يقرءون الكتاب، وقد قدّم الله ذكر بني إسرائيل، وهم قُرّاء الكتاب، وذكر أن العلم قد جاءهم؛ لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فقال: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ ﴾، والغرض وصف الأَحْبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل الله إلى رسول الله، لا وصف رسول الله ﷺ بالشك فيه، ثم قال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾، أي: ثبت أن ما أتاك الله هو الحق الذي لا مدخل فيه للمِرْية: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (يونس) أي: فاثبتْ ودُمْ على ما أنت عليه من انتفاء المِرْية عنك، ويجوز أن يكون الغرض هو زيادة التثبيت والعصمة.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "لا والله ما شك طرفة عين، ولا سأل أحدًا منهم"؛ ولأنه لم يسأل - وهو جواب الشرط في أول الآية - فيكون الشرط لم يحصل، وهو شك النبي ﷺ. وقيل: خُوطب ﷺ والمراد أمته وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك.

وعلى ذلك فالمسلمون أولى بالاستمساك بدينهم ونبيهم ﷺ؛ لأن القرآن معصوم، ومحمد ﷺ رسول بشّر به عيسى عليه السلام[1].

الخلاصة:

- عجز العرب وهُم أهل البلاغة أن يأتوا بمثل ما أتى به القرآن الكريم من بلاغة، وحسن بيان، وروعة نظم، فخضعوا له هيبة أن يتكلموا فيه طعنًا في لفظ أو إعراب أو بيان، بل على العكس شهدوا بأنه يعلو ولا يُعلى عليه.
- الحروف المقطّعة في القرآن الكريم لها معانٍ عديدة ذكرها العلماء والمفسرون، كما تشتمل على نِكات بلاغية ذات قيمة وأهمية في سياق السور.
- لم يكن قوله ﷻ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ﴾ (يونس:٩٤)، عتابًا للرسول، ولم يكن النبي ﷺ شاكًّا فيما أُنزل إليه، بل إن للعلماء عدة توجيهات لهذه الآية، منها: أنه ﷺ خُوطب، والمراد أمته، وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك، إلى غير ذلك من التفاسير.

---

١. المرجع السابق، مج٦، ج١١، ص٢٨٤: ٢٨٦ بتصرف.

الشبهة الحادية والسبعون

الفهم الخاطئ للقسم في القرآن الكريم [*]

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم يعتمد على القسم في مواضع كثيرة، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾ (الشمس) وقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ (الفجر)، وقوله أيضًا: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ (الضحى). ويتساءلون، كيف يُقسم الله تعالى والحالف على قوله مُتَّهم في صدقه؟ ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة القرآن الكريم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القَسَم في القرآن الكريم جاء لأغراض عدة، منها: مراعاة لاختلاف الاستعداد النفسي لدى البشر، وتوكيدًا للمعاني.

٢) القسم في القرآن الكريم بهذه المخلوقات جاء للاستدلال المحض، ولم يكن الغرض منه تقديسها أو تعظيمها.

٣) لله تعالى أن يحلِف بما شاء من مخلوقاته كما هو وارد في كل الكتب السماوية، وليس للعبد أن يحلف إلا بالله تعالى، ثم إن القسم ورد أيضًا في الكتاب المقدس.

التفصيل:

أولا. جاء القسم في القرآن نظرًا لاختلاف الاستعداد النفسي لدى البشر:

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبُّله للحق وانقياده لنوره، فالنفس الصافية يكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة، وأما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل، فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزَّجْر، وصيغ التأكيد، حتى يتزعزع نكيرها، والقَسَم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المُفْحِم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد.

إن أسلوب القسم في اللغة طريق من طرق توكيد الكلام، وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلم، ومعلوم أن القرآن نزل بلغة العرب، وإثبات المطالب بالحَلِف واليمين طريقة مألوفة عندهم، فكان من عادتهم أنهم إذا قصدوا توكيد الأخبار وتقريرها جاءوا بالقسم، وعلى هذا جاءت في القرآن أقسام متنوعة في مواضع شتى، فذكر القسم تأكيدًا وبالطريقة المألوفة لديهم.

وللقسم أركان أربعة: المقسِم، والمقسَم به، والمُقْسم عليه، وأداة القَسَم، وما يعنينا الحديث عنه ـ فيما نحن بصدده ـ هو "المقسم به" ولمجيئه في القرآن الكريم أغراض منها:

- أن يكون شيئًا عاليًا بعيدًا عنا يثير الرهبة والعظمة والجلال، والقسم به يثير لدينا الفضول العلمي وحب الاستطلاع، وذلك كالسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم.
- وقد يكون المقسم به شيئًا مما يحيط بالإنسان ويتعايش به ومعه، ويقسم الله تعالى به لما فيه من منافع وفوائد، كالتين والزيتون.
- يقسم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته،

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.com

أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته[1].

ثانيًا. قسم الله ﷻ بمخلوقاته لا يعني تقديسها وتعظيمها:

قد يكون الغرض من القسم الاستشهاد والاستدلال، وليس الغرض منه التعظيم والتقديس؛ إذ ورد استخدام العرب للقسم بمعنى الاستشهاد والاستدلال، مثل قول عنترة:

وَالخَيْلُ تَعْلَمُ وَالفَوَارِسُ أَنَّنِي

فَرَّقْتُ جَمْعَهم بِطَعْنَةِ فَيْصَلِ

وليس المقصود هنا: إلا أنك لو سألت الخيل ونطقت لشهدت على دعواه.

ومن الأمثلة أيضًا ما رُوي عن "هجرسٍ" حين همَّ بقتل "جساسٍ" قاتل أبيه، قال: "وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغِراريه[2]، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه"، ثم طعنه فقضى عليه، وهو هنا لم يُرِدْ تقديس هذه الأشياء وتشريفها - وإن كانت عظيمة عنده - وإنما أراد أن يقول إنه تامُّ العُدَّة، قادر على الثأر، ومن ثَمَّ، فلا يسوغ له أن يترك قاتل أبيه حيًّا.

وهناك ما يدل على أن القسم في القرآن الكريم لم يكن للتعظيم والتقديس، من ذلك:

- تعميم المقسَم به على طريق تعميم الآيات الدالة، كما قال تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) ﴾ (الشمس)، فلم يترك شيئًا إلا وأقسم به، فكيف يُظن أن الله عظم كل شيء، والسبيل إلى جعله آية دالة ظاهرة، فلا يصار إلا إليه.

- ما يتبع المقسم به من التنبيه على كونه دليلًا للعقلاء، كما قال تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) ﴾ (الفجر).

فهو هنا بعد ذكر الأقسام نبَّه سبحانه وتعالى على كونها دلائل لذي عقل وبصيرة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ (الواقعة)، أي: إن فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة، فصرَّح بعظمة القَسَم لا بعظمة المُقسَم به.

- تفسير الآيات بعضها ببعض، فقد يذكر الله تعالى الأمور الدالة على أسلوب القسم بها تارة، وأخرى على أسلوب الآية والعبرة، وكلها إشهاد لمن يتفكر فيها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ (البقرة)، ثم أشهد القرآن على أسلوب القسم بهذه الآيات، فأشهد بالسماء والأرض، والشمس والضحى والفجر ... وغيرها.

---

١. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٢٨٤ وما بعدها.

٢. الغِرَار: حدُّ السيف.

ثالثًا. لله تعالى أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته ـ كما هو واضح في الكتب السماوية كلها ـ وليس للعباد أن يحلفوا إلا بالله تعالى:

وأكد العديد من العلماء ـ أمثال: د. سامي عطا حسن في كتابه "أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم"، وعبد الحميد الفراهي في كتابه "إمعان في أقسام القرآن"، وابن القيم في كتابه "التبيان في أقسام القرآن" وغيرهم ـ على أن القسم في القرآن الكريم بمخلوقاته ﷻ خاص بالله وحده، ولا يجوز للعبد أن يحلف بها، ولله أن يحلف بما شاء، أما حَلِف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك، كما قال ﷺ: "من حلف بغير الله فقد أشرك"[1]. وإنما أقسم الله بمخلوقاته؛ لأنها تدل على بارئها، وهو الله تعالى، وللإشارة إلى فضيلتها ومنفعتها ليعتبر الناس بها. وعن الحسن قال: "إن الله ليقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله"[2].

وقد ذكرت التوراة أن الله أقسم في مواضع عديدة، والإنجيل أيضًا؛ ومن ذلك: "حَلَفَ الرَّبُّ بيمينه وبذراع عِزَّته". (إشعياء ٦٢: ٨).

وفي الإنجيل: "من حَلَفَ بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حلف بذَهَب الهيكل يلتزم. أيها الجُهَّال والعُمْيان! أيما أعظم: ألذَّهب أم الهيكل الذي يُقدِّس الذهب؟ ومن حلف بالمَذْبَح فليس بشيء، ولكن من حلف بالقُرْبان الذي عليه يلتزم. أيها الجهال والعميان! أيما أعظم: ألقربان أم المذبح الذي يُقدِّس القربان؟ فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه! ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه". (متى ٢٣: ١٦ ـ ٢٢). وفي الزَّبور: "أقسم الرب ولن يندم". (المزمور ١١٠: ٤). وفي التكوين: "بذاتي أقسمتُ". (التكوين ٢٢: ١٦).

وبهذا البيان اتضح أن القسم في القرآن الكريم، لم يكن تعظيمًا وتقديسًا للمُقْسَم به، وإنما للاستشهاد وللاستدلال به فقط[3].

الخلاصة:

- نزل القرآن بلغة العرب، وقد لجأ القرآن إلى القسم جريًا على عادة العرب في توكيد الكلام وإبراز معانيه، ومن أغراضه أيضًا: أن يكون شيئًا يثير الفضول العلمي وحب الاستطلاع، وقد يكون شيئًا مما يحيط بالإنسان ويتعايش به ومعه، فيقسم الله تعالى به لما فيه من منافع... إلخ.
- ليس معنى قَسَم الله ﷻ ببعض مخلوقاته أن هذه الأشياء مُعظَّمة ومُقدَّسة، بل إن القَسَم بها جاء على سبيل الاستدلال والاستشهاد، ومثال ذلك كثير في لغة العرب الفصيحة.
- الله ﷻ هو خالق الكون وكل ما فيه من مخلوقاته، وله وحده سبحانه وتعالى أن يحلف بما شاء

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر ﷺ (٦٠٧٢)، وأبو داود في سننه، كتاب الإيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٧٨٧).

٢. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الإيمان والنذور، باب الرجل يحلف بغير الله أو بأبيه (١٢٢٨٨).

٣. الشبكة الإسلامية. www.islamweb.org

من خلقه، فكل شيء تحت أمره ورهن إشارته، أما العبد، فلا يجوز له أن يحلف بغير الله؛ لأن هذا من قبيل الشرك بالله. ولذلك نرى كل الكتب السماوية تشمل على أسلوب القسم، فكيف يعاب على القرآن وجود القسم فيه وهو موجود في غيره من الكتب السماوية؟!

الشبهة الثانية والسبعون

ادعاء أن القرآن نَصٌّ غامض بدليل كلمة "سورة"(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن الكريم نص غامض مبهم، ويستدلون على ذلك بكلمة "سورة" الموضوعة اسمًا لمجموعات مختلفة الطول من آيات القرآن. هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في مصطلحات القرآن الكريم.

وجها إبطال الشبهة:

١) لا غموض ولا إبهام في كلمة "سورة"؛ لأنها مشتقة من السور، وهو الحائط الذي يحمي ما بداخله فكأن السورة حائط معنوي يحفظ ما بداخله ويجمعه.

٢) السورة في اصطلاح العلماء هي طائفة من الآيات القرآنية جُمعت وضُم بعضها إلى بعض، ولا مشاحة في الاصطلاح كما هو معلوم.

التفصيل:

أولا. كلمة سورة لا إبهام فيها ولا غموض:

إن كلمة سورة لا إبهام فيها ولا غموض؛ لأنهم قالوا: إنها مشتقة من السُّوْر وهو حائط المدينة، فكأن كل مجموعة من الآيات محاطة بسور معنوي لا يسمح لنقطة أو لحرف بالدخول أو الخروج، وهذا كناية عن الحفظ والعصمة.

وقد يكون الاشتقاق من الإبانة والارتفاع.

قال الجوهري في الصِّحاح: " والسُّوَر ـ أيضًا ـ جمع سورة، مثل بُسْرَة وبُسَر، وهو كل منزلة من البناء، ومنه سورة القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى.

ثم استشهد بقول النابغة:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَـاكَ سُـورَةً
تَرَى كُلَّ مُلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ

يُريد شرفًا وعِزًّا، وكأن القارئ ينتقل بقراءته من سورة إلى أخرى، ومن منزلة إلى أخرى، كما يقول ابن كثير، فأي غموض في هذه اللفظة[1].

وقيل: سُمِّيت "سورة"؛ لأنها ضمَّت آياتها بعضها إلى بعض، كما أن السُّور تضع لَبِناته بعضها فوق بعض حتى يصل إلى الارتفاع الذي يُراد.

وقيل: مأخوذ من السور أو السؤر، وهو ما بقي من الشراب في الإناء، كأنها قطعة من القرآن وبقية منه، وهي على هذا مهموزة، وحُذِفت همزتها تخفيفًا[2].

(*) المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السنة العاشرة، العدد ١٢٠، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق.

١. المستشرقون والقرآن د. إسماعيل سالم عبد العال، مرجع سابق،ص ٢٢، ٢٣.
٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣١٧.

ثانيًا. تعريف كلمة "سورة" كما وردت في اصطلاح العلماء:

السورة في اصطلاح العلماء: هي مجموعة من الآيات القرآنية، جُمعت وضُمَّ بعضها إلى بعض حتى بلغت الطول والمقدار الذي أراده الله ﷻ لها.

وهذا يدل على أنها ليست لفظة مبهمة ولا غامضة.

ومعرفة سُوَر القرآن الكريم كلها توقيفي كمعرفة آياته، وسور القرآن تختلف طولًا وقِصرًا، فأطول سورة هي "البقرة"، وأقصر سُورة هي "الكوثر"، وكان من علامة ابتداء السورة نزول "بسم الله الرحمن الرحيم"، وهي أول ما ينزل منها، يدل على ذلك ما جاء عن ابن عباس أنه قال: كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تَنَزَّل "بسم الله الرحمن الرحيم"[1]. وفي رواية: كان جبريل إذا نزل على رسول الله ﷺ "ببسم الله الرحمن الرحيم" عَلِم أن السورة قد انقضت[2]. يعني هي دلالة على انقضاء ما قبلها، وعلى ابتداء سورة بعدها[3].

إن لفظة "سورة" وردت في الآيات المكِّيَّة وجاءت أيضًا في الآيات المدنية، فقد وردت لفظة "سورة" في القرآن بصيغة المفرد وصيغة الجمع في السُّور المكية والمدنية على السواء، فقد وردت بصيغة المفرد تسع مرات، ثمان منها في سُوَر مدنية هي: البقرة والتوبة والنور ومحمد، والتاسعة في سورة يونس المكية. ووردت مرة واحدة بصيغة الجمع في سورة هود المكية أيضًا[4].

1. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من جهر بالبسملة (٧٨٨)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب الدليل على أن ما جمعته مصاحف الصحابة ﷺ كله قرآن (٢٤٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦٤).
2. صحيح: أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، ج٣، ص٤٠٥، ٤٠٦، باب بيان مشكل ما اختلف فيه عن عثمان بن عفان وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الأنفال وبراءة (١٣٧٥)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على شرح المشكل.
3. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣١٨.

الخلاصة:

- إن القرآن الكريم نص واضح لا إبهام فيه ولا غموض، وإنما هو كلام عربي مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
- وكلمة "سورة" التي قالوا إنها غامضة ـ وهي ليست كذلك ـ مشتقة من السُّوْر: وهو حائط المدينة، وقيل إنها مشتقة من الإبانة والارتفاع، وقيل: لأنها ضمت آياتها بعضها إلى بعض، وقيل مأخوذة من السؤر، وهو ما بقي من الشراب في الإناء كأنها قطعة من القرآن.
- والسورة في اصطلاح العلماء: هي طائفة من الآيات القرآنية جُمعت وضُم بعضها إلى بعض حتى بلغت الطول والمقدار الذي أراده الله ﷻ لها، وهذا يدل على أن لفظة " سورة" ليست مبهمة ولا غامضة.
- لفظة "سورة" لم تأت في الآيات المكية فقط، بل وردت في الآيات المكية والمدنية على السواء.

4. المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، مرجع سابق، ص٢٣.

المحور الثاني

شبهات حول عصمة القرآن من تحليل الشهوات والمحرمات

الشبهة الثالثة والسبعون

ادِّعاء أن القرآن يدعو إلى الشهوانية ويحث عليها(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم يدعو إلى الانحلال ويُحِلُّ الشهوات، ويستدلون على ذلك بإباحة تعدد الزوجات في قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء: ٣) مستنكرين مبدأ تعدد الزوجات، والتَّسرِّي بملك اليمين، وأن تكون الجنة مكانًا للّهو بالحور العين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) التشريع الإسلامي يتناسب مع الفطرة الإنسانية، وهي تنطلق من مراعاة المصلحة ودفع المفسدة، وحفظ الضرورات العامة.

٢) ثبت علميًّا وعمليًّا أن تعدد الزوجات يحل مشكلة العنوسة لدى النساء، ويحفظ الأعراض والأنساب، ويُكْثر النسل الشرعي، ويعمل على ترابط الأُسْرة.

٣) هل الأفضل والأنسب العلاقات المشروعة في الإسلام، أم الإباحية المطلقة عند غير المسلمين وما نتج عنها من اختلال في شتى مظاهر الحياة؟!

٤) الكتب السابقة تُقِرُّ تعدد الزوجات، حتى الشعوب الوثنية مارست تعدد الزوجات، فلِمَ يستنكرونه على الإسلام؟!

التفصيل:

أولا. تشريعات الإسلام تتناسب مع الفطرة الإنسانية:

جاء التشريع الإسلامي العظيم بمقاصد خمس: حفظ الدين والعقل والنفس والمال والعِرْض، وهذا ما تقتضيه مصلحة الإنسان، والقضية التي نحن بصددها ترتبط بحفظ الدين والعرض أولًا ثم بحفظ المال ثانيًا، ولكي يحفظ الإسلام على الناس دينهم، أحل أمورًا وحرَّم أخرى، فأحلَّ الزواج، وحرَّم كل علاقة أخرى بين الرجل والمرأة، وهو بهذا يتناسب مع الفطرة الإنسانية السليمة.

وهو بهذا يحفظ العِرْض أيضًا، أرأيتم مجتمعاتنا المعاصرة، كيف سقط الدين فيها؟! وكيف انتهكت الأعراض؟! لماذا؟ لأنهم خالفوا تشريع الإسلام، فكم من رجال متزوجين وقعوا في غياهب[1] الفتن وأتون المعاصي، برغم وجود التشريعات الوضعية والمحرَّفة التي تُجَرِّم ذلك وتعاقب عليه.

أما الإسلام الحنيف[2]، فإنه يقوِّم حياة البشر وفْقَ منهاج رباني سامٍ يراعي ـ أول ما يراعي ـ مصلحة البشر، أو بتعبير آخر: يراعي أهداف التشريع، والمراد بالأهداف: هي أحدث الطرق الإدارية التي توصل إليها العلم الحديث في العلوم الإدارية، وهي تعني أن

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com

® في "تعدد الزوجات" طالع أيضًا: الشبهة الثالثة، من الجزء التاسع عشر (أحكام الأسرة في الإسلام).

١. الغياهب: جمع الغَيْهَب، وهي الظلمة.

٢. الحنيف: المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

يكون المحرك الأول للعمل هو الهدف، فلا يكون الشغل الشاغل هي الوسائل دون الأهداف.

وها هو الإسلام يقر هذا الأمر منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان.

ما أرحب هذا التشريع، وما أعظم مراعاته طبيعة البشر، فكل التشريعات قد ضاقت بالرجال والنساء، على حد سواء، إلا تشريع الإسلام، فها هو الغرب المسيحي ينظر - من الناحية النظرية - إلى الجسد وغرائزه على أنها شيء ممتهن، ولا سبيل للسمو والرقي إلا بكبح جِماح[1] هذا الجسد، ومنعه من جميع رغباته وغرائزه، أما الإسلام فقد حدد الإطار الذي يسير فيه الإنسان تلبية لرغباته الفطرية دون أن يترك له الأمر هكذا من غير ضابط أو رابط، وليس هذا فحسب بل حدد الإطار العام للمجتمع ككل؛ تلبية لحاجات هذا المجتمع وحلًّا لمشاكله؛ مراعيًا المصلحة الجماعية دون جورٍ على مصلحة الفرد.

فالتعدد في الإسلام شرع على سبيل الإباحة لا الوجوب، والفارق بينهما كبير فالمباح[2] لا يفترض على الناس الإتيان به، بل متروك لاختيارهم ولا إثم عليهم في تركه أو فعله.

أما الواجب[3]، فهو ما يفترض على الناس الإتيان به، فتاركه يأثم وفاعله يثاب، والمرأة لها الحرية في قبول ذلك أو عدم قبوله، ولها الحق في طلب الطلاق إذا لم تقبل ذلك أو تخالع زوجها، والقضاء يحقق لها ما أرادت، فالإسلام الحنيف أعطى للمرأة الحرية التامة في اختيار زوجها واختيار الحياة معه، وجاءت في ذلك أحاديث كثيرة منها:

عن عائشة قالت: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبي زوَّجني ابن أخيه؛ يرفع بي خسيسته، فجعل الأمر إليها، قالت: فإني قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء[4].

وفي قصة بَرِيْرة التي كانت أَمَةً ثم أُعْتِقت، وكان زوجها مغيث عبدًا فتشفع النبي ﷺ أن تبقى تحته، فخيَّرها النبي ﷺ بين بقائها تحت مُغِيث زوجة له، وبين أن تصير حرة بلا زوج، فاختارت حريتها، ورفضت شفاعة النبي ﷺ في أن ترجع إلى زوجها، حتى كان زوجها يبكي في طرق المدينة، فقال النبي ﷺ عجبت من حب مغيث بريرة وكراهية بريرة مغيثًا[5].

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبُرَت سِنِّي، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما بَرِحَتْ حتى نزل جبريل بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا

---

١. جَمَح الفرس: عَتا عن أمر صاحبه حتى غَلَبه.

٢. المباح: هو ما خيَّر الشارع المُكلَّف بين فعله وتركه.

٣. الواجب: هو ما طلب الشارع فعله من المكلَّف طلبًا حتمًا.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٠٨٧)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ على زوج بريرة (٤٩٧٩).

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (المجادلة: ١)[1].

ثانيًا. تعدد الزوجات في الإسلام له أهداف ومقاصد ثابتة علميًّا وعمليًّا، فمن أهدافه ما يلي:

١. حفظ الدين والأخلاق لكلا الطرفين الرجال والنساء:

فقد لا تستقيم حياة رجل مع زوجته، فماذا يكون الحل؟! انفصال كلا الطرفين عن الآخر، وحرمان المرأة من حقها في إشباع غريزتها بالوسيلة الشرعية (الزواج) ثم اندفاعها نحو الحرام، أم عدم الانفصال، ودفع الرجل دفعًا إلى إشباع غريزته من الحرام، فبتعدد الزوجات نكون قد حفظنا للناس دينهم وأخلاقهم.

٢. حفظ الأعراض والأنساب:

فكم من أعراض قد هُتكت! وكم من أنساب قد اختلطت نتيجة العلاقات المحرمة خارج نطاق الزواج! فبعض من فعل هذا دفعته ظروفه القاسية مع زوجته إلى هذا الأمر، والبعض الآخر دفعه أصحاب التشريعات الوضعية والمحرفة إلى هذا الأمر بتشريعهم منع التعدد.

٣. مراعاة التناسب العددي بين الرجال والنساء:

فقد أثبتت الإحصائيات أن زيادة عدد النساء عن الرجال صارت بنسبة قد تكون ١ : ٤ أو ١ : ٥ في الآونة الأخيرة في العالم كله، وأثبتت أيضًا أن عدد العوانس "وهن ممن تعدى عمر الواحدة منهن ثلاثين سنة ولم تتزوج" في بلد كمصر مثلًا وصل إلى ستة ملايين فتاة، هذا مع إغفال عدد الأرامل والمطلقات والمختلعات، ناهيك عن قلة عددالرجال بسبب الحروب وغيرها، فهل من حلٍّ إلا التعدد؟!

٤. زيادة العلاقات والصلات بين أفراد المجتمع الواحد:

فالتعدد يؤدي إلى ترابط المجتمعات وزيادة الصلات بين أفراده، على العكس تمامًا مما هو سائد في المجتمعات الغربية من تفكك وضعف أواصر الصلة بين أفراده، وهذا كله له أبلغ الأثر على حياة الناس من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على حد سواء.

وليس معنى ما تقدم أن الأمر مباح هكذا دون ضابط، بل إن الأمر مشروط:

- بتوافر إمكان النفقة لقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (الطلاق: ٧).
- بتوافر العدل المادي بين الزوجات، ثم إن التعدد لا يكون إلا لضرورة أو حاجة أو مصلحة اجتماعية أو شخصية، كوجود الميل الجنسي الشديد، أو عقم الزوجة الأولى أو كثرة النساء وقلة الرجال كما في بعض دول أوربا اليوم[2].
- هل الأفضل والأنسب العلاقات المشروعة في الإسلام، أم الإباحية المطلقة عند غير المسلمين وما نتج عنها من اختلال في شتى مظاهر الحياة.

إن المجتمع الغربي الذي فرض على نفسه الزواج

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب الطهارة (٢٠٦٣)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المجادلة (٣٧٩١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٧٨).

٢. أخلاق المسلم علاقته بالنفس والكون، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٣٧.

بواحدة يعجُّ[1] بشتى ألوان الرذائل، لقد أغلق أبواب الحلال فانفرجت أبواب الحرام.

وها هي الأرقام والإحصاءات تتكلم، فقد نشرت مجلة حضارة الإسلام في المجلد الثاني عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص ٣٦٥ مايلي:

وتدل الإحصاءات في السويد على أنه بين كل سبع زيجات تنتهي واحدة بالطلاق، وفي النرويج بين كل ست زيجات تنتهي واحدة بالطلاق، وليس نادرًا أن تجد شابات في الدانمرك طُلِّقن مرتين أو ثلاث مرات، قبل أن يبلغن الثلاثين.

أما الأطفال غير الشرعيين ففي السويد يولد طفل غير شرعي بين كل عشرة أطفال، وفي الدانمرك طفل بين كل ثلاثة عشر طفلًا، كما تتم حالات إجهاض كثيرة بواسطة سيدات غير إخصائيات مما حَفَّز الصحف على مطالبة الحكومة كي تجعل الإجهاض قانونيًّا، لا يسأل عنه الأطباء إذا قاموا به علانية.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد ولد ٢٢١ ألف طفل غير شرعي خلال عام ١٩٥٩م، أي بنسبة ٥٢ طفلًا في كل ألف طفل ولد في أمريكا خلال هذا العام.

وقد قدَّمت الدكتورة راشل دافيز ـ عضو الجمعية العمومية لولاية شمال كارولينا ـ مشروعًا بتعقيم السيدات اللاتي يلدن أكثر من مولودين غير شرعيين.

وقد نشرت المجلة المذكورة في ص ٤٨٩ من المجلد الثاني ما يلي:

يحاول البوليس الإنجليزي الآن القضاء على مائة ألف امرأة تعمل في البِغَاء[2] بعد أن صدر قانون بإلغائه، وقد أعلن البوليس أخيرًا أنه عجز عن القيام بهذه المهمة وحده، وطلب من كل سيدة أن تتولى الإبلاغ عن كل فتاة من بنات الليل تجدها تتسكع في الطرقات، للقبض عليها في الحال.

وقد نشرت جريدة اللواء الدمشقية في عددها الصادر بتاريخ ١٩ شعبان ١٣٨٢هـ، ١٤ كانون الثاني ١٩٦٣م برقية صادرة عن الأمم المتحدة من وكالة "رويتر" ما يلي:

يقول تقرير الأمم المتحدة حول التمييز ضد الأطفال غير الشرعيين إن ما يقارب ٣٠٪ من الأطفال في بعض البلدان يولدون خارج نطاق الزواج[3]!

أوليس ما مضى ذكره يثبت ما اختص به هذا التشريع الرباني من سعة ودراية في معالجة قضايا البشر: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ (الملك)، بلى سبحانه وتعالى يعلم أن عدد النساء سيكثر عن عدد الرجال، خاصة في أعقاب الحروب التي تلتهم صفوة الرجال والشباب، وهناك تكون مصلحة المجتمع ومصلحة النساء أنفسهن في أن يكن ضرائر، بدلًا من أن يعشن العمر كله عوانس محرومات من الحياة الزوجية، وما فيها من سكون ومودة وإحصان، ومن نعمة الأمومة، ونداء الفطرة في ثناياهن يدعو إليها. إنها إحدى طرائق ثلاث:

فإما أن يقضين العمر كله في مرارة الحرمان من حياة

١. يَعُج: يمتلئ.

٢. البغاء: الزنا.

٣. المرأة بين الفقه والقانون، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط٦، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٤١، ٢٤٢.

الزوجية والأمومة.

وإما أن يُرخَى لهن العنان ليعشن أدوات لهو لعبث الرجال المفسدين، ومن ثم إتيانهن بأطفال غير شرعيين، وكثرة عدد اللقطاء المحرومين من الحقوق المادية والمعنوية، ليكونوا عالة على المجتمع وأداة هدم فيه وإفساد.

وإما أن يباح لهن الزواج برجل متزوج قادر على النفقة والإحصان، ولا ريب أن هذه الطريقة الأخيرة هي الحل العادل والأمثل، والبَلْسَم الشافي، وهذا ما حكم به الإسلام، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (المائدة).

وكما راعى الإسلام طبيعة البشر في الدنيا أيضًا راعاها في الآخرة، فجعل الجزاء يتوافق مع طبيعة البشر، سواءً كان ثوابًا أو عقابًا. لكن الأمر بيننا وبينهم كما قالت العرب قديمًا: "لا تعدم الحسناء ذامًّا"، فحُسْنُ هذا التشريع وبهاؤه وحلاوة منطقه، وواقعية منهجه، وتعامله مع الواقع البشري بحكمة واقتدار، جذب إليه ألسنة الناقدين وطعن الطاعنين، لكن هيهات أن تطفأ الشمس بأفواه هؤلاء.

ثم دعنا نُسَلِّم بما قالوه، فما الدليل على أن سنة الله في الزواج عدم التعدد؟ بل إن التوراة تقول في سفر التكوين: "واتخذ لَامَك لنفسه امرأتين: اسم الواحدة عادة، واسم الأخرى صِلَّة. فولدت عادة يابال الذي كان أبًا لساكني الخيام ورُعاة المواشي. واسم أخيه يوبال الذي كان أبًا لكل ضارب بالعود والمزمار. وصلة أيضًا ولدت توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد. وأخت توبال قايين نَعْمَة. وقال لامك لامرأتيه عادة وصلة: "اسمعا قولي يا امرأتي لامك، وأصغيا لكلامي". (التكوين ٤: ١٩ ـ ٢٣)، كذلك جمع يعقوب بين امرأتين ليئة وراحيل. (التكوين ٣٩) [1].

رابعًا. الكتب السابقة تُقِرُّ تعدد الزوجات، وأقرته الشعوب الأخرى من غير أتباع الأديان السماوية الثلاثة:

يشير د. محمد بلتاجي أن التعدد كان معروفًا بين الأمم السابقة، وفيما يتصل بالأديان السماوية الكتابية فإننا نجد التعدد بصورة واضحة في التوراة التي يقدسها اليهود اليوم، ويشاركهم المسيحيون أيضًا في تقديسها تحت اسم العهد القديم.

ففي سفر التكوين أن سارة ـ زوجة إبراهيم عليه السلام ـ دفعت له هاجر المصرية جارتها فاتخذها زوجة ثانية، وكما يقول نص العهد القديم: "أعطتها لأبرام رجلها زوجة له". (التكوين ١٦: ٣).

وظل التعدد قائمًا ومشروعًا في أسفار العهد القديم، وظل الأنبياء وأبناؤهم وأتباعهم يعملون به كما في سفر التثنية، الإصحاح الحادي والعشرين ١٥- ١٧ ومواضع أخرى متعددة في العهد القديم.

حتى إننا لنجد أن نص التوراة يُصَرِّح بأن سليمان عليه السلام جمع بين ألف امرأة، وفي "التلمود" اليهودي ـ هو شرح يهودي للتوراة قام به أحبارهم وعلماؤهم ـ أنه لا يجوز للرجل أن يجمع بين أكثر من أربع زوجات تشبهًا بزواج يعقوب، وبشرط القدرة على الإنفاق عليهن، وأنه إذا أقسم عند زواجه الأول

---

١. بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.

بأن لا يتزوج عليها فلا يُمْكِنه الزواج من ثانية، إلا إذا سمحت له الأولى، وبعد مرور عشر سنوات من زواجها منه، وليس في هذا أيضًا منع للتعدد، وإنما فيه إباحة مقيدة.

وأما في الإنجيل فلا يوجد نصٌّ يُحرِّم تعدد الزوجات، ومع هذا نجد أن التعاليم الدينية الشائعة عن المسيحيين الآن تحرمه، وهناك فريق من الباحثين المسيحيين يرون أن تعاليم المسيحية الأولى لم تكن تتضمن شيئًا عن تحريم تعدد الزوجات، ويدللون على ذلك بأدلة قوية أهمها:

- أن الإنجيل لا يتضمن نصًا واحدًا يحرم تعدد الزوجات.
- أن لوثر مؤسس أحد المذاهب الرئيسية في المسيحية، وهو المذهب البروتستانتي كان ينظر إلى تعدد الزوجات بشيء كثير من التسامح.
- أن بعض الفرق المسيحية ناضلت بشدة من أجل تعدد الزوجات، ومارسته.
- أن بعض ملوك أوربا وأمراءها في العصر الوسيط مارسوا تعدد الزوجات.

هذا فيما يتصل بتعدد الزوجات في اليهودية والمسيحية، ونضيف إلى هذا أن كثيرًا من الشعوب الأخرى - من غير أتباع الأديان السماوية الثلاثة - كانت تمارس تعدد الزوجات، حيث كان مشروعًا في نظمها الاجتماعية.

فقد كان التعدد شائعًا بين الشعوب الإفريقية الوثنية، وما تزال له آثار بين بعض قبائلها، وكان شائعًا بين العرب القدماء قبل الإسلام بغير حد، وكان شائعًا بين الشعوب الأسيوية، ولا تزال له آثار في بعض مناطقها[1].

يقول د. توماس: يباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة وتصبح بناتنا ربات بيوت، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة، إن هذا التحديد بواحدة هو الذي جعل بناتنا شوارد، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال، ولا بد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة، أي ظن يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين أصبحوا عارًا وعالة على المجتمع، فلو كان تعدد الزوجات مباحًا لما حاق بأولئك الأولاد وأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهُون[2]، ولسلم عرضهن وعرض أولادهن، إن إباحة تعدد الزوجات تجعل كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين"[3].

الخلاصة:

- التشريع الإسلامي ملائم للفطرة وقائم على مراعاة المصالح ودفع المفاسد.
- لم يكن الزنا مقبولًا في الإسلام على أي نحو، وكانت مطالبة الزوج بكَبْت غريزته بعد الضرر الذي أصاب زوجته من مرض ونحوه من الأضرار الجسدية،

١. مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، د. محمد بلتاجي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٢٥ وما بعدها.
٢. الهُون: الذلُّ والمهانة.
٣. مجلة المنار: رشيد رضا، مج٤، ص٤٨٥، ٤٨٦، نقلا عن: المرأة بين الفقه والقانون، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص٨٢.

فشرع له الإسلام التعدد مع المحافظة على زوجته الأولى وهذا أفضل الطرق للزوجة ولأولادها ولزوجها وللمجتمع كله، لذلك فمقاصد الإسلام خمس هي حفظ: الدين، النفس، العقل، العرض، المال، وضوابطه عامة تراعي طبيعة البشر ومصالحهم.

• الغرب يعجُّ بشتى ألوان الرذائل والفواحش، وهذا نتيجة خلل التشريع الذي أخلَّ بشئون الحياة عندهم، على العكس من عظمة التشريع الإسلامي العظيم، وعلم الخالق الحكيم بطبيعة البشر.

• الأديان السماوية السابقة تبيح تعدد الزوجات، كما أنه ليس في الإنجيل نص يحرمه، وقد كان تعدد الزوجات منتشرًا في المجتمعات الوثنية كذلك؛ فلماذا يحرمونه على الإسلام؟!

الشبهة الرابعة والسبعون

ادعاء أن القرآن الكريم يدعو إلى إرهاب غير المسلمين(*)®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى إرهاب اليهود والنصارى، ويحث على قتالهم، ويقولون: إن كل الآيات التي تدعو إلى التسامح في القرآن الكريم منسوخة بآية السيف، وهي قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (التوبة: ٥)، ومنسوخة بالعديد من الآيات الأخرى، مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ (الأنفال: ٣٩)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩١) وقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: ٦٠) مدَّعين أن الإرهاب صناعة إسلامية يزعم المسلمون أنها بأمر من الله تبارك وتعالى!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الآيات التي تدعو إلى التسامح مع غير المسلمين كثيرة جدًّا وهي غير منسوخة، كما يدعي هؤلاء المتوهمون.

٢) آية السيف التي ذكرها هؤلاء جاءت بعد ظلم المشركين للمسلمين، وليس فيها دعوة إلى استمرار القتال مع غير المسلمين.

٣) فرَّق القرآن الكريم بين المعتدين من أهل الكتاب وغير المعتدين منهم، فلكل فريق معاملة خاصَّة.

٤) الكتاب المقدس مليء بالتعاليم والأوامر الإرهابية التي يرمون بها غيرهم.

٥) فرق كبير بين الإسلام وبين المسلمين، فإن كانت أخطاء بعض الأفراد وممارساتهم غير مقبولة، فالمنهج الإسلامي لا يتحمل تبعات هذه الممارسات الخاطئة.

(*) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق.

® في **"انتشار الإسلام بحد السيف!"** طالع أيضًا: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١). وفي **"موقف الشرع الإسلامي من الاغتيال والإرهاب"** طالع أيضًا: الشبهة السادسة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

التفصيل:

أولا. الآيات التي تدعو إلى التسامح مع غير المسلمين كثيرة جدًّا، وهي غير منسوخة، كما يدعي هؤلاء المتوهمون:

لقد اشتمل القرآن الكريم على العديد من الآيات التي تدعو إلى التسامح مع غير المسلمين؛ لأن الإسلام دين التسامح والرحمة، والمعاملة الحسنة مع غير أهله، ولِمَ لا وهو دين العالم كله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) فالقرآن الكريم يؤكد حرية العباد في اختيار دينهم الذي يؤمنون به، ولكن في مقابل ذلك يكون العبد مسئولًا عن اختياره هذا، ويحاسب عليه يوم القيامة، فإن كان خيرًا فلنفسه، وإن كان شرًّا فعليها: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة) واقتصر دور الرسول ﷺ على الترغيب والترهيب، والإنذار والبلاغ، ولم يؤمر بإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وهذا المعنى واضح في العديد من الآيات الكريمة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ (الكهف: ٢٩) وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الغاشية) وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ ﴾ (الشورى: ٤٨) والآيات التي تتضمن حرية الاعتقاد في القرآن أكثر من أن تُحْصى، فأين هذا الإرهاب الذي نزل في القرآن ليجبر الناس على الدخول في الإسلام دون رغبة منهم؟ هذا ادعاء باطل لا صحة له.

ثانيًا. آية السيف التي ذكرها هؤلاء جاءت بعد ظلم المشركين للمسلمين، وليس فيها دعوة إلى استمرار القتال مع غير المسلمين:

لم ينظر أصحاب هذا الادعاء إلى الظروف المحيطة التي نزلت فيها آية السيف التي يعتمد عليها هؤلاء، فالله تعالى يقول: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ ﴾ (التوبة: ٥).

والحقيقة أن هذه الآية جاءت بعد ظلم الكفار للمسلمين، وإخراجهم من ديارهم، وأخذ أموالهم وصبِّ العذاب عليهم، في هذا الوقت لم يأذن الله للمسلمين بصد هذا العدوان الذي كان من قِبل الكفار والمشركين، وعندما استفحل الظلم أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج) ونصر الله تبارك وتعالى المسلمين بجنود لم يروها؛ لأنهم أصحاب رسالة سماوية، ودين رباني من عند الله تعالى، فأين الدعوة إلى قتل الناس بغير وجه حق، كما يدعي هؤلاء؟!

ويذكر الشيخ محمد الغزالي أن ابن تيمية ألَّف رسالة صغيرة عن القتال في الإسلام، وتساءل: هل قتال الكفار بسبب كفرهم أم لعدوانهم على المسلمين؟!

وذكر رأيين لعلماء المسلمين:

الأول: يرى أنه بسبب كفرهم.

الثاني: يرى أنه بسبب عدوانهم على المسلمين، ورجح ابن تيمية الرأي الثاني، وذكر أنه قول جمهور علماء المسلمين، وهذا الرأي تدل عليه نصوص القرآن الكريم والسنة ومعاملة المسلمين لغيرهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (١٩٠) وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٩١) فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٩٢) وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣) ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ (البقرة)

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا، فهذا دليل على علة الأمر بالقتال، وقال ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ فالقتال مقتصر على صدِّ الظلم فقط، ولا يتعداه إلى العدوان والبغي. وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ فالفتنة هي تحويل المسلمين عن دينهم قسرًا، مثلما كان يفعل الكفار والمشركون بالمستضعفين، فقتال هؤلاء يكون لكسر شوكتهم وإعجازهم عن إحداث الفتنة بين المسلمين، ولم تقل الآية "قاتلوهم حتى يسلموا".

والسنة المطهرة فيها العديد من الإشارات إلى تحريم العدوان في القتال، فجاء عنه ﷺ أنه في بعض غزواته مرَّ على امرأة مقتولة، فقال: "ما كانت هذه لتقاتل"[1]. فكره ﷺ هذا العمل من قِبل من قتلها؛ لأنها لن تستطيع القتال، لا سيما وقد جاءت رواية في الصحيحين صريحة في الإنكار، فقد جاء عن عبد الله بن عمر " أن امرأة وُجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان"[2].

ويتابع الشيخ محمد الغزالي حديثه عن الادعاء القائل إن آية السيف نسخت كل الآيات التي تدعو إلى حسن معاملة غير المسلمين قائلًا: وقد ادَّعت طائفة أن الآية منسوخة، قال ابن تيمية وهذا رأي ضعيف ودعوى النسخ تحتاج إلى دليل وليس في القرآن ما يناقض الآيات التي ذكرناها، بل فيه ما يوافقها فمن أين يجيء النسخ؟

ثم يقول الشيخ: الدليل الذي يعتمد عليه القائلون بالنسخ ما يسمى بآية السيف، يعنون قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ (التوبة: ٥) وفي هذا الكلام تلبيس خطير يجب أن ينكشف لكل ذي لُبٍّ، فإن كلمة المشركين هنا فُسِّرت في الآيات السابقة والآيات اللاحقة بأنهم قوم تفاحش عدوانهم حتى بلغ حدًّا لا يطاق، وأنهم جماعة من الفُتَّاك القادرين، تعرفهم

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث رباح بن الربيع ﷺ (١٦٠٣٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (٢٦٧١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢٤).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب (٢٨٥١)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (٤٦٤٥).

عندما تقرأ الآية التي استثنت من تصان دماؤهم من المشركين وهي قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ (التوبة: ٤) هؤلاء المعتدون هم الذين أعلنت الحرب عليهم في سورة براءة، وأُعطوا أربعة أشهر مهلة ليروا ما يصنعون بأنفسهم، فهل هذا الحكم يطابق أم يخالف آية﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة)؟ إن القول بالنسخ ـ نسخ أنه لا قتال إلا للمعتدين ـ لا مساغ له أبدًا، ولا يدل عليه فقه في القرآن الكريم[1].

ثالثًا. فرَّق القرآن الكريم بين المعتدين من أهل الكتاب وغير المعتدين منهم، فلكلٍّ معاملة خاصة:

لقد فرَّق القرآن الكريم بين نوعين من غير المسلمين:

الأول: مَنْ بينهم وبين المسلمين عهد ويحافظون على هذا العهد.

الثاني: الذين لا يحافظون على عهودهم مع المسلمين، أو الذين لا عهود لهم مع المسلمين، فلكل فريق منهم معاملة خاصة، فالذين على عهدهم مع المسلمين لا يجوز للمسلمين محاربتهم ما داموا على عهدهم معهم، بل يحرُم على المسلمين محاربتهم بدون وجه حق، أما الذين ينقضون عهودهم مع المسلمين، أو ليس لهم عهد مع المسلمين، فإن اعتدوا على المسلمين فيجب على المسلمين رد هذا العدوان بكل قوة، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الممتحنة)، فالذين لم يقاتلوا المسلمين لهم حق الأمان على المسلمين، وعدم التعرُّض لهم ما داموا على عهدهم، أما الذين يعادون المسلمين فليس لهم أية حقوق، بل تجب محاربتهم إن اعتدوا ولكن هذه الحرب لمجرد صد العدوان فقط، وهذا ما تدل عليه العديد من الآيات التي جاءت في القرآن الكريم ويصعب حصرها.

فأما قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ (محمد: ٤) فهذه الآية تصف الحالة التي يجب أن يكون عليها المسلمون في ميدان المعركة، فيجب أن يكونوا شديدي البأس على الكفار الذين بدءوا بالعداء والعدوان، فهذه الآية لا تجمع كل الذين كفروا، بل تخص الذين اعتدوا منهم دون غيرهم من الكفار المسالمين، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠) فالإرهاب الذي في الآية موجه إلى عدو الله وعدوكم الذي بدأ بالعدوان ولا يوجه هنا للمسالمين من غير المسلمين، فيجب أن يفهم السياق الذي وردت فيه الآيات لكي تفسر تفسيرًا صحيحًا.

إذن فإرهاب أعداء الله مطلب رباني، ولكن من هم أعداء الله المقصودون؟ إنهم الذين يبدءون بالعداء على المسلمين، أما المسالمون فلا يحق للمسلمين إرهابهم.

---

١. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٧٧ وما بعدها.

رابعًا. الكتاب المقدس مليء بالأوامر الإرهابية التي يرمون بها غيرهم:

قبل أن يتحدث أصحاب هذا الادعاء عن معاداة المسلمين لغيرهم وإرهابهم، يجب عليهم أن ينظروا - أولًا - في كتابهم المقدس وما فيه من نصوص تدعو إلى إرهاب غيرهم، فهي أكثر من أن تحصى في هذا الموضع، ونشير إلى بعض هذه النصوص التي تحض على العدوان على غيرهم.

ففي سفر التثنية - بعد التحريف - تأتي أوامر الرب - حاشاه تعالى - لموسى عليه السلام بقتل جميع ما في المدينة حتى البهائم، والنص يقول: "فضربًا تضرب سكان تلك المدينة بحدِّ السيف، وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة، وكل أمتعتها كاملة". (التثنية ١٣: ١٥، ١٦)، ففي هذا النص إشارة واضحة إلى القتل والحرق لكل من في المدينة، حتى البهائم التي لا ذنب لها في شيء.

وفي السِّفر نفسه يقول: "وإذا دفعها الربُّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تَسْتَبْقِ منها نَسَمَة". (التثنية ٢٠: ١٣ - ١٦).

وفي سفر العدد نجد أن النص يقول: "إن موسى عليه السلام يقول لشعبه من بني إسرائيل، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلًا بمضاجعة ذكر اقتلوها". (العدد ٣١: ١٧).

كل هذه النصوص نعرف أنها نصوص باطلة ويستحيل أن تصدر عن الله تعالى أو عن نبي من أنبياء الله الكرام، ولكننا نقيم الحجة عليهم بنصوص من الكتاب الذي يؤمنون به، ويزعمون أنه من قبل الله عز وجل، فهي تدعو إلى قتل الكبار والنساء والأطفال، حتى البهائم التي لا تعقل تقتل مع هؤلاء، فأين السماحة التي تدعو إليها كتبهم المقدسة من السماحة التي يدعو إليها القرآن الكريم والمسلمون بالقول والفعل؟!

خامسًا. فرق كبير بين حقائق الإسلام وبين تطبيق المسلمين لهذه الحقائق:

هناك فرق كبير بين الشرع ومن يطبِّق الشرع، فإن كان من بين المسلمين من هو فاسد الرأي بعيد عن الفهم الصحيح لنصوص الدين، فلا يعني هذا فساد الإسلام بالضرورة، ولتنظر إلى حديث القرآن عن الأسرى الذي ظهر في ثلاثة محاور هي:

- الإحسان إلى الأَسْرى في النواحي الإنسانية، ومصداق ذلك في القرآن الكريم هو قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ (الإنسان)، وجمعت الآية بين هؤلاء جميعًا؛ لأنهم أصحاب أعذار.
- الإحسان إلى الأَسْرى في النواحي المعنوية، وذلك من خلال مواساتهم وتقديم النصح لهم، ولذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ بدعوة الأسرى إلى الدين الحق، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠﴾ (الأنفال).

- التصرف في الأسرى يكون عن طريق أمرين: إما المن وإما الفداء، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: ٤)، فقد جعل جمهور الفقهاء مصائر الأسرى الحربيين البالغين إلى الإمام؛ إما أن يقتلهم، أو يَسْتَرِقَّهم، أو يمنُّ عليهم، أو مفاداتهم بمال أو نفس، أو يمنُّ عليهم بأن يجعلهم أهل ذِمَّة وعليهم الجزية. ويتفق الفقهاء على أن الأصل في السَّبايا من النساء والصِّبْية أنهم لا يقتلون.

هذا هو الإسلام وهذا هو الشرع، أما تطبيق المسلمين لهذا الشرع فهو شيء آخر، فقد يكون التطبيق تطبيقًا صحيحًا، وقد يكون عكس ذلك، فلا نتهم الإسلام والقرآن بغير ما فيه، فأين هذا الإرهاب الذي يزعمون في حق الإسلام، فالإسلام بريء من مثل هذه الدعاوى الباطلة والكاذبة.

الخلاصة:

الآيات التي تدعو إلى التسامح من قبل المسلمين مع غيرهم كثيرة، ولا يمكن حصرها، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦) وغيرها، ونرى أن القتال فرض على المسلمين فرضًا، سواء كان مع الوثنيين أم مع الكتابيين واضطر المسلمون لخوضه دفاعًا عن أنفسهم وعقيدتهم ووجودهم.

- الآية التي قيل بأنها نَسَخت كل الآيات التي تدعو إلى التسامح مع غير المسلمين، والتي يطلق عليها آية السيف، هذه الآية كانت متعلِّقة بالظروف والسياق الذي وقعت فيه، حتى يفهم معناها ويزال اللبس والتوهم، والقول بأنها تنسخ ما قبلها قول لا يعتمد على دليل واضح وصادق، فهذا مجرد ادعاء باطل.
- معاملة المسلمين لغيرهم ليست واحدة على طول الخط، بل تنقسم قسمين:
  - الأولى: مع الذين لم يعادوا المسلمين وبينهم وبين المسلمين عهد، فهؤلاء لهم حق الأمان على المسلمين في مقابل دفع الجزية.
  - والثانية: معاملة المسلمين مع الذين يبدءونهم بالعداء أو الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد فهؤلاء يصد المسلمون عدوانهم فقط، ولا يتعدى هذا الصد حدوده التي حددها الله ورسوله.
- قبل الحديث عن دعوى إرهاب المسلمين لغيرهم من اليهود والنصارى يجب أن ننظر إلى نصوص كتابهم المقدس، وما فيه من دعوات صريحة إلى إرهاب الناس وقتلهم، حتى البهائم لم تَسْلَم من هذا العدوان.
- فرق كبير بين الإسلام وبين تطبيق المسلمين لقواعده وتشريعاته، فالإسلام رسالة سامية ومبادئ مثالية ودين حق، أما المسلمون فقد يلتزمون هذه المبادئ، وقد يهملونها أحيانًا، فمخالفتهم لها عيب فيهم لا فيها.
- إن من الجهل المُخْزِي أن يتحدث عن الإسلام من لا يعرف إعجازه العقلي وقدرته الذاتية على الانتشار والانتصار.

الشبهة الخامسة والسبعون

الزعم أن القرآن يدعو إلى الانتقام والقتل وسفك الدم(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن يدعو للانتقام والقتل وسفك الدم، ويستدلون على هذا بقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ (البقرة: ١٩٤)، ويتساءلون: هل الاعتداء بالمثل هو الحل الأمثل لعلاج الجريمة في المجتمعات لحل المشكلات الدولية؟! هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في أهداف الجهاد والقصاص في الإسلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن دعا إلى القصاص العادل لا الانتقام الأعمى الأهوج.

٢) الآية تحثُّ على الدفاع عن النفس، لا الانتقام والاعتداء على الغير.

٣) في القصاص حياةٌ للبشر، وهذه هي الحكمة من تشريعه.

التفصيل:

أولا. لقد دعا القرآن الكريم إلى القِصاص [1] وليس الانتقام:

فالقصاص عقوبة مقدرة توجب حقًّا على الواقعة الإجرامية بمثلها تمامًا. فالقصاص بحد ذاته ليس انتقامًا شخصيًّا، أو إرواءً لغليل النفوس المكلومة، بل هو أمر أعظم من ذلك، إنه حياة للأمم والشعوب.

فإن القاتل إذا علم أنه سيدفع حياته ثمنًا لحياة الآخرين فسوف يردعه ذلك عن فكرة القتل، وبهذا تستقيم الحياة، وقد ساوى القرآن الكريم بين أفراد المجتمع في الحقوق، ومنع سلب حقوق الآخرين، فشرع أن يأخذ القاضي الحق من المعتدي ويرده لصاحبه.

لذا فإن عقوبة القصاص بعيدة كل البعد عن شبهة الانتقام؛ لأن من ينظر إلى العقوبة التي شرعها الله ﷻ في جرائم الاعتداء على النفس وما دونها يظهر له الفرق الكبير بين القصاص والانتقام:

- فالانتقام يدفع إليه الحقد، أما القصاص فيدفع إليه طلب العدل والمساواة، كما يدل على ذلك اسمه.
- يتولى الانتقام المعتدى عليه أو أقرب الناس إليه، أما القصاص فيتولاه ولي الأمر، ولا يكون إلا بإذن منه.
- يقوم الانتقام ـ في الغالب ـ على الشبهات والظنون التي تثور لدى المعتدي، أما القصاص فلا يحكم به إلا بناء على دليل يقيني، بالإضافة إلى العدل في التنفيذ.
- الانتقام قد يوجه إلى غير القاتل، أما القصاص فيوجه إلى القاتل دون غيره.

أما الاعتراض المتعلق بحقوق الإنسان، فنقول: أين حق المكلوم الذي قتل، وقد يكون قد ترك أولادًا صغارًا وأسرة، أين حقه لدى من يقولون بحقوق الإنسان، فالأخذ بحقوق الإنسان ذريعة للاعتراض

(*) المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام، د. حسني الجندي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

١. القِصاص: هو أن يُوقَع على الجاني مثل ما جَنَى؛ النفس بالنفس، والجُرْح بالجرح.

على القصاص يتعارض مع حق المقتول الذي قتل ظلمًا، وينطوي على تشجيع لمن أفسد في الأرض بقتل الإنسان ظلمًا[1].

والقصاص كان عقوبة مقررة في كافة الشرائع السماوية، فقد قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾ (المائدة). وقال ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة: ٤٥)، أي في التوراة .

ثانيًا. الآية تحث على الدفاع عن النفس، لا الانتقام والاعتداء على الغير:

الفهم الخاطئ للآية: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤)، الذي فهمه منها المدعون أن القرآن يدعو إلى الانتقام، وليس الحال كما قالوا، وإنما انتزعوا الآية من سياقها، ولو قرءوا الآية من أولها لزال عنهم هذا اللَّبْس.

قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾ (البقرة).

قال أهل العلم: الكلام سياق وسباق ولحاق، فلا يجوز قطع واحد منها وإلا فسد المعنى، وهذا ما فعله المدعون في الآية. وسبب نزول الآية هو: قول المشركين للنبي ﷺ في عمرة القضاء أنهيت يا محمد عن القتال في الشهر الحرام، قال: نعم، فأرادوا قتاله فنزلت هذه الآية بإباحة القتال لهم في الشهر الحرام دفاعًا عن أنفسهم لا انتقامًا من عدوهم.

وعن ابن عباس قال: "نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صُد عن البيت، ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه المقبل، فلما كان العام المقبل تجهز وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي قريش بذلك، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام، ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام، فأنزل الله ذلك".

وذكر السيوطي عن ابن عباس في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤)، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل:١٢٦)، أنه قال: هذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل فليس لهم سلطان يقهر المشركين، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى، فأمر الله المسلمين من يجازي منهم أن يجازي بمثل ما أوتي إليه، أو يصبر أو يعفو، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأعزَّ الله سلطانه أمر الله المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، ولا يعتد بعضهم على بعض كأهل الجاهلية، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ

---

١. المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام ، د. حسني الجندي، مرجع سابق، ص٦٠٦.

﴿مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء)[1].

فإذا عُلم سبب نزول الآية، ولم تُنْزَع من سياقها، وضح معناها وزالت الشبهة وانتفت الدعوى، وبُهت المعتدي، والله المستعان.

ثالثًا. في القصاص حياةٌ للبشر، وهذه هي الحكمة من تشريعه:

الإسلام طَهَّر المجتمع من الجريمة تطهيرًا شافيًا، فلقد نص الشارع على حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ العقل، وحفظ المال، وهذه هي مقاصد الشرع من الخلق، وعلى هذا حدَّ الإسلام حدودًا لكل عقوبة من شأنها هزّ كيان المجتمع، أو الأمة الواحدة.

فقضى بإيجاب القصاص، إذ به حفظ النفس، وإيجاب حدِّ الشرب، إذ به حفظ العقول التي هي مناط التكليف، وإيجاب حدِّ الزنا، إذ به حفظ النسب والأنساب، وإيجاب زجر المغتصبين والسراق، إذ به حفظ الأموال التي هي معايش الخلق، وهم مضطرون إليها، وحدِّ الرِّدَّة لحفظ الدين من أن يكون لعبًا ولهوًا.

وتحريم تفويت هذه الأمور الخمسة، والزجر عنها يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أُريد بها صلاح الخلق، ولذا لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر[2].

وقيل: إن في حدِّ الحدود صُنْعَ تدابير وقائيَّة، فإن للإسلام طريقتين لوقاية المجتمع وحمايته من الجرائم، ووقاية الفرد وحمايته من الوقوع في هذه الجرائم، فاتخذ تدابير وقائية عامة ضد الجرائم عمومًا، وتدابير وقائية خاصة بكل جريمة من الجرائم الكبيرة على حدة.

فمثلًا: اتخذ الإسلام الكثير من الحيطة لكي يحمي الإنسان من الوقوع في الرذيلة واقتراف جريمة الزنا، فحرَّم كل ما يُسَهِّل ارتكاب هذه الجريمة، فحرَّم الخلوة بالأجنبية، قال رسول الله ﷺ: "ألا لا يخلُونَّ رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما"[3].

وحرَّم النظر إليها وتفحُّصِها، فقال ﷺ: "يا عليّ، لا تُتْبِع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة"[4]، ولما سُئل عن نظرة الفجأة قال: "اصرف بصرك"[5].

وقبل ذلك أمر الله ﷻ بغضِّ البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ (النور: ٣٠). وكذلك حرَّم الإسلام على المسلمين الدخول إلى البيوت بدون استئذان، حتى لا تقع عيونهم على ما لا يجب، وحرَّم سفر المرأة بدون مَحْرم ثلاثة أيام لما في ذلك من خطر

---

١. انظر: الدر المنثور، السيوطي، مرجع سابق، ج١، ص٤٩٧: ٤٩٩.

٢. المستصفى في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ص١٧٤.

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب لزوم الجماعة (٢١٦٥)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب فضل الصحابة والتابعين ﷺ (٧٢٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦).

٤. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث بريرة السلمي ﷺ (٢٣٠٤١)، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر (٢١٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٣).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ (١٩٢٢٠)، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر (٢١٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠١٤).

عليها وخشية وقوعها في الفتنة، كما لا يجوز اختلاط النساء بالرجال في العمل، أو دور العلم أو غيرها.

وشرع الإسلام الزكاة على الأغنياء للفقراء تأليفًا لهؤلاء المحتاجين، فلا يحقدون على الأغنياء، ولا يفكرون في الانتقام منهم، وحضَّ على الصدقة والإنفاق والبذل والعطاء للفقراء والمعوزين، قال ﷺ: "ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم"[1][2]. وباب سد الذرائع في الفقه الإسلامي كبير جدًّا ولا يسعنا الإتيان به في هذه السطور.

والقصاص حياة للأمة، على الرغم من إزهاق النفوس، وفيه مقاصد عديدة:

أولها: حفظ الأنفس، وهذا ما يجسده قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (البقرة). إذن من يدرك أنه إن قتل إنسانًا ـ فردًا أو جماعة ـ يقتل به قصاصًا، وإن اعتدى على غيره اقتص منه بمثل ما فعل من عدوان، فإنه سوف يكفُّ عن القتل والعدوان، فيكون بذلك حياة له أولًا وحياة لمن كان سيقتله ثانيًا، كما أن في الوقوف بالقصاص عند مجازاة المعتدي وحده حفظًا لحياة الآخرين؛ لأن القصاص فيه شفاء لنفوس أولياء الدم، فيرفع من نفوسهم الحقد وشهوة الانتقام، فينتهي الأمر عند القصاص، وتُنسى الجريمة.

ثانيها: تحقيق الأمن والاستقرار؛ لأن في القصاص ردعًا لمن تسوِّل له نفسه الاعتداء على حياة غيره.

ثالثها: القصاص استجابة للفطرة الإنسانية: فلقد فطر الله تعالى الناس على الدفاع عن أنفسهم في سبيل المحافظة على الأنفس[3].

الخلاصة:

ليس هناك وجه لصحة الادعاء القائل: إن القرآن يدعو إلى الانتقام، والقتل وسفك الدم، وذلك للآتي:

- القرآن دعا إلى القصاص، وليس الانتقام، والقصاص عقوبة مقدرة توجب حقًّا على الواقعة الإجرامية بمثلها تمامًا، فهناك بون شاسع بين القصاص والانتقام.

والآية التي استدل بها الزاعمون إنما تأمر بالدفاع عن النفس، لا الاعتداء على الغير، وهذا ملاحظ من خلال السياق قبلها وبعدها.

- الإسلام شرَّع القصاص؛ حتى يطهِّر المجتمع من الجريمة تطهيرًا شافيًا، فإذا به يحفظ النفس البشرية، وشرع الحدود لذلك الغرض أيضًا، وأوجب حد الشرب؛ إذ به حفظ العقول التي هي مناط التكليف، وأوجب حد الزنا؛ إذ به حفظ النسب والعرض... إلخ.
- القصاص حياة للأمم على الرغم من إزهاق النفوس به، فبه تحفظ الأنفس، ويتحقق الأمن والاستقرار، وهو استجابة للفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي الدفاع عن النفس ضد المعتدي عليها.

---

١. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٥٩)، باب الألف: أنس بن مالك ﷺ (٧٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٥).

٢. التدابير الزجرية والوقائية في التشريع الإسلامي وأسلوب تطبيقها، توفيق علي وهبة، دار اللواء، ص١١١: ١١٣ بتصرف.

٣. المقاصد الشرعية للعقوبات، حسني الجندي، مرجع سابق، ص٤١٣: ٤١٥.

الشبهة السادسة والسبعون

ادعاء أن القرآن يحث على الاعتداء على الآخر بفرضه الجهاد (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن الكريم يدعو إلى الاعتداء على المخالفين، والانتقام منهم، ويستدلون على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة). ويتساءلون: كيف يأمر القرآن المسلمين أن يقاتلوا الناس، ويخيروهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في القرآن وفي أهداف الجهاد الإسلامي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الأمر بالجهاد في الإسلام لرد العدوان، وصدّ الغاصبين.

٢) للجهاد المشروع في الإسلام ضوابط عديدة قبل القتال وفي أثنائه وبعده.

٣) الفتوحات الإسلامية خير شاهد على سماحة الإسلام وأهله.

٤) الإسلام دين الرحمة والسلام، وأتباعه حملة دعوة سامية وشريعة رحيمة يُوْصِلُونها بجهادهم النبيل إلى كل الدنيا.

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. الأمر بالجهاد في الإسلام كان لرد العدوان وصد الغاصبين:

اصطلح الغرب على مقابلة كلمة "الجهاد" بالحرب المقدَّسة. وهو مفهوم خاطئ، فالجهاد في الإسلام نوعان: جهاد النفس، والجهاد بمعنى الحرب المشروعة.

أما الجهاد بالمعنى الأول: فقد كُلِّف به المسلمون لتصفية أنفسهم من الشرور والأحقاد، والوصول إلى درجة من النقاء لا تتأتى لذوي النفوس المريضة. فالمعروف أن النفس البشرية تحتوي على نوازع الخير والشر، وتختلف طبيعة البشر في هذا، فهناك من يعلو داخله صوت الخير، والعكس صحيح (وكلما حاول الإنسان جهاد نفسه وتهذيبها نال القرب من الله، وهذا النقاء يساعده على التغلب على أهوائه وطبيعته البشرية).

أما المعنى الثاني للجهاد: فيطلق عليه الجهاد الأصغر؛ أي: تلك الحرب القائمة على رد العدوان. إذًا هو حرب دفاعية، فلم يتعطش المسلمون يومًا للدماء وسوف نُفَصِّل في هذا.

وآيات القرآن واضحة، فنرى في هذا السياق أن المسلمين لم يؤذن لهم بالجهاد إلا بعد طغيان المشركين آنذاك وتطاولهم على الرسول ومن معه، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ﴾ (الحج: ٣٩) هذا دون اعتداء أو وحشية؛ لأن هذا يتنافى مع تعاليم ديننا الحنيف، حيث قال ـ عز من قائل: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة) إذن فالأمر بالقتال هنا كان

دفاعًا عن النفس، فالإسلام لا يهوى إراقة الدماء، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وإذا كان الجهاد يعني الحرب الدفاعية فإن ذلك لا يقتصر على القتال، فقد يكون الجهاد بالمال أو بالنفس، أو بالفكر، أو بأي وسيلة أخرى تساعد على رد عدوان المعتدين بكل صوره: استعمار، غزو ثقافي أو فكري، احتلال عسكري... فالهدف إذن هو حماية المجتمع الإسلامي والدفاع عن عقيدته، وهذا حق مشروع لكل أمة من الأمم كما تؤكده المواثيق الدولية.

والإسلام يدعو إلى التعايش السلمي مع الآخرين وإقامة علاقات طيبة معهم ما لم يعتدوا على المسلمين؛ يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾ (الأنفال)، ومن هنا نجد أن القرآن يحثُّ المسلمين على التعامل معهم بالعدل والإنصاف، والبر، والإحسان: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ (الممتحنة).

ثانيًا. للجهاد المشروع في الإسلام ضوابط عديدة:

وإذا كان هذا العمل في سبيل مرضاة الله فقد شرَّع له ضوابط تنظمه؛ لئلا يكون ظلمًا والله عز وجل هو الحكم العدل، لاحظ هذه الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ (البقرة) قد اشتملت هذه الآية على أربعة ضوابط للقتال المأمور به:

- أن يكون مقصورًا على من قاتلنا فعلًا، أو ظنًّا مقرونًا بالدلائل.
- أن يكون القتال في سبيل الله؛ أي لنُصْرة الحق لا من أجل المصالح، أو الأهواء الشخصية، أو الانتقام فقط.
- تجنب التجاوزات؛ مثل: قتل الشيوخ والنساء، والذرية الضُّعفاء، والرُّهبان المعتزلين في خلواتهم، بل وجميع المَدَنِيِّين الذين لا يقاتلون.
- الترهيب من الاعتداء بعد النهي عنه؛ لأن الله لا يحب المعتدين.

أما أنواع هذه الضوابط، فهي:

١. **ضوابط قبل بدء القتال ومنها:**

- ألا نقاتل العدو إلا إذا سُدَّت كل الطرق أمام التوصُّل إلى عقد اتفاق سلمي حول النزاع الناشب بيننا وبينه.
- ألا نبدأهم بالقتال إلا إذا بدءوا هم مع أخذ الحذر الدقيق منهم، وترقب حركاتهم حتى لا نؤخذ على غِرَّة[1]، ويجوز مبادأتهم بالقتال في حالات الضرورة.
- أنه إذا كان بيننا وبينهم عهد بعدم الاعتداء وبدرت منهم بوادر قوية على خيانة العهد، فيجب علينا أن نُعْلِمَهم بنقض العهد من جانبنا قبل أن نقاتلهم، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ (الأنفال).

١. **ضوابط في أثناء القتال:**

وهي تشرح الاعتداء المنهي عنه في ضوابط القتال، بالإضافة إلى أمرين:

---

١. الغِرَّة: الغفلة.

- عدم المُثْلَة[1] بالقتلى، لتقطيع أطرافهم، وتعليقهم على حوامل، أو أعمدة، أو بَقْر بطونهم، أو تلطيخ وجوههم بمواد مشوهة، فقد ثبت النهي عن المُثْلة؛ لأنها حقيرة ولا تليق بكرامة الإنسان مسلمًا كان أو غير مسلم.

- الاستجابة إلى كفِّ القتال، إذا طلب العدو بشرط الحذر من الخديعة، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال).

١. **ضوابط ما بعد القتال وهي ضربان:**

الأول: سلوكيات تتعلق بأثر القتال وما نتج عنه، مثل: التصرف في الأسرى، فقد كان مصيرهم قبل أن يقتلوا ثم أصبحوا في دائرة المَنِّ أو الفِدْيَة، على حسب تقدير إمام المسلمين للمصلحة العامة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ (محمد: ٤). كما حثَّ القرآن الكريم هنا على العفو: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ (الأنفال) والمعاملة بالحسنى، واستبعاد الاسترقاق، والقتل، وغيرها من أعمال وحشية لا تليق بتسامح الإسلام والمسلمين.

الثاني: سلوكيات تختص بواقع المسلمين بعد إحراز النصر، وهي الالتزام الكامل بمنهج الله من التواضع، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونصر الله، واتباع هديه في كل شئون الحياة الخاصة والعامة، تأمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (الحج) ومن الأمانة أن ندلي هنا بشيء هام مؤداه أن معظم الغزوات التي خاضها المسلمون كانت باختيار العدو.

وجهاد الكفار فرض كفاية على المسلمين إذا كانوا ببلادهم والغرض منه إعلاء كلمة الله، وتبليغ دعوة الحق للناس حتى يهتدوا بنور الله، فالحرب وسيلة لا غاية، وهي ضرورة يلجأ إليها المسلمون إذا عجزت الوسائل السلمية، عن إقرار الحق في الأرض.

وقتال الكفار ليس مقصودًا لذاته، وإنما المقصود هو هدايتهم إلى الدين الحق، وعدم التعرُّض للدُّعاة، وإذا تأملنا هذا الحديث لفهمنا المراد من فرضية الجهاد. فعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن أعرابيًّا أتى رسول الله ﷺ فقال: الرجل يُقاتل للذِّكْر، ويقاتل ليُحْمَد، ويقاتل ليَغْنَم، ويقاتل ليُرَى مكانه.. فمن في سبيل الله؟ قال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله"[2].

إذن فأسباب القتال خمسة: طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحميَّة، والغضب، ليس فيها ما يؤجر عليه المرء إلا إذا قصد بذلك مرضاة الله.

وسُئل رسول الله ﷺ: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذِّكْر، ما له؟ فقال الرسول: "لا شيء"، فأعادها ثلاث مرات، ثم قال: "إن الله تعالى لا يقبل من

---

١. المُثْلة: التنكيل.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتات الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢٦٥٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٥٠٢٨).

العمل إلا ما كان خالصًا له، وابتُغِي به وجهه"[1][2] ®.

ثالثًا. الفتوحات الإسلامية خير شاهد على سماحة الإسلام وأهله:

ويوضح د. محمود محمد الطنطاوي في كتابه "السلام والحرب في الشريعة الإسلامية" هذا الموضوع فيقول:

لم تقم الفتوحات الإسلامية على التخريب والنهب مثلما هو الحال في الاستعمار الذي يهدف إلى إذلال الشعوب ونهب ثرواتهم الظاهرة والباطنة، وبالتالي تقييد الحريات، وظلم العباد، وإنما قامت على أسس حضارية، ولو نظرنا إلى مدى التقدم والازدهار التي وصلت إليه الأندلس على يد المسلمين آنذاك، وهي جزء من أوربا، لعرفنا حرصهم على إنقاذ البشرية وإخراجهم من غيابات الجهل.

ومما يدعم قولنا هذا تلك المقولة التي حفظها لنا التاريخ لهذا الصحابي الجليل الذي ربما لم تكتب له الشهرة، ولكن قوله أدل عليه من تعريفنا له، قال "ربعي بن عامر" يخاطب التاريخ، والحاضر، والمستقبل موضحًا هدف المسلمين في فتح البلاد: "جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة".

إذن فهذه الفتوحات جاءت لإزالة العقبات بين الناس وبين دين الله، حيث لا يكون للفراعنة، ولا للقوارين[3]، ولا للهامانات[4] أي تأثير على قرارهم حين يعرض عليهم دين الله "الإسلام" وبعد إزالة العقبات يكون للناس مطلق الاختيار؛ لأنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) فإن فعلوه وإلا ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ (الكافرون) لأنه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٨﴾ (العنكبوت)[5].

رابعًا. الإسلام دين الرحمة والسلام:

الإسلام يدعو إلى العدل والسلام، ويصون حرية الإنسان وكرامته، فهو ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء) كما ورد في القرآن الكريم، وقد وصف النبي ﷺ رسالته بقوله: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"[6]. والإسلام يمنح الإنسان حرية الاختيار حتى في أمور الاعتقاد: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ (الكهف: ٢٩) والدعوة إلى الإسلام تقوم على الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥)، كما يتضح

---

١. صحيح: أخرجه النسائي في المجتبى، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣١٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٢).

٢. السلام والحرب في الشريعة الإسلامية، د. محمود محمد الطنطاوي، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٥٨، ٥٩ بتصرف.

® في "ضوابط الحرب والجهاد في الإسلام" طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة الثانية، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية). والوجه الثاني، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

٣. القوارين: جمع قارون.

٤. الهامانات: جمع هامان، وهو وزير فرعون.

٥. انظر: السلام والحرب في الشريعة الإسلامية، د. محمود محمد الطنطاوي، مرجع سابق، ص٦٠ وما بعدها.

٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٩٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق (٢٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩).

رفق الإسلام في قوله تعالى آمرًا موسى وأخاه هارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (طه) ودعا إلى مقابلة السيئة بالحسنة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت).

وقد عفا النبي ﷺ عن أهل مكة عند فتحه لها رغم إساءتهم إليه، وإخراجه من وطنه، وقتل أصحابه وتعذيبهم، وقال لهم: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"[1]. أفلا يدل هذا على تسامح الإسلام وحقنه للدماء، مقارنة بحروب الآخرين المقدسة التي قتلوا فيها وصلبوا وذبحوا النساء والشيوخ والأطفال (الحروب الصليبية مثلًا)؟!

أما عن كلمة الإسلام فهي مشتقة من السلام، أي لا مكان للعنف، أو القهر، أو الإرهاب، وترويع الآمنين. فكل إنسان آمن على حياته، ودينه وعقله، وأسرته وممتلكاته.

ومن هنا حرَّم الإسلام الاعتداء على الآخرين، حتى جعل الاعتداء على فرد واحد من أفراد الإنسانية كأنه اعتداء على البشرية كلها: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ٣٢) وفي الحديث الشريف: "من قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا"[2]. أفبعد كل هذه البراهين يصرون على أن الإسلام يحض على سفك الدماء؟!

الخلاصة:

- الإسلام دين السلام، ولكنه لا يدعو إلى الاستسلام، فالقرآن الكريم حينما فرض الجهاد على المسلمين كان ذلك ردًّا لعدوان المغتصبين، ودفاعًا عن الإسلام والمسلمين، فالفطرة التي فطر الله الناس عليها هي الدفاع عن النفس عند الشعور بالخطر، فلا معنى أن يُهاجم المسلمون ويُعتدى عليهم، ثم بعد ذلك يقفون مستسلمين، هذا ما لا يقبله عقل، ولايقره دين.
- عندما فرض القرآن الجهاد، وضع له ضوابط عديدة، منها ما هو قبل القتال، مثل: ألا نَشْرع في القتال إلا إذا سُدَّت كل سبل الاتفاق السلمي، ومنها أيضًا عدم البدء بالقتال وغيرها، أما في أثناء القتال، فالاستجابة إلى كفِّ القتال إذا طلب الأعداء ذلك، ومنها: النهي عن التمثيل بالقتلى بالصلب وغيره.
- أما ما بعد القتال، فهناك سلوكيات تتعلق بأثر القتال، وما نتج عنه، وأخرى تختص بواقع المسلمين بعد إحراز النصر، وكل هذا يدل على أن الإسلام عندما شرع الجهاد لم يطلق العنان للمسلمين فيه، وإنما قيدهم بقيود شديدة.
- الفتوحات الإسلامية خير شاهد على مدى تسامح وسمو الإسلام وأهله، فقد قامت الفتوحات الإسلامية على أسس حضارية عظيمة وأهداف سامية، والأندلس خير شاهد على ذلك بالنظر إلى مدى التقدم والازدهار التي وصلت إليه على يد المسلمين، نرى أيضًا سماحة الإسلام في صون حرية الإنسان، وحرية اعتقاده، ومدى رفقه وعفوه عن المعتدين، فهذا هو

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٤٧٢٤).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب إثم من قتل ذميًّا بغير جرم (٦٥١٦).

إسلامنا، وهذا هو قرآننا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

- إذن ليس هناك أي وجه لصحة الادعاء القائل: إن القرآن يغري أتباعه بالعدوان أو التعدي على الآخرين.

الشبهة السابعة والسبعون

دعوى أن القرآن يدعو إلى النهب(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن الكريم أحلَّ نهب أموال الغير، والتمتع بها، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ (الأنفال: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾﴾ (الأنفال). هادفين من وراء ذلك إلى جعل الغنيمة نهبًا لا يحل للمسلمين أخذه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الغنيمة ليست نهبًا - كما يتوهم هؤلاء - إنما هي مال أهل الحرب يأخذه المسلمون؛ حتى لا يتقوى به العدو على محاربة المسلمين.

٢) الإسلام لم يدع إلى النهب والسلب، بل دعا إلى الصفح ورد الأموال.

٣) من أخلاقيات الحرب في الإسلام: الدعوة إلى الإسلام وإنذار الأعداء ثم إمهالهم، فإن أبوا إلا القتال قوتلوا.

٤) الغنائم التي أُحِلَّت للمسلمين لم تَحِلَّ لغيرهم، ومع هذا استحلَّ أهل الكتاب النهب والسلْب، وهناك فرق بين النهب وبين الغنيمة والفيء.

٥) تقسيم الغنائم، معاملة الأسرى، العتق، كلها مبادئ إسلامية سامية، تختلف عن مبادئ القانون الدولي، ودعاوى الديمقراطية في العصر الحاضر.

التفصيل:

أولا. الغنيمة ليست نهبًا، إنما هي مال أهل الحرب يأخذه المسلمون؛ حتى لا يتقوى به العدو على محاربة المسلمين:

لقد أحلَّ الله الغنيمة للأمة الإسلامية خاصة، ولم تحل لأمة من قبل، وفيها كسر لشوكة أعدائهم، وتمكين لهم من المال الذي قد يتزوَّدون به في إعداد عدتهم وجلب أسلحتهم، والإنفاق منها على مصالح المسلمين ورعاية شئونهم، ثم إننا نسأل لمصلحة من ترك هذا المال الذي ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر من عدوهم.

ثانيًا. الإسلام لم يدعُ أتباعه إلى النهب أو السلب، وأخذ أموال الناس بغير وجه حق:

دعا الإسلام إلى الصفح والعفو ورد الأموال والممتلكات إلى أصحابها، وحرَّم أكل أموال الناس بالباطل، حتى وإن كانوا على غير ملة الإسلام، فقد قال النبي ﷺ في ذلك: "من أخذ أموال الناس يريد إتلافها، أتلف الله عليه، ومن أخذها يريد أداءها

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

أدى الله عنه"[1].

وقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ (البقرة: ١٩٠) والمسلمون بهذه الآية منهيون عن المُثْلة، وعن الغُلُول[2]، وقتل النساء والصبيان والشيوخ، وقتل أصحاب الصوامع، وعن تحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة[3].

وأعظم من ذلك أن الذي كان يُسْلِم من الأسرى كان يرد عليه ماله، ولا يؤخذ منه شيء، وكانت المرأة من السَّبْي إذا أسلمت خُيِّرت بين الرجوع إلى أهلها، وأن يتزوجها أحد المسلمين، كما حدث من النبي ﷺ مع صفية بنت حُيَي بن أخطب.

ثالثًا. أخلاقيات الإسلام في الحرب من أمثل وأرقى الأخلاقيات:

أخلاقيات الإسلام في الحرب ليست كالتي كانت عليها القوانين الحربية في الجاهلية، أو في العصر الحاضر من الأمم المتسلطة، فالإسلام يدعو أعداءه إلى الإسلام أولًا، فإن أجابوا، وإلا دفعوا الجزية، فإن أبوا الإسلام أو دفع الجزية، أو ترك المسلمين يدعون إلى الإسلام، قُوتلوا بعد إمهالهم ثلاثة أيام.

والإسلام الحنيف يدعو إلى قتال من قاتله، ويكفُّ عمن كف عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة). وكان الإسلام أسبق من الاتفاقيات الدولية في حظر الأعمال العدوانية غير الإنسانية في حالة الحرب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة).

وبهذا العرض اتضح أن الحرب المشروعة في الإسلام هي الحرب الدفاعية ضد المعتدي الذي يخرج المسلمين من ديارهم وأرضهم، أو يمنعهم من إقامة شعائر دينهم، أو يعتدي على أعراضهم وأموالهم، أو يُشَنِّع عليهم ويكيد لهم، ويوقع بينهم وبين غيرهم الخصومات والفتن والعداوات، فهذه كلها أعمال عدوانية تستوجب الرد عليها بمثلها[4].

وقد مرَّ بنا أن الإسلام نهى عن قتل الأطفال، والنساء، والرهبان والشيوخ، ونهى عن قطع الأشجار، وهتك الأعراض، وتدمير المزروعات، ولما وجد رسول الله ﷺ امرأة مقتولة في إحدى الغزوات أنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان[5] ®.

رابعًا. الغنائم والفيء والجزية أحلها الله للمسلمين، في حين استحل أهل الكتاب النهب والغنيمة لأنفسهم وهي محرمة عليهم:

أحلَّ الله ﷻ الغنائم للأمة الإسلامية دون غيرها من الأمم، فقد قال رسول الله ﷺ: "وأُحِلَّت لي

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض وأداء الديون، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها (٢٢٥٧).

٢. الغلول: الغدر.

٣. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٦٦.

٤. المرجع السابق، ص١٨٦٦.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في العرب (٢٨٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان (٤٦٤٦).

® في "**أخلاق الحرب في الإسلام**" طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١). والوجه الرابع، من الشبهة التاسعة والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

الغنائم"[1]. وهذا مما فَضَّل الله ﷻ به هذه الأمة عن غيرها من الأمم، وإذا كان الله ﷻ أحلَّ الغنائم للمسلمين، فإن في التوراة تحليلًا لها، ففي سفر التثنية: "وغنيمة المدن التي أخذنا.. الجميع دفعه الرب إلهنا أمامنا". (التثنية ٢: ٣٥، ٣٦)، وفي سفر التكوين في صفات بنيامين: "في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبًا". (التكوين ٤٩: ٢٧).

ومن أوصاف محمد رسول الله ﷺ في التوراة أنه يقسم الغنائم، ففي نبوءة العبد المتألم: "ومع العظماء يَقْسِم غنيمة". (إشعياء ٥٣: ١٢)، ولكن النصارى يفسرونها على المسيح مع أنه لم يحارب أحدًا، وفي المزمور عن محمد ﷺ "الملازمة البيت تَقْسِم الغنائم". (المزمور ٦٨: ١٢)[2].

والغنيمة: هي ما غلب عليه المسلمون من مال أهل الحرب حتى يأخذوه عَنْوة[3][4].

والفَيء: هو كل مال وصل إلى المسلمين من المشركين من غير قتال، ولا بإيجاف[5] خيل ولا ركاب[6][7].

وأما النَّهب: فهو كل مال أخذ عَنْوة بغير وجه حق، وغالبًا ما يترتب عليه إزهاق أنفس بريئة كالنساء والأطفال.

خامسًا. إن تقسيم الغنائم ومعاملة الأسرى مبادئ إسلامية سامية تختلف عن مبادئ القانون الدولي:

فقد حضَّ الإسلام الحنيف وأكدت مبادئه على حسن معاملة الأسرى من النساء والعبيد والصبيان، وحرَّم قتلهم، وقد اتفق الأئمة والعلماء على حرمة قتلهم، إلا إذا اشتركوا في القتال، وباشروا في مقاتلة المسلمين، فإنهم يقتلون مقبلين، ويجب الإعراض عنهم مدبرين.

وكان الأسير إما أن يَفْدي نفسه بمال، وإما أن يرضى بالإسلام فيدخل في صف المسلمين، ولا يقتل إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وتظهر رحمة النبي ﷺ حتى في تقسيم الغنائم، ففي غزوة حنين بعد ما عاد إلى الجعرانة، وفيها السبي والغنائم التي أخذت من هوازن في غزوة حنين، قَسَّم السَّبي هناك، ثم قدم عليه وفد هوازن وقد أسلموا، وسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم: "اختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال، وقد كنت استأنيت بكم[8]، وكان النبي ﷺ قد أنظرهم بضع عشرة ليلة حين رجع من الطائف. ثم قال لهم ﷺ: "أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فإني

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم (٣٣٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩١).

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥٣٥.

٣. عَنْوة: قهرًا.

٤. سيرة عمر بن الخطاب، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ط٦، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٣٦٠.

٥. إيجاف الخيل: حثُّها على السير.

٦. الرِّكاب: ما تُوضع فيه الرِّجْل.

٧. سيرة عمر بن الخطاب، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص٣٦٠.

٨. استأنيتُ بكم: أي أخَّرتُ قسم السَّبْي والغنائم أملًا في إسلامكم.

سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم". وقد تمَّ لهم من أرادوا، حيث ردَّ معظم المسلمين السبي لأصحابه مقتدين برسول الله ﷺ[1].

فأين هذه المبادئ في المجتمع الدولي والقوى الدولية، التي لا تَرْقُب في مؤمن إلًّا ولا ذِمَّة؟ وإن خير ما يشهد على مبادئهم وأخلاقهم، ما يحدث اليوم في العراق وفلسطين، وأفغانستان، وغيرها من بلاد المسلمين.

وأكبر شاهد على ذلك انتهاكات حقوق الأسرى والمعتقلين من الدول الراعية لحقوق الإنسان وحقوق الحيوان في السجون العراقية، وفي القاعدة البحرية الأمريكية التي يعتقلون فيها أفرادًا من المسلمين من مختلف أجناس العالم، والتي أُذِيعت على شاشات التلفاز ورآها القاصي والداني والصغير والكبير.

فهل سمعنا بمثل هذه الانتهاكات في صفوف من أسرهم المسلمون على مدى التاريخ®؟!

الخلاصة:

- الغنيمة هي مال أهل الحرب المعادين للإسلام يأخذها المسلمون، حتى لا يتقوى بها أعداؤهم على محاربتهم، وليست نهبًا كما يزعمون.
- لقد دعا الإسلام إلى رد الحقوق إلى أصحابها، ومنع أخذ حق الغير من غير وجه حق، وحرَّم قتل الراهب في صومعته والطفل والمرأة، وحرَّم تدمير الاقتصاد من الزراعة، أو الصناعة، إلا إذا دعت الضرورة لذلك.
- حث الإسلام على تحرير العبيد، وحسن معاملة الأسرى، وقبول الفداء منهم، ووعد بالأجر مرتين لمن كانت له أَمَة فأحسن تربيتها، فاعتقها ثم تزوجها، ونهى عن السَّلْب والنهب القائم على التَّشفِّي والإضرار بالآخر دون وجه حق.
- في حين أن المجتمع الدولي المعاصر لم يراع أيًّا من هذه الأخلاقيات على مدى تاريخه السيء، والذي يحفل بالجرائم التي تَشِيْب لها الرءوس وليس ما حدث في سجون العراق وغيرها منا ببعيد.

الشبهة الثامنة والسبعون

الزعم أن القرآن يحل الإغراء بالمال (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن يُحِلُّ الإغراء بالمال، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾ (التوبة). مُدَّعين أن هذه الزَّكَوات والصدقات هي رِشْوةٌ للفقراء والمساكين وذوي الحاجة تدفع إليهم لإغرائهم

١. انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي، مكتبة دار الدعوة، مصر، ط٦، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٣٦.

® في **"معاملة الأسرى في الإسلام"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثانية، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية). والوجه الأول، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١).

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com

باعتناق الإسلام.

ويتساءلون: هل يبيح الإسلام الإغراء بالمال للدخول فيه؟ وهل يؤجَّر الناسُ ويُرشَوْن لاعتناق دينٍ لا يرغبون فيه؟ هادفين من وراء ذلك إلى القول بأن الإسلام يغري الناس بالمال للدخول فيه دون رغبة منهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام منهج رباني راعى نفوس البشر، وراعى الفروق بينها.

٢) لو كانت الزكاة والصدقة إغراءً، فكيف يكون الحال مع الجنة ونعيمها؟!

٣) إذا أطلقنا على تأليف القلوب ـ عند المسلمين ـ إغراءً بالمال، فبماذا نسمي ما يفعله الغرب النصراني في دول العالم الإسلامي الفقيرة من إغراء بالمال من أجل التنصير؟

التفصيل:

أولا. الإسلام منهج رباني راعى نفوس البشر، وراعى الفروق بينها:

إن هذا المنهج الرباني يعني أنه من عند الله الذي هو رب العباد، وكلمة رب تعني: صاحب ومالك، وهي أيضًا مشتقة من التربية. فالذي يملك الناس ويربيهم هو الذي شرع ذلك، وانظر إلى عظمة هذا التشريع كيف راعى نفوس البشر؟

فالناس نفوسهم ليست واحدة، فهناك نفوس قوية وأخرى ضعيفة، وهناك نفوس أَبِيَّة عالية تسير في الطريق الذي اقتنعت به دون أن يدفعها دافع، أو يجذبها جاذب، وأخرى دنية برغم اقتناعها بالمبدأ الذي هي عليه إلا أنها تنظر إلى الأمور من وجهة نظر مادية.

فالإسلام راعى هؤلاء وهؤلاء فهل يعيبه شيء في ذلك؟ هل يعيبه أنه ينزل إلى الناس حيث كانوا، ويأخذ بأيديهم ويعلو بهم إلى أعلى الدرجات؟ أم كان عليه أن يظل مرتفعًا في عنان السماء في برج عاجي يدعو الناس إلى أن يصعدوا إليه، إنها مثالية الإسلام الواقعية، لا المثالية النظرية التي تبنتها كثير من المِلَل والنِّحَل الوضعية، إنها مَزِيَّة لا سُبَّة امتاز بها هذا الدين الحنيف عما سواه من المناهج والأفكار الأخرى.

والمؤمنون درجات، فليسوا سواءً؛ منهم من آمن اقتناعًا، ومنهم من آمن وأمسك على نفسه في زُمْرة المؤمنين إغراءً، ودليل ذلك رد النبي ﷺ على سعد بن أبي وقاص حينما قال له: "يا رسول الله، ما لك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال ﷺ: "أو مسلمًا"، فسكت قليلًا ثم غَلَبَني ما أعلم منه، فعُدْتُ لمقالتي فقلت: ما لك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنًا. فقال ﷺ: "أو مسلمًا"، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: "يا سعد، إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبَّه الله في النار"[1].

وقد صرَّح ابن حجر العسقلاني في "الفتح" باسم الصحابي الذي لم يُعْطَ، وهو جُعَيْل بن سُراقة الضَّمْرِي، فدرجة جعيل بن سراقة في الإسلام ليست كدرجة الآخرين الذين أعطاهم النبي ﷺ الأعطيات،

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام (٢٧)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه (٣٩٥).

بل هي أعلى وأرقى.

وليس معنى هذا أن ديننا يدلل أتباعه، أو أن المسلمين هؤلاء قوم سذج يعطون عطاء السذج فيستغلهم المستغلون؛ فهذا فاروق أمتنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقف سهم المؤلفة قلوبهم في خلافة الصديق ويقره الصديق رضي الله عنه على ذلك®.

وإذا كان الإحسان إلى الناس إغراءً لهم بالدخول في الإسلام، فإن أخذ الجزية من اليهود والنصارى إذا أصروا على عقيدتهم ينفي هذا الإغراء، فلو كان التأليف إغراء؛ لما أخذ المسلمون منهم أموال الجزية "حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"، وهل يسمى النصارى مكارم الأخلاق إغراء[1]؟ هذا ديننا فأعظم به من دين، راعى نفوس البشر وطبائعها التي جبلت عليها.

ثانيًا. لو كان المال إغراءً فما بالنا بالجنة ونعيمها؟!

إن من صور عظمة هذا الدين، أنه أقر مبدأ الثواب والعقاب في تعامله مع النفس البشرية، فها هي النار تنتظر من ابتعد عن طريق الله عز وجل: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢)﴾ (النبأ).

وها هي الجنة أعدها الله تبارك وتعالى مأوى لمن أطاعه وسار في طريقه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ (النازعات). وليس الأمر في الإسلام حسب ما تقرر في الديانات المحرفة، إن الجنة للطائع والنار لمن عصى، بل ومقرر أيضًا في المناهج الوضعية، فلو قارنا المال بالجنة، أيهما يكون إغراءً؟

فالرسول صلى الله عليه وسلم يجيب عن مسألة في صفة الجنة فيقول: "لَبِنة من ذَهَب، ولبنة من فضة، ومِلَاطُها[2] المسك الأَذْفَر[3]، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتُرْبَتها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت ولا يبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم[4]".

وهذا وصف ربنا تبارك وتعالى للجنة في كتابه العزيز: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ (السجدة)، وهذا وصف آخر: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (محمد: ١٥)، ما تقدم في وصف الجنة قليل من كثير، فأي الأمرين أعظم، إغراءً بالمال أم بالجنة®؟

إنَّ التوازن في التعامل الرباني مع النفس البشرية على العكس تمامًا من تعامل المناهج الوضعية والمحرَّفة مع هذه النفس، فها هي المناهج الوضعية من حولنا تتعامل تعاملًا معوجًّا مع النفس البشرية، فكم من محسنٍ ولا ثواب، وكم من مسيء ولا عقاب، وهذا له أخطر الأثر

® في "**موقف عمر من سهم المؤلفة قلوبهم**" طالع: الشبهة الثالثة، من الجزء السادس عشر (أصالة التشريع الإسلامي).

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥٣٠ بتصرف.

٢. المِلاط: المادة التي تُوضَع بين اللَّبنتين.

٣. الأذْفر: شديد الريح.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٦٧٤٢)، والدارمي في سننه، كتاب الرقاق، باب في بناء الجنة (٢٨٢١)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

® في "**عقيدة الجنة والنار وسيلة لخداع الناس**" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

على الفرد والمجتمع على حد سواء.

فالفرد المحسن يتساءل: لماذا أُحسِن ولا أحد يرى هذا الإحسان؟ لماذا أحسن وأنا مع إحساني هذا مهان؟ أيضًا المخطئ يتساءل: لماذا أخطئ ولا عقاب؟ وتكون نتيجة ذلك انتشار الفساد وشيوعه، وانزواء الصلاح وضياعه، وتكون الكارثة الكبرى كما نرى في واقعنا الأليم، هجرة كثير من عقول أبنائنا الفذَّة إلى الغرب مهرولين يبحثون عن تحقيق ذواتهم، تاركين بلادهم التي يسميها الغرب دول العالم الثالث.

لو وجد هؤلاء توازنًا في التعامل معهم ما هاجروا، فحضارتنا الإسلامية السمحاء كانت مَعْقِل الأفذاذ، فهذا أحد المستشرقين يقول: "أشهد أن الخوارزمي هو أعظم عقلية رياضية عرفتها البشرية".

وهذا خليفتنا المأمون الخليفة العباسي يعطي من ترجم له كتابًا وزنه ذهبًا، ورسولنا محمد ﷺ يقر هذا التوازن مع النفس البشرية حينما يسأله أحد الصحابة يا رسول الله إنا لنأتي الصالح من العمل، فيذكرنا الناس فَنُسَرُّ لذلك، فقال ﷺ: "هذا عاجل بشرى المؤمن في الدنيا"[1]. بالله عليكم هل على سطح الأرض منهاج أعظم أو أجل من هذا المنهاج؟ كلام الله تبارك وتعالى.

والمناهج التربوية المعاصرة أقرت هذا المبدأ مؤخرًا، مبدأ التعامل مع النفس البشرية بالثواب والعقاب، فهل يكون سُبَّةٌ للإسلام أنه راعى النفس البشرية، وأقر هذا المبدأ؟!

ثالثًا. إذا أطلقنا على تأليف القلوب عند المسلمين إغراءً بالمال، فبماذا نسمي ما يفعله الغرب في شتى بقاع عالمنا الإسلامي المعاصر؟

إن الإسلام نبيل في أهدافه، شريف في وسائله، والقولة المشهورة "الغاية تبرر الوسيلة" ينكرها الإسلام جملة وتفصيلًا، ويتخذها سواه من الملل والنحل الباطلة أساسًا لتعامله مع الإسلام وغيره؛ ها هم المبشرون والمنصرون يجوبون العالم شرقًا وغربًا، يأتون الشعوب الفقيرة الضعيفة يعرضون عليهم المال والطعام والشراب شريطة أن يتبعوا دينهم المحرف، وإندونيسيا أكبر بلد إسلامي في تعداد سكانه، خير شاهد على ذلك، والسودان، والصومال، وغيرهما كثير، حيث يعتمد المبشرون في تحقيق أهدافهم وتمويلها على ما تقوم به المؤسسات الدينية والسياسية والتجارية في الغرب، كما يقوم ملوك وأمراء وأثرياء الغرب النصراني بالتبرعات والإنفاق على حركة التبشير، وقد وردت على صناديق إرساليات التبشير، أموال كثيرة منها ٦ مليون فرنك في السنة تدخل في صناديق جمعيات التبشير البريطانية والأيرلندية، و ٦٧ مليون فرانك لصندوق الجمعية الأمريكية، و ٧٠ مليون فرنك للجمعيات الاسترالية.

هذه إنفاقات عدد بسيط من الجمعيات التبشيرية، فإذا عرفنا العدد الهائل لهذه الجمعيات عرفنا مدى خطورة التنظيم المالي لحركة التبشير[2]، ولقد استغل النصارى فقر المسلمين وحاجتهم في مجاهل أفريقيا،

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره (٦٨٩١).

٢. احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د. سعد الدين السيد صالح، دار التقوى، مصر، ط٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٥٥، ٥٦ بتصرف.

حتى إن البعثات التبشيرية في السنغال كانت توقع عقودًا مع الأسر الفقيرة، تُقدِّم البعثات بموجبها إلى هذه الأُسَر مساعدات عينية ضئيلة من أرز وخبز في كل شهر على أن لها حق اختيار أحد أطفال الأسرة دون الخامسة من عمره، ثم يُربى تربية مسيحية، ويرسل إلى فرنسا لاستكمال تعليمه العالي[1].

وهكذا يستخدم المبشرون أعمال الإحسان والبر استخدامًا سيئًا، فما كانوا يحسنون ولا ينفقون إلا بمقدار ما ينتظرون من فوائد عاجلة، حتى كان من أسس التبشير عندهم: أن أعمال الخير يجب أن تستعمل بحكمة، فلا تنفق الأموال بدون حساب، بل يجب أن تعطى الأموال للبعداء، ثم يقل دفعها تدريجيًّا كلما زاد اقتراب هؤلاء إلى الكنيسة، فإذا دخلوها منعت عنهم أعمال الخير[2].

فهؤلاء حُقَّ فيهم قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الأنفال).

أما المسلمون فكما وصفهم سيدنا ربعي بن عامر لملك الفرس: "ونحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

فتلك أهداف المسلمين أن يُحرروا الناس من استعبادكم لهم، وسوقكم إياهم إلى النار سوقًا يا من تدعون إلى الحرية؛ فالحرية الحقة عندنا نحن المسلمين، وهذا إعلان قرآننا الخالد: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، لا إكراه بمال أو سلاح كما تفعلون.

وهذا الفاروق عمر رضي الله عنه يعلنها مدوية في الآفاق لواليه عمرو بن العاص: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"، وأخيرًا:

مَلَكْنَا فَكَان العَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً

وكُلُّ إناءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ

فَحَسْبُكُم هذا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا

وكُلُّ إناءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ

كما أن الصدقة لم تختص بالمسلمين الفقراء لتأليف قلوبهم، بل تعدى نفع الصدقة إلى غير المسلمين من الفقراء والمساكين، حتى وإن ظلوا على كفرهم، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم ونهى عن ظلمهم، أو التعدي على أموالهم، ولقد شهد التاريخ بحسن معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الكتاب خاصة الفقراء منهم والمساكين قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة)®.

الخلاصة:

- إن التشريع الإسلامي مستمد من الخالق عز وجل؛ لذا جاءت أحكام الإسلام تناسب طبائع البشر ونفوسهم، وهدفها الارتفاع بالجميع، لكنها تبدأ من الدرجة التي هم عليها لا تطالبهم أن يصعدوا هم لها،

® في **"حقيقة تأليف القلوب في الإسلام"** طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة العشرين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

1. المرجع السابق، ص٧١ بتصرف يسير.
2. المرجع السابق، ص٧٢.

فما أعظمه من منهاج!

• من أهداف التشريع الإسلامي تحقيق التوازن في التعامل النفسي البشري، ومنه إقرار مبدأ الثواب والعقاب بإثابة من أحسن، وعقاب من أساء، على عكس تعامل المناهج الوضعية والمحرفة مع هذه النفس.

• هؤلاء الذين ينتقدون الإسلام هم أَوْلى الناس بهذا النقد، لأنهم ينفقون أموالًا طائلة لإغراء الناس على الدخول في دينهم، ويستغلون الدول الفقيرة في أفريقيا وآسيا لنشر دينهم مقابل دفع الأموال، فيذهبون بالجسد دون الروح.

• إن الإسلام لم يَحْجُر الصدقة على فقراء المسلمين، بل تعداهم إلى غيرهم من فقراء الكافرين وإن ظلّوا على كفرهم، ما لم يقاتلوا المسلمين، أو يساعدوا من يقاتلهم قال الله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

المحور الثالث

شبهات متفرقة حول القرآن الكريم

الشبهة التاسعة والسبعون

الزعم أن القرآن الكريم بتعاليمه يبني قلوبًا لا مجتمعات(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن الكريم كتاب دين وأخلاق، وليس كتابًا في السياسة تُؤخذ منه الأحكام والتشريعات التي تبني المجتمعات وتنظمها؛ فهو بما فيه من تعاليم وأحكام يخاطب القلوب، ولا يؤسس مجتمعات أو حضارات. هادفين من رواء ذلك إلى وصف القرآن بأنه كتاب إيماني لا تشريعي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم أسس دولة متحضرة لها دعائمها وأقام مجتمعًا مدنيًّا.

٢) بناء المجتمع لا يقوم إلا بالقلوب التي رباها الإيمان.

٣) تلك دعاوى لم تفهم حقائق القرآن، وإنما هي جاهلة بتشريعاته المضيئة التي قصر دونها كل نظام.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم أسس بأحكامه دولة متحضرة لها دعائمها، وأقام مجتمعًا مدنيًّا:

إن القرآن الكريم بتشريعاته النيرة وأحكامه الخالدة أقام مجتمعًا عمرانيًّا متحضرًا بلغ قمة المدنية وذروة الحضارة الإنسانية، وأسس دولة قوية فتية متكاملة تنبض بكل أركان الحياة السوية وتشمل جميع جوانبها.

حيث أقام المجتمع الكامل بكل جوانبه الإنسانية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ذلك المجتمع وتلك الدولة التي عاشت قرونًا طويلة تقدم عطاءها الوافر بحقوق الإنسان، ومنهج العلم، وقواعد العمران، ونظم التكامل، ووشائج الاجتماع المتكامل.

شهادة التاريخ:

وهل كان العرب قبل الإسلام إلا مجموعات متناثرة في خضم الصحراء الواسعة، وقبائل متفرقة لا يجمعهم نظام ولا تؤويهم دولة، ويعيشون في تيه من الضلالات ضائعين تائهين بين مِطْرَقة الغرب وسِنْدان الشرق[1]؟ فلما جاء الإسلام وطُبِّقت أحكام القرآن صارت الحياة الراشدة بالعلم والعمل، وبالسواسية والعدل في مجتمع راشد، وإمبراطورية قوية علا شأنها وارتفع صولجانها، وأخذت مكانها بين الأمم بل ظهرت على من سواها، وصارت لها السيادة والقيادة قرونًا طويلة وأزمنة عديدة.

الزعم أن القرآن الكريم كتاب دين وأخلاق لهداية الفرد وتوجيه علاقته بربه، وليس كتاب أحكام وتشريعات تؤخذ منه السياسات التي تحكم المجتمعات وتنظمها، فبماذا كان ـ إذن ـ قيام دولة الإسلام الشامخة؟ ومَنْ أقامها؟ وما الذي جعل لها شأنًا عظيمًا؟ ومن أقام للعرب دولة وجعل منهم أمة ذات حضارة ونظام

(*) سلسلة مع القرآن الكريم: رؤى مستنيرة، المركز الثقافي بالمقاولين العرب، مصر.

١. مِطْرَقة الغرب وسِنْدان الشرق: المقصود الرُّوم في الغرب والفُرْس في الشرق.

تصول وتجول على وجه الأرض ويعلو مجدها، حتى تسود العالم وتقوده بعدما كانت من أحط الأمم وأرذلها؟!

هل من الفهم السليم للقرآن الكريم والتدبُّر الواعي لما ورد به من تشريعات جديدة، وقضايا لم تكن معروفة قبله - وبخاصة في هذا العصر الذي ثبت فيه انهيار الأيديولوجيات الشرقية والغربية انهيارًا تامًّا في جميع الميادين الإنسانية والاجتماعية والسياسية - أن يقال عن شريعة الله التي أقامت المجتمع المؤمن بكل جوانبه، إن القرآن كتاب دين وأخلاق وليس كتاب سياسة وتشريع؟!

يبدو أن أصحاب تلك الدعاوى المغرضة، جهلوا بما يحفل به القرآن من تشريعات مضيئة قصر دونها كل نظام، من أجل هذا، يجدر بنا أن نعرض لحقيقة النظام والمجتمع والدولة في القرآن الكريم، حتى تتضح حقيقة قيام إيمان المسلم إلى جانب العبادات والأخلاق، على أركان متكاملة من السياسة والأحكام في نظام الحكم وبناء المجتمع.

الإسلام نظام واحد له غايته:

بيَّن منهج القرآن في جلاء تام أن الدين عند الله واحد وهو دين الإسلام، كما دعا إليه جميع الرسل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٩)، كما أن الله تعالى لا يقبل من أحد دينًا سوى دين الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ (آل عمران)، ومع اتضاح تلك الغاية وتميز هذه الهوية أمر الله عز وجل المؤمنين بأن يلتفوا حول مبدأ واحد، ويجتمعوا حول راية واحدة، قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وأي نظام وأي مجتمع يكون أسمى من هذا المجتمع الذي تحددت غايته وتميزت رايته، بل إن القرآن دائمًا يناديهم بنداء الجماعة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، ويصفهم بطريق الجمع "المؤمنين" ليجمعهم على شريعة الله في مجتمع المؤمنين، ولا ينادي بصيغة الفرد أبدًا.

ومن مظاهر هذه الوحدة التي هي مصدر قوة هذا النظام وعنصر أساسي في استمرار شموخه، أن ألَّف بين قلوبهم، وجعلهم أخوة، وجعل أخوتهم من أوثق تعاليم هذا الدين قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات).

ثانيًا. مقومات بناء المجتمع في الإسلام:

إذن كيف يتصور تجريد هذا الإيمان الصادق الذي أقام دولة المسلمين ومجتمعهم - من أحكامه وأركانه الكاملة، التي تبني الفرد المؤمن الذي هو لبنة من لبنات وحدة المجتمع المؤمن، بينما بدأت الصلاة مع الإيمان جامعة للمؤمنين وراء قائدهم، خاصَّةً صلاة الجمعة الجامعة للمؤمنين إلى غاية الإيمان من تسييس علاقاتهم وتحقيق سواسيتهم، قال تعالى: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ (الجمعة).

١. مجتمع قائم على الشورى:

وهذا المجتمع المتماسك كالبنيان المرصوص لا بد له من دعائم تمكنه من الاستمرارية، وتصون أركانه من الانهيار والتصدع، ومن أهم هذه الدعائم أنه مجتمع

قائم على مبدأ الشورى، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾ (الشورى)، وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ (آل عمران).

وما انهار مجتمع من المجتمعات إلا بسبب عدم تطبيق هذا المبدأ ـ مبدأ الشورى والتناصح؛ لذلك نهى رسول الله ﷺ عن الاستغلال والاستبداد بالأمر دون المؤمنين، كما أمرهم بالتناصح والتشارو فيما بينهم، وما عرفت الحضارات الحديثة شرقًا وغربًا نظام الشورى إلا عن طريق الإسلام وبعد الاطلاع على علوم المسلمين، فنظام الإسلام يسبقهم ويقودهم إلى مثل هذه المبادئ الخالدة.

٢. التكافل الاجتماعي من أهم دعائمه:

مثل هذا النظام الذي يحافظ على تماسكه بالشورى والوحدة في الغاية والهدف يَبْرُز فيه نظام الإنفاق الذي هو جزء من سياسة الإسلام الاقتصادية؛ لأنهم إخوة يواسي بعضهم بعضًا عندما ينفقون من مالهم، ليسدوا به حاجات الآخرين وحاجات المجتمع المتنوعة قال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) ﴾ (إبراهيم).

٣. العدل هو أساس قيامه:

إذا كان هذا المجتمع يتمتع بالأخوة الصافية والشورى الواعية، ويكفل بعضه بعضًا في نظام متَّحد الغاية متميز الراية، فإن ذلك كله لا يكفل له بقاءه وتجدده واستمراريته حتى يقوم على أساس من العدل والمساواة؛ لذلك كان من أهم مقومات المجتمع المؤمن أنه قائم بالقسط شاهد بالحق قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ (النحل)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الشورى: ١٧). وقال تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء: ٥٨).

ومن مقاصد العدل في الإسلام أنه أعطى كل ذي حق حقه؛ ولأن الإسلام قام على العدل المطلق، كان من مقومات ذلك أن أعطى الحقوق لأهلها، والأهم من ذلك أن لحقوق الإنسان في القرآن الكريم والشريعة الإسلامية طابع الضرورة المُؤَسَّس على العقيدة، أي: طابع الالتزام الناشئ بمحض الإيمان، وإذا تعرضنا لأهم ما كفله القرآن وشريعته من حقوق الإنسان الأساسية، انتصر ذلك الطور العملي والتطبيقي لمبادئ الحضارة الإسلامية، ونجدها كلها قائمة على مبدأ العدل والمساواة®.

وأهم الحقوق التي كفلها القرآن الكريم والشريعة الإسلامية للإنسان هي:

١. حق الحياة:

لقد كان القرآن الكريم أسبق من كل الدساتير العالمية والدولية في تأكيد هذا الحق، كما كان الالتزام به في مبادئ العقيدة عند الحكام المسلمين والمنفذين لأحكام الشريعة أصدق وأبقى، قال تبارك وتعالى في تأصيل هذا الحق: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ

® في "مقومات بناء المجتمع في الإسلام" طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة والسبعين، من هذا الجزء.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

حيث جعل سبحانه وتعالى قتل النفس الواحدة - بغير استحقاق شرعي لهذا القتل - جرمًا وعدوانًا يساوي في بشاعته قتل الناس جميعًا، ثم تتم المعادلة في حكم الله وشرعه، بأن تجعل من إحياء النفس الواحدة أي: حمايتها من أن تتعرض للقتل ظلمًا وعدوانًا عملًا صالحًا يساوي إحياء الناس جميعًا، وجعل من القصاص حياة؛ لأنه يحرص على حياة الآخرين، عندما يزجر كل من تُسَوِّل له نفسه ذلك الأمر ويردعه عن ارتكابه قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (البقرة).

٢. حق الإرادة الحرة للإنسان:

فلا يكون عبدًا مملوكًا بإرادته لإرادة غيره، وهذا الحق العظيم من حقوق الإنسان منحته الشريعة الإسلامية العادلة؛ إذ إنه من إيمان الإنسان الصادق بالله ينبع إدراكه بأن إرادته لا يملكها إلا الله؛ لذلك كان موقف الشريعة هو أن تدفع بإرادة المؤمنين الأحرار إلى عتق من بيدهم من العبيد بحق الإيمان، وأخوة الإنسان للإنسان أو كفارة عن بعض الذنوب، وأن تنمي في إرادة الرقيق - من الجانب الآخر - أن يكونوا بالإيمان أهلًا لحرية الإرادة حتى تتوجه عبوديتهم الخالصة لله وحده؛ لذلك لم تتجه الشريعة إلى الحكم القطعي بإلغاء الرِّق وإنما اتجهت إلى إلغائه تدريجيًّا.

وفي هذا المضمار نصت الشريعة على إلزام الدولة في أحد وجوه إنفاقها بتحرير الرقيق قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ (التوبة: ٦٠).

٣. حرية الاعتقاد:

لقد أقر الله هذا الحق وأكد عليه في القرآن الكريم في مواضع عديدة قال تبارك وتعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦). وقال تعالى أيضًا: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس)، وقال ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون).

ولقد كان هذا الحق ظاهرًا منذ عهد المسلمين الأوائل وحتى اليوم؛ فما لقيه أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى من الأمن ضد أي اضطهاد بسبب الدين مع حرية العمل ومع مشاركة المسلمين جميع حقوق الإنسان الأخرى، هو عكس ما كان يجري بوحشية في الحروب الدينية في أوربا بين طوائف المسيحيين المختلفة، وغيرها من الحروب والنزاعات.

٤. حق المساواة في الإنسانية:

لقد ألغى القرآن العنصرية أو التعصب لجنس أو لون أو سلالة كمعيار للتفاضل، الأمر الذي لا تزال تأخذ به حضارة "الرجل الأبيض" ضد الملونين تأثرًا بالصهيونية، وتعلقًا بالنزعة الآرية قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣). وبذلك أدان الإسلام أهم مشكلة تعاني منها الإنسانية في الوقت الحاضر؛ وهي العنصرية القبيحة.

٥. حق حماية الأسرة:

ضمانًا للنمو النوعي وذلك بحماية أمن الأسرة، وضمانًا لعدم اختلاط الأنساب، وحق رعاية الطفل وحق التعليم السليم للنشء، وتنمية علاقات الحب

والقربى الاجتماعية، وتأصيل طهارة الأخلاق في حياة ونشاط، يقول تعالى في تأصيل هذا الحق: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١) وقد بيّنت السنة المطهرة وأحكام الفقه حقوق وواجبات كل فرد من أفراد الأسرة بالتفصيل.

٦. **حق الدفاع عن النفس:**

لأن هذا المجتمع له أعداؤه الذين يتربصون به الدوائر، ويريدون هدم دولته، والنيل من شريعته ونظامه ـ شرع الله الجهاد، وأمر المؤمنين بأن يكونوا على استعداد لمن يتربص بهم من أن ينالهم بمكروه أو سوء، وذلك بأن يكون لهم جيش يحمي نظامهم ويدافع عن ثغورهم، وينصر المستضعفين في الأرض، ويحرر المظلومين من الاضطهاد والعدوان، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ (البقرة: ١٩٠)، وقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة).

ثالثًا. تلك دعاوى لم تفهم حقائق القرآن، وجاهلة بتشريعاته المضيئة التي قصر دونها كل نظام:

هذه فقط بعض الأمثلة من المقوِّمات التي يقوم عليها نظام الإسلام، والتي أخبر بها القرآن الكريم؛ فهلَّا اطلع عليها أصحاب تلك الدعاوى المغرضة، أم هم جاهلون بها، ويفترون الكذب بما ليس عندهم به برهان من منطق، أو سند من عقل.

ثم نأتي إلى أهم ما نناقش به حجتهم التي لا تقوم على دليل من منطق أو برهان من عقل ونقول لهم: ماهو الدليل على دعواكم تلك التي زعمتموها؟ هل عندكم دليل من العقل أو شاهد من التاريخ أو نص من القرآن ينهى أتباعه عن إقامة نظام لهم يحكمهم ويسوسهم في أمور حياتهم؟ أم أن القرآن يأمر بعكس ذلك، ولكن عيونهم عميت عن ذلك وأفهامهم طمست أن تدرك تلك التعاليم العلية؟

وبناء على هذا فإن هؤلاء ليس لهم حجة ولا سند من عقل أو منطق أو نص من القرآن يستندون عليه ـ ولو متأولين له ـ إنما نلاحظ أن القرآن الكريم ينص صراحة على أن شريعة الله الحقة بما أرادها الله ﷻ ما أُنزلت إلا للحكم بها، وإقامة المؤمنين لنظامهم ومجتمعهم ودولتهم على أسسها، قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (النساء). وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (المائدة).

فكيف يدعي أولئك أن القرآن كتاب دين وأخلاق وعبادات خاصة بالفرد، وليس كتاب سياسة يبني مجتمعًا ويقيمه؟ كيف يقال ذلك وهذه هي نصوص محكمة الدلالة واضحة المعنى في القرآن الكريم تبين أن القرآن ما أُنزل إلا ليُحكم به، وما أُنزل إلا لينظم شئون الحياة ويسوسها؟! إنما كانت مرحلة تربية القلوب في البداية إبان مرحلة التشريع في مكة، وكانت لإعداد

اللَّبنات الإيمانية التي سوف يقوم على كواهلها بناء المجتمع السليم[1].

الخلاصة:

- إن الفِرْية الزاعمة أن القرآن كتاب هداية لقلب الإنسان فقط، وليس كتابًا يقيم مجتمعًا ـ زعم باطل، لا يقوم على ساق ولا يستند إلى برهان من منطق أو دليل من العقل أو نص من القرآن، بل الثابت تاريخيًّا أن القرآن أقام أمة ذات حضارة إنسانية راقية، وأسَّس دولة عظيمة ذات سيادة ومدنية؛ فلم تكن للعرب قبل الإسلام تلك الدولة، كما أن تعاليم الإسلام وتشريعاته أقامت نظامًا يقصر دونه كل نظام، وأقرَّت دستورًا سبق كل نظم ودساتير العالم إلى كل حق وعدل وصلاح وخير؛ لأنه دستور إلهي وهو القرآن الكريم.
- إن بناء المجتمع لا يقوم إلا على كواهل القلوب المؤمنة التي ربَّاها الإسلام وصفَّاها من الشوائب، حتى يصبح المجتمع الإسلامي مجتمعًا مثاليًّا.
- لقد كفل الإسلام الحريات في حين ضيعتها المناهج المعاصرة، ووضع أساسًا لبناء مجتمع متماسك فأرسى مبادئ الشورى والمساواة، والحرية والعدل والتكافل وسائر الحقوق، فكيف يقال بعد هذا: إنه دين يبني قلوبًا ولا يبني مجتمعات؟! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ (الكهف).

١. انظر: سلسلة مع القرآن الكريم: رؤى مستنيرة، المركز الثقافي بالمقاولين العرب، مرجع سابق.

الشبهة الثمانون

الزعم أن القرآن الكريم كتاب لُغَوي فحسب (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن الكريم عملٌ لُغَوي متكامل، لكنه ليس وحيًا من عند الله، فمحمد رغم أمِّيته جاء بهذا الكتاب اللغوي العظيم الذي يُعدُّ كتاب العربية الأكبر، وأثرها الخالد، يقتبس منه المرء ما يريد دون نظر إلى اعتبار ديني. هادفين من وراء ذلك إلى تجريد القرآن الكريم من أي صفة دينية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إعجاز القرآن الكريم لا يتمثل في بلاغته وبيانه فقط، بل في اشتماله على كل ما هو خير للبشرية.

٢) القرآن الكريم كشف عن أسرار علمية هائلة لا يزال العلم الحديث يحاول تفسيرها.

٣) الإعجاز التشريعي في القرآن قرين[2] لإعجازه العلمي واللغوي.

٤) أخبار الغيب في القرآن تدل على أنه وحي من عند الله، وليس كلامًا بشريًّا.

التفصيل:

أولا. إعجاز القرآن الكريم لا يتمثل في بلاغته فقط، بل في اشتماله على كل ما هو خير للبشرية:

إن إعجاز القرآن الكريم لا يتمثل في بلاغته وبيانه فقط ـ فهذا أمر مسلَّم به ـ لكن هناك وجوهًا أخرى

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.

٢. القرين: المصاحب.

للإعجاز القرآني منها: الإعجاز العلمي، والإعجاز المتعلق بالإخبار بالغيب سواء غيب الماضي الذي لم نعرفه إلا من طريقه، أو غيب المستقبل الذي رأينا بعضه بأعيننا وسمعنا بآذاننا.

وفي عجز أساطين[1] اللغة والبيان والأدب أن يأتوا بسورة أو بآية من مثل القرآن الكريم، وهذا التحدي للإنس والجن جميعًا باق إلى يوم القيامة، وعدم وجود من يقبل هذا التحدي إلى اليوم هو في حد ذاته أكبر دليل على إعجاز القرآن في بلاغته، وفي إخباره عن الغيب أيضًا بهذا التحدي.

إذن، القرآن الكريم ليس كلام محمد ﷺ، ولا كلام غيره من بشر أو شيطان، بل هو كلام الله ﷻ.

وأما قولهم: إن القرآن الكريم كتاب لُغَوي وأثر أدبي خالد هذا لا يفي بوصف القرآن العظيم، ولا يكتمل وصفه إلا بتدبر آياته، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشعراء).

نعم هو كتاب لُغَوي منظوم بأرفع أساليب لغة العرب، وهو الذُّروة في البلاغة والبيان، ولكن قبل كل ذلك هو تنزيل الله رب العالمين، وفي القرآن الكريم وجوه أخرى من الإعجاز في شتى المجالات.

ثانيًا. القرآن الكريم كشف عن أسرار علمية هائلة لا يزال العلم الحديث يحاول تفسيرها:

فما ذكره القرآن من أسرار علمية هائلة لا يزال العلم الحديث يحاول اكتشافها بفضل التفكُّر والنظر، وهو ما دعا إليه القرآن منذ نزوله؛ فالقرآن الكريم حض على التفكر في الكون في كثير من الآيات؛ ليستنبط المسلم كثيرًا من الأحكام، ويكتشف كثيرًا من النظريات.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران). وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الروم:٨). وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات)، والآيات في هذا الصدد كثيرة.

ومن مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن:

- التلقيح في النبات: ذاتي وخلطي، والذاتي: ما اشتملت زهرته على عضو التذكير والتأنيث، والخلطي: هو ما كان عضو التذكير فيه منفصلًا عن عضو التأنيث كالنخيل فيكون التلقيح بالنقل، ومن وسائل ذلك الرياح، وجاء في هذا قول الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ (الحجر: ٢٢).
- الأكسجين ضروري لتنفس الإنسان، ويقل في طبقات الجو العليا؛ فكلما ارتفع الإنسان في أجواء السماء أحس بضيق الصدر وصعوبة التنفس، والله تعالى يقول: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ

---

١. أساطين: جمع اسطوانة، وهي على التشبيه، وأساطين اللغة أي المبرزين فيها.

فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

- وقد ساد الاعتقاد ـ فترة من الزمن ـ بأن الذَّرَّة لا تقبل التجزئة، وفي القرآن: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ (يونس)، ولا أصغر من الذرة سوى تحطيم الذرة[1].

- وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة، ونحيل للاستزادة، إلى كتب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وهي ولله الحمد كثيرة®.

ثالثًا. الإعجاز التشريعي في القرآن قرين لإعجازه العلمي واللغوي:

فقد ثبت الإعجاز التشريعي في القرآن بما ينظم حياة الناس، ويحفظ على الفرد حياته وإنسانيته، ويحفظ على المجتمع وحدته وتماسكه وصلاحه.

وقد عرفت البشرية في عصور التاريخ المختلفة ألوانًا مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل، ولكن واحدًا منها لم يبلغ من الروعة والإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي"[2].

فالقرآن يبدأ بتربية الفرد، ويحرر وجدان المسلم بعقيدة التوحيد التي تخلصه من سلطان الوهم والخرافة؛ حتى يكون عبدًا خالصًا لله.

فيؤكد القرآن الكريم وحدانية الله بالحجج القاطعة التي تقوم على المنطق العقلي السليم، قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وقال ﷻ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ (الإسراء)، فإذا صحَّت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن في الأوامر والنواهي، وكل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد، ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة؛ فالصلاة: تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥). والزكاة: تقتلع من النفس جذور الشح، وعبادة المال، والحرص على الدنيا، وهي مصلحة للجماعة، فتقيم دعائم التعاون بين أفراده.

والحج: سياحة تُرَوِّض النفس على المشقة، وتفتح بصيرتها على أسرار الله في خلقه، وهو مؤتمر عالمي يجتمع فيه المسلمون فيتعاونون، ويتشاورون. والصيام: ضبط للنفس، وشحذ لعزيمتها وتقوية للإرادة، وحبس للشهوات، وهو مظهر اجتماعي يعيش فيه المسلمون شهرًا كاملًا على نظام واحد في طعامهم، كما تعيش الأسرة في البيت الواحد.

والقيام بهذه العبادات المفروضة يربي المسلم على الشعور بالتبعية الفردية التي يقرها القرآن، وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين وكل فضيلة من فضائل الأخلاق: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ (المدثر).

---

١. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٢٦٤، ٢٦٥.

® في **"الإعجاز الغيبي والعلمي للوحي المحمدي"** طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). والوجه الأول، من الشبهة السادسة والثمانين، من هذا الجزء.

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٢٦٨.

والقرآن حثَّ على الفضائل المُثْلى التي تروض النفس على الوازع الديني، كالصبر، والصدق، والعدل، والإحسان، والحلم، والعفو، والتواضع.

ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة؛ لأنها نواة المجتمع؛ فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس، وإبقاءً على النوع الإنساني في تناسل طاهر نظيف، وهذا الزواج يقوم على المودة والرحمة، والسكن النفسي، والعشرة بالمعروف، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة، والوظيفة الملائمة لكل منهما، قال الله ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم:٢١)، وقال الله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (النساء: ١٩).

ثم يأتي نظام الحكم الذي يسود المجتمع المسلم، وقد قرر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية في أصلح أوضاعها.

فهي حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى: ٣٨)، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)، وهي حكومة تقوم على العدل المطلق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (النساء).

والتشريع في الحكومة الإسلامية ليس متروكًا للناس، فقد قرره القرآن، والخروج عنه كفر وظلم وفسق، وقرر القرآن صيانة الكليات الخمس الضرورية للحياة الإنسانية: النفس، والدين، والعرض، والمال، والعقل، ورتب عليها العقوبات المنصوصة التي تعرف في الفقه الإسلامي بالجنايات والحدود.

وقرر الإسلام العلاقات الدولية في الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم، وهي أرفع معاملة عرفت في عصور الحضارة الإنسانية.

وخلاصة القول: إن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، وسيظل إعجازه التشريعي قرينًا لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد، ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثرًا غَيَّر وجه التاريخ[1].

رابعًا. تضمن القرآن الكريم أخبارًا صحيحة عن الماضي والمستقبل تدل على أنه وحي من عند الله تعالى وليس كلامًا بشريًّا:

ومن الأمثلة على ذلك:

- إخبار القرآن بانتصار الروم في بضع سنين، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الروم)، ذلك أن الروم، وهي دولة مسيحية انهزمت أمام الفرس وهي وثنية؛ ففرح لذلك المشركون، وعَيَّروا المسلمين الذين يقولون إنهم سينتصرون عليهم، وقد

---

١. المرجع السابق، ص٢٦٨: ٢٧٣ بتصرف.

راهن المشركون أبا بكر على هذه النبوءة، ولكن الله ﷻ أنجز وعده، ومن أصدق من الله قِيلًا.

- إخبار القرآن بأن الله عاصم رسوله ﷺ وحافظه من الناس، فلا يتمكن أحد من اغتياله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)، وما حدث أن أعداء الإسلام ظلوا يتربصون به الدوائر على اختلاف عددهم وعتادهم، ومع اعتبار أنه ﷺ - في زعمهم - أضعف منهم استعدادًا وأقل جندًا، ولكن الله ﷻ حفظه، ولا يخلف الله وعده، فما استطاع واحد منهم تنفيذ مراده.

- إخباره في معرض التحدي بالقرآن، قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ (البقرة: ٢٤)، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء)، فقد تناولت هذه الآيات نفي قدرتهم على الإتيان بمثل القرآن في المستقبل أو غيره، وقد تحققت نبوءة القرآن - كما نعلم - في ذلك والآيات في هذا الصدد كثيرة.

- إخباره بانتصار المسلمين على أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ (الصافات)، وقال عز من قائل: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ﴾ (الفتح: ٢٧)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ (القمر) ®.

® في "الإعجاز الغيبي والعلمي للوحي المحمدي" طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

الخلاصة:

- إن القرآن الكريم هو الذي صيَّر العرب رعاة الشاة والغنم إلى ساسة شعوب، وذلك لاحتوائه على كل موجبات الحضارة من علم وعمل، فالقرآن يهدف إلى إسعاد البشرية.

- كما أن الباحث في القرآن يستشف ما به من دلائل الإعجاز سواء في منهجه التشريعي، أو إعجازه اللغوي، أو إعجازه في اشتماله على أخبار غيبية في الماضي والحاضر والمستقبل، كما أن إعجازه العلمي أزاح لنا الستار عن أسرار هائلة في العلم الحديث، وما يزال العلم الحديث يكتشف الكثير من أسرار القرآن.

- إضافة إلى ذلك إعجازه اللغوي الذي تحدَّى به العرب والعجم، والإنس والجن أن يأتوا بمثله إلى اليوم، ولا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

- إذن فالقرآن ليس فقط كتابًا لغويًّا، بل اشتمل على ما يسعد البشر ويقيم الحياة الكريمة، فهو كتاب معجز في لفظه وفي تشريعاته وفي أخباره الغيبية والعلمية.

الشبهة الحادية والثمانون

ادعاء عدم موافقة ترجمة القرآن لمعانيه(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن المترجم للتفسير مضطر

(*) مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق.

إلى الترجمة الحرفية الممنوعة، وهي ترجمة كل ما يسوقه في كل مرحلة للتفسير من آية أو آيات؛ لأن التفسير بيان، فلا بد أن يعرف المبين أولًا ثم يعرف البيان؛ ولأنه إذا ترجم التفسير بدون الآية كانت الترجمة غير مؤدية للمطلوب لعدم التئامها مع ما قبلها. هادفين من وراء ذلك إلى تشكيك المسلمين غير الناطقين بالعربية في ترجمة معاني القرآن التي بين أيديهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الأمور المذكورة في الشبهة غير مطلوبة كلها في التفسير العربي أصلًا.

٢) ما لا يطلب في التفسير العربي لا يطلب في الترجمة من باب أولى؛ لأن التفسير بيان لأحد الأوجه؛ ولذا تنوعت التفاسير.

٣) فوائد ترجمة معاني القرآن متعددة، فلا ينبغي أن نَحِيد عنها لشبهة طاعن جاهل.

التفصيل:

أولا. الأمور المذكورة في الشبهة غير مطلوبة كلها في التفسير العربي أصلا:

إن استيفاء الأمور المذكورة لم يشترط في أصل التفسير العربي، فكيف تشترط في الترجمة؟ فبدهي ألايشترط ذلك في ترجمة القرآن بلغة أجنبية من باب أولى.

ولا ريب عندنا في أن تفسير القرآن بلسان أعجمي يجري في حكمه مجرى تفسيره بلسان عربي، فكلاهما عرض لما يفهمه المفسر من كتاب الله بلغة يفهمها مخاطبه، لا عرض لترجمة القرآن نفسه، وكلاهما حكاية لما يستطاع من المعاني والمقاصد، لا حكاية لجميع المقاصد لتفسير القرآن الكريم - وهذا هو موطن الشاهد - يكفي في تحققه أن يكون بيانًا لمراد الله ﷻ بقدر الطاقة البشرية، ولو جاء على احتمال واحد؛ لأن التفسير في اللغة: هو الإيضاح والبيان، وهما يتحققان ببيان المعنى ولو من وجه.

ولأن التفسير في الاصطلاح: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية، وهذا يتحقق أيضًا بعرض معنى واحد من جملة معان يحتملها التنزيل، وإذا كان تفسير القرآن بيانًا لمراد الله بقدر الطاقة البشرية، فهذا البيان يستوي فيه ما كان بلغة العرب وما ليس بلغة العرب؛ لأن كلًّا منهما مقدور للبشر، وكلًّا منهما يحتاجه البشر، ولإيضاح بيانه لا بد من أمرين:

الأول: أن يستوفي هذا النوع شروط التفسير باعتبار أنه تفسير.

الثاني: أن يستوفي شروط الترجمة باعتبار أنه نقل لما يمكن من معاني اللفظ العربي بلغة غير عربية[1].

ثانيًا. ما لا يُطلب في التفسير العربي لا يُطلب في الترجمة من باب أولى:

ذلك أن استيفاء الأمور المذكورة لم يشترطه أحد في أصل التفسير العربي، فبدهي ألا يُشْترط ذلك في ترجمته وهي صورة له، كيف وقد علمنا أن التفسير: هو البيان ولو من وجه، وكل ما على المفسر أن يكون حكيمًا يلاحظ حال من يفسر لهم على قدر طاقته، فيُضمِّن تفسيره ما يحتاجون إليه، ويعفيهم مما لا تسعه عقولهم، وإلا كان فتنة عليهم. ولعل ذلك سِرٌّ من أسرار تنوع

١. المرجع السابق، ج٢، ص١٠٦، ١٠٧ بتصرف يسير.

التفاسير العربية التي بين أيدينا، ما بين مختصر ومتوسط ومطول، وما بين تفسير بالمأثور وتفسير بالمعقول، وما بين تفسير مَعْنِيٌّ بالناحية البلاغية، وآخر معنيٌّ بالناحية النحوية، وثالث معنيٌّ بالناحية الكلامية ورابع معنيٌّ بالناحية الفقهية، إلى غير ذلك.

وإذا كان هذا ماثلًا أمام أعيننا في التفاسير العربية، فكيف نذهب إلى إنكاره إذا وقع مثله في التفاسير بلغة أجنبية؟!

كما أن العلماء يشترطون ألا تكون ألفاظ الأصل ولا ترجمتها العرفية مُنْبَثَّة بين ثنايا التفسير بلغة أجنبية، بل نقول: إن التفسير يجزَّأ أجزاءً، وتساق الآية أو الآيات في كل نوبة من نوبات هذه التجزئة باللفظ والرسم العربيين، إن كنا نترجم هذه الترجمة لطائفة من إخواننا المسلمين، ثم يشار إليها في تفسيرها فيقال: معنى هذه الآية أو الآيات كذا.

أو يقال: الآية المرقومة برقم كذا من سورة كذا معناها كذا وكذا، بعبارة مجردة من ألفاظ الأصل وترجمتها ترجمة حرفية، ويكفي في ارتباط المبين ببيانه أن يكون بأي وجه من وجوه الارتباط.

أما الالتئام فمن السهل رعاية الانسجام بين جمل التفسير بعضها مع بعض في كل نوبة من نوباته، وأما انسجام هذه النوبات كلها بعضها ببعض بحيث يتألف منها كلام واحد مترابط كأنه سبيكة واحدة فشيء لم يشترطه أحد في التفسير، ولا يضيرنا فقده شيئًا ما دام التفسير كلامًا منجّمًا على نوبات متفرقة، لا كلامًا واحدًا في نوبة واحدة، وأما التئام الآيات بعضها مع بعض فهو حاصل لا محالة، ولكن ليس من الواجب أن يعرض له هذا التفسير ولا غيره من التفاسير[1].

ثالثًا. ترجمة معاني القرآن لها فوائد عظيمة، فلا ينبغي إهمال هذه الترجمة لشبهة طاعن جاهل:

إن الله ﷻ بعث محمدًا ﷺ برسالة الإسلام إلى البشرية كافَّة على اختلاف أجناسها وألوانها، قال ﷺ: "وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة"[2]. وشرط لزوم الرسالة البلاغ، والقرآن الذي نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمم العربية ملزمًا لها، ولكن سائر الأمم التي تُحسن العربية، أولا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها، لذلك يُترجم تفسير القرآن الذي يتضمن أسس دعوته بما يتفق مع نصوص الكتاب وصريح السنة إلى لسان كل إنسان حتى تبلغهم الدعوة وتلزمهم الحجة[3].

لذلك فإن من فوائد هذه الترجمة ما يلي:

- رفع النقاب عن جمال القرآن، ومحاسنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من المسلمين والأعاجم، وتيسير فهمه عليهم بهذا النوع من الترجمة؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم.
- دفع الشبهات التي لفَّقها أعداء الإسلام وأَلْصَقوها بالقرآن وتفسيره كذبًا وافتراءً، ثم ضللوا بها المسلمين الذين لا يحذقون اللسان العربي في شكل ترجمات مزعومة للقرآن، أو مؤلفات علمية وتاريخية

---

1. المرجع السابق، ج٢، ص١١٢، ١١٣ بتصرف.
2. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا" (٤٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد (١١٩١).
3. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٣٠٩، ٣١٠ بتصرف يسير.

للطـــلاب، أو دوائـــر معـــارف للقـــراء، أو دروس ومحـاضرات للجمهـور، أو صـحف ومجـلات للعامـة والخاصة.

- تنوير غـير المـسلمين مـن الأجانـب في حقـائق الإسلام وتعاليمه، خصوصًا في هذا العصر الذي ضـل فيه الحق، أو كاد يضل في سوق الباطل، وخفت صوت الإسلام، أو كاد يخفت بين ضجيج غيره مـن المـذاهب المتطرفة والأديان المنحرفة.

- إزالـة الحـواجز التـي أقامهـا الخبثـاء المـاكرون للحيلولـة بـين الإسـلام وعُـشَّاق الحـق مـن الأمـم الأجنبيـة، وهـذه الحـواجز ترتكـز ـ في الغالـب ـ عـلى أكاذيب افتروها تارة على الإسلام، وتـارة أخـرى عـلى نبي الإسلام، فإذا ترجمنـا تفـسير القـرآن بلغـة أخـرى بشروط التفسير وشروط الترجمة مع العناية التامة بدفع الشبهات والأباطيل الرائجة فيهم، تزلزلـت بـلا شـك تلك الصروح التي أقاموها من الخرافـات والأباطيـل، وزالت العقبات من طريق طلاب الحق وعشاقه من كل قبيل.

- براءة ذمتنا من واجب تبليغ القرآن بلفظه ومعناه إلى غير الناطقين بلغة القرآن، وبذلك نكـون قـد وفقنـا لتبليغه للناس جميعًا[1].

الخلاصة:

- إن دعـوى عـدم موافقـة ترجمـة القـرآن لمعانيـه دعوى عارية من الحـق والـصحة؛ لأن تفـسير القـرآن باللغة العربية أمر لا شيء فيه، ومثله ترجمة معاني القرآن بلغة أجنبية؛ فما كان شرطًـا في التفـسير كـان شرطًـا في الترجمة؛ لأن الترجمة تقوم على نقل التفسير الذي قام بـه صاحبه وتوضيحه لمعاني القرآن ومقاصده، فهـو ينقـل اجتهاد المفسر لا غيره.

- ثم إن استيفاء الشروط التي ذكروها لم يـشترطه أحد في أصل التفسير العربي، فبدهي ألا يـشترط ذلـك في ترجمته، وهي صورة له، إذن فحجـتهم داحـضة ولا سبيل لهم علينا بمثلها.

- للترجمة فوائـد جَمَّـة، لا ينبغـي أن تـصرفنا عـن ابتغائهـا شـبهة هنـا أو فريـة هنـاك؛ حيـث إنهـا تـدفع الشبهات التي لفَّقها أعداء الإسلام للقـرآن وتفـسيره، وتنير لغـير المـسلمين مـن الأجانـب حقـائق الإسـلام وتعاليمه، وترفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لغير الناطقين بلغة القرآن.

الشبهة الثانية والثمانون

الزعم بأن القرآن مُنْتَج ثقافي(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن منـتج ثقـافي جمعـه محمد ﷺ من المعارف التي حـصل عليهـا بالـسماع، وأن أحكامه كانت صالحة لعصره، ثم نُـسِخَت صـلاحيتها

---

1. مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٩: ١١١ بتصرف.

(*) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، د. عبد المتعـال محمـد الجـبري، مكتبـة وهبـة، القـاهرة، ط١، ١٤١٦هــ/ ١٩٩٥م. خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمـي هويـدي، ١٩٩٦م. الشريعة الإسلامية والعلمانيـة الغربيـة، د. محمـد عـمارة، نهـضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

بالتطور التاريخي والتغيرات التاريخية. هادفين من وراء ذلك إلى أن شريعة الإسلام لا تصلح لكل زمان ومكان.

وجها إبطال الشبهة:

١) إعجاز القرآن وعدم قدرة العرب الفصحاء على الإتيان بمثله مع تحديهم بذلك يتنافى مع كونه منتجًا ثقافيًّا أو كلامًا مخلوقًا.

٢) لقد جمع القرآن الكريم بين ثبات النص وتطور التفسير، والاجتهاد الفقهي في فهم النص الإلهي، فواكب المتغيرات عبر الزمان والمكان.

التفصيل:

أولا. التَّحدِّي القرآني يتنافى مع القول ببشريته:

إذا كان زعم هؤلاء وقيامهم بمحاولاتهم الساذجة الفِجَّة[1] يشفي غليلهم من الإسلام والقرآن؛ فليقوموا بجهد دءوب ولينفق بعضهم فيه عمره، ولتنفق عليهم دولهم الملايين للتشكيك في المصدر الرباني للقرآن، ومهاجمته بكل وسيلة.

هو فعل قديم وإفك قالته الجاهلية العربية من قبل ولا تزال كل جاهلية تردده! ولقد عرض القرآن كل تلك المزاعم والافتراءات وفندها تفنيدًا عقليًّا مقنعًا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ (الفرقان: ٤) ويرد عليهم القرآن في نفس الآية: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾ (الفرقان)، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ (الفرقان)، ويرد عليهم القرآن أيضًا: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ (الفرقان) أي: قل يا محمد: أنزل هذا القرآن الذي يعلم السر فهو عالم الغيب فلا يحتاج إلى معلم، وذكر "السر" دون الجهر؛ لأنه من علم السر، فهو في الجهر أعلم، ولو كان القرآن مأخوذًا من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها وقد جاء بفنون تخرج عنها، فليس مأخوذًا منها، وأيضًا لو كان مأخوذًا من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضًا، كما تمكن محمد ﷺ فهل عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه[2]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ (النحل: ١٠٣) فرد الله عليهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ (النحل) أي: كيف يعلم شخص أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها[3].

ولنسأل: هل تأتَّى لبشر في التاريخ كله أن يؤلف كتابًا يحوي من الحقائق ما جاء به القرآن الكريم؟ إن القرآن ليس فقط معجزًا بأسلوبه، ولكن كذلك بمحتوياته، وبكون هذه المحتويات - بكل شمولها وتكاملها - معروضة بأسلوب معجز، أي إنه إعجاز فوق إعجاز. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس: ٣٧).

فلو أن الإعجاز كان في الأسلوب وحده الذي عجز الناس خلال كل القرون عن أن يأتوا بمثله - لكان

١. الفِجَّة: الخاطئة والمخالفة للحقيقة.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٣، ص٤.

٣. المرجع السابق، ج١٠، ص١٧٧ بتصرف يسير.

هذا كافيًا لإثبات مصدره الرباني، ودليلًا قاطعًا على صدق رسول الله ﷺ في دعواه أنه رسول مرسل من عند الله، وأنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ (النجم).

فكيف إذا كان الإعجاز موضوعيًّا إلى جانب الإعجاز البياني؟[1]

لقد كان العرب في جاهليتهم قومًا أولي فصاحة نادرة، فكانت معجزة النبي ﷺ الكبرى هي هذا القرآن الذي تحداهم أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فلم يستطيعوا، فتحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا.

وإذا كان القدامى قد وجهوا أكبر اهتمامهم للإعجاز البياني، الذي تحدى به القرآن الجاهلية العربية وآلهتها المزيفة، فقد آن لنا أن نتدبر جوانب الإعجاز الأخرى في هذا الكتاب المعجز لتحدي الجاهلية المعاصرة التي تريد أن تفتن الناس عن ربهم ودينهم، وتؤله "الإنسان" بدلًا من الله - وتسعى إلى تدمير الإنسان بإبعاده عن مصدر النور الحقيقي ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥).

ولقد اشتمل النص القرآني على أنواع متعددة من الإعجاز، فإلى جانب إعجازه البياني الذي لا تنفد عجائبه، هناك الإعجاز الدعوي بوصفه كتاب دعوة، فقد أبرز عقيدة التوحيد الصافية كما لم يبرزها كتاب قط، وهناك الإعجاز التشريعي الذي يتضمن شريعة متكاملة وافية بكل حاجات البشر الحياتية، ومتطلبات وجودهم لا في زمان نزولها فحسب، بل مهما امتد بهم الزمن وتعددت مجالات الوجود، وهناك الإعجاز التربوي الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، وهناك الإعجاز العلمي الذي تتكشف آياته كلما زاد البشر علمًا بما حولهم من الكون، وهذه مجرد إشارات لحثِّ الباحثين إلى أن يبحثوا، والمفكرين إلى أن يتدبروا كما أمرهم الله، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ (النساء)[2].

خذ حقيقة الألوهية وحدها، وما جرى فيها على أيدي البشر من تخبطات مقارنة بصفاء الوحي وشفافيته، ووضوحه، وتألقه، وعمقه ونصاعته، وخذ إلى جانبها عشرات الحقائق الواردة في كتاب الله: حقيقة خلق الإنسان، حقيقة الدنيا والآخرة، حقيقة البعث والنشور، والحساب، والجزاء، حقيقة القيم التي ينبغي أن تحكم حياة الإنسان على الأرض، حقيقة الكون المادي وما يجري فيه، حقيقة المهمة التي خُلِق الإنسان من أجلها، حقيقة الإيمان، حقيقة المعركة القائمة بين الإيمان والكفر، حقيقة السنن الربانية التي تحكم حياة البشر، وانظر وتفكر.

أي كتاب من صنع البشر جمع هذا الحشد من الحقائق بالتناسق الذي عرضت به في هذا الكتاب، وبقوة التأثير الذي يبعثه في النفوس؟ وأي بشر تبلغ اهتماماته هذا الشمول الذي لا يغادر شيئًا من أساسيات الحياة إلا ويتعرض له في عمق وتمكن مثل ما جاء في هذا الكتاب؟ ولكن بعض المستشرقين لهم في ذلك تخرصات!

---

١. لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٠٤ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٨: ١٠ بتصرف.

يقولون: لقد جاء محمد ﷺ بما جاء به نقلًا عن كتب أهل الكتاب، أو سطوًا عليها، أو تلقيًا من أصحابها! وقد بلغت فريتهم حدًّا من الكذب المفضوح أكبر من باقي مزاعمهم، فكيف يتأتى للذي ينقل من كتاب يقول إن الله ثالث ثلاثة أن يقرر أن الله واحد؟

وكيف يتأتى للذي ينقل من كتاب يقرر أن لله تعالى ولدًا يشاركه في الألوهية، أن يقرر أن الله لا شريك له ولا ولد؟! وكيف يتأتى للذي ينقل من كتب لم تترك نبيًّا من أنبياء الله تعالى إلا لطَّخت سمعته وشوَّهت صورته، واتهمته بما لا يجوز في الرجل العادي فضلًا عن النبي المرسل، أن يسرد سير الأنبياء وقصصهم بالنصاعة والطهر والسمو الذي وردت به سير الأنبياء في القرآن؟

وكيف يتأتى للذي ينقل من كتب أو يسمع من أناس لم يتعرفوا على آيات الله في الكون، أو لم يدركوها، ولا علم لهم بأطوار الجنين البشري من النطفة للعلقة للمضغة للعظام لاكتمال التكوين، أن يسرد في كل هذه الأمور حقائق لم يتعرف العلم عليها إلا منذ زمن قريب؟!

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) ﴾ (الأنعام)، ولكن المعركة لن تَكُفَّ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة: ٢١٧)[(١)] ®.

١. المرجع السابق، ص٢٠٤: ٢٠٦ بتصرف.

® في **"إلهية القرآن الكريم!"** طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). والشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

ثانيًا. الجمع بين الثبات والتطور لمواكبة المتغيرات:

إن القول بتاريخية ووقتية أحكام القرآن الكريم ليس بجديد، فلقد سبق وتبناها فلاسفة التنوير الغربي الوضعي العلماني، بالنسبة للتوراة والإنجيل، فرأوا أن قصصها مجرد رموز، بل ورأوا أن الدين والتدين إنما يمثل "مرحلة تاريخية" في عمر التطور الإنساني، مَثَّلت مرحلة الطفولة للعقل البشري، ثم تلتها - على طريق النضج - مرحلة "الميتافيزيقا" التي توارت هي الأخرى لحساب المرحلة الوضعية، التي لا ترى علمًا إلا إذا كان نابعًا من الواقع، ولا ترى سُبُلًا للعلم والمعرفة إلا العقل والتجارب الحسية، وما عدا ذلك - من الدين وأحكام شرائعه - فهي "إيمان" مثَّل مرحلة تاريخية على درب التطور العقلي، ولم يَعُدْ صالحًا لعصر العلم الوضعي - اللهم إلا لحكم العامة والسيطرة على نزعاتهم وغرائزهم!

وإذا كان هذا القول قد جاز، ووُجِد له بعض المبررات - في الغرب - بالنسبة لكتب رسالات خاصَّة بقوم بعينهم - بني إسرائيل - الذين جاءتهم اليهودية والمسيحية، ونزلت لهم التوراة والإنجيل، لزمان معين وبتفاصيل تشريعات - وخاصة في التوراة - تجاوزها تطور الواقع، فإن دعوى تاريخية النص الديني لا مكان لها ولا ضرورة تستدعيها بالنسبة للقرآن الكريم؛ ذلك لأن القرآن هو كتاب الشريعة الخاتمة، والرسالة التي ختمت بها النبوات والرسالات، فلو طبقنا عليه قاعدة تاريخية النصوص الدينية لحدث "فراغ" في المرجعية الدينية، إذ لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ولا وحي بعد القرآن الكريم.

وإذا حدث هذا "الفراغ" في المرجعية والحجة الإلهية على الناس، زالت حجة الله على العباد في الحساب والجزاء؛ إذ سيقولون: يا ربنا، لقد أنزلت علينا كتابًا نسخه التطور، فماذا كان علينا أن نطبق، بعد أن تجاوز الواقع المتطور آيات وأحكام الكتاب الذي أنزلته لهدايتنا؟!

إن التاريخية ووقتية الأحكام لا يقول بها أحد في أحكام العبادات، وإنما يقول بها أصحابها في آيات وأحكام المعاملات. وهم يخطئون إذا ظنوا أن هناك حاجة إليها في أحكام المعاملات التي جاء بها القرآن، ذلك أن القرآن الكريم - في العبادات - قد وقف عند "فلسفة" و "كلِّيَّات" و "قواعد" و "نظريات" التشريع أكثر مما فصل في تشريع المعاملات.

فهو قد فَصَّل في الأمور الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، مثل منظومة القيم والأخلاق، والقواعد الشرعية التي تستنبط منها الأحكام التفصيلية، والحدود المتعلقة بالحفاظ على المقاصد الكلية للشريعة، وترك تفصيل أحكام المعاملات لعلم الفقه، الذي هو اجتهاد محكوم بثوابت الشريعة الإلهية، وذلك حتى يظل الفقه - فقه المعاملات - متطورًا دائمًا أبدًا، عبر الزمان والمكان؛ ليواكب تغيُّر الواقع ومستجدَّات الأحداث في إطار كلِّيَّات الشريعة وقواعدها ومبادئها، التي تحفظ على أحكامه المتطورة إسلاميتها دائمًا وأبدًا.

وهذه "الصيغة الإسلامية" الفريدة التي جاءت بالنص الإلهي الثابت - أي الشريعة التي هي وضع إلهي ثابت - تحفظ إسلامية وإلهية المرجعية والمصدر دائمًا وأبدًا، بينما وكَلَت أمر المتغيرات إلى الفقه - المتجدد والمتطور - والفقه هو علم الفروع، هذه "الصيغة الإسلامية" هي التي وازنت بين ثبات النص وتطور التفسير البشري للنص الإلهي الثابت، وجمعت بين ثبات "الوضع الإلهي" وتطور "الاجتهاد الفقهي"؛ أي: جمعت بين ثبات المرجعية والنص، وبين تطور "الاجتهاد الفقهي" المواكب لمتغيرات الواقع عبر الزمان والمكان[1] ®.

الخلاصة:

- ما يشتمل عليه النص القرآني من كافة وجوه الإعجاز: البياني، والدعوي، والتربوي، والتشريعي، والعلمي، بجانب عجز البشر عن المجيء بمثله أو بسورة من مثله وتحديه لهم بهذا - لدليل كافٍ على أنه لا يمكن أن يكون مُنْتَجًا ثقافيًّا جمعه محمد ﷺ من المعارف التي حصل عليها بالسماع.
- قد جمع القرآن بين ثبات النص، وتطور التفسير والاجتهاد الفقهي للنص الإلهي، فواكب المتغيرات عبر الزمان والمكان، ويدل على ذلك صلاحية شريعته منذ أن نزل القرآن إلى الآن، وستظل تحكم بعدل الله وإحسانه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - يشعر

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٣٠٧: ٣٠٩.

® في **"تاريخية النصوص الشرعية"** طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). وفي **"ضعف أدلة التوراة والإنجيل على تأبيد شريعتهما"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). وفي **"مجالات الثبات والمرونة في الشريعة الإسلامية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة. وفي **"انتفاء جمود الشريعة الإسلامية وتحجُّرها"** طالع: الشبهة الثامنة؛ من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

بهذا ويحسه كل من ظل على فطرته التي فطرَه الله تعالى عليها.

- إن رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات السماوية إلى الأرض، وهذا يستدعي أن تكون شريعته ملائمة لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة، حتى لا يكون للبشر حُجَّة على الله ﷻ، وإذا نظرنا إلى شريعة الإسلام وجدناها متطورة حسب مقتضيات كل عصر ومصر.

الشبهة الثالثة والثمانون

دعوى تعارض القرآن مع الحقائق الشرعية الثابتة (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن هناك تعارضًا بين القرآن الكريم والحقائق الشرعية، مستدلين على دعواهم هذه بعدة تساؤلات منها:

كيف تزعمون أن محمدًا اصطفاه الله للرسالة وهيأه، مع وصفه له بالضلال، فهو كقومه كان وثنيًّا، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ (الضحى)؟

كيف سُحِرَ النبي مع أن الله تعالى يذكر كلام الكفار، ووصفهم النبي بالمسحور في مقام الذَّم في قول الله تعالى على ألسنتهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) ﴾ (الفرقان).

كيف يُسحر النبي مع أن الشياطين لا تُسلط على عباد الله الصالحين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) ﴾ (الحجر) ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾ (النحل)؟! فسحر النبي دليل أنه من الغاوين، وأنه من الذين يتولون الشيطان.

كيف يُذكر في القرآن أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) ﴾ (البقرة)، مع أن هذا الدين اشتُهر بالتشدد في إنكار الشرك، وتكفير كل ساجد لغير الله؟!

هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في حقائق الإسلام ومبادئه السامية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) المقصود بالضلال هو المعنى اللغوي لا المعنى الشرعي؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت شرع.

٢) سحر النبي ﷺ كان في الأمور الدنيوية، لكنه معصوم من الخطأ فيما يتعلق بالأمور الشرعية والوحي.

٣) للسحر أنواع وليست كلها تسلط من الشياطين على المسحور، وسحر النبي ﷺ كان أشبه بالمرض.

٤) الأمر بالسجود لآدم غرضه التحية والإكرام، لا العبادة والإعظام.

التفصيل:

أولا. المقصود بالضلال في الآية المعنى اللغوي لا المعنى الشرعي:

إن العرب كانت إذا وجدت شجرة منفردة في

(*) رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، مرجع سابق. هل القرآن معصوم؟ عبد الله الفادي، موقع إسلاميات. www.islameyat.com

صحراء لا شجر معها سمُّوها "ضالة"، فيُهتدى بها على الطريق، فقال الله تعالى لنبيه: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ (الضحى)، أي: وجدتك لا أحد على دينك فهديت بك الخلق إلي، ومن هذا قول العرب: "الحكمة ضالة المؤمن"، أي أن الضلال هنا المقصود به الحقيقة اللغوية لا الشرعية؛ إذ لم يكن في ذلك الوقت شرع، وهذا المعنى اللغوي المقصود في الآية يوضح الحالة التي كان عليها النبي ﷺ في تلك الفترة، فقد كان وحيدًا على طريق الحق فهدى الله به قلوبًا غلفًا وأعينًا عميًا وآذانًا صمًّا.

وقيل: إنه من قولك: ضللت الطريق. أي لم تعرفه، ومنه قولهم: ضالة الإبل والغنم. يعني التي لم تهتد لقومها، فالنبي ﷺ كان موحدًا عارفًا بالله بفطرته وعقله، ولكنه لم يعرف كيف يعبده؛ لأنه لم ينزل عليه شرع، فهو ضال بهذا المعنى، أي لم يعرف طريق العبادة الصحيحة.

قال الراغب: الضلال ترك الطريق المستقيم؛ عمدًا كان أو سهوًا، قليلًا كان أو كثيرًا، ويصح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب إلى الأنبياء، وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون بعيد، ألا ترى أنه قال في النبي ﷺ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ (الضحى)، أي غير مهتد لما سبق إليك من النبوة، وقال في يعقوب: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ (يوسف)، وقال أولاده: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨) ﴾ (يوسف)، إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) ﴾ (الشعراء)، تنبيه أن ذلك منه سهو، وقوله: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، أي: تنسى وذلك من النسيان الموضوع على الإنسان.

والضلال من وجه آخر ضربان: ضلال في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الله ووحدانيته، ومعرفة النبوة ونحوهما، المشار إليهما بقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ (النساء)، وضلال في العلوم العملية، كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات، وهذا النوع يعذر فيه الإنسان إذا لم يبلغه.

ألا ترى أن زيد بن عمرو بن نفيل دخل الجنة مع أنه لم يعرف كيف يعبد الله تعالى، فقد أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نُفَيْل بأسفل بَلْدَح[1]، قبل أن ينزل على النبي الوحي، فقُدمت إلى النبي سُفرة فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لن آكل مما تذبحون على أَنْصَابِكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؛ إنكارًا لذلك وإعظامًا له[2].

وعن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نُفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لَعَلِّي أن أَدِينَ دينكم فأخبرني؟ فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك

١. بلدح: وادٍ في طريق التنعيم إلى مكة.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه (٣٦١٤).

من غضب الله. قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا، وأنّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره ؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حَنِيْفًا، قال زيد: وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد فَلَقِي عالمًا من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفرُّ إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا، وأنّى أستطيع؟ فهل تَدُلُّني على غيره ؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيدٌ قولهم في إبراهيم عليه السلام، خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم[1].

عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يحيي الموءودة[2]، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيكها مَئُونَتَها، فيأخذها فإذا تَرَعْرَعَتْ، قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مَئُونَتَهَا[3].

فزيد بن عمرو مع جهله بطريق العبادة، إلا أن فطرته دلَّته على وجود الله، وعقله هداه إلى توحيد الله، فكان يعبد الله على حسب اجتهاده، فهو مع ضلاله عن طريق العبادة الصحيحة، إلا أنه كان معذورًا، لذلك أدخله الله الجنة، ومن هذا الباب معنى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (الضحى)، أي: ضالًّا عن طريق العبادة الصحيحة فدلك عليها، وإن كنت عارفًا بالله موحدًا له.

ثم إننا نلزمهم بأمر وهو: هل هم يقولون هذا أيضًا في موسى عليه السلام عندما قال عن نفسه: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الشعراء)، ثم إننا لو تنزلنا لهم وسلمنا لهم بالمعنى الذي يريدون، فإن هذا لا يضره؛ فهو معذور بعدم العلم إذ لم يضل عن علم، بل ضل بغير علم، وهذا لا حرج عليه ولا مؤاخذة فيه، قال ابن تيمية - رحمه الله: "وأما وجوب كونه قبل أن يُبْعَث نبيًّا لم يخطئ أو لم يذنب فليس في النبوة ما يستلزم هذا.

ولكن الحرج كل الحرج فيمن يعرف العلم والهدى ثم يتركه، كما هو حال اليهود والنصارى الذين يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم.

ثانيًا. كان سحر النبي ﷺ في الأمور الدنيوية، لكنه معصوم من الخطأ أو النسيان فيما يتعلق بالأمور الشرعية والوحي:

لا بد - أولًا - أن نعرف أن حديث سحر النبي ﷺ ثابت في كتب السنة[4]، فعن عائشة قالت: سُحِر النبي

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن عمر بن نفيل رضي الله عنه (٣٦١٥).

٢. الموءودة: البنت تُدفَن حية خوف العار أو الحاجة.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل (٣٦١٦).

٤. قال ابن القيم: وهو حديث ثابت عند أهل العلم بالحديث لا يختلفون في صحته، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيحه، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين. (التفسير القيم، ابن القيم، ص٥٦٦).

حتى إنه ليُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله ــ وفي رواية: وأنه يأتي أهله ولا يأتي ـ حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه، ثم قال: "أَشَعَرْتِ يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استَفْتَيْتُه فيه"؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: "جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رِجْلَيّ، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مَطْبُوب[1]. قال: ومَنْ طَبَّه؟ قال: لَبِيد بن الأَعْصَم ـ اليهودي من بني زُرَيْق ـ قال: فيمَ ذا؟ قال: في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ[2] وجُفٍّ[3] طَلْعَة ذَكَر. قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان[4]. قال: فذهب النبي في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: "والله، لَكَأَنّ ماءها نُقَاعَةُ الحِنَّاء، ولكأن نَخْلها رءوس الشياطين". قلت: يا رسول الله، أَفَأَخْرَجْته؟ قال: "لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيتُ أن أُثَوِّر على الناس منه شرًّا، وأَمَر بها فدُفِنت"[5].

فظاهر من الحديث أن السحر كان في الأمور الدنيوية، فهو يُخَيَّل إليه أنه أتى أهله ولكنه لم يفعل، ويخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله[6]، وأما الأمور الشرعية والوحي، فإنه معصوم من الخطأ فيها، كما ثبت في النصوص الكثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم).

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله فأومأ بإصبعه إلى فِيهِ فقال: "اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق"[7]. وغير ذلك من النصوص الكثيرة.

قال المازري: أنكر المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل. وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعه من الشرائع، إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء، قال المازري: وهذا كله مردود لأن الدليل قد قام على صدق النبي فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها ولا كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عُرضة لما يعترض البشر كالأمراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين، قال: وقد قال بعض النَّاس: إن

---

١. المَطْبُوب: المسحور.
٢. المُشاطة: ما يسقط من الشعر حين يُسرَّح.
٣. الجُفُّ: قشر الطلع، يعني: طلع النخل.
٤. بئر ذو أروان: هو بئر بالمدينة في بستان بني زريق.
٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر (٥٤٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السحر (٥٨٣٢).
٦. ويرى الشيخ رشيد رضا أن هذا كان خاصًّا فقط في إتيانه أهله، وأنه معنى قول عائشة: كان يُخَيَّل إليه أنه يأتي الشيء ولا يأتيه. كناية عن الجماع، كما جاء في تفسيره في الرواية الثانية. (تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، محمد رشيد رضا، ص١٣٧).
٧. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو ﷺ (٦٨٠٢)، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في كتابة العلم (٣٦٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٣٢).

المراد بالحديث أنه كان يخيل إليه أنه وَطِئَ زوجاته ولم يكن وَطِأَهُنَّ، وهذا كثيرًا ما يقع تخيله للإنسان في المنام، فلا يبعد أن يُخيل إليه في اليقظة.

قُلْت: وهذا قد ورد صريحًا في رواية ابن عُيَيْنة في الباب الذي يلي هذا ولفظه: "حَتَّى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنَّ"[1].

وفي رواية الحُمَيدي: "أنه يأتي أَهْله ولا يأتيهم"[2].

قُلْت: ووقع في مُرْسَل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد: "فقالت أُخْت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبيًّا فسيُخبر، وإلا فَسَيُذْهِلُه هذا السحر حتى يذهب عقله". قُلْت: فوقع الشِّق الأول كما في هذا الحديث الصَّحِيح.

وقد قال بعض العلماء: لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك، وإنما يكون من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت، فلا يبقى على هذا للملحد حجة.

وقال عياض: ويؤيد جميع ما تقدم أنه لم ينقل عنه في خبر من الأخبار أنه قال قولًا فكان بخلاف ما أخبر به. وقال المهلب: صون النبي من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده، فقد مضى في الصحيح أن شيطانًا أراد أن يفسد عليه صلاته فأمكنه الله منه، فكذلك السحر ما ناله من ضرره ما يدخل نقصًا على ما يتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعف عن الكلام، أو عجز عن بعض الفِعْل، أو حدوث تخيُّل لا يستمر، بل يزول ويُبطل الله كَيْد الشَّيَاطِين. ومثل هذا قوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ (طه)، فسحر النبي مثل سحر موسى، وهو أن يخيَّل إليه الشيء، فمن أنكر الحديث ماذا يقول عن هذه الآية؟

ونزيد الأمر وضوحًا فنقول: السحر الذي أراده المشركون غير السحر الذي حصل للنبي ﷺ، فهم أرادوا المسحور يعني الذي يصل إلى حد الجنون والافتراء، وقول ما لا يعقل ودخول الجن في المسحور، وهذا لا شك أنه باطل في حق النبي ﷺ، وأما سحر النبي ﷺ فهو من نوع التخيل الذي يحصل لأي إنسان يقظة ومنامًا، وهذا لا يضر في مقام النبوة.

ثالثًا. ليس كل السحر تسلطًا من قبل الشياطين على المسحور، وسحر النبي ﷺ كان أشبه بالمرض:

للسحر أنواع منها:

- سحر بالأدوية.
- سحر لا حقيقة له، بل هو خيال أو "خفة يد" كما يقولون.
- سحر بالاستعانة بالشياطين.

إذن فليس كل أنواع السحر تسلُّطًا من الشياطين على المسحور، وذهب بعض العلماء إلى أن سحر النبي ﷺ من نوع الأدوية؛ قال ابن حجر: وَاسْتَدَلَّ ابن القَصَّار على أن الذي أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث: " فأما أنا فقد شفاني الله"[3]. وفي

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر (٥٤٣٢).
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠)، (٥٧١٦).
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب تكرير الدعاء (٦٠٢٨).

الاستدلال بذلك نظر.

لكن يؤيد المدعي أن في رواية عَمْرة عن عائشة عند البيهقي في الدلائل "فكان يدور ولا يدري ما وجعه"[1]. وفي حديث ابن عباس عند ابن سعد: مَرِضَ النبي وأُخذ عن النساء والطعام والشراب، فهبط عليه مَلَكَان... إلخ.

ولو سلَّمنا أنه من النوع الشيطاني، فليس كل تعرض من الشيطان للإنسان معناه أنه ليس من عباد الله، وفرق كبير بين التَّعرُّض والمحارشة[2] وبين التَّسلُّط، ويؤيد ذلك ما أخرجه مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النبي يقول: "إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم"[3].

فكل صالح يتعرض له الشيطان، بل هذه وظيفته في الحياة، وهو أقسم على إغواء بني آدم. ولو سلمنا أن هذا من التسلط فإنه لفترة محدودة، ثم بعد ذلك يذهبه الله تعالى، ويرجع المسلم إلى حاله الأولى. هذا آدم عليه السلام أغواه الشيطان حتى وقع في الأكل من الشجرة، وهذا موسى قتل نفسًا بغير نفس فقال عليه السلام: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ (القصص: ١٥)، ولا يقول أحد أن هذا من التسلط بمعنى التحكُّم والإغواء والتضليل، بل يبقى آدم وموسى - عليهما السلام - من خير أنبياء الله ورسله.

وبذلك يتبيَّن لنا أن سحر النبي ﷺ لا يشكك في نبوته، وإنما يمثل نقطة مشرقة، إنه سُحِرَ، ولكنه لم يخرج عن دائرة الصواب، بل كان في أعلى درجات الاستقامة والهداية، وهذا يدل على أن السحر لم يؤثِّر في قواه العقلية، ولا في درجته الإيمانية، وإنما كان مؤثرًا في أداء الجسم، وهذا لا علاقة له بالرسالة والوحي والعصمة، ومع أنه أمر جسدي، فإن الرعاية الإلهية قد شملته، وتولاه الله بالحفظ، وسلمه وشفاه[4].

رابعًا. إن السجود نوعان: سجود تحية وإكرام، وسجود عبادة وإعظام:

إن سجود العبادة لا يجوز في جميع الملل وعند جميع الرسل، بل لا يسجد الإنسان إلا لله وحده، وأما سجود التحية فهذا كان جائزًا في شرع من قبلنا، كما حصل ليوسف عندما خَرَّ له أبواه وإخوته سُجَّدًا، فلم ينكر عليهم، ومن هذا الباب سجود الملائكة لآدم، وأما في شرعنا فقد نُسخ سجود التحية، درءًا للفتنة وسدًّا لأبواب الشرك وطرائقه.

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ (يوسف: ١٠٠)، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا، وجعل الكلام بدلًا عن الانحناء.

وأجمع المفسرون أن ذلك السجود - على أي وجه كان - إنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام

١. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب كيفية نزول الوحي (٣٠١٨).

٢. المُحارشة: التحريض.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٧٢٨١).

٤. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، دار الصحيفة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٥٥ بتصرف.

تحية أهل الجنة[1].

على أن كثيرًا من العلماء يقولون: إن السجود هنا المقصود به المعنى اللغوي للسجود، وهو عموم الانحناء والميل والاحترام، ولا يلزم منه أن يخر على الأرض.

وبهذا يتبين لنا أن سجود الملائكة لآدم كان سجود تحية وتعظيم وتسليم، لا سجود عبادة وصلاة؛ لأن سجود العبادة لا يجوز إلا لله ﷻ، وفي سجود الملائكة لآدم عليه السلام طاعة لله عز وجل، فضلًا عن تحية عبده عليه السلام ®.

الخلاصة:

- لا يمكن أن يوجد تعارض بين القرآن والحقائق الشرعية؛ لأن القرآن والحقائق الشرعية كلها من وحي الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
- ثم إن النبي ﷺ قد اصطفاه الله تعالى للرسالة وهيأه لها، فكيف يُعدُّه ويصطفيه ثم يضله عن طريق الحق الذي أراده له المولى عز وجل؟! وأما الضلال المنسوب إليه في سورة الضحى إنما قُصد به معناه اللغوي، لا المعنى الشرعي، ولو كان المقصود به المعنى الشرعي لكان الأنبياء من قبله من الضالين أيضًا، وهذا مستحيل.
- لقد كان سحر النبي ﷺ في الأمور الدنيوية، لا في الأمور الشرعية كالوحي؛ لأن النبي ﷺ كان معصومًا من الخطأ في التبليغ عن الله عز وجل، ودليل ذلك أنه لم يقل شيئًا أثناء سحره، ثم عاد بعد شفائه ونقض ما قال.
- ثم إن السحر ليس كله تسلطًا من الشياطين على المسحور، وإن السحر أنواع؛ منه سحر بالأدوية، ومنه سحر النبي ﷺ، وسحر لا حقيقة له، بل هو خيال أو خفة يد كما يقولون، وسحر فيه استعانة بالشياطين.
- لقد حفظ الله عز وجل دينه من أن يحتوي على إشراك به سبحانه، وأن أمره سبحانه بالسجود لآدم، ليس معناه الشرك، أو أنه سجود عبادة وإعظام، إنما كان سجود تحية وإكرام، وكانت هذه تحية في شرع من قبلنا، وقد نسخ في ديننا، فكانت تحية في ديننا بالكلام دون السجود أو الانحناء درءًا للفتنة وسدًّا للذريعة، لأن سجود العبادة لا يكون إلا لله عز وجل.

الشبهة الرابعة والثمانون

دعوى تعارض القرآن مع الحقائق الكونية، التي أثبتها العلم التجريبي(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن هناك تعارضًا بين القرآن والحقائق الكونية، ويستدلون على ذلك ببعض الحقائق والتساؤلات منها:

- أن الأرض ليست ثابتة بل متحركة، فكيف يقول القرآن إنها راسية وثابتة؟

---

1. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٢٦٥.

® في **"حقيقة سجود الملائكة لآدم"** طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١). والوجه الرابع، من الشبهة الخامسة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات www.islameyat.com

- أن القرآن جعل النجوم والكواكب في حجم الحجارة، ترمي بها الملائكةُ الشياطين، والعلم الحديث يثبت أن كل كوكب عالم متفرد في ذاته بمكوناته وضخامته.
- أن الأرض والسماء جُرْمان، وليس كل واحد منهما سبعة كما ورد في القرآن.
- ذكر المفسرون أن جبل "قاف" يحيط بالأرض كلها، وهذا خطأ؛ لأن العلم يبين أن أعلى قمة هي "إفرست".

هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في الحقائق العلمية في القرآن بغية التشكيك فيه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن يذكر ثبات الأرض من الاضطراب، لا من الحركة، فهي متحركة بحركة متزنة لا اضطراب فيها.

٢) النجوم والكواكب في حجم الحجارة للناظرين، لا بحسب الأصل، ولكن بحسب منظور الرؤية.

٣) الوحي قرر أن الله خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، وهذا يقين لا ريب فيه، وعلميًّا إذا كان العلم قد أثبت أن المجموعة الشمسية واحدة من مجموعات أخرى فلا يستبعد أن يكتشف الأراضي السبعة، والسماوات السبع.

٤) هذا الحرف "قاف" في أول سورة "ق" هو من الحروف المقطَّعة وليس اسم جبل.

٥) شهادات بعض علماء الغرب والشرق المتخصصين في الدراسات الكونية، تؤكد سبق القرآن الكريم لكل العلوم والمعارف الكونية الحديثة، وتطابقها مع ما قرره.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم يذكر ثبات الأرض من الاضطراب، لا من الحركة؛ لأنها متحركة بحركة متزنة:

في البداية يجب أن نشير إلى أنه لا بد أن تكون هذه المعلومات التجريبية وصلت مرحلة الحقيقة العلمية المستقرة المتفق عليها، فلا يجوز أن نجادل القرآن بنظريات تفسيرية لبعض ظواهر الكون؛ إذ إنه من الممكن أن تكون القضية العلمية عبارة عن تجارب لم تصل إلى حد الحقيقة الثابتة القطعية، مثل نظرية أن أصل الإنسان قرد، ثم مر بمراحل حتى وصل إلى هذا المستوى، والتي تتعارض مع كون ابتداء خلق الناس من آدم الذي خلقه الله تعالى مرة واحدة من غير تدرُّج.

وكذلك إن زعموا أن في القرآن تناقضًا فلا بد أن يكون هذا التناقض من كل وجه، بحيث لا يحتمل حمل اللفظ على معنى آخر، فإن دلالة القرآن الظنية المعنى مما يمكن حملها على عدة معان، ومن هذه المعاني معان لا تخالف العلم، مثل دعوى المناقض أن الأرض تدور حول الشمس، حسب زعمهم - لقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾﴾ (الكهف)، فنسب فعل الدوران للشمس، وهذا غير صحيح؛ فإن اللفظ ليس قاطعًا في هذا المعنى، بل إنه ابتدأ بقول: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾، أي أن هذا الأمر بالنسبة لرؤية الإنسان، وسياق الآية كما هو ظاهر ليس مقصودًا في إثبات دوران الأرض حول

الشمس أو العكس، فلا ينبغي تحميل النص ما لا يحتمل، فإذا كانت المسألة في حقيقة علمية ثابتة، وهي تعارض نصًّا قرآنيًا من كل وجه، فهنا يحدث التناقض.

وقد وضح لنا د. منصور محمد حسب النبي في القسم الأول من كتاب "المعارف الكونية بين العلم والقرآن" مدى تطابق العلم الحديث مع آيات القرآن الكونية فقال: جاء في سورة لقمان: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (لقمان). قالوا فكيف يقول القرآن إنها راسية وثابتة؟ وهذا يدل على أنهم لم يفهموا المعنى الحقيقي لكلمة تَمِيد.

فمعنى تميد أي: تضطرب وتتزلزل، ولا يراد بالميدان مجرد حركة متزنة، والمصدر الثلاثي (فعلان) يأتي لإفادة هذا المعنى، مثل ميدان وغليان وثوران وجولان... وهكذا، والآية تذكر أن الله تبارك وتعالى ثبَّت الأرض حتى يستطيع البشر أن يستقروا عليها في نومهم، ويزرعوا ويرعوا ماشيتهم، ولو كانت مضطربة ما استطاع الناس أن يطمئنوا عليها وأن يعملوا هذه الأعمال.

نحن ننام في الطائرة وفي القطار وفي السفينة، فإذا اضطرب واحد منها استيقظنا وشعرنا بالتعب، وقد نطلب من السائق أن يعمل شيئًا يسكنها لتثبت، ولا يعني تثبيته أنه يقف ولا يتحرك، بل أن ينقطع اضطرابه، وسيذكر القوم بعد معترضين على القرآن الكريم أنه ذكر ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس)، وكل (كلمة تشمل الشمس وتوابعها من القمر والأرض والكواكب الأخرى، فالقرآن إذن يقرر حركة كل هذه الكواكب).

وبهذا فالأرض ليست ساكنة، بل تتحرك عدة حركات متداخلة؛ لأن الكون كله لا يعرف السكون، وصدق الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (لقمان: ٢٩)[1].

ثانيًا. النجوم والكواكب في حجم الحجارة للناظرين، لا بحسب الأصل، ولكن بحسب منظور الرؤية:

جاء في القرآن: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ (الملك)، وجاء أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (الحجر)، وقال رجال المجلس الكنسي: إن القرآن جعل النجوم والكواكب في حجم الحجارة، ترمي بها الملائكة الشياطين، والعلم الحديث يثبت أن كل كوكب عالم ضخم.

والذي في الآية أن هناك أجسامًا نارية تصيب الشياطين، ولم يذكر أن الشيطان يسقط عليه نجم أو أن الملائكة ترميه به، والعلم الحديث، ورواد الفضاء يتحدثون عن النيازك التي ترى في الفضاء الواسع مذنبات مضيئة، ومنها الناري الذي ينطفئ ويتفتت في سَيْره، وبعضها يصل إلى الأرض، وهي تشبه المقذوفات البركانية، والذين درسوا جغرافية فلكية

١. المعارف الكونية بين العلم والقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٢٦٦ وما بعدها.

يعرفون هذا، فهذه المقذوفات قطع تنفصل من الكواكب وتتحرك في الفضاء، خصوصًا إذا كان النجم أو الكوكب قريبًا من الأرض، والله تعالى يصيب بها من يشاء ويحفظ بها من يشاء، وقد تكون قطعًا باردة ولكنها مضيئة كالقمر. أما سماع نوابغ العصر أصحاب تيموثاوس أن الذين نزلوا على سطح القمر رأوا هناك جهات ساكنة نارها، وأخرى ملتهبة؟ وأنهم رأوا الأرض مشعة كما نرى نحن القمر؟ وأن الفضاء مليء بقطع نارية سابحة، ومنها ما يصل إلى الأرض؟ فهذه أشياء لا أصل لها من الصحة في الاكتشافات العلمية الحديثة.

ثالثًا. أخبر الله أنه خلق سبع سماوات، ومن الأرض مثلهن، وأكد الرسول ﷺ هذا الإخبار:

وإذا كان العلم الحديث قد أثبت أن المجموعة الشمسية التي يتعلق بها عالمنا هذا ليست إلا واحدة من مجموعات أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، فلا يُسْتبعد أن يتوصل العلم الحديث إلى الأراضين السبع والسماوات السبع، وإن كنا لسنا في حاجة إلى إثبات العلم الحديث بعد ما جاء الوحي في القرآن والسنة يقرر عدد السماوات والأرض؛ ذلك لأنه جاء في القرآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق)، وجاء: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ (نوح)، وجاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (البقرة)، وجاء هذا ومثله في آيات أخرى، وخطؤه في نظر رجال المجلس أن الأرض كوكب واحد وليست سبعة، وكذلك السماء!

والآية الأولى جاءت في ختام سورة الطلاق، وهي تلفت الأنظار إلى قدرة الله تعالى البالغة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق).

آية عجيبة رهيبة تبيِّن ضآلة الإنسان في هذا الكون العظيم، ويقف غير واحد من الكُتَّاب مذهولًا أمام التعبير، وأمام مدلوله، وأمام هذا الإعجاز القرآني. ما هذه السماوات؟ وما هذه الأرضون؟ كل ينظر من زاوية خاصة، وكل يجد في الآية ما يبهره.

قد تكون السماء التي توصل علمنا إليها بكل ما فيها من كواكب ونجوم وأفلاك إحدى سماوات سبع، والكرة الأرضية التي نعيش عليها هي أيضًا كذلك! إن علم الفلك الحديث يؤيد هذا، ويذكر أن المجموعة الشمسية التي يتعلق بها عالمنا هذا ليست إلا واحدة من مجموعات أخرى لا يعلمها إلا الله الذي خلقها.

وفي آية سورة الطلاق نلاحظ أن لفظ سماوات أتى دون ذكر كلمة طباقًا كوصف قرآني لها، وبهذا يجب علينا أن نصرف النظر عن وجود طبقات سبع داخل أرضنا كما تخيَّل بعض المفسرين لهذه الآية مجازًا دون وجه حق، فالآية تشير صراحة إلى حقيقة وجود عدد من الأرضين بنفس عدد السماوات السبع، ويؤيد ذلك أحاديث الرسول ﷺ، كما يلي:

- "من ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ من الأرض طُوِّقَه من سبع

أَرَضِين "[1].

- "ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فَلَاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة"[2].
- "اللهم رَبَّ السماوات السبع وما أَظْلَلْنَ، وربَّ الأَرضِين السبع وما أَقْلَلْنَ"[3].

وكل هذه الأحاديث النبوية تؤكد أن لكل أرض سماء تعلوها، وأن هناك ارتباطًا بينهما، فلا سماء بدون أرض ولا أرض بدون سماء، كما يتضح أيضًا من بديعيات قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (هود)، وبهذا فالأرض والسماء متلازمان، فإذا كان هناك سبع سماوات، فلا بد أن يكون هناك سبع أرضين[4].

رابعًا. "قاف" حرف من الحروف المقطَّعة التي بدأت بها أوائل السور، ولا يعلم المقصود منه إلا الله:

إن ما رُوِي عن بعض المفسرين أن "ق" جبل يحيط بالأرض فإنه رأي مَرْجُوح وليس عليه أكثر المفسرين، والراجح أن "ق" حرف من الحروف المقطعة التي لا يعلم المراد به إلا الله تعالى، ويؤيد هذا ما ذهب إليه الإمام الطاهر ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية فيقول: إن القول فيه ـ أي: في الحرف "ق" ـ نظير القول في أمثاله من الحروف المقطعة الواقعة في أوائل السور، فهو حرف من حروف التهجِّي، وقد سمُّوه في المصحف بصورة حرف القاف التي يُتهجَّى بها في الكتب، وأجمعوا على أن النطق بها باسم الحرف المعروف... وقد أجمع من يعتد به من القراء على النطق به ساكن الآخر، سكون هجاء في الوصل والوقف، ووقع في رواية بعض القصاصين المكذوبة عن ابن عباس أن المراد بقوله: ق: اسم جبل عظيم محيط بالأرض... وهذا مما ينبغي ترفُّع العلماء عن الاشتغال بذكره. ومن العجيب أن تُفرض هذه الأوهام في تفسير هذا الحرف من القرآن، ألم يكفهم أنه مكتوب على صورة حروف التَّهجِّي مثل: آلم وآلمص؟! ولو أُريد الجبل الموهوم لكتب " قاف" ثلاثة حروف مثل: عين: اسم الجارحة، وغينش: مصدر غان عليه، فلا يصح أن يدل على هذه الأسماء بحروف التهجي كما لا يَخْفَى[5].

خامسًا. شهادات علماء الغرب بسبق القرآن للدراسات الكونية الحديثة وتطابقها معه:

إن المنصفين من أهل الملل الأخرى شهدوا بأن القرآن لا يتعارض مع العلم أبدًا. يقول إبراهيم خليل: يرتبط هذا النبي ﷺ بإعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين (٣٠٢٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغضب الأرض (٤٢٢٢).
2. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها (٣٦١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩).
3. صحيح: أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب الدعاء عند رؤية القرية التي يريد دخولها (٨٨٢٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب المسافر (٢٧٠٩)، وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٧٩).
4. المعارف الكونية بين العلم والقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، مرجع سابق، ص٢٤٢، ٢٤٣.
5. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٢، ج٢٦، ص٢٧٥، ٢٧٦ بتصرف.

المسيح عليه السلام في قوله عنه: "ويخبركم بأمور آتية". وهذا الإعجاز هو القرآن الكريم، معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمان، فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه؛ من طب وفلك وجغرافيا وجيولوجيا وقانونٍ واجتماعٍ وتاريخٍ... ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف، وقال: "أعتقد يقينًا أني لو كنت إنسانًا وجوديًّا لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية، وجاءني نفر من الناس، وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث في كل مناحيه؛ لآمنت برب العزة والجبروت خالق السماوات والأرض، ولن أشرك به أحدًا".

وقال بوتر: "عندما أكملت قراءة القرآن الكريم، غمرني شعور بأن هذا هو الحق، الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها، وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية، نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع، وأسلوب قاطع لا يدع مجالًا للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة". وقال بوتر أيضًا: "كيف استطاع محمد الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية، أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل".

وقال د. فيليب حتى: "إن أسلوب القرآن مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يُقلد، وهذا في أساسه هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن هو المعجزة الكبرى".

ولقد ألف د. مراد هوفمان ـ سفير ألمانيا السابق بالرباط ـ كتاب "الإسلام كبديل"[1]، وفيه شهادات كثيرة على إعجاز القرآن وصدقه وصدق النبي وكمال التشريع.

ومن الذين تخصصوا في هذا المجال، وكان من أشد الناس عداوة للقرآن والرسول د. موريس بوكاي، وكان كلما جاءه مريض مسلم يحتاج إلى العلاج الجراحي، فإنه إذا أتم علاجه يقول له: ماذا تقول في القرآن، هل هو من عند الله أنزله على محمد، أم من كلام محمد نسبه إلى الله افتراءً عليه؟ فإذا أجاب المريض بأنه من الله، وأن محمدًا صادق، قال: أنا أعتقد أنه ليس من عند الله وأن محمدًا ليس بصادق.

وبقي على ذلك زمانًا حتى جاءه الملك فيصل بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية الراحل، يقول بوكاي: فعالجته جراحيًّا حتى شُفِي، فألقيت عليه نفس السؤال، فقال لي: هل قرأت القرآن؟ فقلت: نعم مرارًا وتأملته، فقال لي: بلغته أم بترجمة؟ فقلت: بالترجمة، فقال: إذن أنت تقلد المترجم، والمقلد لا علم له؛ إذ لم يطلع على الحقيقة، لكنه أخبر بشيء فصدقته، والمترجم ليس معصومًا من الخطأ والتحريف عمدًا، فعاهِدْني أن تتعلم اللغة العربية وتقرأ القرآن بها، وأنا أرجو أن يتبدل اعتقادك الخاطئ هذا. قال: فتعجبت من جوابه، ووضعت يدي في يده وعاهدته على ألا أتكلم في القرآن حتى أتعلم العربية، وذهبت من يومي إلى الجامعة الكبرى بباريس، وتعلمت اللغة العربية في سنتين، وأنا آخذ يوميًّا درسًا حتى يوم عطلتي، ثم قرأت القرآن بإمعان، ووجدته الكتاب الوحيد الذي يضطر المثقف بالعلوم العصرية أن يؤمن بأنه من الله

١. من منشورات مكتبة العبيكان، الرياض، ط٣، ٢٠٠١م.

تعالى، لا يزيد حرفًا ولا ينقص، وأما التوراة والأناجيل الأربعة ففيها كذب كثير لا يستطيع عالم عصري أن يصدقها[1].

وكانت ثمرة هذه الدراسة العميقة للقرآن تأليف كتابه المشهور "التوراة والإنجيل والقرآن بمقياس العلم الحديث"، ومما قاله بوكاي في هذا الكتاب: "لقد قمت أولًا بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامَّة بحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف ــ قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات ـ أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظواهر الطبيعية، لكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث".

الخلاصة:

- لقد تقرر لدى الناس جميعًا ـ إلا من كابر عن الاعتراف بالحق ـ أن القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإذا كان كذلك فكل حقيقة علمية مصدرها الوحي المعصوم سواء أثبتها العلم الحديث أو لم يتوصل إلى إثباتها، فنحن نؤمن أن ما جاء في القرآن هو الحق، فالقرآن أثبت أن الأرض وسائر الكواكب متحركة بحركة ثابتة مقدرة مضبوطة ليس فيها اضطراب، ولو اضطربت لدمرت الدنيا، وحسبك في ذلك عمليات المد والجزر، وهذا ليس اضطرابًا، وإنما إرادة إلهية بقدر معين.
- وأما النجوم فإذا كانت في حجم الحجارة، فإن ذلك بحسب النظر الإنساني القاصر إلا أن هذه النجوم والكواكب عالم كبير وضخم لا يعلم حقيقته إلا الله.
- لقد قرر الوحي أن الله تعالى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، وإذا لم يتوصل العلم الحديث إلى كنه السماوات والأرض، وحدود كل واحد منهما بالتحديد، فإنما هذا من قصور في العلم الإنساني، ولعله يكتشف ذلك فيما بعد، خاصة وأنه قرر أن المجموعة الشمسية التي يتعلق بها عالمنا واحدة من بين مجموعات كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى.
- القرآن الكريم لم يقرر أن "ق" اسم جبل، وإلا لذكر ذلك صراحة إما في القرآن أو أخبر به النبي ﷺ، كما أخبر عن اسم جبل أحد، ولكن "ق" هذا من الحروف المقطَّعة التي لا يعلم المراد منها إلا الله تعالى، فهذا مما استأثر الله تعالى بعلمه.
- شهد بعض علماء الغرب الذين تخصصوا في الدراسات الكونية، أن الحقائق الكونية الحديثة تتطابق مع جاء في القرآن الكريم، وأن القرآن سبق كل هذه الاكتشافات العلمية بآلاف السنين، وهذا يدل على أن القرآن الكريم ليس كلام بشر، ولكنه كلام الله ﷻ.

---

1. مقال في مجلة "السمو"، العدد الثاني، نوفمبر ٢٠٠١م، د. وليد الطبطبائي بعنوان "الملك فيصل يدعو الجرَّاح العالمي موريس بوكاي للإسلام"، وذكر في المقدمة أن هذه القصة موجودة في كتاب "نوادر التاريخ" لصالح محمد الزمام.

الشبهة الخامسة والثمانون

دعوى التناقض في أسلوب الخطاب في القرآن الكريم(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين وجود تناقض في أسلوب الخطاب في القرآن الكريم، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ (الفاتحة)، وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾ (البقرة)، وقول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ (البقرة).

ويتساءلون: كيف يمكن اعتبار القرآن وحيًا من الله، وفي نفس الوقت نجد هذه الآيات العديدة التي جاءت على لسان محمد ﷺ، أليس هذا دليلًا على أنَّ القرآن من كلام محمد ﷺ نفسه؟

وجها إبطال الشبهة:

١) لا تناقض في أسلوب الخطاب القرآني؛ لاعتماده على أسلوب الالتفات وهو أحد أساليب البلاغة والبيان في لغة العرب.

٢) لقد بلَّغ الرسول ﷺ ما أُوحي إليه من ربه حرفيًّا، والدليل على ذلك:

- احتفاظ القرآن الكريم بالتعابير الدالة على حرفيته.
- نصوص العتاب والمنِّ والتحذير من الله إلى رسوله ﷺ.

(*) موقع ابن مريم. www.ebnmaryam

التفصيل:

أولا. الالتفات من أساليب العرب البلاغية:

إن الزاعم لا يعرف أساليب اللغة العربية، ولا طرائق البلغاء في الكلام، ولا منهجهم في البيان.

فمن أساليب العرب في البيان: أن يتحدث المتكلم عن نفسه تارة بضمير المتكلم، وتارة بضمير الغائب، كأن يقول المتكلم: فعلتُ كذا وكذا، وذهبتُ، وآمرك يا فلان أن تفعل كذا، وتارة يقول عن نفسه أيضًا: إن فلانًا - يعني نفسه - يأمركم بكذا وكذا، وينهاكم عن كذا، ويحب منكم أن تفعلوا كذا. كأن يقول أمير أو مَلِك لشعبه وقومه وهو المتكلم: إن الأمير يطلب منكم كذا وكذا، وهو يشير بذلك إلى أن أَمْرَه لهم من واقع أنه أمير أو ملك، وهذا أبلغ وأكمل من أن يقول لهم: إنني الملك وآمركم بكذا وكذا.

وقد جاء القرآن الكريم بهذا النوع من البيان، كما في الآيات التي اعترض بها أصحاب هذا الزعم على أسلوب القرآن في الخطاب، فظنوا أن هذا لا يمكن أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٣)﴾ (آل عمران)، فظن هؤلاء أن الله لا يمكن أن يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب، وأنه كان لا بد وأن يقول: نَزَّلْتُ عليك يا محمد الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه... ونحو ذلك، وهذا جَهْلٌ بأساليب اللغة العربية وموقعها في البيان والبلاغة.

وأما الالتفات في الخطاب من الحضور إلى الغيبة والعكس، كأن تُخاطِب المخاطب بضميره فتقول: إنك فعلتَ كذا وكذا، ثم تخاطبه تارة أخرى بضمير الغائب فتقول له: فعل فلان كذا وكذا، وأنت تَعْنِيه. فهذا أسلوب من أساليب البلاغة أيضًا، كقوله تبارك وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢)﴾ (عبس)، ولا شك أن النبي ﷺ هو المقصود، ثم حوَّل الله تعالى الخطاب إليه قائلا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤)﴾ (عبس).

ولأن القرآن كتاب تعليم وتوجيه، فقد جاء ليعلِّم المسلمين ماذا يقولون في صلاتهم، وبماذا يَدْعُون ربهم، فقد أنزل الله سورة الفاتحة لتكون دعاءً وصلاة للمسلمين يتلونها في كل ركعة، وفيها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٤)﴾ (الفاتحة)، وهذا كلام الله تعالى عن نفسه سبحانه، يصف نفسه بهذه الصفات الجليلة العظيمة، ثم يعلم المسلمين أن يقولوا في صلاتهم ودعائهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)﴾ (الفاتحة). ففي هذه السورة العديد من مظاهر البلاغة والإعجاز والمعاني، ولو أن عالمًا بالعربية تدبرها كَفَتْهُ إعجازًا وشهادة أن هذا القرآن مُنَزَّل من الله ﷻ وليس من كلام بشر[1] ®.

ثانيًا. بلَّغ النبي ﷺ ما أُوحي إليه من ربه حرفيًّا:

هناك العديد من الأدلة التي تنفي كون القرآن من عند غير الله تعالى، منها:

١. احتفاظ القرآن الكريم بالتعابير الدالة على حَرْفيَّته:

لقد بلَّغ النبي ﷺ ما أُوحي إليه من ربه حرفيًّا، وليس أدل على ذلك من هذه الآيات الكثيرة من سور القرآن الكريم التي تحتوي على كلمات مثل: قلْ، وبَشِّر، وأنذرْ، وألم تر... إلخ.

ولم نعلم في أي لغة من لغات العالم الأسلوب الذي يقول فيه المُرسِل للرسول مثلًا: "اذهب إلى أحمد وأخبره أنني سأزوره غدًا"، فيذهب الرسول ويقول لأحمد: "اذهب إلى أحمد وأخبره أنني سأزوره غدًا".

وقد ورد لفظ "قل" في القرآن مُكثَّفًا، فنجد أن جميع السور في القرآن خلال ثلاثة وعشرين جزءًا تحتوي على كلمة "قل" في بعض آياته، وبأعداد مختلفة تتراوح بين مرة واحدة إلى خمسٍ وأربعين مرة كما في سورة الأنعام[2]، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على التبليغ الحرفي لآيات القرآن الكريم من قِبَل النبي ﷺ، فهذه الصِّيَغ لا يمكن لأحد أن يكتبها على لسانه، وإن كان النبي ﷺ هو قائلها، لحذف هذه الصيغ التي أشرنا إليها.

٢. نصوص العتاب والمَنِّ والتحذير من الله تعالى لرسوله ﷺ:

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تحتوي على عتاب للنبي ﷺ، وكذلك آيات تدل على مَنِّ الله على

---

١. موقع روح الإسلام.

® في **"الالتفات في القرآن الكريم"** طالع أيضًا: الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

٢. يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة حامد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٠٠.

رسوله، وآيات بها تحذير من الله لرسوله ﷺ. وكل هذه الآيات تدل على أن القرآن من كلام الله تعالى، ويستحيل أن يكون كلام محمد ﷺ.

فمن الآيات الدالة على العتاب قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢)﴾ (عبس)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾ (التحريم)، ومن الآيات التي تدل على مَنِّ الله تبارك وتعالى على رسوله، قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ (النساء: ١١٣)، ومن الآيات التي تدل على تحذير الله للنبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦)﴾ (الحاقة). فمن هذه الآيات تبيَّن لنا أنه لو كان محمد ﷺ هو كاتب هذا الكلام لخفَّف هذه الصيغ أو حذفها، ومن هنا يتبين لنا أن القرآن رسالة من الله للبشر قد نقلها النبي ﷺ كما أخذها عن ربه[1].

الخلاصة:

- إن أسلوب الالتفات في الخطاب من أساليب العرب الفصحاء في البيان، فتارة يتحدث المتكلم عن نفسه بضمير المتكلم، وتارة بضمير الغائب، ولا ينكر ذلك إلا جاهل بأساليب العرب البيانية، وحين يستخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب إنما يستخدمه لما فيه من مقاصد بلاغية عديدة مثل: استحضار المشهد، أو تنبيه السامع، أو تخفيف العتاب، ونحو ذلك العديد من مقاصد البُلَغاء.

- لقد بلَّغ النبي ﷺ ما أُوحي إليه من ربه تبليغًا حرفيًّا، وليس أدل على ذلك من هذه الصيغ التي تشير إلى عدم تدخل النبي ﷺ في النص القرآني مثل: قل، وبَشِّر، وأنذر، وألم تر... وغيرها، وكذلك الآيات التي تحتوي على عتاب النبي ﷺ، أو منِّ الله عليه، أو تحذير الله له، فالقرآن رسالة من الله للبشر نقلها النبي كما أخذها عن ربه.

الشبهة السادسة والثمانون

ادعاء أن القرآن الكريم لم يأتِ بجديد وأن ما فيه مقتبس من التوراة والإنجيل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم لم يأت بجديد في أحكامه وتشريعاته وقصصه، وإنما هو مقتبس من الكتب السابقة ومُصاغ من نصوصها. هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في مصدر القرآن الكريم والقول ببشريته.

وجها إبطال الشبهة:

١) انفرد القرآن بأحكام وتشريعات لم تعهدها الكتب السابقة عليه.

٢) التشابه في ذكر الوقائع والأحداث بين القرآن

---

١. المرجع السابق، ص١٠١: ١٠٣ بتصرف.

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

الكريم والكتب السابقة لا يعني أنه اقتُبس منها، فقد أضاف وعدل وذكر ما لم تعرفه؛ فالجديد في القرآن لا يتمثل في الإضافة فقط، وإنما في تصويب الأخطاء التي وردت في العهدين القديم، والجديد بسبب التحريف والتزييف.

التفصيل:

أولا. القرآن يتضمن أحكامًا وتشريعات مغايرة لما ورد في الكتب السابقة، وأخرى غير معهودة من قبل:

فمما نجده في القرآن من أحكام وتشريعات لم تعهدها الكتب السابقة:

- **في محيط العقيدة:**

نرى أن "الله" ﷻ في عقيدة اليهود يحمل صفات بشرية، فهو يستشير الحاخامات، ويندم على ما أنزله باليهود وبالهيكل، والله عندهم ضعيف صارع "إسرائيل" فصرعه "إسرائيل"، وهو مصدر الشر، كما هو مصدر الخير.

أما في المسيحية فالله اثنان أو ثلاثة، وله أبناء ينتسبون إليه، والمسيح إله وهو ابن الله، فلو كان القرآن مُقْتَبَسًا من الإنجيل، فلماذا لم يأخذ بنظرية التثليث، وعقيدة الصلب والفداء والخطيئة الموروثة؟!

أيضًا كان الإسلام واقعيًّا حين رفض "الرَّهبنة" التي تعني اعتزال الحياة الدنيا، وتحقير الواقع الذي أصله رد فعل على العبودية اليهودية للدنيا.

- **في محيط التشريعات:**

ترتكز التشريعات اليهودية على الوصايا العشر، أما التشريعات المسيحية فترتكز على مجموعة مواعظ، وكلتاهما تفتقد مفهوم التشريع المطلوب للحياة. أما القرآن فهو رسالة خاتمة صالحة لكل مكان وزمان، وقد حدد القرآن موقف الإنسان وعلاقته بالدنيا والآخرة، وقد أتى بالجديد الذي غيَّر مسار البشرية.

- **في محيط الأسرة:**

ينظر العهد القديم إلى المرأة باعتبارها مصدر كل شر، وهي شباك وقلبها أشراك، ويداها قيود، فقد جاء في سفر الجامعة: "دُرْتُ أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلًا، ولأعرف الشرَّ أنه جهالة، والحماقة أنها جنون. فوجدت أمرَّ من الموت: المرأة التي هي شباك، وقلبها أشراك، ويداها قيود. الصالح قُدَّام الله ينجو منها. أما الخاطئ فيُؤْخَذ بها. (الجامعة ٧: ٢٥، ٢٦). أما الإسلام فيضعها في مكان المساواة مع الرجل، ويُقدِّر العديد من النماذج المثالية للمرأة أمثال: مريم ابنة عمران، وامرأة فرعون، وأم موسى، وغيرهن الكثيرات.

- **في مجال حرية الإرادة وحقوق الإنسان:**

وفيما يتصل بقضية الحرية واحترام حقوق وكرامة الإنسان، فالقرآن وضع القوانين التي تصون الإنسان، وتحفظ له دمه وماله وعرضه، وتحقق له السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة. فإن الإنسان لا يخضع إلا لخالقه، ويقدر له الحرية من لحظة ميلاده - ولو لم يسلم - وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: "متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"؟! إضافة إلى حرية الإنسان في الاعتقاد والسياسة.

أما إذا نظرنا إلى وصية بولس للعبيد لوجدنا أنها تعتبر طاعة الطبقة الحاكمة كطاعة المسيح فيقول: "أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حَسَب الجسد بخوف ورِعْدَة

في بساطة قلوبكم كما للمسيح...". (رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٦: ٥).

- **في أمر الحرب والسلام:**

اعتبر القرآن السلام هو الأصل والحرب ضرورة لإصلاح الفساد، فلأول مرة في تاريخ الحروب يُوصي بألا يُقتل شيخ، ولا صبي، ولا امرأة، ولا راهب في صومعته، ولا عابد في محرابه، ولا تقطع شجرة مثمرة ولا مظلة، ولا يجهزوا على جريح ولا يُمَثل بقتيل... إلخ.

- **في شئون المال والثروة:**

كان الربا ولا يزال قوام الاقتصاد بين أهل الكتاب، وهو ما برر فلسفة "الاستعمار" واغتصاب ما بأيدي الضعفاء، أما الإسلام فقد قضى ولأول مرة على هذه الظاهرة أو أنذر من يتعاملون بها بحرب من الله ورسوله. وقد أنزل القرآن "المال" من مكانة المعبود إلى حالة الخادم (أي وسيلة لا غاية لرعاية الناس وليس هدفًا يتقاتلون عليه، ويمتصُّون بسببه دماء الفقراء)، وقدَّر أن المال مال الله، والناس ليسوا إلا مستخلَفِيْن فيه.

- **في العلاقات الدولية والتعايش السلمي:**

جاء القرآن برؤية مستقبلية جديدة في مجال العطاء الحضاري، قوامها الارتقاء بالإنسان من عنصر الطين فيه إلى عالم الروح، وبيَّن أن تغيير الناس يرتبط بتغيير أنفسهم، بعيدًا عن العنف والثورات التي تضر أكثر مما تنفع[1].

وبالنظر إلى تقييم المنظمات الحقوقية، والأمم المتحدة ومواثيق جنيف، يتبين أن قتل المدنيين جريمة حرب، واغتصاب المنتصر لنساء المهزوم جريمة حرب، وذبح أطفال المهزوم جريمة حرب، وقتل البهائم ـ لكونها ملكية خاصة للمهزوم ـ جريمة حرب وجنون وشذوذ عقلي.

فهل طبقوا هذه القوانين في معاملتهم مع الآخر ـ فهذه القوانين هي ما دعا إليها الإسلام، وطبقها المسلمون ـ؟ بالطبع لا، فكتبهم المقدسة تحثهم على قتل الأطفال والنساء واغتصابهن، وتعد هذا قربى إلى الله، ففي سفر التثنية ينقل لنا الكاتب الكاذب الإرهاب والإجرام في صورة أوامر من الرب، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا: "فضربًا تضرب سكان المدينة بحدِّ السيف، وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف". (التثنية ١٣: ١٥)، فهذا أمر صريح بقتل الجميع، وحرق المدينة بما فيها من البهائم، وهذا قليل من كثير.

ففي السفر نفسه نجد: " وإذا دَفَعَها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كلُّ غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تَسْتَبْقِ منها نَسَمَة ما". (التثنية ٢٠: ١٣ـ ١٦)، بل الأدهى من ذلك ما نجده في سفر أخبار الأيام الأول من أبشع صور القتال المنسوبة إلى نبي الله داود عليه السلام: "وأخرج الشعب الذين بها ونَشَرَهم بمناشير ونوارِج

---

١. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، مرجع سابق، ص٢٥: ٣٠ بتصرف.

حديد وفؤوس. وهكذا صنع داود لكل مدن بني عمون. ثم رجع داود وكل الشعب إلى أورشليم". (أخبار الأيام الأول ٢٠: ٣)، وفي سفر العدد: "فالآن اقتلوا كل ذَكَر من الأطفال. وكل امرأة عرفت رجلًا بمضاجعة ذكر اقتلوها. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات". (العدد ٣١: ١٧، ١٨).

أفبعد هذا ما زالوا يُصِرُّون على ادعائهم هذا، فهل قرَّر القرآن هذه الأكاذيب أم صحَّحها وعدَّل ما بها من تحريف[1]؟!

القرآن يحتوي على تشريعات وقصص لم تعهدها الكتب السابقة:

فيما يتصل بهذا الشأن نرى:

- اشتمال القرآن على أخبار لم يكن يعرفها أهل الكتاب، فقد ذكر مثلًا قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها، وخصص لها سورة كاملة ولم تذكر في العهد الجديد، فمن أين استقى محمد هذه المعلومات إذن؟
- جاء في سفر الخروج: أن ابنة فرعون هي التي تبنَّت موسى في حين قرر القرآن أن امرأة فرعون هي التي تبنته، وفيه أيضًا نسبة عبادة العِجْل إلى هارون، والقرآن نسبه إلى السامري، وذكر إنكار هارون ذلك عليهم.
- لقد جعل القرآن الكريم من أنبياء الله نماذج أخلاقية عُليا، بينما ينسب العهد القديم إلى بعضهم ارتكاب الفواحش، وهذا لا يتفق مع مكانة الأنبياء في التصور الإسلامي، فقد زعم أهل الكتاب مثلًا أن لوطًا زنا بابنتيه، وأن نوحًا ثَمِلَ[2] حتى ترنح سكرًا، وإبراهيم كاذب وديوث لا يغار على عرضه، وموسى يهدد ربه بالاستقالة من النبوة... وغيرها الكثير.
- العبادات في الإسلام والتي جاء بها القرآن من صلاة وصيام وزكاة وحج، وتفاصيل هذه الشعائر وطريقة إجرائها، من الأمور التي لا نظير لها في الديانات السابقة، فالصلوات الخمس وطريقة أدائها في أوقات معينة وبصيغ محددة، والصيام في شهر رمضان من كل عام بالامتناع عن الطعام والشراب وجميع الشهوات من الفجر إلى غروب الشمس، والزكاة، وطريقة أدائها ومصارفها وأنواع الزكاة، والحج وما يشتمل عليه من طواف ووقوف بعرفة وسعي بين الصفا والمروة ورمي للجمار... إلخ، أمور لا يشتمل عليها أي دين بالكيفية التي أتى بها الإسلام[3].

وقد أجمل الأستاذ محمد قطب وجوه إعجاز القرآن - ومن ثَمَّ جديده ومتفرده - بقوله: "ولن يَفِي كتاب واحد - مهما تضخمت صفحاته - بالحديث عن كل مجالات الإعجاز في القرآن، فهي في حاجة إلى أن يتفرغ لها كُتَّاب وباحثون، بحيث تتكون من مجموع بحوثهم مكتبة كاملة عن إعجاز القرآن، سواء الإعجاز البياني الذي لا تنفد عجائبه، أو الإعجاز الدعوي بوصفه كتاب دعوة قد أبرز عقيدة التوحيد الصافية، كما

---

١. رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٤٥، ١٤٦ بتصرف.

٢. ثَمِل: أثَّر الشراب فيه.

٣. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص١٧: ١٩.

لم يبرزها كتاب قط، ودخل بها إلى قلوب البشر من جميع منافذها وأقطارها كما لم يفعل كتاب قط، أو الإعجاز التشريعي الذي تضمن شريعة متكاملة، وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم لا في زمان نزولها فحسب، بل مهما امتد بهم الزمن وتعددت مجالات الوجود، أو الإعجاز التربوي الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، أو الإعجاز العلمي الذي تتكشف آياته كلما زاد البشر علمًا بما حولهم من الكون"[1].

ويفصِّل هذا الجديد شيئًا ما د. محمد عبد الله دراز بطرحه السؤال الآتي: ما هو الجديد والتقدمي إذن في تعاليم القرآن الأخلاقية؟ ثم يجيب قائلًا: "هذا هو ما سنوضحه في ملاحظات مختصرة تهم كل باحث منصف:

١. في مجال الفضيلة الشخصية:

في هذا المجال الفردي نجد على الأقل قاعدة جديدة ومبدأً جديدًا في القرآن الكريم، فالقاعدة الجديدة هي تحريم الخمر والقضاء على مصادرها بمنع تناول أي مشروب مسكر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ (المائدة).

وأما المبدأ الجديد الذي نقصده هنا فهو "النية" باعتبارها لُبُّ العمل الأخلاقي، فلكي يحمِّس موسى قومه كان يغريهم بآمال أرض الميعاد، وبالنصر على الأعداء وبالبركة والرخاء في كل شئون الحياة الدنيا. وجاء المسيح لكي يفتتح عهدًا جديدًا في الدعوة الدينية، فيوضح لنا الإنجيل أن النعيم والسعادة الموعودة ليست في هذه الدنيا. فآمال النفوس وطموح الأرواح، عليها منذ ذلك الحين أن تنصرف عن الحياة الدنيوية وتتجه إلى السماء، وأخيرًا يأتي القرآن الكريم، وإذا هو بمنهجه البنَّاء يجمع بين هذين الوعدين ويوفق بينهما لا باعتبارهما الباعث المحرك للإنسان وإنما باعتبار أن الهدف الذي ينبغي على الإنسان الفاضل أن يقصده ليس في ملكوت السماء ولا في ملك الدنيا. إنما هو أعلى من هذا كله، إنه في الخير المطلق أي في ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى الذي يجب استحضاره في القلب عند أداء العمل الإنساني بتنفيذ أوامره تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٧٢) ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾ (الليل).

٢. الفضيلة في العلاقات بين الأفراد:

وها هو تقدم آخر يرتبط بالقاعدة الأخلاقية التي تحدد علاقاتنا بإخوتنا فبأحكام التوراة وأحكام الإنجيل استقامت شجرة الفضيلة وبَزَغَتْ فروعها وأوراقها، أما في المجال القرآني فإن هذه الشجرة الخضراء سوف تُزْهِر وتُؤْتِي ثمارها، فبالإضافة إلى كنز العدل والمحبة الذي عُني القرآن بحفظه، أوجد فصلًا رائعًا فيما يمكن تسميته بالحضارة الأخلاقية، إنه تقنين حقيقي في الأدب والذوق الاجتماعي والتحشُّم في المظهر: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾ (النساء).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

---

١. لا يأتون بمثله، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٠.

لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (النور).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ (النور).

وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ (النور).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الحجرات). وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (المجادلة)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (الحجرات: ١٢)، وقال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (النور)، وقال تعالى:

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ (النور: ٦٠)، وقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأحزاب)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

الفضائل الجماعية والفضائل العامة:

ونقطة بارزة في القانون الأخلاقي في الديانة الموسوية، ألا وهي هذا الحاجز العالي والقائم بين الإسرائيلي وغير الإسرائيلي. فأي خير يُسْديه الإسرائيلي إذا لم يكن مقتصرًا على شعبه، ينبغي ألا يتعدى وطنه ولا يشمل الغريب المقيم معه. "لا تقرض أخاك بربًا، ربا فِضَّة، أو ربا طعام، أو ربا شيء ما مما يُقْرَض بربا، للأجنبي تُقْرِض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا". (تثنية ٢٣: ١٩، ٢٠). "الأجنبي تُطالب، وأما ما كان لك عند أخيك فتُبْرِئه يدُك منه". (تثنية ١٥: ٣). "وإذا افتقر أخوك عندك وبِيْع لك فلا تستعبده استعباد عبد... لا تتسلَّط عليه بعُنْف، بل اخشَ إلهك. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك، فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تَقْتَنون عبيدًا وإماء. وأيضًا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم، منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يَلِدونهم في أرضكم، فيكونون مِلْكًا لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث مُلْك. تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلَّط إنسان على أخيه بعنف". (اللاويين ٢٥: ٣٩ ـ ٤٦).

أما قانون الأخلاق المسيحي فله الفضل في إسقاط هذا الحاجز الذي كان يفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان "سمعتم أنه قيل: تحبُّ قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبُّوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم، فأي أجْر لكم.. وإن سلمتم على إخوتكم فقط، فأي فضل تصنعون.. فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل". (متى ٥: ٤٣ ـ ٤٨).

ولكن في مقابل ذلك لا نجد هنا هذا الالتحام الاجتماعي، وهذا الشعور بالمسئولية الجماعية الذي تتضمنه النصوص العِبْرِيَّة مثل: "اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات

التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك، وقُصها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق، وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك". (التثنية ٦: ٤ ـ ٩). "فتنزعون الشر من بينكم". (التثنية ١٣: ٥). "فتحفظون جميع فرائضي وجميع أحكامي وتعملونها، لكي لا تقذفكم الأرض التي أنا آتٍ بكم إليها لتسكنوا فيها". (اللاويين ٢٠: ٢٢).

والفضيلة الاجتماعية المسيحية ـ كما تقدمها الأناجيل ـ تتعلق بالعلاقات بين الأفراد أكثر من دلالتها على الروح الجماعية بصفة أساسية، فقد كانت الروح الجماعية في الماضي تستهدف غرضين: صالح الجماعة من ناحية وتمييزها عن صالح الغير من ناحية أخرى، ولكن المحبة المسيحية بامتدادها خارج الحدود الإقليمية، وبرغبتها في احتواء الإنسانية كلها، وقد أحسنت صنعًا بإبطال هذا الطابع العنصري، واستبداله بأخوة عالمية ـ المقصود استبدال أخوة عالمية به ـ ولكنها لم تركز اهتمامها بالقدر الكافي لتقوية الرابطة المقدسة للجماعة بصفة خاصة.

ألا يمكن ـ في الوقت الذي تراعى فيه عمليًّا وقلبيًّا محبة عالمية ـ أن تُخلَق في ظل هذه الأسرة العالمية الكبرى أسرة أصغر وأكثر ترابطًا، وأكثر إدراكًا لكيانها، وكأنها مجموعة من الخلايا تكون كيانًا عضويًّا داخل ذلك الجسم الكبير؟

إن هذا الجمع الموفق بين الفضيلة العامة والفضيلة الجماعية هو الذي أبرمه القرآن؛ إذ يعلمنا في الواقع أن خارج الأخوة في الله توجد الأخوة في آدم ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ (الحجرات). وأن اختلاف المشاعر الدينية لا يجوز أن يحول بيننا وبين أن نبادل إخواننا في الإنسانية المحبة والإحسان، وقال تبارك وتعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ (الممتحنة) وأن قسوة الكفار علينا لا ينبغي أن تدفعنا إلى العدوان، ولا لأن نكون غير مقسطين في معاملتهم: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ (المائدة)، ولقد حرم على المؤمنين أن يتعاملوا بالربا مع أي إنسان، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) ﴾ (البقرة). وبيَّن أن التَّقِي العادل داخل الجماعة الإسلامية هو كذلك خارجها، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾ (آل عمران).

وإذا كان على المسلم في بعض الظروف أن يبدي عناية خاصة في فك أسر إخوانه المسلمين، فإن عتق العبيد بوجه عام يعتبر إما التزامًا عليه، وإما عملًا يستحق التقدير ويحث عليه القرآن دائمًا. وهكذا تتطور

فكرة الفضيلة العامة التي أعلنها الإنجيل، وتتحدد أكثر فأكثر عندما تتسع لتشمل مجالات الحياة المختلفة.

ولكن هل معنى ذلك أن الجماعة الإسلامية ستتراخى في روابطها الداخلية لتضيع في محيط البشرية الواسع؟ على العكس، نجد أن مبدأين أساسيين يذكرانها بكل قوة بدورها كجماعة متميزة ومتماسكة:

الأول: يدعو المسلمين بأن يكونوا جماعة موحدة، لا تنقسم بدون فرقة أو انشقاق، تلتف حول مثل أعلى وحول رئيسها، ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء:٥٩)، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ (الأنفال: ٤٦).

ومع ذلك، فقد بدا لبعض المستشرقين أن يصوروا المسلم على أنه ذو نزعة فردية لا تقاوم، لم يعرف معنى "رباط التضامن" في يوم من الأيام، إن الدين الإسلامي - كما يقول أحد المستشرقين - يحترم النزعة الفردية ويقدسها، ولا يعرف معنى اندماج النفوس وتلاشيها في تنظيم كبير، فليست الأعمال الجماعية مثل صلاة الجمعة ووقفة عرفات وصلاة الأعياد، إلا أعمالًا فردية يؤديها المؤمنون في وقت واحد ومكان واحد، دون أن تتخذ طابع الاحتفالات الموجهة أو المنظمة وفق تنسيق خاص.

وسوف يلاحظ أي إنسان يحضر صلاة الجماعة للمسلمين، أن هذا القول لا أساس له من الصحة، وإنما سوف يرى المؤمنين مصطفين في نظام جميل، متلاصقين كتفًا إلى كتف، الغني بجانب الفقير، والرئيس بجوار مرءوسه، في وضع واحد واتجاه واحد ودعاء واحد، كل منهم يدعو: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ (الفاتحة).

إنهم جميعًا يطلبون النجاة والفلاح، ليس فقط لمجموعة المصلين، وإنما لجميع عباد الله الصالحين أينما كانوا: "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين". إن هذا التوافق في المظهر لا يعدو أن يكون وسيلة لتأليف القلوب والجمع بينها. يقول الرسول الكريم ﷺ: "لتُسوُّون صفوفكم، أو ليُخالفنَّ الله بين وجوهكم"[1]. فالإسلام ليس فرديًا فحسب وإنما هو أخوة في الله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠).

والمسلمون في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسَّهر والحُمَّى. فالواجبان الأساسيان اللذان يعتبرهما المسلمون واجبين توأمين، يترتب على التخلف عنهما النبذ والعقاب. هما الصلاة والزكاة، إنهما ينهضان كدليل بالغ عن روح التضامن في الإسلام.

أما المبدأ الثاني: وهو على جانب كبير من الأهمية من الناحية الأخلاقية، فهو التزام جميع المسلمين بألا يتركوا المنكر يسود في مجتمعه ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال: ٢٥). وضرورة أن يتواصوا بالحق والفضيلة: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ (العصر)، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ ﴾ (البلد).

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها (٦٨٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها (١٠٠٦).

إنه ليس حقًّا، ولكنه واجب كل مسلم صغيرًا كان أو كبيرًا، أن يدعو أخاه المسلم إلى ما هو حق وعدل، وأن ينهاه عن كل سوء، ويجب ألا يقل اهتمامه بسعادته الأخروية، عن اهتمامه بسعادته المادية. إن علينا جميعًا أن نتعاون في نشر الفضيلة والتقوى بيننا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٢).

ودليل القيمة التي يراها القرآن في وضع هذا التضامن موضع التنفيذ العملي أن جعله المقياس الذي على أساسه سمى جماعة المسلمين الأولى خير أمة أخرجت للناس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

الفضيلة في المعاملات الدولية وبين الأديان:

نُضيف إلى كل ما تقدَّم فصلًا آخر في الأخلاق الإسلامية، جديدًا كل الجِدَّة؛ لأن اليهودية والمسيحية في وقت تأسيسهما لم تُتَحْ لهما الفرصة لإقامة علاقات مع دول معادية، فدعوى عيسى السلمية المحلية كانت تناقضها في اتجاه مضاد الحروب التي قادها موسى ضد الأمم المجاورة والتي انتهت بالقضاء عليها بسرعة. ولقد اختلف الوضع تمامًا بالنسبة لمحمد ﷺ خلال العشر سنوات التي كان فيها على علاقات دائمة مع أمم وديانات مختلفة، تارة مسالمة وتارة معادية.

إن هذه الظروف الخاصة التي جعلت من المرشد الروحي والأخلاقي ﷺ سياسيًّا وقائدًا، اقتضت تشريعًا أخلاقيًّا لظروف السِّلم والحرب، تضمن للقرآن مبادئه الأساسية. ومن هذه المبادئ أن الحرب الشرعية لا تقوم إلا من أجل دفع العدوان، ويجب أن تتوقف بمجرد انتهائه ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (البقرة: ١٩٠)، ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦١).

وهناك بعد ذلك المبدأ الذي يحترم المواثيق المُبْرمة مع العدو مهما كانت فرص عقدها غير متكافئة، فالمعاهدة الموقَّعة بين الأطراف واجبة الاحترام حتى ولو كانت في غير صالحنا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ (النحل). وحتى إذا بدأ العدو في نقض اتفاقه، فلا يحق لنا أن نهاجمه على غِرَّة، بل يجب أولًا إعلانه بإلغاء عهده معنا بطريقة واضحة: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ (الأنفال: ٥٨).

ولقد أخطأ جولد تسيهر عند ترجمة هذه الآية، وكذلك كازمرسكي وسفاري فترجموها "عامله بمثل معاملته الخائنة"، وهذا يتناقض مع نهاية نفس الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾، وهذا بخلاف القواعد التي حددتها السنة والتي نجحت - إن لم يكن في القضاء على هذه الأمة - فعلى الأقل في التخفيف من نتائجها القاسية"[1].

---

١. مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ترجمة: محمد عبد العظيم، دار القلم، الكويت، ط٥، ٢٠٠٣م، ص١١٢: ١١٩.

وإذا أردنا في هذا الشأن مزيدًا من التفصيل، لمزيد من التوكيد والتدليل على وجوه الجدة والأصالة المتعلقة بالقرآن أسلوبًا ومضمونًا، فلنختر مثلًا باب "الإعجاز العلمي" وهو المضمار الذي لا يُبارى القرآن فيه أي من الكتب السابقة، وهذا ما أثبتته الدراسة الشهرية للمستشرق الفرنسي موريس بوكاي الذي درس طويلًا الإشارات العلمية الكونية الواردة في الكتب السماوية الثلاث، وقارنها بحقائق العلم الحديث، وخلص إلى نتيجتين ضَمَّنهما كتابه المعروف: "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث"، وهما:

الأولى: من حيث الكم، فإن كمّ هذه الإشارات في الكتابين السابقين ضئيل، بينما هو في القرآن كبير.

الثانية: من حيث الكيف، فإن الكم الضئيل يتناقض - في معظمه - مع حقائق العلم، بينما كم الإشارات في القرآن - وهو كثير - يتطابق مع هذه الحقائق. وهذا طبيعي لكون القرآن محفوظًا بحفظ الله له، بينما الكتابان السابقان طالتهما - كما هو معروف - يد التحريف والتبديل.

عن وجوه الإعجاز العلمي البارزة المتفردة في القرآن يحدثنا د. عبد الحافظ سلامة الأستاذ بالمركز القومي للبحوث قائلًا: "سأذكر بعض الموضوعات في القرآن الكريم تُبيِّن لنا صدق ما جاء به، وأنه منزَّل من عند الله ردًّا على ما قيل عنه من حيث احتوائه على دلالات علمية، لم يظهر تفسيرها إلا حديثًا مع تطوير العلوم، فكيف وردت هذه الحقائق العلمية في حينها منذ أربعة عشر قرنًا، فمن أين جاء بها؟ وكيف صاغها؟ وكيف تناول هذه المعلومات شديدة التعقيد في آية صغيرة؟ وهذا أبرز مواطن الجدة والأصالة ومظاهرهما، وكيف لإنسان مهما كان متعلمًا ومثقفًا وفيلسوفًا أن يكون عالمًا في علوم البيولوجي والجيولوجي والفلك والتاريخ.. إلى آخره، سنلقي بعض الضوء على بعض هذه الموضوعات العلمية التي لم ترد في كتاب من قبل نزول القرآن.

من العجيب أن هذا الكتاب الذي ظهر منذ أربعة عشر قرنًا في بيئة صحراوية بدوية بسيطة - يحتوي على أكثر من (٢٠٠٠) ألفين من الجمل أو الآيات العلمية التي لم يظهر تفسيرها إلا في القرن العشرين والحادي والعشرين، وسوف تتوالى الحقائق العلمية التي يحتويها القرآن إلى يوم الدين، ثم يخرج علينا بعض العلمانيين والمنافقين من المسلمين والمستشرقين ويدَّعون أن القرآن ناتج ثقافي، وقد يكون للمستشرقين بعض العذر، لعدم إلمامهم التام بالعربية، وأنهم مدفوعون بغيرتهم على دينهم في تجريح الآخرين، ولكن ما عذر المسلمين الذين ساروا على نهجهم في تجريح القرآن الكريم بحجة البحث العلمي أو لطلب الشهرة وإرضاء أوليائهم، فألغوا عقولهم واتبعوا أهواءهم وتكلموا بغير علم؛ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وقد أعلمنا الله بأخبارهم في الآية الكريمة الآتية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (آل عمران).

نعم يا الله، نشهد أن ما جاء في هذا الكتاب هو الحق، وعندما أعملتُ عقلي في آيات الله في القرآن

وجدت أن أول آية نزلت في هذا الكتاب المبين هي ﴿اقْرَأْ﴾ فكيف يكتب عن نفسه، ويقول: اقرأ، ويدعي أن جبريل قال له: اقرأ، وهو لا يعرف القراءة والكتابة؟ هل هو كاتب هذا الكتاب. أم أن جبريل هو الذي أوحى إليه؟ ولأمانة التبليغ، قال لنا الرسول ﷺ ما سمعه بالضبط، و (اقرأ) هذا ليس أمر القراءة لرسول الله ﷺ فقط، ولكن الأمر هنا من الله تبارك وتعالى، لكل من قرأ الآية، ففي أول آيات نزلت في القرآن الكريم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق).

ما الفرق بين قوله تعالى: (اقرأ) في الآية الأولى، وقوله (اقرأ) في الآية الثالثة؟ نحن مستمرون في فرضية أنه متعلم، وأنه مؤلف القرآن الكريم، وأنت أيضًا متعلم مثله، ودائرة معلوماتك المفروض أنها مئات أو آلاف أضعاف المعلومات المتوافرة لدى زمانه، كيف ربط هذا المؤلف بين علم المشاهدة وأن تقرأ في كتاب الكون، وأن تبدأ بنفسك، وأنك مخلوق من عَلَق[1]، وليس من نطفة مثلًا ـ فلم يُعْرف أن النطفة تتحول إلى عَلَقَة في جدار الرحم إلا بعد اكتشاف علم الأجنَّة ـ ولكنه ذكر ذلك في آية علمية أخرى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ (المؤمنون). وهي تشرح أطوار الجنين في بطن الأم، وقد أشار القرآن الكريم إلى حقائق علم الأجنة ـ سبحان الله ـ وبكل دقة، ولذلك قال الله تبارك وتعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ (العلق)؛ لأن النطفة يمكن أن تقذف خارج الرحم، وبالتالي لا يتكون جنين، والنطفة الوحيدة التي تلقح البويضة هي التي تكون العلقة، وهو علم المشاهدة، أما (اقرأ) الثانية في الآية الثالثة أن تقرأ في الكتاب المسطور المدون، أي العلم المكتوب بالقلم، وهذا العلم الذي علمه الله للإنسان منذ خلقه وما زال يمده بالعلم إلى يوم الدين، علم الإنسان ما لم يعلم.. ثم يذكر المؤلف نماذج لبعض الإشارات العلمية في مجالات العلوم المختلفة، فيقول:

علم الأرض:

١. شكل الأرض:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١)﴾ (الحج)، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ (الرحمن)، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)﴾ (الزمر)، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾ (النازعات).

علمنا من التاريخ أن العلامة جاليليو عندما أعلن أن الأرض كروية حوكم لكفره، وأُحرق في روما؛ لأن المعلومات المتوافرة لديهم في الفاتيكان تقول: إن الأرض مسطحة وهي المقولة السائدة عند الإغريق

---

١. العَلَق: جمع علقة، وهي النُّطفة في الطور الثاني.

والعالم أجمع، وكذلك العرب. فمن أين جاء محمد بأن الأرض كروية، بل بيضاوية، كما رأيناها في التليفزيون عندما صورت بالأقمار الصناعية؟ وبعد ذلك نقول: إنه مؤلفه؟

٢. تركيب الأرض:

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الأنعام). في هذه الآية الكريمة السابقة يُقسِّم لنا الله تبارك وتعالى الأرض إلى: البر والبحر، والغلاف الغازي المحيط به وهو ما بين السماء والأرض، ليس هذا فحسب، فكل شيء في الوجود مكتوب في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ (سبأ).

وقال سبحانه وقوله الحق: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (الأنعام: ٥٩) وهو علم مطلق، ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ وسبق أن قال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ ﴾ وهذا يعلمنا أن الأرض هي البر والبحر؛ لأن أيَّة حبة أو بذرة تحملها الرياح وتسقط في البحر ستستقر في القاع، إن لم تأكلها الكائنات البحرية، وبالتالي تصل إلى الأرض أيضًا.

علاوة على أن الآية الكريمة تعلمنا أن أيَّة ورقة نباتية تسقط بعلم الله؛ لأنه سيتغذى عليها البلايين من الكائنات سواء الكائنات الحية الدقيقة، أو ديدان الأرض، أو الحشرات، أو منظومة التغذية جميعها؛ لأن الله عز وجل قد أعلمنا أن أي دابة في الأرض يعلم مستقرها ومستودعها: ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ (هود). ليس هذا فحسب، فهو يعلم أيضًا كل رطب سواء في السماء، أو في الأرض، وأي شيء فيه حياة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنبياء).

فكل رطب على الأرض يحتوي على كائنات تعيش فيه كالبكتريا والفطريات وخلافه من كائنات حية دقيقة، وكذلك الأوليات من الطحالب والبروتوزا، ثم النباتات والدواب الأخرى، وكذلك الرطب والسحب المتناثرة، ثم تتجمع فتصبح سحبًا ركامية، ثم تلقح فتصبح سُحبًا ثِقالًا تخرج الوَدْق[1]، والرعد، والبرق، والبرد، والصواعق، وكلٌّ بإذن الله، وكلٌّ في كتابه فلا يوجد عشوائية في الكون.

٣. ما تحتويه الأرض من كائنات حية:

كان معروفًا منذ القِدَم أن الأرض ميتة ليس فيها حياة حتى أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، عندما اكتشف فان ليفنهوك الميكروسكوب، وكذلك اكتشاف البكتريا عن طريق لويس باستير، وروبرت كوخ عندئذ عرفنا أن التربة - أو الأرض - يحتوي الجرام الواحد منها على ملايين الملايين من الكائنات الحية الدقيقة من بكتيريا وفطريات وطحالب وبروتوزوا وخلافه، ولذلك أطلق على الأرض بعد هذا "الأرض الحية"، وكذلك اكتشفنا عند سقوط ورقة

---

١. الوَدْق: المطر.

النبات، أو دفن إنسان أو حيوان، فإن الكائنات الحية الدقيقة، وخصوصًا البكتيريا تقوم بتحليلها إلى مكوناتها الأساسية إلى ثاني أكسيد الكربون والماء والطاقة، وبعض العناصر المعدنية، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ (طه)، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ (المرسلات) فيعلم ما تحت الثرى، أي: ما في باطن الأرض من كائنات حية، وغيرها من المعادن والتراكيب الصخرية، وخلافه.

وكذلك ما بين السماوات والأرض، وهي السحب المحملة بالمياه، وما تحتويه من شحنات كهربية: برق، ورعد، وصواعق، وفي الآية التالية لها حدد لنا أن الله جعل الأرض كفاتًا، أي: مأوى للأحياء وهي الكائنات الحية الدقيقة، والديدان، والحشرات، وكذلك جذور النباتات، وكذلك للأموات عندما تدفن فتحلل إلى موادها الأساسية.

علم النبات:

والنباتات تعتبر من أهم الكائنات الحية على وجه الأرض، ولقد ذكر في القرآن العديد من أشكال وألوان وثمار النباتات المختلفة، إلا أننا سنذكر فقط عملية التمثيل الضوئي في النبات كما جاء في القرآن. فالمعروف علميًا أن عملية التمثيل الضوئي تحتاج إلى ضوء وحرارة، وماء وكلوروفيل، وثاني أكسيد الكربون، لإنتاج المواد الكربوهيدراتية.

ولذلك ذكر في القرآن الكريم أن الشمس سراج وهَّاج، وهي الطاقة والضوء، وأنزل من المعصرات، وهي السحب الماء العذب الثجاج مع الخضر، ليخرج أو ينبت به حبًا ذا فلقة واحدة، ونباتًا ذا فلقتين، وجنات ألفافًا وهي الغابات الاستوائية والمدارية والصنوبرية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأنعام)، ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ (النبأ).

ففي الآيتين الكريمتين ربط الماء مع النبات، بخروج النبات الأخضر نبات كل شيء ذي الفلقة الواحدة، وهو الحب، كالقمح، والزيتون، والرمان، وكذلك الجنات الألفاف، وهي النباتات الملتفة على بعضها، وهي صورة الغابات الاستوائية والمدارية والصنوبرية. فهل هذه المعلومات كانت متوافرة في زمانه ﷺ؟ وإن كانت متوافرة فهل يمكن لإنسان أن يوضح هذه المنظومة في جملتين فقط؟! ما هو إلا إعجاز من الله ﷻ ليبين قدرته في كتابه، أفلا يتدبرون القرآن؟!

علم الحيوان:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة).

وبث في الأرض من كل دابة من البكتيريا

للديناصورات في الأرض، ومن البكتيريا للحيتان في البحر شاملة من الأوليات مثل: البروتوزوا والحشرات والديدان، حتى الحيوانات الراقية كالقردة وخلافه، كما وصف الله تبارك وتعالى الإنسان عند عدم إيمانه بالله وأنبيائه، وعدم إعمال العقل أنه من شر الدواب: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنفال)، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (الأنفال).

والدواب: هي كل ما يدب على الأرض، وقد بين لنا الله تعالى الحركة للدواب، فمنها من يمشي على بطنه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ (النور) مثل الزواحف (الثعابين) ومنها من يمشي على رجلين كالطيور، ومنها من يمشي على أربع كالحيوانات، ثم قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مثل: الحركة بالأسواط، والأهداب، والأقدام الكاذبة، ومفصليات الأرجل وعديدة الأرجل كالديدان، سبحان الله!!

ليس هذا فحسب، فقد بين لنا الله ﷻ آيات أخرى لم يظهر تفسيرها إلا حديثًا مثل:

1. **علم تخاطب الطيور:**

من المعروف أن الطيور لها أصوات مختلفة التناغم وهي مسموعة، ولكن الغريب هو تخاطب الحشرات، والمعروف أن الحشرات طائرة، ونجد في القرآن العظيم أن هناك لغة للطيور، فقد تحدَّث سيدنا سليمان مع الهدهد، وقد سمع النملة، وهي آية من آيات الله تبارك وتعالى، ولم نعرف أن هناك لغة للطيور، أو تحادث الحشرات إلا حديثًا في القرن العشرين، ثم نقول: إن هذا الكتاب مؤلف!! ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل)، ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (النمل)، ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (النمل).

وقد سمع النملة وهي تتحدث على الرغم من أن تذبذبات صوت النمل لا يمكن لإنسان أن يسمعها، ولكنها قدرة أعطاها الله لسيدنا سليمان عليه السلام دون خلقه أجمعين: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (النمل)، ولم يطغ سليمان، ولكن شكر الله على نعمائه، فكان من عباد الله الشاكرين.

2. **بيئة الحيوانات:**

وفي مجال الحيوان أيضًا ذكر الله لنا في كتابه المفترى عليه، أن أنثى العنكبوت هي التي تبني بيتها وليس الذكر، ولا يعرف هذه المعلومة إلا من كان عالمًا في علم الحيوان، وهل يعرف محمد ﷺ في عصره أن أنثى العنكبوت هي التي تبني البيت؟ ولماذا لم يقل إن أوهن الخيوط، وليس أوهن البيوت؟ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (العنكبوت).

على الرغم من أن كلمة (بيت) مثل خيط في عدد الحروف وفي الصوت، أي: في النطق، وكذلك في الإعراب، وهو ما نشاهده أن أوهن الخيوط خيط العنكبوت وليس بيتًا، إلا أن العلم الحديث أظهر أن خيط العنكبوت أقوى من خيط من الصلب مماثل له في السمك.

وبالتالي لو قال: أوهن الخيوط لأثبت العلم أنه لم يكن صادقًا، ويكون هذا الكتاب من تأليف بشر، ولكن عندما قال (أوهن البيوت) فهو فعلًا أوهن البيوت، ولذلك ختمت الآية: (لو كانوا يعلمون)، وهنا العلم مطلوب لإثبات ما جاء في الآية، ولا يصح أن يقال: لو كانوا يعقلون أو يتدبرون، أو يتفكرون، مثل الأمثال الأخرى في القرآن، ليس هذا فحسب، فالآية التي تليها يذكر لنا الله أن الذي يعرف هذه الحقيقة من العلماء العاقلين، وهنا ذكر العقل والتدبر ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت).

وآية علمية أخرى في بيئة الحشرات تدل على آيات الله العلمية في القرآن العظيم، والدالة على صدق ما جاء في هذا الكتاب، وأنه من عند الله خالق كل دابة يعرف مقرها ومستودعها سبحانه ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ (هود)، وفي مثل آخر أخذ شغالة النحل لرحيق الأزهار، للحصول على غذائها آية من آيات الله تبارك وتعالى في القرآن: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (النحل)، ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (النحل).

من قال: إن في مملكة النحل أن تقوم الشغالة بهذه الوظائف إلا في علم الحشرات، أو علم النحل، كما أفرد له تخصص بذاته لتميزه عن باقي الحشرات، وقد ظهر لنا في هذا العلم أن الشغالة.. وهي الفرد الأساسي في الخلية - هي التي تبني البيوت بوحي من الله، لذلك نجد الشكل السداسي واحدًا في جميع بيوت النحل، سواء أكان في الصين، أم كندا، أم في أوربا متساويًا في أضلاعه وبدقة شديدة.

حيث ذكر لنا الله أنه أوحى إلى النحل، ومن وظائفها أيضًا تجميع الرحيق، وحبوب اللقاح لإنتاج عسل النحل، وخبز النحل، وهي التي تنظف الخلايا، وهي المحاربة ضد الأعداء، وهي التي تهوي بأجنحتها داخل الخلية في أوقات الحر، وهي... وهي... وليس الذكور مثلًا أو الملكات! أما المقولة في الآية: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ من آيات الله العلمية في القرآن تبين مدى دقة اللفظ، والمعلومة العلمية، فنحن نعلم أن النحل يجمع رحيقه من الأزهار، وكذلك حبوب اللقاح.

فكيف يذكر أن النحل يأكل من الثمرات؟ فمن المعروف أن ٨٥٪ من الأزهار ذاتية التلقيح، بمعنى أنها تلقح نفسها قبل أن تتفتح الزهرة، ومن المعروف أيضًا علميًا أنه إذا لقح المبيض الزهرة بحبوب اللقاح تصبح ثمرة. وبالتالي تصبح جميع الأزهار ذاتية التلقيح ثمارًا

قبل أن تتفتح الأزهار، كما أنه من وظيفة الشغالة في النحل أنها تعمل على تلقيح الأزهار، وذلك بحبوب اللقاح التي تنتشر على ظهورها والمحمولة على أرجلها، وبالتالي تصبح الأزهار ثمارًا، فيكون لفظ ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ هو اللفظ العلمي السليم لأخذ الشغالة لرحيقها من الأزهار، ليس هذا فحسب، ـ فقد وُجد من تشريح النحلة ـ في فم النحلة قارض لاعق، وهي فعلًا تأكل جدار المبيض للثمار، فمن أين جاء هذا الكاتب بهذه الحقائق العلمية التي أخذت مني جهدًا كبيرًا للحصول عليها، وذلك بالبحث في علم تقسيم النبات وكيفية التلقيح في الأزهار، وعلم تشريح الحشرات لمعرفة تركيب فم النحلة وخلافه؟!

كذلك ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ على الرغم من أن الحديث عن فرد واحد، وجد عند تشريح النحلة أن لها عدة بطون ـ خمسة أبطن ـ فيكون اللفظ (بطونها) آية من عند الله أيضًا.

الإنسان:

ذكر القرآن في آياته العلمية أن النطفة تتحول إلى علقة، وأن هذا التحول هو خلق وليس تكوينًا، وقد فسر ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ (المؤمنون).

ونجد أن مراحل تكوين الجنين في الرَّحِم مذكورة بالتفصيل في القرآن الكريم، وجميعها في آية واحدة، وأنها خَلْق... خَلْق... خَلْق حتى كمال الجنين، فالخَلْق من سلالة من طين، أي نوع من أنواع الطين وهو الصلصال وهو أحد مكونات التراب؛ لأن الطين معدن يتكون من الألمونيوم والسيليكون، بينما التراب علاوة على احتوائه على معدن أو أكثر من معادن الطين إلا أنه يحتوي أيضًا على السُّلْت[1] والرمل، والعناصر الغذائية الصغرى والكبرى.. ولذلك ربط الله ﷻ هذه الأطوار السابقة، وأوصلها إلى نهاية عمر الإنسان بالماء والتراب والنبات، حيث يكون الكربوهيدرات والبروتينات والفيتامينات... إلخ، اللازمة لتكوين الإنسان سواء في بطن أمه أو بعد ولادته، حيث يدخل في تركيب دم الأم الذي يستخلص منه اللبن، وحتى عندما يكبر حيث يدخل النبات أيضًا ـ أي الغذاء ـ في تعويض ما يفقده الجسم من الخلايا، علاوة على حصول الكائن الحي أو الإنسان على الطاقة اللازمة لحياته: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ (الحج).

ليس هذا فحسب، فجميع علاقات وسلوك الإنسان بأسرته، ومجتمعه المحلي، ومجتمعه العالمي، وسلوكه في الدنيا، ومآله في الآخرة، مذكور بدقة في هذا الكتاب العظيم، وأما ما ذكرناه سابقًا فهو خلقه فقط.

---

١. السُّلت: شعير لا قِشر له.

الماء في القرآن:

بدراسة الماء في القرآن العظيم فقد وجد أنه قد ذكر مكثفًا شاملًا لأنواعه، ومصادره وعلاقته بالرياح، والشمس، والنبات، والدواب، والإنسان، والجبال وقد يأتي الماء بالسخاء والرفاهية، أو يأتي كعتاب من عندالله دمارًا شاملًا كالطوفان، والسيول، وغيرها. وقد احتوى القرآن العظيم في منظومة علمية فريدة لا يمكن لبشر في عصر نزول القرآن، وحتى عصرنا هذا أن يجمع في كتاب واحد، هذا الموضوع الشائك والمهم في الكون؛ لذا وجد الماء في القرآن العظيم في الآيات الكريمة الدالة على عظمة الخالق، وأن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون إلا من عند الله سبحانه"[1].

بل إن الأمر لا يتعلق فقط بالجِدَّة في المضمون القرآني وقت نزوله والأصالة وعدم التقليد والاحتذاء الحرفي للكتب السابقة عليه، بل تمتد هذه الجِدَّة والأصالة والطرافة للحاضر والمستقبل، ونقصد هنا الحيوية المستمرة والقابلية للتطبيق، والصلاحية الدائمة للمبادئ والتعاليم القرآنية لحل مشكلات الإنسانية على مر عصورها وكر دهورها؛ وذلك لأنها تحوي أصولًا وثوابت وهيكلًا عامًّا يدور المسلمون في إطاره ولا يخرجون عنه، وفي الوقت نفسه تركت لهم مساحة واسعة من حرية الحركة داخل هذا الإطار العام، فيجتهدون في تفاصيل حياتهم ودقائق ظروفهم ومشكلاتهم بما يتسق مع الثوابت، ويتناغم مع الأصول ولا يندُّ عنها، ومن هنا تمتعت مبادئ هذه الشريعة، وتعاليم كتابها المقدس - القرآن الكريم - كما ذكرنا، بديمومة حيويتها واستمرارية صلاحيتها للزمان والمكان.

حول هذا المعنى يقول الأستاذ محمد قطب: "يتردد على لسان العلمانيين دائمًا هذا السؤال: أنَّى للشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنًا أن تحكم الواقع الموجود اليوم، وهوواقع يختلف أشد الاختلاف عن الواقع الذي نزلت فيه تلك الشريعة، فضلًا عن الزعم بأنها صالحة للمستقبل كذلك؟

ونقول نحن: إن هذا أحد أوجه الإعجاز في الشريعة التي أنزلها الله، وأمر باتباعها، ولم يجعل لأتباعها حدًّا زمنيًّا معينًا يُجوِّز للبشر بعده أن يتخلوا عنها، ولم يحدد أحوالًا بيئية أو سياسية أو اقتصادية معينة يكف البشر فيها عن تطبيق الشريعة.

وإن مجرد القول بأن الظروف تغيرت معناه الشك في علم الله وحكمته، فكأنما علمه - نستغفر الله - كان ناقصًا وقت تنزيل الشريعة، فلم يكن يعلم سبحانه أن الظروف ستتغير، وتأتي ظروف غير الظروف! وكأنما حكمته - نستغفر الله - كانت ناقصة، فلم يُقدِّر سبحانه أثر تغير الظروف في صلاحية هذه الشريعة التي أنزلها وأمر باتباعها اتباعًا مطلقًا بغير تحديد!

وقد لا يدرك الذين يرفعون لافتة تغير الظروف أنهم بذلك يطعنون في علم الله وحكمته، ولكن هذا هو لازم قولهم، ولازم اعتقادهم، وَعَوْا ذلك أو لم يعوه، وقصدوه أو لم يقصدوه. فلو أنهم آمنوا حقًّا بأن الله عليم حكيم، لم تجرؤ تلك الخواطر الفاسدة أن تخطر على قلوبهم، وتفسد مشاعرهم تجاه الله ودينه

---

1. يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة، مرجع سابق، ص١٧: ٣٢ بتصرف.

وشريعته. ولا عيب في أن يكون الإنسان جاهلًا لأمر من الأمور التي تتعلق بدينه، ولكن عليه عندئذ أن يبحث عن الحق حتى يزيل جهالته، وأن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾ (طه).

أما الذين يخالفونه فهم الجُهَّال المتأخرون المتخلفون أعداء العلم، وأعداء العقلانية، وأعداء التقدم، فهذا من مصائب الجاهلية.. كل جاهلية.. والجاهلية المعاصرة بصفة خاصة التي ترفع لافتة العلم والتنوير، وتضعها فوق ما أسماه ألكسيس كاريل بـ "الجهل المطْبِق" في كتابه الشَّيِّق "الإنسان ذلك المجهول"[1].. ونعود الآن بعد هذه الجولة إلى قضية الشريعة الربانية المنزلة قبل أربعة عشر قرنًا، وموقفها من الإنسان وموقف الإنسان منها، على ضوء قضية الثبات والتغير.

إذا تبين لنا من البحث الموضوعي أن في الحياة البشرية أصولًا دائمة لا تتغير، هي المركوزة في أصل الفطرة، وصورًا متغيرة من الممارسة لبعض النوازع الفطرية (وليس كلها) مع ثبات أصولها ومنابعها في الفطرة، فما الطريقة المُثْلى لتنظيم الشريعة في مجالات الحياة كافَّة، بصرف النظر عما يجد في حياة البشر؟ أم تركها تتغير في جميع مجالاتها كلما عنَّ للبشر أن يغيروا؟ أم تثبيت ما من شأنه الثبات، وإتاحة المجال للمتغيرات أن تتغير مع تثبيت الأصول التي تحكمها في تغيرها؟

هنا - في هذا المجال بالذات - يتجلى لنا عنصر من عناصر الإعجاز في التشريع الرباني، في الحياة البشرية ثوابت ليس من شأنها أن تتغير؛ لأن تغيرها يفسد حياة الناس، وهذه نَصَّت عليها الشريعة نصًّا صريحًا ملزمًا. وهناك متغيرات ليس من شأنها أن تَثْبُت على صورة معينة؛ لأن تثبيتها يجمد الحياة مع تثبيت الأصول التي تحكمها بحيث لا تُحِلُّ حرامًا، ولا تُحَرِّم حلالًا، ولا تصادم مقاصد الشريعة. وبهذا تواكب الشريعة البشرية في جميع خطواتها، وتضبط منطلقها في ذات الوقت، فلا تَأْسَن[2] من الجمود، ولا تجنح مع الانحراف.

هناك الضرورات الخمس: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ المال. هذه ثوابت لا تخضع للتغيير، لا من حيث الجوهر ولا من حيث الصورة؛ لأن أي تغيير فيها يفسد الحياة. ومن حفظ الدين تحكيم الشريعة وتحريم الردة. ومن حفظ العقل، تحريم المُسْكِر، والمخدر. ومن حفظ النفس تحريم القتل والعدوان، ومن حفظ العرض تحريم الفاحشة، وما يقرب منها أو يؤدي إليها. ومن حفظ المال تحريم السرقة، والغش، وأكل أموال الناس بالباطل. وتتعلق بهذه جميعًا حدود لا تغير فيها، ولا استبدال لغيرها بها.

ثم هناك ثوابت أخرى ناشئة من ثبات أركانها وعدم قابليتها للتغيير، كعلاقات الأسرة، وعلاقات الجنسين، وعلاقات المجتمع الإسلامي بعضه ببعض، وعلاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم. وتلك كلها تحكمها قواعد ثابتة ونصوص تفصيلية غير قابلة للتغيير.

وهناك بعد ذلك أمور كثيرة تتغير صورتها على الدوام، وذلك نتيجة تفاعل العقل البشري مع الكون المادي، واكتساب الإنسان خبرات جديدة

١. لا يأتون بمثله، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٧٥، ١٧٦ بتصرف يسير.

٢. تَأْسَن: تتغير.

من خلال هذا التفاعل؛ فتتغير الصورة السياسية، والصورة الاقتصادية، والصورة الاجتماعية، ولكنها في تغيرها الدائم لا ينبغي لها أن تخرج على القواعد العامة التي تحكمها، والمنصوص عليها في كتاب الله، والسنة مكمِّلة وشارحة، وهي من الوحي الرباني.

وهكذا تنمو المجتمعات نموًّا سويًّا، وتتغير بعض الصور في حياتها من جيل إلى جيل، ومن طور إلى طور، ولكن أصولها لا تتغير، فتظل الشريعة عاملة في حياتها، لا تحتاج إلى تبديل، ولا تغيير ولا تعديل. بينما يظل باب الاجتهاد مفتوحًا لتغطية ما يجدُّ من أمور في حياة الناس بغطاء الشريعة الدائم الذي لا يتغير، وتظل الأمة محافظة على إسلامها بمحافظتها على عقيدتها وشريعتها، ومحافظة في الوقت ذاته على رضوان الله، الذي أنزل غضبه على من لم يحكم بما أنزل الله ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المائدة)، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء)[1].

ولا يفوتنا أن نذكر في باب الإعجاز التشريعي ذلك الشمول الذي تتميز به الشريعة الربانية، مع خاصية التوازن التي أشرنا إليها من قبل. فما من مجال من مجالات الحياة إلا للشريعة مدخل فيه. فهو ـ بالضرورة ـ واقع في واحد من هذه الأبواب الخمسة: حرام أو حلال، أو مباح، أو مندوب، أو مكروه. سواء أكان مجالًا اقتصاديًّا، أم سياسيًّا، أم اجتماعيًّا، أم أخلاقيًّا، أم فكريًّا، أم ما يكون من ألوان النشاط البشري في الأرض، وذلك من الإعجاز: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الأنعام).

إن النظم البشرية ـ بحكم قصور البشر عن الإحاطة بكل شيء ـ تهتم ببعض الجوانب على حساب جوانب أخرى، وتركز على مجالات وتهمل مجالات.

ففي الديمقراطيات "الليبرالية": هناك تركيز كبير على (الحقوق السياسية) يقابله إهمال ملحوظ في الجوانب الأخلاقية يصل إلى حد التسيب الذي يهدد تلك المجتمعات في النهاية بالانهيار.

وفي النظم الرأسمالية تركيز شديد على حرية رأس المال في العمل والحركة، ورفع الحواجز من طريقه، دون النظر إلى العواقب المحلية والعالمية التي تنجم عن هذه الحرية التي عَبَّر عنها أحد كُتَّابهم، وهو يتحدث عن عواقب الربا، والمعاملات الربوية بأن نتيجتها النهائية هي: تزايد الثروة في يد فئة يتناقص عددها باستمرار، وتزايد الفقر في أعداد من الناس يتزايد عددهم باستمرار، وذلك فضلًا عن الحروب والصراعات العالمية التي تطحن الناس طحنًا، وتفسد عليهم أمنهم وطمأنينتهم، والعولمة الحاضرة نموذج!

وفي النظم الدكتاتورية: تركيز شديد على سيادة (السيد) الذي يحكم، وإحاطته بكل وسائل السيطرة، وكبت حريات الناس في المقابل؛ لأنها تحد من سلطان (السيد)، ولا حقوق للناس إلا مايتكرم به السيد على الناس تكرمًا، وعليهم أن يرضوا صاغرين.

وفي الوقت ذاته تباح الملهيات ليغرق الناس فيها،

1. لا يأتون بمثله، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٨٣: ١٨٥ بتصرف يسير.

وينسوا همومهم، كما كانت الشيوعية تفعل بشعوبها، وتفخر بأن أعلى الرواتب هي رواتب الممثلين والممثلات والراقصين والراقصات.

وبهذا البيان يتضح لنا أن النظرة الشاملة التي تضع كل شيء في مكانه ليست من شأن البشر! فالبشر تحركهم أهواؤهم أكثر مما تحركهم عقولهم: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الصافات) لا لأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر، ولكن لأنهم يلتزمون بشريعة الله، فتمنع عنهم الجنوح في جانب والإهمال في جانب. وتوازن حياتهم فينعمون بالأمن والطمأنينة والاستقرار[1].

يؤكد على هذه الخصوصية - خصوصية جِدَّة وحيوية مبادئ الشريعة، وتعاليم القرآن الدائمة - الأستاذ محمد فريد وجدي، مبرزًا قابليتها لاستيعاب كل جديد، وتسخيره لفائدة البشر، على عكس الجمود الراسخ الذي أصاب تعاليم الأديان السابقة، وتحجر المؤسسات الممثلة لها في مواجهة كل جديد، مما حدا بمجتمعاتها إلى معاداتها، والخروج عن طوعها فبرزت فيها لذلك العلمانية المجافية للدين.

يقول الأستاذ وجدي: "الإسلام مَرِن يتّسع لما يجدُّ من الآراء العلمية، ولا يستعصي على ما يثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية، ولا ما يقوم الدليل عليه من الشئون الكونية، والواقع أنه قليل على الإسلام أن يوصف بالمرونة وسعة الصدر للآراء والمذاهب والكونيات؛ لأنه دين انطلاق وتعقل وتفكير ومطالبة بالفهم وبالدليل، وإشعار بالتبعية الشخصية، ونهى عن التقليد. وقد كان الناس إلى عهده أسرى الأوهام والأضاليل، وصرعى الموروثات والتقاليد، ليس في الدين فحسب، ولكن في العلم أيضًا.

نعم، في العلم الذي يفخر اليوم بأنه أطلق العقل من إساره، وخلصه من أغلاله، وأرسى المعلومات على أساس الواقع المحسوس، هذا العلم صادق فيما يدَّعي، وقد سبق الإسلام باكون العلامة الإنجليزي بنحو ألف سنة بمثل هذه الآيات الكريمة: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ ﴾ (الحج: ٤٦)، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء)، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ (الزمر)، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (طه)، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (النحل)، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت)، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ (لقمان: ٢٧)، أي آياته وحكمه، وبمثل هذه الآيات في النعي على الخياليين والمقلدين: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النجم)، ﴿ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (المائدة)، ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ (البقرة)، وبمثل هذه الآيات في وجوب التثبت والتدقيق. ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء)﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (إبراهيم: ٢٧).

---

١. المرجع السابق، ص١٩٠: ١٩٢ بتصرف يسير.

لقد جاء الإسلام إلى العرب في عهد كانت فيه حياتهم الاجتماعية قد استوت على قرار منذ قرون، فأهل البداوة منهم كانوا همَلًا، ومن الفوضى بحيث كانوا يتناحرون، وكان من جاور الفرس والروم منهم قد وقعوا تحت نَيْر هاتين الدولتين منذ قرون، واستكانوا لهذه العبودية وأَلِفُوها، ولم يُحَرِّكوا ساكنًا لرفع نَيْرها عنهم. زد على هذا أن الأمة العربية كانت تكاد تكون وحيدة في عملها من الناحية الكتابية، فلم تترك لنا كتابًا واحدًا حتى ولا ما تحرص عليه كل أمة من مخطوطات دينية ونقوش طلسمية.

جاء الإسلام إلى هذه الأمة، وهي في هذا الدور من الجاهلية الجهلاء، فصاح بها صيحات تحمل في تياراتها نفخات من روح الحق، فهبت من سباتها العميق تتطلب الحياة، وسارت في طريق التطور الاجتماعي، فما مضت عليها مائتا سنة حتى أصبحت صاحبة القيادة العلمية والسياسية في الأرض، وكانت سببًا مباشرًا في حفظ تراث الإنسانية من ثمرات العقول، ونتائج الفكر.

فهذه الحركة العلمية القوية فيها ما نشأت إلا بباعث من الإسلام، وما اتجهت وجهتها إلا بإملائه، وما توسعت وألمت بجميع فروع المعارف إلا بدافع منه، وقد شهد بذلك جميع مؤرخي العالم قديمًا وحديثًا.

وثمّة شواهد تاريخية على أن المسلمين الأوائل لم يحرموا على أنفسهم مذهبًا من المذاهب، ولم يهملوا رأيًا من الآراء، ولم يهجروا أسلوبًا من الأساليب بحجة دينية، ولكنهم ألقوا بأنفسهم أحرارًا في عُباب العلوم، والفلسفات غير مقيدين ولا متأثمين، فبنوا للناس من ثمرات جهودهم صرحًا من المجد لا تعفى على آثاره الدهور.

قال العلامة درابر المدرس بجامعة نيويورك في كتاب (المنازعة بين العلم والدين): "لقد كان تفوق العرب في العلوم ناشئًا من الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم، وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان الأوربيين، فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلي ـ أي النظري الفكري المجرَّد ـ لا يؤدي إلى التقدم، وأن الأمل في الوقوف على الحقيقة يجب أن يكون معقودًا بمشاهدة الحوادث ذاتها. ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم، الأسلوب التجريبي والدستور العلمي.. إلى أن قال: وهذا الأسلوب هو الذي حقق لهم التقدم الباهر في الهندسة، وحساب المثلثات، وهو أيضًا الذي مكنهم من وضع قواعد علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية... إلخ.

إن من يتأمل فيما ذكرناه، يرى أن المسلمين الأولين قد ألقوا بأنفسهم في باحات العلم مطلقين غير مقيدين، فلم تكن هنالك سلطة دينية تحاكم العلماء على الفَتِيل[1] والقِطْمِير[2]، وتحاول أن تجعل العقل والعلم تحت وصايتها فتقف حَجَر عَثْرة في سبيله.

فهل في الأديان المعروفة شيء من هذا النوع؟

لو شئنا لملأنا مجلدات من أخبار مكافحتها للعلم، والعقوبات القاسية على كل صغيرة وكبيرة منها أكثر من عشرة قرون متوالية؟ ـ على عكس موقف الإسلام

١. الفَتِيل: مَا يخرج من بين الإصبعين إذا فتلْتهما.
٢. القِطْمِيْر: الحبة في وسط النواة، وقيل: لفافة النواة التي تكون عليه وهي بيضاء رقيقة.

المتألق من العلم، وإعمال العقل، وهذا من طرائف هذا الدين ومواطن الجدة في تعاليمه القرآنية، وهو ما نؤكده في ردنا على هذه الشبهة الزاعمة أنه لم يأت بجديد، وأنه نسخة ملفَّقة مما سبقه من كتب الأديان السابقة ـ ولكنك لو علمت أن هذا الدين شرع ليكون دين البشرية العام الخالد، وأنه أنزل للناس في آخر الزمان حيث يبلغ العلم أبعد شأو مما يتصوره الخيال بعيد المدى، وتكثر المسائل العلمية الحديثة التي يؤيدها الإعجاز العلمي في القرآن، لبطل تعجبك وأدركت العاقبة له حتمًا، وإن كره ذلك الكارهون، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت)[1].

هل هناك براهين وحِجَج أوضح من هذا ما تزال تُعْوِزُنا للتدليل على أن هذا الكتاب الكريم ـ القرآن ـ قد حوى جديدًا غير معهود من قبل، فيما سلف من كتب ورسالات؟

ثانيًا. القرآن مُصَوِّب ومُتمِّم، وليس نسخةً مقتبسةً مما سبقه:

أما عن الشق الثاني من الدعوى والذي يتمثل في اقتباس القرآن ـ على حدِّ قولهم ـ من الكتب السابقة، فذلك باطل، ويبين بطلان ذلك أمران[2]:

الأول: التشابه بين التوراة والقرآن في أصل الواقعة فقط لا في التفاصيل.

١. لقطة من قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز:

- **القصة في التوراة:**

"وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيِّده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: "اضطجع معي". فأبى وقال لامرأة سيده: "هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت، وكل ما له قد دفعه إلى يدي. ليس هو في هذا البيت أعظم مني. ولم يمسك عني شيئًا غيرك، لأنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله"؟ وكان إذ كلَّمت يوسف يومًا فيومًا أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها.

ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي"! فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج. وكان لما رَأَت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج، أنها نادت أهل بيتها، وكلَّمتهم قائلة: "انظروا! قد جاء إلينا برجل عِبراني ليُداعبنا! دخل إلي ليضطجع معي، فصرختُ بصوت عظيم. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج". فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته. فكلَّمته بمثل هذا الكلام قائلة: "دخل إلي العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني. وكان لما رفعت صوتي وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج".

فكان لما سَمِع سيِّدُه كلام امرأته الذي كلمته به قائلة: "بحَسَب هذا الكلام صَنَع بي عبدك"، أن غضبه حَمِي. فأخذ يوسفَ سيدُه ووضعه في بيت

---

١. الإسلام دين الهداية والصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٥٩ وما بعدها.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٥.

السجن، المكان الذي كان أسرى المَلِك محبوسين فيه". (التكوين ٣٩: ٧ ـ ١٧).

- **أما النص القرآني:**

قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (يوسف).

وبالنظر في النصَّين التوراتي والقرآني يتبين أنهما لم يتفقا إلا في أصل الواقعة، ويختلفان بعد ذلك في كل شيء، على أن القرآن قام هنا بعملين جليلي الشأن:

- أورد جديدًا لم تعرفه التوراة فمثلًا: حديث النسوة وموقف المرأة منهن، شهادة الشاهد الذي هو من أهل امرأة العزيز.
- تصحيح أخطاء وقعت فيها التوراة ومن أبرزها: لم يترك يوسف ثوبه لدى المرأة، بل كان لابسًا إياه، ولكن قُطع من الدبر، غياب يوسف حين حضر العزيز وإسقاطها ـ التوراة ـ دفاعه عن نفسه.

ربما يقول قائل: ولماذا تتحيز للقرآن وتعتبر النص التوراتي هو الخاطئ؟!

والرد على هذا الاعتراض يبينه دواعي حكمنا هذا بدون تعصُّب للقرآن أو المسلمين؛ إذ إنه لم يرد في القرآن ـ قط ـ ما هو خلاف الحق؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وقد ثبتت هذه الحقيقة في كل مجالات البحوث التي أجريت على "مفاهيم" القرآن العظيم في كل العصور، وهذا الداعي وحده كافٍ في تأييد ما ذهبنا إليه، بالإضافة إلى أنه مُنْتَزع من الواقعة نفسها: فكل من التوراة، والقرآن متفق على عِفَّة يوسف وإعراضه عن الفحشاء، ثم اختلف في سرد القصة كاملة.

فالتوراة تذكر أن يوسف ترك ثوبه كله لدى المرأة وهرب، والقرآن يقول: إنه لم يترك قطعة الثوب، بل أمسكته المرأة من الخلف، ولما لم يتوقف يوسف عليه السلام اقتطعت قطعة منه وبقيت ظاهرة في ثوبه، فأي الروايتين أليق بعفة يوسف المتفق عليها بين المصدرين،

أن يُترك ثوبه كله؟ أو أن يُخْرق ثوبه من الخلف؟!

وإذا سلمنا جدلًا بصحة رواية التوراة فيوسف ليس عفيفًا، والمرأة على حق في دعواها، وهذا ما لا يليق بنبي من أنبياء الله؛ لأن يوسف لا يخلع ثوبه هكذا إلا إذا كان هو الراغب وهي الأبيَّة، ولا يقال إن المرأة هي التي خلعت ثوبه عنه؛ لأن يوسف رجل وهي امرأة، فكيف تتغلب عليه وتخلع ثوبه بكل سهولة، وعندما يمتنع، تحتفظ هي بالثوب كدليل مادي على جنايته المشينة؟! وهل خرج يوسف "عريانًا" وترك ثوبه لدى غريمته؟ يقال أما ما نلمحه في القرآن من فرار يوسف من المرأة، وإمساكها وتشبثها به، فأدى ذلك إلى قطع ثوبه من الخلف، فيتفق مع عفة يوسف التي صرح بها في المصدرين فكيف يقال إن القرآن مقتبس من التوراة؟

والمعروف أن المقتبس لا بد أن ينقل الفكرة كلها أو بعضها، وها نحن رأينا أن القرآن يتجاوز هذه الأسس، فيأتي بجديد لم يذكر فيما سواه، ويصحح خطأ وقع فيه ما سواه، والاختلاف بين النص هنا وهناك يشمل الأصول والفروع بالإضافة إلى إحكام البناء، وعفة الألفاظ، وشرف المعاني[®].

٢. قصة قابيل وهابيل ابني آدم:

- **النص في التوراة:**

"وعرف آدم حواء امرأته فحَبِلت وولدت قايين. وقالت: "اقتنيت رجلًا من عند الرب". ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعيًا للغنم، وكان قايين عاملًا في الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدَّم من أثمار الأرض قُربانًا للرب، وقدَّم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جدًّا وسقط وجهه. فقال الرب لقايين: "لماذا اغتظت؟ ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أفَلَا رَفْعٌ؟ وإن لم تحسن فعند الباب خَطِيَّة رابضة، وإليك اشتياقها وأنت تَسُود عليها". وكلم قايين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين: "أين هابيل أخوك؟" فقال: "لا أعلم! أحارسٌ أنا لأخي؟" فقال: "ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فَتَحَتْ فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهًا وهاربًا تكون في الأرض". فقال قايين للرب: "ذنبي أعظم من أن يحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض، ومن وجهك أختفي وأكون تائهًا وهاربًا في الأرض، فيكون كل من وجدني يقتلني". فقال له الرب: "لذلك كُلُّ مَن قَتَل قايين فسبعة أضعاف يُنتقَم منه". وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لَدُن الرب، وسكن في أرض نُوْدٍ شرقي عَدْنٍ". (التكوين ٤: ١ ـ ١٦).

- **نص القرآن:**

وقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ

® في "كيد إخوة يوسف له بين القرآن والتوراة" طالع: الشبهة الحادية والثلاثين. وفي "عدد مرات مجيء إخوة يوسف إلى مصر بين القرآن والتوراة" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية والأربعين. وفي "قميص يوسف بين القرآن والتوراة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والأربعين؛ من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾ (المائدة).

اتفق المصدران في مسألة القربان، وقتل أحد الأخوين للآخر. وما ورد في القرآن ـ عدا ذلك ـ يختلف تمامًا عن نظيره في التوراة. فنلاحظ أنه لا هدف لذكر القصة في التوراة إلا مجرد التاريخ، فهي معلومات ذهنية خالية من روح التربية والتوجيه، أما القرآن فيجعل من هذه القصة هدفًا تربويًّا، أو يبني شريعة القصاص العادل عليها، ويلوم بني إسرائيل على إفسادهم في الأرض بعد مجيء رسل الله إليهم، إضافة إلى هذا سوء مخاطبة قابيل الرب في قوله: "أحارس أنا لأخي" ففيها فظاظة، لو صدرت من إنسان لأبيه لعد عاقًّا فظًّا غليظًا، فكيف تصدر من "مربوب" إلى ربه وخالقه؟

ولكن هكذا تنهج التوراة، فهي لا تعرف قدرًا للرب، ولا من تنقل عنه حوارًا مع الرب، ولا غرابة في ذلك، فالتوراة تذكر أن موسى أمر ربه أن يرجع عن غضبه على بني إسرائيل، بل هدده بالاستقالة من النبوة إذا لم يستجب لأمره.

فكيف يقال إن القرآن اقتبس هذه الأحداث من التوراة، وصاغها في قالب البلاغة العربية؟! والاختلاف بينهما أصيل. فمن أين أتى القرآن بكلام الشقيق الذي قتل بيد أخيه؟ ومن أين أتى بقصة الغراب الذي جاء لِيُرِى القاتل كيف يواري سوءة أخيه؟ ولماذا أهمل القرآن الحوار الذي توره التوراة بين الرب وقابيل القاتل، وهذا الحوار هو هيكل القصة كلها في التوراة®.

إن القرآن له مصدره الخاص به الذي استمد منه الوقائع على وجهها الصحيح، ومجرد التشابه في أصل الواقعة لا يؤثر في استقلال القرآن أبدًا.

٣. مسألة المحرمات من النساء:

- **في التوراة:**

"لا يَقْتَرِب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة. أنا الرب. عورة أبيك وعورة أمك لا تَكْشِف. إنها أمك لا تكشف عورتها. عورة امرأة أبيك لا تكشف. إنها عورة أبيك. عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجًا لا تكشف عورتها. عورة ابنة ابنك، أو ابنة ابنتك لا تكشف عورتها. إنها عورتك. عورة بنت امرأة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف عورتها. إنها أختك. عورة أخت أبيك لا تكشف. إنها قريبة أبيك. عورة أخت أمك لا تكشف. إنها قريبة أمك. عورة أخي أبيك لا تكشف. إلى امرأته

® في **"قصة قابيل وهابيل في القرآن"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

لا تقترب. إنها عمتك. عورة كَنَّتِك لا تكشف. إنها امرأة ابنك. لا تكشف عورتها. عورة امرأة أخيك لا تكشف. إنها عورة أخيك. عورة امرأة وبنتها لا تكشف. ولا تأخذ ابنة ابنها، أو ابنة بنتها لتكشف عورتها. إنهما قريبتاها. إنه رذيلة. ولا تأخذ امرأة على أختها للضَّرِّ لتكشف عورتها معها في حياتها". (اللاويين ١٨: ٦ ـ ١٨).

- **في القرآن الكريم:**

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (النساء).

ونلاحظ ما يلي:

- التوراة لا تقيم شأنًا للنسب من جهة الرضاع.
- تُحرِّم نكاح امرأة العم وتدعوها عمة.
- تُحرِّم نكاح امرأة الأخ لأخيه.
- لا تذكر حرمة النساء المتزوجات من رجال آخرين وزواجهن قائم.
- تجعل التحريم غالبًا للقرابة من جهة غير الزوج مثل قرابة الأب، الأم، العم.... إلخ.

أما القرآن:

- فيحرِّم من الرضاع ما يحرم من النسب.
- لا يحرِّم نكاح امرأة العم ولا يدعوها عمة.
- لا يحرِّم نكاح امرأة الأخ لأخيه، إذا طلقها أو مات عنها أخوه.
- يحرِّم نكاح المتزوجات فعلًا من آخرين زواجًا قائمًا، ويطلق عليهن وصف المحصنات من النساء.
- يجعل التحريم لقرابة الزوج ممن حُرِّمت عليه، أوقرابة زوجته أحيانًا.

هذه الفروق الدقيقة لا تؤهل النص التوراتي لأن يكون أصلًا للنص القرآني الكريم لا علميًّا ولا عقليًّا، فالحجم مئات المرات. ولكن لا مجال للمقارنة بين التوراة والقرآن الكريم، فهو فوق ما يأتي به من جديد، يصحح الأخطاء التي وقعت فيها سواه، وهذا هو معنى الهيمنة ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

فالأمور التي لم يلحقها تحريف في التوراة جاء القرآن مصدقًا لها أو هو مصدق لكل من التوراة والإنجيل بالصفة التي أنزلها الله عليهما قبل التحريف، أما الأمور التي حُرِّفت وتعهدها القرآن بالتصحيح، فذلك سلطان الهيمنة المشهود للقرآن بها من منزل الكتاب على رسله.

الثاني: الاختلاف بين الإنجيل والقرآن.

بشارة زكريا بـ "يحيى" عليهما السلام:

- **نص الإنجيل:**

"كان في أيام هِيرُودس ـ مَلِك اليهودية ـ كاهن

اسمه زكريا من فِرْقة أَبِيَّا، وامرأته من بنات هارون واسمها أَلِيصابات. وكانا كلاهما بارَّين أمام الله، سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد، إذ كانت أليصابات عاقرًا. وكانا كلاهما مُتقدِّمين في أيامهما. فبينما هو يَكْهَن في نَوْبة فِرْقته أمام الله ـ حسب عادة الكهنوت ـ أصابته القُرْعَة أن يدخل إلى هيكل الرب ويُبَخِّر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجًا وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفًا عن يمين مَذْبَح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: "لا تخف يا زكريا، لأن طِلْبَتك قد سُمِعَت، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنًا وتُسمِّيه "يوحنا". ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. ويردُّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدَّم أمامه بروح إيليَّا وقوَّته، ليردَّ قلوب الآباء إلى الأبناء، والعُصاة إلى فكر الأبرار، لكي يهيء للرب شعبًا مستعدًّا".

فقال زكريا للملاك: "كيف أعلم هذا، لأني أنا شيخ وامرأتي متقدِّمة في أيامها؟" فأجاب الملاك وقال له: "أنا جبرائيل الواقف قُدَّام الله، وأُرسلتُ لأُكلِّمك وأُبشِّرك بهذا. وها أنت تكون صامتًا ولا تقدر أن تتكلَّم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا، لأنك لم تُصدِّق كلامي الذي سيتم في وقته". وكان الشَّعْب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل. فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم، ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل. فكان يُومِئ إليهم وبَقِي صامتًا". (لوقا ١: ٥ ـ ٢٢).

- **أما النص القرآني:**

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ (آل عمران).

وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ (مريم).

وبمطالعة ما ورد في النصين تبين أن القرآن ينفرد

بدقائق لا وجود لها في النص الإنجيلي أبرزها:

- تقدم على قصة البشارة في "آل عمران" قصة نذر امرأة عمران ما في بطنها لله محررًا، وهذا لم يرد في النص الإنجيلي.
- الإخبار بأنها ولدت أنثى "مريم" وكانت ترجو المولود ذكرًا.
- كفالة زكريا لمريم، وسؤاله إياها عن مصدر رزقها، وجوابها إياه "هو من عند الله".
- القرآن يربط بين قصة الدعاء بمولود لزكريا، وبين قصة مولودة امرأة عمران.
- دعاء زكريا منصوص عليه في القرآن، وليس له ذكر في النص الإنجيلي.

هذا في سورة "آل عمران"، أما في سورة "مريم":

- فقد رتب زكريا على هبة الله له وليًّا، أن يرثه ويرث من آل يعقوب.
- السبب في حمل زكريا على دعاء ربه، هو خوفه الموالي من ورائه.
- كون زكريا أوحى لقومه بأن يسبحوا بكرة وعشيًّا.
- الثناء على المولود "يحيى" بأنه بارٌّ بوالديه عليه السلام يوم ولادته ويوم موته، ويوم بعثه حيًّا ورد في القرآن، ولا مقابل له في النص الإنجيلي.

إذن ما قام به القرآن الكريم هنا هو: تصحيح الأخطاء التي وردت في النص الإنجيلي:

١. النص الإنجيلي يجعل الصمت الذي قام به زكريا عقوبة له من الملاك، فصحَّح القرآن، وجعل الصمت استجابة لدعاء زكريا ربه، فالصمت كان تكريمًا لزكريا من الله، وليس عقوبة من الملك. فما هو الذنب الذي ارتكبه زكريا حتى يعاقب من الله أو حتى من الملاك؟! هل إقراره بكبر سنِّه، وعُقْر امرأته هو الذنب؟!

لقد وقع هذا من إبراهيم عليه السلام حين بُشِّر بإسحاق، ووقع من سارة حين بُشِّرت به، فلم يعاقب الله منهما أحدًا، وقد وقع هذا من مريم حين بُشِرت بحملها بعيسى، ولم يعاقبها الله عليه، فما السر في ترك إبراهيم وسارة ومريم بلا عقوبة، وإنزالها بزكريا وحده، أفي المسألة محاباة؟!

إن أكبر دليل على نفي هذا القول هو خلو النصوص القرآنية منه، وليس هذا تعصبًا منا للقرآن، وهو الحق، ولكنه المَلَك الكريم اللائق بمنزلة الرسل عند ربهم.

إن الصمت الذي حلَّ بزكريا كان بالنسبة لتكليم الناس، ومع هذا فقد ظل لسانه يلهج بذكر الله وتسبيحه في العشي والإبكار.

٢. النص الإنجيلي يحدد مدة الصمت بخروج زكريا من الهيكل إلى يوم أن ولد يحيى، وهذا خطأ ثان صححه القرآن المهيمن فجعل مدته ثلاثة أيام بلياليهن بعد الخروج من المحراب.

٣. يجعل البشارة على لسان ملاك واحد، بينما النصان القرآنيان يجعلانها على لسان جمع من الملائكة ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ (آل عمران: ٣٩)، ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ (مريم: ٧).

٤. النص الإنجيلي يجعل التسمية بـ "يحيى" من اختيار زكريا، بَيْد أن الملاك تنبَّأ بها، والقرآن جعل التسمية من وحي الله إلى زكريا: ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل

﴿لَهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ (مريم).

٥. النص الإنجيلي يقول: إن زكريا حين جاءه الملاك وقع عليه خوف واضطراب، وقد خلا منه النص القرآني، فدلَّ خلوه على أنه لم يقع، ذلك أن القرآن الكريم عوَّدنا في قَصِّه للوقائع المناظرة لهذه الواقعة أن يسجلها إذا حدثت ولا يهملها، بدليل أنه قد نص عليها في واقعة السجدة مع موسى، فقال: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ (طه)، وقال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ (القصص: ٣١)، وحكاية إبراهيم لضيوفه: ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾ (الحجر)، وعن مريم: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ (مريم).

إذن فلم يقتبس القرآن جزءًا من الواقعة، ولا الواقعة كلها، بل قام بإضافة الكثير جدًّا من الجديد الذي لم يعرفه الإنجيل، وصحح كثيرًا من الأخطاء التي وردت فيه بفعل التحريف والتزوير، إما بالنص وإما بالسكوت، وهذا لا يتأتى من مقتبس ليس له مصدر سوى ما اقتُبس منه، وإنما يتأتى ممن له مصادره، ووسائله، وسلطانه المتفوق، ومن يقل غير هذا فقد ظلم نفسه.

حول إثبات أصالة الوحي القرآني، وأنه وحي سماوي رباني خالص، وليس تأليفًا بشريًّا مجتزًا من كتب سابقة، دار نقاش كثير برهن العلماء من خلاله على ربانية مصدر هذا الكتاب الجليل لا بشريته.

وقد فصَّل الحجج والأدلة على أصالة القرآن، وكونه وحيًا سماويًّا لا اقتباسًا أرضيًّا، د. محمد عبد الله دراز فكان مما أورده في هذه القضية نافيًا ـ في بحث علمي شائق ـ أن يكون الرسول الكريم قد ألفه من عند نفسه أساسًا، قوله: "لقد علم الناس أجمعون علمًا لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة، في القرن السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ـ صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله ـ هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادة لكتاب غيره، ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض.

أما بعد، فمن أين جاء به محمد بن عبد الله ﷺ؟ أمن عند نفسه ومن وحي ضميره، أم من عند معلم؟ ومن هو ذلك المعلم؟ نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه، وإنما هو قول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، ذلكم هو جبريل عليه السلام تلقَّاه من لدن حكيم عليم، ثم نزله بلسان عربي مبين على قلب محمد ﷺ، فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًّا من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا:

- الوعي والحفظ.
- الحكاية والتبليغ.
- البيان والتفسير.
- التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شيء، إن هو إلا وحي يوحى.

هكذا سماه القرآن حيث يقول: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ (الأعراف: ٢٠٣) ويقول: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (يونس: ١٥)

وأمثال هذه النصوص كثيرة في شأن إيحاء المعاني، ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ (يوسف: ٢)، ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ (الأعلى)، ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ (القيامة)، ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ (العلق: ١)، ﴿وَٱتۡلُ﴾ (الكهف: ٢٧)، ﴿وَرَتِّلِ﴾ (المزمل: ٤)، فانظر كيف عبر بالقراءة والإقراء، والتلاوة، والترتيل، وتحريك اللسان، وكون الكلام عربيًّا، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحتة.

القرآن إذًا صحيح في أنه "لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ولا لأحد من الخلق، وإنما هو مُنَزَّل من عند الله بلفظه ومعناه"، والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمد.

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيًا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بَيِّنة، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه ولا يتوقف صديق، ولا عدو في قبوله منه، إن أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول: أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخًا؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة وشأنًا، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه، ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله، وغلت قيمته، وأمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم، ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة. أما أن أحدًا ينسب لغيره أَنْفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته[1]، فهذا ما لم يلده الدهر بعد.

ولو أننا افترضناه افتراضًا لما عرفنا له تعليلًا معقولًا، ولا شبه معقول اللهم إلا شيئًا واحدًا قد يحوك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم، قد رأى أن في "نسبة القرآن إلى الوحي الإلهي" ما يعينه على استصلاح الناس باستحباب طاعته عليهم، ونفاد أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه، وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه.

أما أنه فاسد في ذاته فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه، والكلام المنسوب إلى الله تعالى، فلم تكن نسبة ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئًا، ولا نسبة مانسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئًا، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتهما في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله. ومعصيته من معصية الله، فهلَّا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى، لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من

١. القريحة: ما خرج من الطبيعة من غير تكلُّف.

أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته، لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المواربة، وأن سره وعلانيته كانوا سواء في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشئون، وحقيرها، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها، كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (يونس).

فمثلًا ما كتبه توماس كاريل الإنجليزي في كتاب "الأبطال"، وما كتبه الكونت هنري دي كاستري الفرنسي في خواطره وسوانحه عن الإسلام، ثم اقرأ شهادة قريش التي سجلها أبو سفيان وهو في الجاهلية بين يدي هرقل قيصر الروم، لما سألهم هرقل: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، وسأله: هل يغدر؟ قال: لا.

وكأني بك ها هنا تحب أن أقدم لك من سيرته المطهرة أمثلة واضحة الدلالة على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي الذي نحن بصدده، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه، فإليك طرفًا من ذلك:

لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالًا ومجالًا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآنا يقرأه على الناس.

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة - رضي الله عنها - وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: "إني لا أعلم عنها إلا خيرًا"، ثم إنه بعد أن بذل جهده في التَّحرِّي والسؤال، واستشارة الأصحاب، وفي شهر بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: "يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله"[1].

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر، الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المثبت الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها، ومصدر الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عِرْضه ويذبَّ بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين؟

ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (٢٥١٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٧١٩٦).

عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحاقة).

وأخرى كان يجيئه ﷺ القول فيها على غير ما يحبه ويهواه، فيخطئه في الرأي يراه. ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فإذا تلبَّث فيه يسيرًا تلقاه القرآن الكريم بالتعنيف الشديد، والعتاب القاسي، والنقد المر، حتى في أقل الأشياء خطرًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ (التحريم)، ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾ (الأحزاب: ٣٧)، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (التوبة)، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ (التوبة)، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال)، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (عبس).

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه، ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه، أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرية آرائه؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئًا من ذلك الوجدان، ولو كان كاتمًا شيئًا لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التكوير). وتأمل آية الأنفال المذكورة، تجد فيها ظاهرة عجيبة، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أُسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بُدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفِعْلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها، وتطبيب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها. فهل الحالة النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام - لو كان عن النفس وصدره - يمكن أن يصدر عنها آخره ولما تمض بينهما فترة تَفْصِل بين زَمْجَرة[1] الغضب والندم، وبين ابتسامة الرضى والاستحسان؟

كلَّا، وإن هذين الخطرين لو فُرِض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضرابًا عن الأول ماحيًا له، ولرجع آخر الفكر وفقًا لما جرى به العمل. فأي داعٍ دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله، على ما فيه من تقريع[2] علني بغير حق، وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالًا طيبة؟ إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ها هنا ألبتة شخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده: لقد أسأت، ولكني عفوت عنك وأذنت لك.

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها لوجدتها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه ﷺ كان إذا ترجح بين أمرين، ولم يجد فيها إثمًا اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه، وأبعدهما عن

---

١. الزَّمْجَرة: الصوت، يُقال للرجل إذا أكثر الصَّخب والصياح والزَّجر.
٢. التقريع: التوبيخ.

الغلظة والجفاء، وعن إثارة الشُّبَه في دين الله، فلم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحًا، أوجاوزه خطأ ونسيانًا، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيرًا فتخير. هبه مجتهدًا أخطأ باختيار خلاف الأفضل. أليس معذورًا ومأجورًا؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية ـ وما كان اختيار عمر ﷺ في مسألة الأسرى ونحوها إلا مظهرًا من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه، وإن كانت هذه الشدة لتفتنه عن أمر الله يوم الحديبية، فكانت موافقته الوحي في تلك المسائل مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقية التي انفرد بها علّام الغيوب، وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية.

هل ترى في ذلك ذنبًا يستوجب عند العقل هذا التأنيب[1] والتثريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟

تُوُفِّي عبد الله بن أُبَي كبير المنافقين، فكفَّنه النبي ﷺ في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويُصلِّي عليه، فقال عمر ﷺ: أتُصلِّي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: "إنما خيَّرني ربي فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ (التوبة: ٨٠) وسأزيده على السبعين"[2]. وصلَّى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (التوبة: ٨٤)، فترك الصلاة عليهم ـ اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين وانظر ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع، وقد اتخذ من القرآن دستورًا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم، وقد آنس من ظاهر النص الأول تخييرًا له بين طريقين، فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع.

وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها، تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة، ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة، تجلَّى لك في مقابل ذلك من القرآن، معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض، بل تَصْدَع بالبيان فرقانًا بين الحق والباطل، وميزانًا للخبيث والطيب، أحب الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين، فترى بين المقامين ما بينهما وشتان بين سيد ومَسُود، وعابد ومعبود.

ولقد كان يجيئه الأمر أحيانًا بالقول المجمل أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله، حتى يُنْزل الله عليهم بيانه بعد. قل لي بربك: أي عاقل توحي إليه نفسه كلامًا لا يفهم هو معناه، وتأمره أمرًا لا يعقل هو حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟

نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) فأزعجت الصحابة إزعاجًا شديدًا، ودخل قلوبهم منها شيء لم

١. التأنيب: اللَّوم.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة براءة (٤٣٩٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة المنافقين وأحكامهم (٧٢٠٣).

يدخلها من شيء آخر؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها، فقالوا: "يا رسول الله، أُنزلت علينا هذه الآية ولا نُطِيْقُها، فقال لهم النبي ﷺ: "أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير"[1]. فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة).

وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب، وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة، لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار.

وموضع الشاهد منه أن النبي ﷺ لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر، لبَيَّن لهم خطأهم ولأزال اشتباههم من فوره؛ لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة إليه.

ولم يكن ليتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رءوف رحيم، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها، ولأمرٍ ما أَخَّر الله عنهم هذا البيان، ولأمرٍ ما وضع حرف التراخي في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ (القيامة).

واقرأ قضية الحديبية ففيها آية بينة: أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحَرَم من لم يقاتلهم فيه، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠)، فلما أجمعوا على زيارة البيت الحرام في ذلك العام، وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حَذَرًا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع.

ولما أشرفوا على حدود الحرم، علموا أن قريشًا قد جمعت جموعها على مقربة منهم فلم يَثْنِ ذلك من عزمهم؛ لأنهم كانوا على تمام الأُهْبة[2]، بل زادهم ذلك استبسالًا وأصروا على المُضِي إلى البيت، فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد أنهكتها الحروب، فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدفعه، وإنهم لسائرون عند الحديبية، إذ بركت راحلة النبي ﷺ، وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا: خلأت[3] القصواء[4]، أي حزنت الناقة، فقال النبي ﷺ: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل"[5].

يعني أن الله الذي اعتقل الفيل، ومنع أصحابه من

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) (٣٤٤).

٢. الأُهْبة: العُدَّة.

٣. خَلأت: أي حَرَنَت فلم تبرح مكانها تَعَسُّرًا.

٤. القصواء: المشقوقة الأذن، وكان هذا لقب ناقة رسول الله ﷺ.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل العرب (٢٥٨١).

دخول مكة محاربين هو الذي اعتقل هذه الناقة، ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عَنْوة.

وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بادئين ولا مكافئين، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى، فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالًا لهذه الإشارة الإلهية التي لا يعلم حكمتها، وأخذ يسعى لدخول مكة عن طريق الصلح مع قريش قائلًا: "والذي نفسي بيده،لا يسألونني خُطَّة يُعَظِّمون فيها حُرُمات الله إلا أعطيتهم إياها"[1]. ولكن قريشًا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربًا ولا مسالمًا، وأَمْلَتْ عليه شروطًا قاسية، بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسلمًا، وألا ترد هي أحدًا يجيئها من المدينة، تاركًا لدينه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم.

وأمر أصحابه بالتَّحلُّل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا، فلا تَسَل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيء في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضًا ذهولًا وغمًّا، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة، فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعونه هو نفسه قائلين: لِمَ نُعطي الدنية في ديننا؟ وهكذا كاد الجيش يتمرد على أمر قائده، ويَفْلِت حبله من يده، ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر: "إني رسول الله، ولستُ أعصيه وهو ناصري"، يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أُنَفِّذَ أَمْر مولاي، واثقًا بنصره قريبًا أو بعيدًا.

وهكذا ساروا راجعين، وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح الكريم فبينت لهم الحِكَم الباهرة، والبشارات الصادقة، فإذا الذين ظنُّوه ضيمًا[2] وإجحافًا[3] في بادئ الرأي، كان هو النصر المبين والفتح الأكبر، وأين تدبير البشر من تدبير القدر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الفتح).

ولقد كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقَّفه متعجلًا، فيحرك به لسانه وشَفَتَيْه؛ طلبًا لحفظه، وخشية ضياعه من صدره، ولم يكن ذلك معروفًا من عادته في تحضير كلامه، لا قبل دعواه النبوة

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل العرب (٢٥٨١).

٢. الضَّيْم: الظلم.

٣. الإجحاف: الإضرار.

ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب، إنما كانوا يُزوِّرون كلامهم في أنفسهم، فلو كان القرآن مُنْبَجِسًا[1] من مَعِين نفسه[2] لجرى على سُنَّة كلامه وكلامهم، ولكان له من الرَّوِيَّة[3] والأناة[4] الصامتة ما يكفل له حاجته من إنضاج الرأي وتمحيص الفكرة، ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتًا ويَلَمُّ به سريعًا، بحيث لا تجدي الرويّة شيئًا في اجتلابه لو طلب، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء، وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفًا، فكان لا بد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألفها من نفسه أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية، حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ (القيامة)، وقوله: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (طه).

هذا طرف من سيرته بإزاء القرآن، وكلها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وأنه لم يُفْضِ عن قلبه بل أُفِيْض عليه، فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة، لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة. وحسبك الآن منها أمثلة يسيرة إذا ما تأملتها صورت لك إنسانًا الطهرُ ملء ثيابه، والجدّ حشو إهابه[5]، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغى إلى غُلو المادحين له، تواضعٌ هو حِلْية العظماء، وصراحة نادرة في الزعماء، وتثبُّت قَلَّما نجده عند العلماء، فَأَنَّى من مثله الخَتْل[6] أو التزوير أو الغرور أو التغرير؟ حاشا لله!

جلست جويريات يضربن بالدُّفِّ في صبيحة عُرْس الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ الأنصاري، وجعلْنَ يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال ﷺ: "لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين"[7]. ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ (الأنعام: ٥٠)، ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

والآن، وقد وفينا بكل الوعد بعرض هذه النماذج من السيرة النبوية نعود إلى تقدير ما قصدنا من هذا العرض فنقول: إن صاحب هذا الخلق العظيم، وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن، ما كان ينبغي لأحد أن يمتري في صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب، وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد، بل كان يجب أن نسجِّل من هذا الاعتراف البريء دليلًا آخر على صراحته وتواضعه"[8].

ومما يزيد الأمر وضوحًا ما قاله د. دراز، فقد قال تحت عنوان "الاتصال بالكتب المقدسة": "إن أول

١. انبجس: نبع.
٢. من معين نفسه: أي من ذاتها.
٣. الرَّوِيَّة: التَّفكر في الأمر.
٤. الأناة: البُطْء في الحركة وفي مقاربة الخطو في المشي وقبل الحِلْم والتُّؤدة.
٥. الإهاب: الجلد.
٦. الخَتْل: الخداع.
٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (٣٧٧٩)، وفي موضع آخر.
٨. النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص٤٩: ٦٤ بتصرف.

إجابة تتبادر إلى الذهن في هذا المجال، هو أن محمدًا ﷺ قد استخلص دروسه من مطالعاته المباشرة للكتب المقدسة القديمة، سواء كانت مسيحية، أو يهودية، أو غيرها.. ولكن هل كان محمد ﷺ يعرف القراءة والكتابة؟

يجيب القرآن الكريم بالنفي، ويبرهن بأمية الرسول الكريم ﷺ على ربانية تعليمه، إنه لا يقرر فحسب أنه أمي من شعب أمي ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، أي غير متعلم، وليس فقط كما يريد سبرنجر أنه ينتمي إلى شعب وَثَني لم يتلقَّ أي كتاب سماوي من قبل، وإنما يؤكد بصريح العبارة أنه لم يسبق له أن قرأ كتابًا قبل القرآن الكريم، أو كتب بيده: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

ولا شك أن معارضيه كانوا يعرفون فيه هذه الأُمِّيَّة جيدًا؛ لأنهم عندما أرادوا تعليل المصدر الذي تلقَّى عنه أساطير العصور القديمة، لم يجرءوا أن يقولوا "كتبها" وإنما قالوا "اكتتبها" أي كتبها له غيره ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ (الفرقان)، وهما عبارتان مختلفتان تمام الاختلاف، إلا أنه التبس معناهما على بعض المستشرقين.

وحتى على فرض أنه كان يعرف القراءة، فقد كانت هناك عقبة يستحيل تذليلها؛ لأن في هذا الوقت لم تكن قد وجدت بعد توراة ولا إنجيل باللغة العربية، ووجود هذه الوثائق بلغة أجنبية جعلها حِكْرًا لبعض العلماء المتحدثين بأكثر من لغة الذين حفظوها بعناية، بل لقد وصفهم القرآن بالبخل بما عندهم من العلم، بحيث إنهم لم يكونوا ليتنازلوا عن بضع أوراق من التوراة إلا مع حرصهم على إخفاء الجزء الأكبر منها: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ (الأنعام: ٩١)، وسوف يكشف القرآن فيما بعد في المدينة وسائلهم الأخرى لإخفاء العلم شفويًّا وتحريريًّا: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٧٨)، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (البقرة: ٧٩).

وعلى كل حال لم ينبئنا التاريخ عن أي اتصال كان بين النبي ﷺ وبين وسط العلماء قبل الهجرة، فطالما أن الكلام يدور في العموميات التي يصعب التحكم فيها، فلا شك أنه يمكن افتراض وجود مثل هذه العلاقة، وذلك بإتاحة الفرصة لكل حَدْس[1] وخيال، أما عندما نطالب بالتحديد فإنه يحدث التناقض والتخبط في الحال[2].

وعن القصص الديني اليهودي والمسيحي في القرآن يقول: "فيما يختص بالقصص المسيحي واليهودي بوجه عام، يؤسفنا ألا نجد ما يؤيد هذه الملاحظة، من قريب أو بعيد، والرجوع إلى النص القرآني يثبت لنا العكس تمامًا، فالسور المكية هي التي تَعْرِض أطوار قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة، ولم يترك للسور المدنية

١. الحَدْس: الظن والتخمين.

٢. مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص١٤٨ وما بعدها.

ـ حيث احتك الرسول ﷺ احتكاكًا فعليًّا مباشرًا باليهود ـ سوى فرصة استخلاص الدروس منها، وغالبًا في تلميحات موجزة[1].

هل بقي بعد كل هذا مجال للقول بأن القرآن تكرار لمضمون الكتب السابقة أو بعضها، ولم يأت بجديد؟!

الخلاصة:

- تضمن القرآن الكريم أحكامًا وتشريعات مغايرة لما ورد في الكتب السابقة، وأخرى غير معهودة من قبل. فالذات الإلهية في العقيدة اليهودية ـ من خلال ما يسمى بالعهد القديم ـ تتصف بصفات بشرية، فالرب ـ تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ يستشير الحاخامات ويندم على ما أنزله باليهود والهيكل، وهو ضعيف فقد صارع يعقوب ـ إسرائيل ـ فصرعه الأخير، وهو مصدر الخير والشر على حد زعمهم.

- أما المسيحية ـ من خلال ما يسمى بالعهد الجديد ـ فالله والد ومولود، وهو على ثلاثة أقانيم وصور.

- أما الإسلام فقد جاء فيما يخص مقام الألوهية بأنصع وأصفى وأنقى عقيدة توحيدية عرفها تاريخ الأديان، فالله ـ في العقيدة الإسلامية ـ واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولا شريك له في ملكه، وليس كمثله شيء، فإذا كان القرآن مقتبسًا من هذه الكتب السابقة عليه، فلِمَ لم يكرر فكرها الملوث المحرف الوثني هذا عن الذات الإلهية، وغايرها في هذا الشأن على طول الخط؟!

- وفي جانب التشريع، فإنه يتركز في التوراة والتلمود ـ العهد القديم ـ في الوصايا العشر المنسوبة لموسى عليه السلام، أما التشريع المسيحي ـ في العهد الجديد ـ فمجموعة مواعظ.

- أما الجانب التشريعي في القرآن فهو أحد أبرز مواطن الإعجاز فيه، إذ تضمن شريعة متكاملة وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم، لا في زمان نزوله فحسب، بل على مرِّ الزمان وتغاير الحدَثَان[2]، وحدد موقف الإنسان وعلاقته بالدنيا والآخرة، وجاء بالجديد الذي غيَّر مسار البشرية في شئون الأسرة والمجتمع، والمال، والحرب، والسلم، والعلاقات الدولية... إلخ.

- ومن أبرز ملامح الجدة والأصالة ـ عدم الاقتباس والتكرار والتقليد ـ في القرآن باب الإعجاز العلمي المتضمن فيه، والذي لا يباريه فيه أي من الكتب السابقة، كما أثبت وما يزال يثبت كثيرون من العلماء المنصفين المستبصرين، كالمستشرق الفرنسي موريس بوكاي في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث".

- ومن جهة أخرى فقد جاء القرآن مصوِّبًا ومتممًا للكتب السماوية السابقة، التي أصابها التحريف والتبديل ـ ولم يقتبس منها أو يكرر مضامينها. ولم يؤلفه محمد ﷺ منها ولا من غيرها فعند استعراضنا لبعض القصص في التوراة والإنجيل ومقارنتها بما جاء في القرآن، نجد القرآن قد بيَّن ووضح، وأزال اللَّبْس والغموض، وجاء بأمور لم يرد ذكرها في العهدين

---

1. المرجع السابق، ص١٦٨ بتصرف يسير.
2. الحدَثان: الليل والنهار.

القديم أو الجديد، مثل قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وقصة زكريا وتبشيره بيحيى - عليهما السلام -، وغيرهما كثير.

فلو لم يكن وحيًا - حقًّا - وكان من تأليفه ﷺ، فكم نزلت به في سيرته العطرة نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول والتأليف، وكانت الحاجة القصوى وقتها ماسّة لأن يتكلم لو كان الأمر إليه، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي ولا يجد في شأنها قرآنًا يقرأ على الناس.

من ذلك مثلًا إرجاف المنافقين بحادثة الإفك عن زوجه عائشة - رضي الله عنها - وإبطاء الوحي عليه، والناس يخوضون في الأمر حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو ﷺ يردد: "إني لا أعلم عنها إلا خيرًا"، فلو كان الأمر إليه لألف وادعى وبرَّأها وبرَّأ ساحة عِرْضه على الفور، ثم إنه كان أميًّا - لا يقرأ ولا يكتب - فكيف له بقراءة هذه الكتب والاقتباس منها، والنسج على منوالها، وعلى فرض عدم أميته - وهو فرض خاطئ - فلم تكن هذه الكتب السابقة قد تُرجمت في عصره للعربية بعد؛ إذ تأخر ذلك لقرون لاحقة.

المصادر والمراجع

- أخلاق المسلم علاقته بالنفس والكون، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، د. عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- الإسلام دين الهداية والصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- أضواء البيان، الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- بحوث في علوم القرآن، د. محمد نبيل غنايم، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، الأردن، ط٢، ١٩٩٦م.
- البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مكتبة الأمانة، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، المكتبة العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن، د. مصطفى إبراهيم الزلمي، طبعة جامعة صدام، بغداد.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، تحقيق: د. أحمد عبد الرحيم السايح، المستشار توفيق علي وهبة، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د. سعد الدين السيد صالح، دار التقوى، مصر، ط٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ط٤، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

- حلول لمشكلة الربا، د. محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- الحوار الخفي: الدين الإسلامي في كليات اللاهوت، محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- الدر المنثور، السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- دراسات في القرآن الكريم، د. محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.
- دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م.
- رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، دار الصحيفة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى، ابن حزم، دار العروبة، مصر، ١٩٦٠م.
- الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجمع البحوث الإسلامية، دار السعادة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٢م.
- رسائل إلى عقل الغرب وضميره، د. عبد الصبور مرزوق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- السلام والحرب في الشريعة الإسلامية: دراسة مقارنة، د. محمود محمد الطنطاوي، د.م، د. ن، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- سلسلة مع القرآن الكريم، رؤى مستنيرة، إصدار المركز الثقافي بالمقاولين العرب، مصر.
- سيرة عمر بن الخطاب، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، د. محمد عمارة، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مكتبة فياض، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، مكتبة دار الدعوة، مصر، ط٦، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

- قصص الأنبياء، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.
- لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- لا يأتيه الباطل، د. محمد سيعد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- مجلة الإعجاز العلمي، مجلة يصدرها المجمع العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٢٤، جمادى الأولى، ١٤٢٧هـ.
- محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، د. ت.
- محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، عمر أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ترجمة: محمد عبد العظيم، دار القلم، الكويت، ط٥، ٢٠٠٣م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد بن محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- المرأة المسلمة، وهبي سليمان غاوجي، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٩٩٩م.
- المرأة بين الفقه والقانون، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط٦، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- المستشرقون والقرآن، إسماعيل سالم عبد العال، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السنة العاشرة، العدد ١٢٠، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- المستصفى في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- المعارف الكونية بين العلم والقرآن، د. منصور محمد حسب النبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام، د. حسني الجندي، دار النهضة العربية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

- مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، د. محمد بلتاجي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م.
- من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط١، ١٤١٧/ ١٩٩٦م.
- موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، عطية صقر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، د. أحمد مصطفى متولي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط ٤، ١٩٧٧م.
- نظرات شرعية في فكر منحرف، سليمان الخراشي، مكتبة التوحيد، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة حامد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد السابع

ج ١٢

شبهات حول عصمة القرآن وكماله